بدر الدين حامد الهاشمي

السُّودان بعيون غربية

مقالات مُترجمة



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : السُّودان بعيون غربية

المـــــؤلف : بدر الدين حامد الهاشمي

تصميم الغلاف: طلال الناير

رقم الإيداع : ٩٥٢٣

الطبعة الأولى ٢٠١٢



القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل
ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ _ ٢٧٨٧٧٥٧٤
Tokoboko_5@yahoo.com

الإهداء

إلى والدي...كما ربياني صغيرا

وإلى كل من علمتي حرفا

وإلى وطني الكبير وعائلتي الصغيرة...

محتويات الكتاب

بدر الدين الهاشمي: في مقام الاحتفاء بتاريخ قومنا

محمد المكي إبراهيم

قضيت سنة من عمري في خدمة الأمم المتحدة في وحدة الترجمة العربية وقد كانت بحق واحدة من أحفل أيامي بالمعرفة والتجارب إذ تعلمت في ذلك العام أقباسا مهمة عن فن الترجمة الرفيع أهم ما فيها كون الترجمة شأنا أعلى بكثير من مجرد الإلمام باللغة أو حتى إتقانها.

كان يقوم على القسم اثنان من ألمع نجوم ذلك المجال هما الأستاذ محمود السوقي الفلسطيني المنشأ والعالم السوداني الجليل خضر الطيب عبد الرازق الذي خلف محمودا في رئاسة القسم وإدارته عددا من السنين. وقد أدارا القسم بكفاءة واقتدار وقاما على تأسيسه وتشغيله وفقا للنظم المرعية في ذلك المجال. ولقد تعلمت خلال ذلك العام كثيرا مما كنت أجهل عن ذلك الفن النبيل وتأثرت بمكتسباتي الجديدة أبلغ التأثر فرحت أطبقها على الترجمات العربية التي تقع في يدي وهي - كما هو معروف- نزر يسير، وفي تلك المسابقات السرية التي كنت أجريها بيني وبين نفسي حاز قصب السبق مترجم شديد الاجتهاد اسمه بدر الدين الهاشمي.ومن مرة إلى الأخرى راح نفس الاسم يبرز في طليعة قائمتي للفائزين فأيقنت أنني إزاء ظاهرة من ظواهر النبوغ السوداني وأن أضعف الإيمان هو أن أتصل به معربا عن استحساني بل وإعجابي بما يقدم من الصنيع. وذلك دأب درجت عليه تجاه المثقفين السودانيين في شتى حقول الإبداع ويندر أن يظهر أثر متفوق لقلم سوداني دون أن أتصل بصاحبه معربا عن تقديري واستحساني. وهي عادة يمكن أن نستعير لها تعبير الشاعر المبدع محجوب شريف لتسميتها «رد الجميل» ففي زماني وجدت التشجيع من كثيرين من أبناء الوطن وأعرف حق المعرفة ما يتركه التشجيع في نفس من يتصدى للإبداع.

بادرت إلى الاتصال بالأستاذ بدر الدين معربا عن ذلك التقدير ولم أكن وقتها أعرف أنه أستاذ جامعي قدير له عدد من الأبحاث العلمية الرائدة التي يستشهد بها علماء ثقات كما يقوم بانتحالها علماء صغار النفوس من مختلف أرجاء آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.ومن جانبه لم يشأ أن يطلعني على شيء من ذلك إلى أن هدتني إليه الصدف والمصادر المستقلة.وإلى جانب علمه الرفيع اهتم هذا العالم بأمرين اثنين هما تاريخ السودان وفن الترجمة. فقد ظل يغوص في أعماق الكتب والمراجع باحثا عن الجديد من التواريخ والسير

المتعلقة بالسودان وقائما على ترجمتها إلى العربية لتكون في متناول أبناء الوطن في لغة صافية شديدة الوضوح.

ومن حرصه الشديد على سلامة النقل وأمانته كان البروفسور يشاورني بعض الأحيان في الكلمات المناسبة لنقل مصطلحات معينة من الإنجليزية إلى العربية وفي استكناه تعابير تاريخية أو فقهية ونقلها إلى لغة اليوم.وفي ذلك كنا نتفق أحيانا ونختلف بعض الأحيان عبر حوار مهذب لا يحرم أحدا من حريته في الاختيار، والآن لا أكاد أبصر اسم البروفسور في صحيفة أو دورية حتى يطوف بخاطري ذلك البيت من شعر أمير الشعراء الذي يقول فيه مفتخرا:

وأنا المحتفي بتاريخ قومي   من يصن مجد قومه صان عرضا

فارتفع بصون التاريخ إلى مصاف صيانة الأعراض وهي من قصيدته في وصف آثار الفراعين في قيلة وأبو سمبل والتي يقول في مطلعها :

أيها المنتحي بأسوان دارا   كالثريا تريد أن تنقضا

اخلع النعل واخفض الطرف   واخشعلا تحاول من آية الدهر غضا

والواقع أن الترجمة مهمة لمعرفة تاريخنا والوقوف على ما قال فينا الآخرون من قدح أو مدح ولكنها فوق ذلك مهمة لتقدمنا ونهضتنا ولحاقنا بركب العالم. ولا بد لنا من أجيال من مهرة المترجمين لننقل إلى لغتنا جزءا يسيرا من هذه الأكداس المكدسة من الأسفار والمجلدات التي وضعها علماء المشرق والمغرب وخزنوا فيها العلوم والمعارف الإنسانية التي يسرت لبلدانهم مسالك النهضة والارتقاء ، والبروفة وأمثاله من المشتغلين بالترجمة يضعون أقدامنا على الطريق الصحيح إلى تطوير العقل العربي وتزويده بالمعارف وطرائق التفكير، وها هو الآن يجمع لنا أشتاتا من ترجماته القيمة بين دفتي هذا الكتاب وهي في الغالب الأعم مختصة بتاريخ السودان وآراء الكاتبين في مشاهده ووقائعه التاريخية. وظني أنها عربون يقدمه الكاتب للقراء واعدا إياهم ولاشك بمزيد من العطاء خاصة وقد استقامت له أدواته من معرفة دقيقة باللغتين العربية والإنجليزية وسلامة منهجه في اختيار الآثار ، وأمانته الصارمة في نقلها مبتعدا عن التحوير والتبديل وتحريف المعاني.ونحن إذ نتقبل منه هذه الهدية الأولى نتطلع إلى عكوفه على ترجمة ما هو اكبر حجما من المصنفات التي وقف الجهل باللغات الأوربية حائلا بينها وبين الكافة من ذوي الثقافة العربية من أهل العلم في السودان.

أرجو لك أيها القارئ الكريم متعة ذهنية عالية في صحبة هذه الترجمات كما أدعو للعالم الجليل بالصحة والعافية وحسن القبول عند الناس ورب الناس.

بدر الدين الهاشمي نموذج مشرف للمهاجر السوداني

بقلم: أ. د. عبد الله حمدنا الله

لا تعجبني كتابات الأستاذ بدر الدين الهاشمي فحسب، بل يعجبني إضافة إلى ذلك اتجاهه الذي خطه لنفسه في الكتابة، منذ بدأت أقرأ له في صحيفة الأحداث، وهو اتجاه تفرد به عن كثير من السودانيين الذين يساكنونه الدنيا الجديدة، موضوعاً، وأسلوباً، وروحاً سائدة.

فقد اهتدى الأستاذ بدر الدين بعد أن فكر وقدر إلى الطريق الصحيح إلى النهضة، وأنه لن ينصلح حال المجتمع السوداني إلا بما صلحت به كل المجتمعات الإنسانية، وما صلحت إلا عن طريق الترجمة، فجعل وكدَه أن يبسط خبراته ومعارفه التي اكتسبها في مهاجره إلى القارئ في وطنه، عن طريق الترجمة فنقل – دون ضوضاء – إلى العربية، معارف متنوعة من العلوم الإنسانية، ظللنا نتابعها وندهش لهذا الذي لا يدركه الونى فينكسر، وظني أن هذا الصبر المضني لا يتأتى إلا لرجل صاحب مشروع نهضوي، يدرك به ما يريد لمجتمعه.

التاريخ يحدثنا أن الأمم العظيمة بلغت عظمتها بالترجمة، فالحضارة الإسلامية بلغت مجدها بعد تأسيس الخليفة المامون لدار الحكمة، كانت قبل ذلك لا تتجاوز نظم الشعر، والعلوم الدينية، واللغوية، إلا قليلاً، لكنها بعد الترجمة عرفت العلوم الإنسانية والطبيعية، وسامرت الفلك، وحادثت الطب والجغرافيا، واحتفظت بمنطقية الفلسفة اليونانية، لتصبح الطريق الذي عرفت به أوربا فيما بعد أرسطو.

قل مثل ذلك عن الحضارة الأوربية التي ترجمت تراث الأندلس، والحضارة العربية الحديثة التي نقل إليها الآباء الموارنة في الشام كنوزاً من المعارف الغربية، كما رفدها رفاعة رافع الطهطاوي بترجماته ومشاهداته من خلال ترجمة القانون الدستوري الفرنسي، وروايته دراري الأفلاك في من هي تليماك، التي نقلها عن رواية فرنسية، فضلاً عن كتابه الذي نقل فيه مشاهداته في باريس، وعنونه باسم (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) .

الأستاذ بدر الدين يسير في نفس طريق رواد الحضارات، وهو تيار معاكس لتيار

معاصر في عالمنا العربي، وفي السودان على وجه الخصوص، تيار لا يحفل بالترجمة، ولا يستطيع الصبر عليها، والإحصاءات على تدني الترجمة في عالمنا العربي مقارنة بأصغر الدول على حواف المدّ الحضاري، مفزعة، أما في السودان فأكثر فزعاً، ودلالة ذلك أننا أمة لا تحب أن تدرك ما حولها، ولا أن تعيش روح عصرها، همها – خاصة بعد تفجر البترول في المنطقة العربية – أن تعيش على منتجات الحضارة، لا أن تبني حضارة، وأن تكدس الأشياء إلى درجة أسماها الأستاذ مالك بن بني بالحضارة الشيئية، وأن تنام على هذا الخدر الحالم، الأمر الذي أدى إلى إهمال النقل عن اللغات الأخرى، مما يضاعف مسؤولية الواعين بوظيفة الترجمة في بناء الحضارات الإنسانية.

الأستاذ بدر الدين يسير أيضاً في اتجاه معاكس لاتجاه أكثر السودانيين الذين هاجروا إلى أمريكا، من الكتاب الذين نقرأ لهم في الصحافة السودانية، فأكثر هؤلاء ما خرجوا من السودان، ولا عاشوا في أمريكا، بل إن البعض يذهب إلى أن هؤلاء خرجوا بهمومهم وما استطاعوا أن يخرجوا منها هناك، وما استطاعوا أن يسبروا روح الحياة الأمريكية، وأن يفيدونا هنا بما اكتسبوه هناك، ولا نطالبهم مع بقية المهاجرين من الدول العربية بمحاولة التجديد الأدبي أو الفكري، كما فعلت الرابطة القلمية في نيويورك قبل تسعين عاماً، فقط نطالبهم بنقل الخبرات عن طريق الترجمة أو المشاهدات الذكية، فهذا أبقى من أن يكونوا المرايا التي نرى فيها ذات موضوعاتنا، ولغتنا المشاكسة التى تدعو إلى الإحباط أحياناً، ونخشى أن ننقلب على المرايا فنكسرها لبشاعتها، كما فعل دوريان جراي في قصة أوسكار وايلد المشهورة.

هناك قلة تشارك بدر الدين الاهتمام بالترجمة، ومن هؤلاء الأستاذ محمد على محمد صالح، الذي نشر مؤخراً ترجمته للوثائق الأمريكية في فترة مفصلية من مفاصل تاريخ السودان المعاصر، وقد أحدثت الترجمة ردود أفعال واسعة لاشتمالها على وقائع وأسماء أشخاص ما يزال بعضهم ناشطاً في الحياة السياسية السودانية، ونحمد له أنه ذكر الوقائع والأشخاص في صراحة، دون ترميز أو حذف، ويداخلنا شك عظيم في أنه ما كان يفعل ذلك لو كان في داخل السودان، لطبيعة مجتمعنا الذي يحب ستر من فضحه الله، لكن طبيعة الحياة الأمريكية بوضوحها لم تترك حرجاً للكاتب في ترجمة الوثائق بنصها.

ما يفعله أمثال هؤلاء الأساتذة يؤكد مبدأ دعونا له بالأمس، وندعو إليه اليوم، وهو أنه ما بالسياسة وحدها تقدم مجتمع، ولا بالكتابة في السياسة وحدها تقدم فكر، مجتمعنا – كله والحمد لله – تحول إلى سياسيين، ومعظم كتابنا تحولوا إلى كتاب سياسيين، السياسة أصبحت الحائط القصير الذي يستطيع كل أحد أن يتسلقه، مما أدى

إلى هجر أصحاب التخصصات تخصصاتهم، أو إلى عدم الإخلاص فيها، ولا نحتاج إلى برهان، فحياتنا السياسية تعج بالأطباء، والمهندسين، والزراعيين، والقانونيين، إلخ، الذين هجروا مجالاتهم التي كان من الممكن أن يبدعوا فيها ويفيدوا أوطانهم، لكن المرض الذي هنا هو نفسه المرض الذي هناك.

لا أعرف عن الأستاذ بدر الدين إلا اسمه، وترجماته، في صحيفة الأحداث، وكنت أظنه متخصصاً في العلوم الإنسانية أو اللغوية، وقد أحسن مصطفى البطل - إحساناً يجب له عندي محاولته تحريض أحد أبنائي ليقف معه ضدي - أحسن حين ألقى الضوء على بعض جوانب سيرته الذاتية، فعرفنا أنه متخصص في علم الأدوية ، وأستاذ في عدد من الجامعات المحترمة، ويمتاز بالتواضع العلمي، وتلك صفات تجعلنا نرجوه مواصلة جهوده في ترجمة عيون الثقافة الإنسانية، مع إعطاء الجانب العلمي الذي تخصص فيه حقه من الترجمة، خاصة في تخصصه الذي نحن في حاجة عظيمة إليه.

من حقك علينا أن نقول لك أحسنت، فمن لا يشكر الناس لا يشكر الله، ومن حقنا عليك أن ترفدنا بما أمدتك به الدنيا الجديدة من خبرات علمية وعملية، وما تفعله اليوم سيذكره لك التاريخ غداً، حين تصبح ترجماتك مصدراً لكثير من البحوث الرصينة.

عن صحيفة «الأحداث» الأربعاء ١١/١١/ ٢٠٠٩م.

تقديم

بقلم: عبد المنعم خليفة خوجلي

القارئ العزيز:

في هذا التقديم لكتاب الصديق البروفيسور بدر الدين الهاشمي، رأيت أن أبدأ بنبذة مختصرة عن علوم الترجمة ودورها الثقافي والحضاري، خاصة وأن أساس الكتاب الذي بين يديك هو موضوعات كتبت في الأصل باللغة الإنجليزية وتمت ترجمتها إلى اللغة العربية.

مما هو معروف عن عصرنا الحاضر - عصر العولمة - أنه يتسم بالترابط الوثيق بين مختلف الشعوب التي تعيش حضارة كونية تكاد تكون واحدة، حتى أصبح العالم يوصف بأنه أصبح قرية صغيرة، وذلك بفضل ثورة الاتصالات والثورة المعرفية. ولقد أسهمت الترجمة بفعالية في خلق ذلك الترابط – خاصة مع ما شهدته علومها وتقنياتها من تطور.

وإذا ما رجعنا إلى تاريخ الحضارات، فأننا نلمس بجلاء دور الترجمة في تعزيز التمازج بين الثقافات. فعلى سبيل المثال نجد أن النهضة الثقافية التي ازدهرت في العصر العباسي تعود بشكل رئيس إلى العناية الكبيرة التي حظيت بها الترجمة. حيث تأسست دار الحكمة ببغداد، وتم تزويدها بالكتب التي نقلت إليها من آسيا الوسطى والقسطنطينية؛ وترجمت كتب الفلك والطب والمنطق والفلسفة والطبيعة من اللغات اليونانية والسريانية إلى اللغة العربية. كما ترجمت بالمثل العديد من كتب التراث العربي والإسلامي إلى تلك اللغات.

واليوم - وبفضل الترجمة - يقرأ الناس في مختلف أرجاء المعمورة لتولستوي، وناظم حكمت وديكنز، ودانتي، وماركيز، وبابلو نيرودا، وبرشت، وفراسواز ساجان، وطاغور، وهيوز... بيسر ودون الحاجة لتعلم كلمة واحدة من اللغات الأصلية التي كتب بها هؤلاء المبدعون.

يقودنا ذلك للحديث عن ما يتمتع به مؤلف هذا الكتاب من وعي بالدور الإيجابي الذي يمكن أن تلعبه الترجمة في نهضة بلادنا. فلقد ظل المؤلف لسنوات يبذل جهدا

فكريا متصلاً، ويوجه طاقة واهتماماً كبيرين لترجمة فيض زاخر من الكتب والمقالات، دأب على نشرها بشكل راتب على صفحات جريدة (الأحداث)، وعلى بعض المنابر الإسفيرية؛ وتمثل ترجماته منتخبات منتقاة من مواد أدبية وتاريخية وعلمية لكتاب مشهورين، كتبوها في الأصل باللغة الإنجليزية. وبنقله تلك الموضوعات إلى اللغة العربية يقدم المؤلف خدمة جليلة للقراء؛ وذلك لأن المواد الثرية التي تضمنتها تلك الموضوعات ما كانت ستتاح للكثيرين، نظراً لضآلة نسبة من يجيدون اللغة الإنجليزية، أو يتابعون ما يكتب بها. وبنقله للعربية ذلك الكم الكبير من الموضوعات، مكننا المترجم من جني ثمار يانعة، قدمها لنا على طبق من ذهب، وفتح أمامنا أبوابًا مشرعة من الروائع، أهداها لنا ملخصة ومستخلصة، وقدمها لنا في كبسولة.

ربما يتبادر إلى أذهان البعض السؤال حول لماذا يبذل ذلك المترجم المثابر كل هذا الجهد، ويولي هذا النشاط كل ذلك الاهتمام الفائق؟ بمعرفتي اللصيقة وصداقتي للبروفيسور بدر الدين الهاشمي - والتي أعتز بها - أجيب على ذلك السؤال بأن منطلقه ليس هو مجرد الاستمتاع بالترف الذهني، ولا ممارسته لهواية تدخل الرضاء والسرور على نفسه، وتعزز من ثقته بمقدراته اللغوية. بل إن المنطلق الحقيقي من وراء تقديمه هذا الفيض الدافق من العطاء هو الإسهام في قضية البعث الثقافي، من خلال التزامه الأصيل بالحداثة والاستنارة. وتلك لعمري هي القضية الجوهرية والهامة التي تمثل المحور والمرتكز الرئيس للمستقبل الذي تنشده لوطننا في ظل هذه الظروف التاريخية العصيبة والمعقدة. ويستطيع كل من يطلع على أي من موضوعات هذا الكتاب أن يلمس أثر الحداثة والاستنارة في ما ظل ينتقيه لنا المترجم بعناية، وما يقدمه لنا من مواد تاريخية وثقافية مشبعة، وما يزودنا به من طرائف.

هكذا يوظف هذا المثقف الملتزم ما يتمتع به من أفق عريض واطلاع واسع لتأدية رسالة هامة في هذه الظروف المصيرية التي تمر بها بلادنا، والتي تستلزم من الجميع المعايشة بوعي لقضايا الهوية والتنمية والنهضة.

يلاحظ من نهج المترجم أنه يلزم نفسه بعامود أخلاقي صارم، جوهره أمانة الكلمة المنقولة، والعناية ليس فقط بحرفية النص الأصلي، بل بروحه كذلك. فهو يدرك أن اختيار كلمة ما دون سواها قد يؤثر على القارئ المتلقي، ويلقي ظلالاً على ما يرمي إليه كاتب النص الأصلي. وعندما لا يتفق ما هو منقول من الأصل مع رأيه الشخصي، نجده يبدي رأيه بشكل مستقل وأمين، بحيث يستبين القارئ بوضوح ما عبر عنه الكاتب الأصلي، وما رآه المترجم. وبمثل اهتمامه بالجوهر، نجده أيضاً يهتم بأن

تأتي كتاباته سليمة من ناحية الشكل كذلك، حيث أنه يحرص على التمحيص، وعلى المراجعة الإملائية والنحوية الدقيقة لكل ما يخطه قلمه.

ينتهج المؤلف في هذا الكتاب - وفي ترجماته العديدة الأخرى كذلك - أسلوباً سلساً ينم عن تذوق رفيع للأصول التي ينقلها. وتستطيع أيها القارئ العزيز أن تلاحظ أن الكتاب الذي بين يديك لا يحتوي على مجرد ترجمات، بل يشتمل في مواقع كثيرة على تحليل وتعليقات نابعة من الأفق الفكري والثقافي العريض للمترجم.

الترجمة عند مؤلف هذا الكتاب تعني أكثر من مجرد رص الكلمات، والتوصل إلى المقابل للكلمة في اللغة المنقول إليها؛ كما أنها في نظره لا تتمثل فقط في تجميع الكلمات المفردة أو العبارات المجزأة ، فما أعرفه عن صاحب هذا الكتاب أنه يحرص على الإلمام الكافي بخلفيات أي من الموضوعات التي يترجمها. كذلك أعرف عنه أنه يكثر من تنقيح مسودات ما يكتب، ويراجعها مع الثقاة المتخصصين؛ وأذكر هنا على سبيل المثال مراجعته للجوانب ذات الصلة بالتاريخ مع زميله وصديقه البروفيسور إبراهيم الزين صغيرون أستاذ التاريخ بجامعة السلطان قابوس. كل ذلك من أجل أن تعود المادة التي يترجمها على القراء بالفائدة التي ينشدها.

ينتقي المؤلف من الموضوعات ما هو محفز على التفكير والتأمل؛ وبستانه حافل دوماً بثمرات مختلف ألوانها. ومما يزيد من متعة الإطلاع، أن الكتاب الذين ينقل عنهم متنوعين، ومن جنسيات ومشارب ثقافية متنوعة.

لقد اختار المؤلف للنشر في هذا الكتاب باقة متجانسة من موضوعات يجمع بينها أنها كتابات عن السودان بأقلام أجنبية - ويتركز معظمها على الجانب التاريخي. ولعل المترجم أراد أن يوفر لنا منظوراً جديدا ومختلفاً لواقعنا وتاريخنا بعيداً عن رؤيتنا الذاتية التقليدية، وقناعاتنا المسلم بها. إن بعض الكتابات الأجنبية عن السودان تتميز بالجدية والعمق والموضوعية والحياد. غير أن بعضها الآخر لا يخلو من الغرض والتعالي وعدم احترام ثقافات شعبنا. ويستطيع المتمعن في موضوعات الكتاب أن يلمس نماذج لكلا هذين النوعين من الكتابات، مع تعليقات وتحليل نقدي من المؤلف.

لا يهدف المؤلف من التركيز الخاص الذي يوجهه للتاريخ، فقط إلى إثارة الحنين للماضي؛ بل هو يرى أن من المفيد أن تكون المادة التاريخية المشتمل عليها الكتاب- بما تحمله من رؤية غير تقليدية محفزة على التفكير- متاحة لمن يرغب في تناولها بالتعليق. كما يهدف كذلك إلى أن يكون كتابه هذا مساهمة في تنوير الأجيال الحديثة بشكل خاص وتعريفهم بالتاريخ، وإن كان من منظور غير سوداني.

إن من المثير للإعجاب والدهشة أنه على الرغم من ممارسة المؤلف للترجمة بدرجة عالية من الاحترافية، وإجادته لهذا الفن بالمستوى الذي أصبح له فيه أسلوباً مميزاً، إلا أنه يلج إلى هذا الميدان من باب الهواية! حيث أن تخصصه الأصلي بعيد تماماً عن علوم اللغات وآدابها وفنون النقل فيما بينها. وللتعرف على المفارقة المتمثلة في البون الشاسع بين تخصصه العلمي الأصلي، وبين ما يقوم به من ترجمات ثقافية متنوعة ، أقدم هنا نبذة تعريفية موجزة عن خلفية المؤلف العلمية.

المؤلف هو البروفيسور بدر الدين حامد الهاشمي.. عالم جليل، يحمل درجة الدكتوراه في علوم الأدوية من جامعة أدنبرة، ويعمل محاضراً في جامعة السلطان قابوس بمسقط. وهو مستغرق في الاضطلاع بالأبحاث العلمية في مختلف جوانب العلوم الإحيائية، والإشراف على طلاب الدراسات العليا الذين يعدون لنيل درجات الماجستير والدكتوراه. كما يقوم بتدريس علوم الصيدلة والسميات لطلاب الدراسات العليا في كليات الطب، وطب الأسنان، والتكنولوجيا الإحيائية الطبية، والصيدلة والعلوم البيطرية.

وهو يتمتع بعضوية عدد من الجمعيات والاتحادات المهنية العالمية المشهورة، وحائز على جوائز بحثية عديدة؛ كما يقوم بأعمال استشارية لمجلات علمية عالمية، وله العديد من المؤلفات والأوراق العلمية المنشورة.

ملاحظة أخرى مثيرة للإعجاب والدهشة أيضاً، هي أنه برغم هذه السيرة الأكاديمية والعلمية الحافلة، إلا أن جميع موضوعاته الثرة في مجال الترجمة - والمنشورة عبر المنابر الإعلامية المختلفة - لا تحمل سوى اسمه المجرد - بدر الدين حامد الهاشمي - هكذا دون أي تزويق أو مكياج!!.. ذلك هو ما يعرف بتواضع العلماء.

القارئ العزيز

بعد محاولتي للتقديم لهذا الكتاب الشيق ومؤلفه، أتمنى لك سياحة ممتعة ومفيدة عبر صفحاته.

عبد المنعم خليفة خوجلي

مسقط – سلطنة عمان

يناير ٢٠١١م

مقدمة المُترجم

رسخت في ذاكرتي جملة بدأ بها صلاح أحمد إبراهيم شاعر «غضبة الهبباي» ديوانه يقول فيها: «أنا أمجُّ التقديم، فمقدمة يدبجها المؤلف أو صديق المؤلف أو راعيه، هي في نظري القصير إما تسويغ لخطأ أو تزيين لقصور، أو ثناء يبتز ذكاء القارئ. لهذا جاءت مجموعتي الأولى «غابة الأبنوس» بلا مقدمة تحلّي جيدها العاطل، ولم تقاس مركب نقص من جراء ذلك، ولعل قارئها قد حمد لها تقشفها... على أن بضعة خواطر قد عنت لي وأنا أخط هذه المجموعة رأيت أن أطلع عليها القارئ لو تكرم بقراءتها...» وكنت أسأل نفسي حينها: لم يقدم ذلك الشاعر المعظيم لديوانه إن كان يمج التقديم أصلا ويسميها «بضعة خواطر»؟

على عكس ما يقول به شاعرنا فإنني أحب قراءة مقدمات الكتب التي يدبجها المؤلفون وأصدقاؤهم ورعاتهم كذلك؛ ففي معظمها مفتاح شخصية الكاتب، وبعض من أفكاره وروحه ورؤاه. وكنا ونحن في عهد التلمذة، نقرأ مسرحيات جورج بيرناد شو (وغيره) ولا نكاد نطيق صبرا على مقدماته الطويلة، حتى اكتشفنا أهمية تلك المقدمات فيما أقبل من أيام.

هذه الترجمات المتواضعة التي بين يديك أيها القارئ هي لمقالات وصفحات بعضها من كتب قديمة، ويتناول معظمها أطرافا مختلفة من الحياة الاجتماعية السودانية في زمان مضى (مثل مقال «أيامي في الجريف»)، وتاريخ جالية أجنبية كان لها السودان دور وأي دور(مثل المقالات عن الأغاريق في السودان)، ومقالات كتبها أو كتبت عن شخصيات بريطانية لعبت دورا بالغ الأهمية في تاريخ السودان، ولا يزال أثر بعضها باقيا إلى اليوم.

كثيرة هي المقولات عن التاريخ، وأهمية تدارسه والإحاطة بدقائقه والإفادة منها. فهنالك القول المشهور عن فولتير بأن التاريخ ما هو إلا سجل لجرائم وحماقات ونكبات الإنسانية، وقول نابليون الشهير بأن التاريخ هو رواية أحداث الماضي كما اتفق الناس على تسجيلها. رأيت في كثير مما أقرأ (وأترجم) تصديقا لبعض تلك المقولات، لذا كان لتعلقي الشخصي وشغفي بتاريخ السودان (خاصة في عهود الحكم التركي والمهدوي والثنائي) أثر كبير في انتقائي لهذه المقالات المترجمة. ورغم أن هذه

المقالات لا تهدف لأن تكون كتابا في التاريخ (بالمعنى الأكاديمي)، وأنى لها؟، فأنا للأسف لست من الدارسين أو الباحثين في مجال التاريخ، فهذا باب له نساؤه ورجاله، وإنما أنا – منذ سنوات خلت– أهوى التنقيب في ما كتبه الغربيون عن السودان في مختلف المجالات، خاصة التاريخية منها.

ولهذه الهواية علاقة بالغرب أيضا، وقصة أرويها هنا بإيجاز. لقد كنا ومنذ أن اجتزنا عتبة المدرسة الوسطي نغشى مكتبة المجلس البريطاني بالخرطوم شرق (وكانت حينها في شارع البرلمان)، ونقلب بكثير من الإعجاب في صفحات كتب قديمة قيمة يعود بعضها إلى بدايات القرن العشرين، ونتأمل في صورها المؤثرة؛ فلعلها كانت المرة الأولى التي نرى فيها صورا لمحمود ود أحمد في أتبرا، والخليفة عبد الله مقتولا في أم دبيكرات، وأسرى الخليفة الغربيين مقيدين بالسلاسل الطوال. لم نكن نرى من ذلك شيئا في كتب تاريخنا المقرر في المدارس التي درسنا فيها تاريخا «جامدا» لا أذكر منه غير أن محمد علي باشا «فتح» السودان من أجل المال والرجال (هكذا)، وغير رسالة مؤتمر الخريجين التي سطرها إبراهيم أحمد نيابة عن شباب مؤتمر الخريجين للحاكم العام والتي ختمها بـ «خادمكم المطيع». كانت الكتب التاريخية القديمة في تلك المكتبة الغنية التي كنا نحج إليها عصر كل خميس مشيا على الأقدام من حي «السكة حديد» كانت هي مصدر شغفي الأول بما كتبه الغربيون عن بلادنا. وقد تعجب عندما ينشغل رجل درس لاحقا العلوم والطب البيطري، ثم تخصص في علم الأدوية، ويكسب عيشه من تدريسه، والبحث في خواص الأدوية وسميتها، بترجمة موضوعات ليس بينها وبين ما درسه أو يدرسه أدنى نسب أو أقل صلة.

بدأ شغفي بالترجمة في مرحلة الدراسة الثانوية في نهايات الستينيات عندما وقعت على عدد من مجلة «هنا لندن» التي كانت توزعها هيئة الإذاعة البريطانية ترويجا لبرامجها، وكانت تحوي أيضا في كل عدد قطعة باللغة الإنجليزية معروضة للتدرب على الترجمة، وفيها أيضا (في صفحة أخرى) ترجمة «نموذجية» لتلك القطعة كي تتخذ مثالا لما ينبغي أن تكون عليه الترجمة العربية لتلك القطعة. اشتركت في تلك المجلة، وكانت تبعث لي عن طريق بريد المدرسة أسبوعيا دون مقابل (فذلك كان عهد رخاء غير مسبوق)، وكنت أجرب قلمي اليافع على ترجمة تلك القطع الإنجليزية، وأصاب بخيبة أمل كبيرة وإحباط عظيم بعد مقارنة محاولاتي المتواضعة بتلك الترجمات المثالية. وكانت تلك الأيام أيضا هي أيام مداومتي على مشاهدة أفلام سينما «الخرطوم غرب» بعد أن كبرت وشببت عن طوق أفلام سينما «الخرطوم جنوب» المصرية. وبدأنا – مع ثلة صالحة من الصحاب (صار أحدهم – للغرابة– فيما بعد مترجما محترفا)، نلاحظ

باهتمام ترجمات ما ينطق به الممثلون في الأفلام الغربية، ونسخر من غرابتها وطرافتها، بل ومجافاتها أحيانا للمعاني المقصودة. ثم مرت الأيام وجرت مياه كثيرة تحت الجسر – كما جرى التعبير الشائع- والتحقت بجامعة خليجية تدرس علومها باللغة العربية، وتشجع أساتذتها على ترجمة أمهات الكتب الأمريكية والبريطانية المتخصصة إلى العربية. فطرقت باب الترجمة العلمية، وقمت منفردا بترجمة كتابين، وكتابا آخر بالاشتراك مع زميلين آخرين. فتحت «مجازفات» تلك الترجمات شهيتي للعودة بشوق قديم لترجمة بعض القصص القصيرة والمقالات التي أحسبها قد تهم القارئ السوداني، ووجدت في موقع «سودانايل» منفذا ميسرا للنشر، إلى أن ظهرت صحيفة «الأحداث»، فبدأت فيها نشر بعض من ترجماتي، ونشرت فيها أيضا ترجمة لكتاب أمريكي عن ثورة أكتوبر كان بروفيسور عبد الله على إبراهيم قد زكاه لي للترجمة. تجمعت عندي من بعد ذلك مجموعة «طيبة؟» من ما كنت قد نشرته خلال العقد الماضي في «سودانايل» و«الأحداث» ومؤخرا موقع «سودان راي»، ورأيت، بناء على نصيحة بعض الأصدقاء أن أجمعها بين دفتي كتاب لتتسع دائرة من يقرأونها، وقد يجدون فيها قليلا من الفائدة، وربما شيئا من المتعة! من يدري؟

لابد لي من أن أذكر هنا بكل الشكر والعرفان كل الذين أسدوا لي – عند اختيار وكتابة هذه المقالات المترجمة – خدماتهم الجليلة في مجال اللغة والتاريخ، أو اقتراح المواضيع وغير ذلك. وأخص بالذكر بروفيسور إبراهيم الزين صغيرون، والأستاذ عبد المنعم خليفة، والشاعر محمد المكي إبراهيم، والأستاذ خالد بابكر، وراعية موقع «سودان راي» الدكتورة حنينة، وكل الصحاب المنتشرين في قارات هذا العالم العريض الذين جمعتني بهم الشبكة العنكبوتية، وصادقتهم وشاركتهم وشاركوني الأتراح والأفراح والاهتمامات والهوايات دون أن تقع عيني على كثير منهم. والشكر والعرفان أيضا لكل من تكرم بالكتابة عني وعن ترجماتي (واثنان منهم لم يرياني قط من قبل). ولابد لي في الختام من أن أشكر زوجتي وأفراد عائلتي على تشجيعهم المعنوي لي وهم في مهجرهم البعيد.

والله من وراء القصد

بدر الدين حامد الهاشمي

حول كتاب «صفوة الفيلق الأسود» لمؤلفيه ريتشارد هيل وبيتر هوق

جيفري جيدش

تقديم: نشر الدكتور جيفري جيدش من جامعة أريزونا الحكومية عرضا لكتاب «صفوة الفيلق الأسود» لمؤلفيه ريتشارد هل وبيتير هوق وذلك في مجلة تاريخ أفريقيا في أغسطس من عام ١٩٩٧م. السطور التالية هي محاولة لترجمة وتلخيص بعضا مما جاء في ذلك العرض.

يبحث كتاب «صفوة الفيلق الأسود» والذي صدر في عام ١٩٩٥م في ذلك الحدث الفريد في نوعه، والذي شارك في صنع أحداثه جنود سودانيون مسلمون في حرب شنها الإمبراطور الفرنسي لويس نابليون مساندة لأرشدوق النمسا ضد الجمهوريين في المكسيك. يعتبر هذا الكتاب العالي التجويد هو الوحيد باللغة الإنجليزية الذي يعالج تاريخ فيلق الصفوة الأسود، وهي وحدة الجنود الأفارقة الوحيد من غير أبناء المستعمرات والتي قيض لها أن تحارب في نصف الكرة الغربي. يساهم هذا الكتاب مساهمة مقدرة في إضافة معلومات قيمة عن التاريخ الجغرافي للسودان المصري قبل الحكم الثنائي، ويعد كنزا غنيا بالمعلومات والتفاصيل، وسيبقى مرجعا لا غنى عنه لمن له/ لها اهتمام ببحث موضوع «الاسترقاق العسكري الإسلامي المؤسسي» في سنينه الأخيرة.

للمؤلفين ريتشارد هيل وبيتر هوق معرفة وثيقة بالسودان، إذ كانا قد عملا ردحا من الزمن كموظفين في خدمة حكومة السودان، فقد عمل ريتشارد هيل (١٩٠١ – ١٩٩٦م) موظفا في السكة حديد في الفترة ما بين عامي ١٩٢٧ – ١٩٤٥م، بينما عمل بيتر هوق في السلك السياسي من عام ١٩٣٥ إلى ١٩٥٥م. يعد ريتشارد هيل في أوساط المؤرخين السودانيين من أهم «الآباء المؤسسين» لتاريخ السودان الحديث، وكتابيه «ببيلوغرافيا السودان»الصادر في عام ١٩٣٥م، و«معجم الشخصيات في السودان الإنجليزي المصري» الصادر في ١٩٥١م يعدان من أهم الكتب التي لطالما اعتمد عليها دارسو تاريخ السودان، وما انفكوا يفعلون. وبالإضافة لكتبه ومقالاته

الكثيرة (انظر إن شئت إلى قائمة بكل مقالاته في الموقع الإليكتروني http://www.smi.uib.no/sa/08/8Hill.pdf المترجم)، فلقد عمل الرجل بالتدريس في ثلاث قارات، وأسس أرشيفا للسودان في جامعة درام (دراهام) بإنجلترا. تم نشر كتاب «صفوة الفيلق الأسود» عند بلوغ ريتشارد هيل عامه الخامس والتسعين، وكان آخر كتبه.

لقد بدأت سلسلة الأحداث التي ساهمت في جلب الجنود السودانيين للمكسيك بفكرة جنونية خطرت على نابليون الثالث إمبراطور فرنسا، والذي تميزت فترة حكمه بمحاولة استعادة مجد فرنسا الآفل وسط الدول (الغربية). تدخل ذلك الإمبراطور وبصورة مباشرة ونشطة في السياسة المكسيكية في الفترة بين عامي ١٨٦١ و١٨٦٧م في فترة حرجة من التاريخ المكسيكي عرفت بمرحلة «الإصلاح». كان الإمبراطور يؤمل في أن ينشئ «رابطة لاتينية كاثوليكية» لمستعمرات البرتغال وإسبانيا السابقة يكون مركزها في باريس، وتكون المكسيك عنصر تلك الرابطة الأول في نصف العالم الغربي. استغل الإمبراطور الفرنسي فرصة إعلان رئيس المكسيك بنيتو جاريز قرارا رسميا بإعلان تأجيل دفع الديون المستحقة علي بلاده لمدة عامين، فوجدها ذريعة مواتية لغزو المكسيك وزعزعة استقرارها مستثمرا سخط بعض فئات المجتمع المكسيكي على حكومته، وخطط لقلب نظام الحكم وتنصيب حكومة عميلة موالية له.

حل الجيش الفرنسي على أرض فيراكيز المكسيكية، وزحف جنوده نحو المكسيك وافلحوا في إزاحة بنيتو جاريز عن سدة الحكم، وأعلنت قيام إمبراطورية جديدة في المكسيك وعينت أرشيدوق النمسا ماكسميلان إمبراطورا عليها وذلك في ١٨٦٤م. كانت مشاركة فرقة مسلمة من حليف إفريقي لفرنسا في حربها في المكسيك مثار تعجب المراقبين، وعدها الكثيرون فصلا غريبا في فصول العلاقات الأوربية الأميركية في منتصف القرن التاسع عشر. ولما كانت حكومة بنتيو جتريز تحظى بتأييد أغلبية الشعب المكسيكي، فلقد بدا جليا صعوبة سحب القوات الفرنسية والتي كانت تقع دوما تحت رحمة تهديد القوات الجمهورية المكسيكية وقاعدة الإمداد الرئيسة في فيركيرز. كان خط الإمداد ذاك يمر في طريقه على ساحل الكاريبي ويمر عبر منطقة موبوءة بمرض الحمى الصفراء. كان ذلك مدعاة للتفكير في جلب قوات تستطيع التعايش والتكيف والعمل تحت تلك الظروف البيئية السيئة. وبما أنه كان من الشائع وسط الأوربيين أن «الأفارقة» أشد احتمالا من غيرهم للأمراض الاستوائية فقد طلب نابليون الثالث في نهاية عام ١٨٦٢م من حاكم مصر محمد سعيد باشا أن يمده بفوج من جنوده. على الرغم من أن ذلك الباشا كان فرنسي الهوى، إلا أنه وعوامل

دبلوماسية وسياسية متداخلة ومعقدة لم يلب كامل ما طلبه منه بإمبراطور، بل أعطاه ثلث مطالبه، وأرسل إليه كتيبة سودانية مكونة من أربعة سرايا من الفونج التاسع عشر إلى المكسيك.

غادرت الكتيبة السودانية والمكونة من ٤٤٦ ضابطا وجنديا مع مترجم مدني واحد ميناء الإسكندرية على ظهر سفينة فرنسية في يناير ١٨٦٣م. مات منهم خمس رجال في عرض المحيط الأطلنطي، ومات عدد آخر عند وصولهم للأراضي المكسيكية بسبب حمى غامضة لم تكن هي الحمى الصفراء بينما فقد آخرون حياتهم لأسباب متنوعة خلال فترة التأقلم. عند تسلم الرجال لمهامهم في «الأراضي الحارة» كان عدد الرجال قد تقلص إلى نحو ٤٠٠.

كان النطاق الجغرافي الذي طلب من الجند العمل فيه محصورا، بيد أنهم قاموا بتنفيذ الكثير من العمليات في مناطق مختلفة من المكسيك، وكانت مهمتهم تتلخص في حراسة خط السكة حديد الذي لم يكتمل بين فراكيرز والعاصمة المكسيكية، والعمل كحراس للأمن داخل القطارات. كان السودانيون يشاركون أيضا مع القوات الفرنسية والقوات المتحالفة معها في صد حرب العصابات التي كان المكسيكيون يقومون بها. لم تحارب القوات السودانية في المكسيك كوحدة واحدة أبدا، بل حاربوا في شكل مجموعات صغيرة أو كأفراد أو ضمن القوات الأوربية التي كانت تحت إمرة القادة الفرنسية.

سرعان ما اكتسب الجنود السودانيون سمعة طيبة جدا في أوساط الحلفاء والأعداء على حد سواء، وكانوا في كل مرة يلتحمون فيها مع العدو يكبدونه أفدح الخسائر ويخرجون بأقل الخسائر حتى وإن كان أعداؤهم الجمهوريون يفوقونهم عدة وعتادا. ومنذ أول معركة يخوضونها دفاعا عن خط الإمداد الحديدي مرورا بالكمين «شبه الكارثي» في الثاني من فبراير ١٨٦٥م، إلى حين انسحابهم كآخر الوحدات الفرنسية المغادرة للمكسيك في مارس ١٨٦٧م أبرز السودانيون قوة وإقداما وبسالة نادرة في ساحة الحرب، وإجادة لاستعمال الأسلحة، مع سلوك عسكري غاية في الانضباط. آب إلى الإسكندرية بعد أربع سنوات من القتال الضاري ٣٢١ سودانيا (من أصل ٤٤٧)، قضى منهم ٤٨ رجلا في ساحة الوغى و٦٤ بسبب الأمراض. أثبت السودانيون بالفعل أنهم مقاومون للحمى الصفراء، إذ لم يمت منهم بسببها سوى جندي واحد، بيد أن بعضهم مات بسبب أمراض أخرى.

تابع المؤلفان في كتابهما بدقة مسيرة حياة من بقي من أولئك الجند عند أوبتهم

للسودان. فبعد أن أقام الفرنسيون المهرجانات على شرفهم في باريس أعيدوا على دفعات إلى مصر حيث تمت ترقيتهم وإعادة توزيعهم على مختلف الوحدات حيث كان المصريون يؤملون أن ينقل أولئك الجند معارفهم الجديدة التي اكتسبوها من الفرنسيين إلى «النظام الجديد» الذي كان قد بدأ تطبيقه.

لقد بلغ من حرص المؤلفين على التوثيق أن قاما بالكتابة المفصلة عن كل واحد من الجنود والضباط السودانيين في المكسيك، وتحققا من ما فعله كل واحد منهم بعد انقضاء الحرب، ووجدا أن بعضهم لعب دورا شخصيا بارزا في أحداث مهمة لاحقة في تاريخ السودان، بينما انزوت قلة قليلة منهم في زوايا النسيان. حارب بعض أولئك الجند في أثيوبيا في سبعينيات القرن التاسع عشر، بينما شارك بعضهم في المهدي، وحارب آخرون ضده، وانضم البعض الآخر للجيش الإنجليزي المصري عند إعادة فتح السودان. ترقى أحدهم (وهو علي جفون) حتى بلغ رتبة بمباشي (رائد)، وشهد معركة فشودة مع كتشنر.

لم يدع الكاتب شاردة ولا واردة في ما يتعلق بتفاصيل الأمور العسكرية المتعلقة بتلك الحملة إلا وذكرها، ووثق لتنظيم الحملة وامدداتها وطرق نقلها وتحركاتها، بل وأحصى طرق النظافة الشخصية والمرتبات والزي العسكري والمعدات التي كانت بحوزة أولئك الجنود. كانت الروح المعنوية لأولئك الجنود كما ذكر الكاتبان عالية جدا رغم ظروفهم التعيسة التي أخذتهم من ديار ألفوها لمجتمع غريب عليهم، والمضايقات العنصرية والثقافية والدينية التي كانوا يلقونها حتى من حلفائهم. كان المكسيك يصفونهم بالوحشية وحب الانتقام الأعمى وبعدم إظهار أي قدرة من الشفقة أو الرحمة بالعدو. وقدم المؤلفان تفسيرا وتبريرا لاتهامات المكسيكيين بأن ذلك السلوك من الجنود السودانيين متسق تماما مع أخلاقيات الحرب عند المسلمين الأفارقة.

يكمن ضعف الكتاب الأكبر في معالجته المبتسرة لموضوع :الاسترقاق العسكري المؤسس:. يصر المؤلفان على أن «الاسترقاق العسكري» في الإسلام هو موضوع أو فكرة (theme) . الكتاب برمته، بيد أن المؤلفين لم يعالجا موضوع «الاسترقاق العسكري المؤسس» إلا معالجة سطحية، وفشلا في وضع أي إطار نظري ايدولوجي لحالة الجنود السودانيين. هل كان أولئك الجند مثالا صارخا على «الاسترقاق العسكري» المصري؟ وهل يختلف ذلك الاسترقاق عن الاسترقاق العسكري والمقنن في أماكن أخرى من العالم الإسلامي؟ لم يتطرق الكاتبان بتفصيل إجابات على مثل هذا النوع من الأسئلة.

لقد كان الاسترقاق العسكري الإسلامي «استرقاقا حقيقيا» ولكنه كان فريدا في نوعه. لقد كان الرجال السودانيون المشاركون في الحرب في المكسيك في مرحلة من مراحل حياتهم أرقاء تم اصطيادهم أو تسليمهم للحكومة المصرية. ولم يحرروا إلا بعد أن قبلوا الدخول في الجيش المصري وأسلموا من بعد ذلك. ورغم ذلك فإن وضعهم ك «عبيد» لم يتغير رغم «قشرة» الاحترام والمهابة التي كانوا يلقونها. أفلح المؤلفان في تصوير الجنود الأرقاء كمجموعة مختارة من أفراد المجتمع السوداني شديدة الارتباط بالحكومة المصرية والتي أسبغت عليهم كثيرا من الفرص المهنية، بيد أنهما فشلا في وضع الكتيبة السودانية في سياق مقارن أشمل. يتوجب على القارئ للكتاب أن يتعرف – من مصادر أخرى – على قواعد الإسلام الحاكمة للاسترقاق العسكري. ذكر المؤلفان أن أولئك الجند قد تم تحريرهما عند انضمامهم للجيش المصري ليتحرروا من وصمة الرق، وكتب عليهم بعدئذ أن يظلوا في الخدمة العسكرية حتى انتهاء آجالهم، غير أن العتق من الاسترقاق العسكري الإسلامي ليس أمرا مألوفا، ومساواة هذا النوع من الاسترقاق بالتجنيد الإلزامي طوال الحياة أمر فيه كثير من التبسيط لعادة متأصلة ليس لها من نظير في التاريخ.

رصدت بعض الكتابات الفرنسية والمكسيكية جملة من الانتهاكات والفظائع التي ارتكبها الجنود السودانيون في المكسيك، وجل هذه الكتابات باللغة الفرنسية أو الإسبانية، وليس من عمل منشور باللغة الإنجليزية يصف تلك الحملة سوى ورقة كتبها كيرك في مجلة «السودان في مدونات ومذكرات» في عام ١٩٤١م صفحة ١١٣ – ١٣٠.

ختام، إن غنى الكتاب بالتفاصيل الدقيقة يبرز للعيان حياة المحارب المسلم العادي، وذلك بوضوح ودقة قلما تجد لها من نظير.



تنازع القوانين

ريتشارد هل وبيتر هوق

من كتاب« فيلق الصفوة السوداء»

It is not worthwhile to try to keep history from repeating itself, for man's character will always make the preventing of the repetitions impossible. *Mark Twain*

تقديم: السطور التالية محاولة لترجمة جزء يسير من كتاب ريتشارد هل وبيتر هوق عن تاريخ «ما أهمله التاريخ» من مساهمات الجنود السودانيين في حرب دفعوا لها دفعا من قبل حكام مصر الأتراك في منتصف القرن التاسع عشر، ليحلوا محل الجنود الفرنسيين الذين حصدتهم الحمى الصفراء في المكسيك، حيث أبحر سرا (وبطلب خاص من الإمبراطور نابليون الثالث لخديوي مصر) بنحو ٤٤٦ من الضباط والجنود السودانيين (ومعهم مترجم مدني واحد) من ميناء الإسكندرية في سفينة حربية فرنسية إلى المكسيك لمساعدة فرنسا في محاولاتها الفاشلة لاستعمار تلك البلاد. وهذا الجزء يتعلق بمحاكمة جنود من الفيلق السوداني حوكموا من قبل الفرنسيين في المكسيك بتهمة ارتكاب مجزرة ضد «الأهالي»، وعزا المؤلفان الواقعة لاختلافات الدين والأعراف والثقافة والقوانين بين «أهل أفريقيا» و«أهل أوروبا».

ويذكر أن استخدام حكام مصر الأتراك للجنود السودانيين في تلك الحرب كان قد أثار مواجهة دبلوماسية مع الحكومة الأميركية آنذاك، والتي اتهمت الحكومة المصرية (ربما للإسراع بطرد الفرنسيين من القارة الأمريكية) باستخدام الرقيق في تلك الحرب، وكانت الحكومة الأميركية حينها قد أصدرت قوانين تحرر العبيد وتجرم الاستعباد.

بعد أسابيع قليلة من وصول الجنود السودانيين إلى المكسيك، ساد شعور عام لدى حلفائهم من الفرنسيين بأن هؤلاء الجنود على درجة عالية من الانضباط وعزة النفس، وبالمعايير الأوربية فلقد كان هؤلاء الجند غاية في حسن السلوك والمظهر. بيد أن المعايير الأوربية في الذهنية العسكرية الفرنسية كانت تفترض التصرف حسب مقتضيات الطرق الأوربية في التفكير والسلوك. وهنا تمت معاملة السودانيين بمعايير مختلفة بالكلية في جانب واحد بالغ الأهمية ألا وهو «إدارة الحرب Conduct of war».

كانت الحرب تعنى لدى السودانيين في موطنهم الأصلي بإفريقيا «الحرب الكاملة الشاملة التي لا تبقى ولا تذر». لم تكن للرحمة والهوادة والإبقاء على حياة العدو المهزوم أدنى اعتبار. كان المنتصرون يقطعون رقاب القادة المهزومين كتذكار أو دلالة على النصر. وفى تاريخ الخلافة العثمانية/ المصرية في السودان عشرات الشواهد على ذلك مما فعله جنود الحكومة، بل وفعلها ذلك الحكم وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة تحت ضربات المهدي حيث حزت رؤوس عدد من قواد المهدية وأرسلت للخرطوم لتعرض على الناس في الميادين العامة. ولعل ما فعله أحد جنود المهدي من قطعه لرقبة الجنرال غوردون عند سقوط الخرطوم وإرساله لرأسه لأم درمان كان منسجما تماما مع تقاليد الحرب السائدة عندهم. بل إن ذلك التقليد كان سائدا في العالم القديم، فيروى أن داؤود قطع رأس جالوت وحمله مزهوا لشعبه ليراه ، ورث الإسلام وأدخل هذا القانون القديم ضمن تشريعاته كما يبدو من حالة ذلك العريف في مناطق مناجم الذهب قرب الحدود الإثيوبية عام ١٨٣٩م، حين رفضت القبائل السودانية كل المحاولات التي بذلت لإنقاذ حياة العريف بسبب ظروف تستدعى تخفيف الحكم الصادر عليه (حكي المؤلف هنا قصة طويلة لن نتطرق إليها هنا).

في ليلة ظلماء من شهر أبريل عام ١٨٦٣م أصابت طلقة طائشة جندي سوداني كان يحرس قلعة صغيرة في ميدلن. بدا لرفقاء القتيل أن الطلقة القاتلة أتت من جهة كانت تقع فيها مجموعة من منازل لا تبعد كثيرا عن القلعة. فما أن أشرقت شمس اليوم التالي تحركت كتيبة من هؤلاء الجند نحو تلك المنازل وهاجمت من فيها وقتلت ٨ من الرجال والنساء والأطفال المكسيكيين المدنيين، وجرحت العشرات ثم لاذت بالفرار. بعبارة أخرى أتى زملاء الحارس القتيل بفعل كانوا سيقومون بمثله تماما إذا كان زميلهم قد قتل عند الحدود الإثيوبية أو أعالي النيل. كانوا فقط ينزلون العقاب المناسب. لم يفهموا سبب الاستنكار والسخط الذي أعقب فعلتهم إذ لم يكن يعترفون بقانون آخر غير قانون الانتقام. لسوء حظ أولئك الجنود، لم يكن قانون الانتقام من ضمن القوانين الفرنسية، والتي كانت تضمن الحقوق القانونية للمدنيين. اعترف السودانيون في التحقيقات الابتدائية ببساطة أنهم قاموا بفعلتهم تلك، ولم يطالبوا بشيء سوى أن تتم ترجمة مسائلتهم في المحكمة للغة العربية.

بعد جلسات الاستماع الأولية تم توجيه الاتهام لثمانية جنود بتهمة القتل أو محاولة القتل. انعقدت المحاكمة في فيراكيوز Veracruz في ٢٩ سبتمبر ١٨٦٣م، وأعلنت الأحكام في اليوم التالي وكانت على النحو التالي:

الاسم / الرتبة	الحكم
مرجان سودان بلارد	الإعدام (خفض للسجن فيما بعد لعشرين عاما ثم لخمس)
كندا عمر	خمس سنوات أشغال شاقة
ريحان ميخائيل	خمس سنوات أشغال شاقة
سالم سلام سيد	خمس سنوات أشغال شاقة
الزبير أحمد	خمس سنوات أشغال شاقة
ريحان حسن ركابي	خمس سنوات أشغال شاقة
كوكو محمد صغيرون وسيد الحاج عبده	غير مذنب

كتب أحدهم (ويدعي شينو ؟Chenu) في مذكراته عن هؤلاء الجنود:

« كانوا حتى الآن يعطونك الشعور بأنهم رقيقي الطبع، رغم أن فيهم بعض القسوة التي تتضح أحيانا عند قيامهم بواجبهم. لقد قاموا بارتكاب جرمهم عن سبق إصرار وترصد وأثاروا بذلك دهشة الفرنسيين بل وغضبهم الشديد. لقد قاموا بارتكاب مذبحة فظيعة ضد أبرياء عزل وأزهقت على أثر ذلك ٩ أرواح (٨ في العدد المذكور في المحكمة!) وجرح الكثير ممن استطاعوا الفرار. وأظهر الجنود أثناء المحاكمة نفاقا كبيرا وزعموا أنهم لا يجيدون غير العربية. لم يكن لجريمتهم من سبب سوى التطرف الأعمى».

يبدو أن عقلية «شينو» المنحازة أبت عليه إلا الاحتجاج على إصرار الجنود على التحدث بالعربية أثناء المحاكمة. أدى ذلك الإصرار بالطبع إلى إطالة أمد الجلسات وإلى العديد من حالات سوء الفهم بسبب رداءة الترجمة وأخطائها وإلى «التعارك اللغوي» بين المترجم المصري وآخر من الجزائر على ترجمة بعض التعابير بسبب اختلافات اللهجات، بينما كان القضاة الفرنسيون يتميزون من الغيظ والملل والغضب وهم ينظرون إلى المتجادلين.

لم يك هؤلاء الجنود البسطاء مجيدين للعربية، بيد أن القليل الذي كانوا يتحدثون به كان بالقطع أفضل من فرنسيتهم التي كانت شبه معدومة. إن المؤمنين بأكثر من عقيدة (مثل أولئك الجنود) يستمدون قوتهم من العصمة و«عدم الخطأ» الذي يحيط بالكلمة المكتوبة. ولما كانت تلك الكلمة المكتوبة هي لغة عقيدتهم: القرآن فإنهم لم يكن ليعتدوا بغيرها. في المقابل، فلقد كانت اللغة الفرنسية هي لغة حلفائهم من غير

المسلمين، فقط لا غير!

ولما حان أوان جلاء القوات الفرنسية من المكسيك، كان السجناء السودانيون قد قضوا نحوا من ثلاث سنوات خلف القضبان في سان خوان دي أولوا(San Juan de Ulua) وأتخذ قرارا حكيما بإعادة السجناء لموطنهم بعدما تم – وبحمد الله- الصفح عنهم. ولم تتوفر أدلة على أن أولئك السجناء قد تمت ملاحقتهم بعد ذلك في المحاكم المصرية العسكرية. وكان ذلك محض مخرج سهل لمأزق قانوني. وقد أبدى الفرنسيون في أمر هذه الواقعة سذاجة قانونية عظيمة. إذ يبدو أنهم افترضوا معرفة كل إنسان في أفريقيا بغروتياس (Grotius) (*) وقانون الحرب والسلام.



(*)المقصود هو هيجو قورتيس Hugo Grotius, 1583-1645 وهو قانوني هولندي ومشرع وفيلسوف «القانون الطبيعي». انظر http://cepa.newschool.edu/het/profiles/grotius.htm.

سودانيون في المكسيك

ر. كيرك

تقديم: نشرت ترجمة لقطعتين تتعلقان بقصة الجنود السودانيين الذين تم نقلهم للمكسيك بناء علي أوامر والي مصر ليحاربا باسم إمبراطور فرنسا نابليون الثالث (والذي كان يحارب أهل المكسيك باسم أرشدوك النمسا!) وذلك عن كتاب «صفوة الفيلق الأسود» لريتشارد هل وبيتر هوق) وفيما عدا الكتاب المذكور فإنه يبدو أن الكتابة في هذا المبحث التاريخي باللغة الإنجليزية لا تتعدى ما كتب في عام ١٩٤١م في السودان في مذكرات ومدونات (أو مذكرات ومدونات السودان Sudan Notes and Records) في ورقة صغيرة (هي موضوع هذه الترجمة)، وهناك ورقة صغيرة سابقة لهذه (دلني عليها بروفسير إبراهيم صغيرون) كتبها هـ. ب. توماس ونشرت عام ١٩٤٠م في مجلة يوغندا (Uganda Journal) ، وأفادني الأستاذ حيدر الهاشمي أن لأحمد حسن مطر (الرحالة السوداني الشهير/ المجهول) كتابا بالعربية عن ذات الموضوع تم نشره في أوائل الستينيات. أود الاعتذار عن أي خطأ في ترجمة الأسماء الأسبانية والفرنسية للمدن والأشخاص وذلك للجهل (الشنيع) باللغتين، وآمل في أن يراجع القطعة من هو في اللغتين ضليع. وأشير هنا إلي أنني فشلت في العثور علي ورقة كيرك في «السودان في مذكرات ومدونات» من السودان بينما أفلحت رسالة إليكترونية «عمايلة» (e-mail) صغيرة لمكتبة دراهام(درام) في إرسالها لي تبرعا لوجه التاريخ حتى كدت أن أتفهم دوافع من دعا أن «يا الإنجليز ألفونا».

نبهني مقال صغير للسيد توماس في «مجلة يوغندا» عن الفرقة السودانية في المكسيك (١٨٦٣ – ١٨٦٧م) إلي حقيقة أن ما كتب بالإنجليزية عن هؤلاء الجنود السودانيين الذين بعث بهم سعيد باشا (اسمه الكامل محمد سعيد باشا محمد علي، وقد حكم مصر من ١٤ يوليو ١٨٥٤ إلى ١٨ يناير ١٨٦٣م –المترجم) إلى المكسيك لمساعدة الإمبراطور ماكسيميليان قليل جدا ويصعب الحصول عليه في أحايين كثيرة. لسبب ما لا تشير الكتب العسكرية الفرنسية القديمة التي تناولت حرب المكسيك إلي جنود سودانيين أو مصريين عند الحديث عن الفرق والوحدات التي بعثت بها فرنسا إلي المكسيك ،بينما أشارت بعض المصادر الطبية إلى أن كثيرا من الجنود الفرنسيس كانوا

قد وقعوا فريسة للحمى الصفراء عند قدومهم للمكسيك بينما قاومت أجساد الجنود السودانيين ذلك المرض، وكان ذلك مصدر اهتمام واختلاف بين الأطباء فعزا بعضهم ذلك لاختلاف عرقي يتمثل في مقاومة طبيعية افترضوا وجودها لدى الزنوج.

أيد ذلك الزعم طبيب أمريكي هو هـ. ر. كارتر في كتابه الشهير عن الحمى الصفراء والصادر في ١٩٣١م، بينما رأي الطبيب البريطاني هوير في مقال له في المجلة الطبية لانست Lancet عام ١٩٣٤م أن مقاومة الجنود السودانيين للحمي الصفراء قد تعزى لتعرض هؤلاء الرجال لعدوى ذات المرض في وقت سابق لسفرهم للمكسيك مما قد يكون قد أكسبهم مناعة ضد ذلك المرض. رصد بعض المؤرخين الفرنسيس كتابات متفرقة عن تاريخ الجنود السودانيين في المكسيك، بيد أن ما كتبه الأمير عمر طوسون عام ١٩٣٣م عن «بطولة الأورطة (الكتيبة- المترجم) السودانية في المكسيك» يعد من أكمل ما كتب عن الموضوع، ولما كان مقال الأمير بالعربية، فإنه لم يك معروفا لأغلب الباحثين والمهتمين بتاريخ تلك الكتيبة.

ركز مقال توماس المنشور في «المجلة الأوغندية» على بقايا أغراض تم العثور عليها في الاستوائية ويوغندا لبعض أولئك الجنود العائدين من المكسيك. وفي ما عدا ذلك فإن ما هو موثق لأولئك الجنود لا يتعدى بعض الوثائق المطمورة في أضابير أرشيف الحكومة أو في رسائل قديمة منسية لبعض الأفراد أو في بعض الكتابات التاريخية التي خطها بعض الجنود السودانيين مثل عبارة «بسم الله الرحمن الرحيم» علي جدران بعض الكنائس في «قصر قوميز» Gomez Palacio والمعابد القديمة المتهالكة في فيرا كيرز Vera Cruz. نشرت جريدة لايف Life الأميركية الشهيرة في عددها الصادر في يوم ٢ / ٧/ ١٩٤١م صورة للعقيد فرانسيسكو لاناس وكان يومها قد بلغ التاسعة والتسعين من عمره. كان الرجل قد حارب في صفوف الجيش المكسيكي ضد الفرنسيين في بيوبلا Puebla ، وبما أن المناطق التي حارب فيها الجنود السودانيين كانت تقع بين في القرى بين منطقة بيوبلا وفيرا كيرز فإنه من المحتمل جدا أن ذلك العقيد قد حارب ضد أولئك السودانيين ويتذكرهم جيدا.

لا أظن أن هنالك كثيرا من الجنود أو الضباط من الذين شهدوا تلك الأحداث البعيدة التعيسة قبل نحو ثمانين عاما لا زالوا علي قيد الحياة. إن تاريخ تلك الحملة ليس ببعيد جدا عن واقع اليوم حيث أظهر الجنود السودانيون أصالة معدنهم الحقيقي في ميادين القتال (في الحرب العالمية الثانية – المترجم)، ولكن هذه المرة كانت أرض المعركة قريبة من ديارهم. أرى أيضا أن حملة السودانيين في المكسيك ذات صلة وثيقة

بمرض الحمى الصفراء. قام السيد هوق بترجمة أجزاء كبيرة من ما كتبه الأمير عمر طوسون عام ١٩٣٣م عن بطولة الكتيبة السودانية في المكسيك، واهتم السيد نيوبولد بتاريخ تلك الكتيبة، ليس فقط لأنه مؤرخ ومهتم بالشأن السوداني، بل لأنه والدته الاسكتلندية هي من صلب العقيد ديفيد فيرجسون الذي خدم في الجيش الأميركي وولد في المكسيك في ١٨٩٧م، وكان لها نفس المربية التي تولت أمر حفيدة من رشحه الإمبراطور ماكسيمليان ليخلفه، وكان زوجها وليام نيوبولد موجودا في المكسيك عندما كان في الخامسة والثلاثين أثناء الحرب الفرنسية.

جمع نيوبولد بعض آثار الإمبراطور ماكسيمليان بعد موته ومن ذلك سرج حصانه والذي أحضره نيوبولد معه للخرطوم وظل يستخدمه في تنقلاته. قدم نيوبولد وهوق لي معلومات إضافية قيمة عن الكتيبة السودانية في المكسيك مما سأورد بعضه هنا. شهد تاريخ المكسيك منذ سقوط الإمبراطوريات الأيبيرية في العالم الجديد إلي عند قيام الانتخابات الثانية لبورفيرو دياز ثم إلي عند قيام الجمهورية في 1884م تشاحن ملتهب وتمرد عنيف وصراعات مدمرة كانت إمبراطورية ماكسيمليان تمثل فقط أحد فصولها الدامية. كانت أوصال المكسيك تتمزق بين عامي ١٨٥٨ – ١٨٦١م في رحى حرب أهلية بين حكومتين متناحرتين، إحداهما دينية محافظة يقودها محارب طموح قدير يسمي ميجيل ميرامون، وكانت الأخرى تقدمية علمانية يقودها رجل هندي يمتاز بوضوح الفكرة والبيان يدعي بنيتو يوريز (قيل أن بنيتو موسوليني قد سمي عليه) وكان رجال الكنيسة الكاثوليكية لا يكفون عن الهجوم عليه لقيامه بإجراءات عنيفة وشاملة هدفت إلي تقليم أظافر الكنيسة وسلطتها وثرواتها الطائلة.

لجأ الطرفان إلي السلاح واحتكما إليه، وفي ذلك اعتمدا علي المال الذي كانا يقترضانه من أوربا، ولم يقصر طرف من الطرفين المتحاربين في بذل الوعود السخية بدفع تلك الديون حالما تضع الحرب أوزارها وينتصر علي عدوه اللدود. كانت الولايات المتحدة تعترف بحكومة بنيتو يوريز وتقف في صفها، بينما ظفر الطرف الآخر بعون رجال المال في أوروبا، فقام مصرفي سويسري يقيم في باريس اسمه جيكير بإقراض حكومة ميجيل ميرامون ٧٥٠٠٠٠ دولار أمريكي مقابل أن يعطيه ميرامون سندات (بفائدة ٦ ٪) قيمتها الاسمية نحو ١٥ مليون دولار أمريكي! خسر ميرامون الحرب في ١٨٦١م، بيد أن ذلك لم يمنع ذلك المصرفي السويسري من أن «يقنع» بوسائل فاسدة القنصل الفرنسي في المكسيك ديبو دي سالقني بحقه في استرداد أمواله من قدر له الانتصار وحكم المكسيك، وتبنى الشقيق الأصغر للإمبراطور نابليون الثالث مطلب جيكير في استرداد أمواله مضاعفة أضعافا كثيرة من يحكم المكسيك،

بعد أن ينال هو ٣٠٪ (كحقه) في العملية!

لم يكن من العسير إثارة اهتمام نابليون الثالث بالمغامرة في المكسيك، فلقد ظل الرجل في معتقله في «هام» يحلم بأمريكا وسطى متحضرة ومنتعشة اقتصاديا ومنفتحة علي التجارة العالمية والأسواق بواسطة بقناة تصلها بالمحيط. وساهم رجالات الدين المكسيك المهاجرون في باريس (ومنهم بطريك المكسيك) في استمالة الإمبراطورة أيوجيني (وهي من أصل إسباني) «لتقنع» زوجها الإمبراطور بمساندة إنشاء مملكة وكنيسة متحدة مركزية في المكسيك. بدا أمر طرد الهنود الملحدين من المكسيك وإنشاء إمبراطورية كاثوليكية تحت إمرة التاج الفرنسي هدفا جاذبا وذا منافع مادية مغرية لرجالات الكنيسة المكسيكية.

كانت المكسيك بالنسبة للفرنسيين بلدا غريبا بعيدا لا يعلمون عن طقسه وجغرافيته إلا النذر اليسير، والذي لا يتعدى أن المكسيك بلد واسع شاسع مترامي الأطراف وبه من الثروات العظيمة ما به. كان الوقت ملائما لفرنسا للقيام بمغامرة غزو المكسيك إذ أن الولايات المتحدة كانت في شغل شاغل بحربها الأهلية بين الشمال والجنوب، ومثلت الفوضى الحادثة في المكسيك والتعدي على الأجانب من قبل الطرفين المتحاربين ذريعة مواتية للتدخل الأجنبي، فلقد اعتدت الحكومة المكسيكية علي ممثلي السفارة البريطانية والبابوية وعلى وزير إسباني وتم طرد ممثلي جواتيمالا والإكوادور لاتهامهما بالتدخل السافر في شؤون البلاد لصالح القوى الرجعية. وأوقف برلمان تلك الحكومة دفع ديون بريطانيا المستحقة في١٨٦١م، وتم في مرات عديدة استهداف أرواح وممتلكات الأوربيين دونما تعويض أو حتى مجرد تفسير.

تحالفت فرنسا مع بريطانيا العظمي وإسبانيا علي العمل سويا علي هدف محدد ومحدود إلا وهو استرداد الأموال التي أقرضوها للمكسيك مع أرباحها، وتم التوقيع علي ميثاق ذلك التحالف في لندن يوم ٣١/ ١٠/ ١٨٦١م. وما أن حل يوم ١٤ / ١٢ من ذات العام حتى كانت القوات الأسبانية تحت إمرة الجنرال بريم تحتل فيرا كرز وأعقب ذلك بفترة وجيزة وصول الأسطول الفرنسي محملا بالجنود الفرنسيين لاحتلال كامل شواطئ وموانئ خليج المكسيك وتحصيل الجمارك لصالح الدول الثلاث إلى حين التوصل إلى تسوية شاملة. بعثت بريطانيا العظمى بسفنها للمنطقة بيد أنها أكتفت بإنزال ٧٠٠ فقط من جنودها في المكسيك.

ولما كان الطقس وخيما في فيرا كرز فلقد قر رأي الدول المشاركة في الحملة بعد عقدهم لمؤتمر مشترك مع الحكومة المكسيكية في سولي داد على أن تعترف هذه الدول

باستقلال المكسيك شريطة أن تسمح الأخيرة لجنود أجانب بالتقدم نحو أوري زابا. هنا بدأ الخلاف يدب بين الدول الثلاث المتحالفة في مستقبل حملتهم المشتركة وطبيعتها وأهدافها النهائية. ولما كانت فرنسا هي التي أخذت زمام المبادرة باستضافتها لقادة المعارضة من الرجعيين المكسيك وتبنيها لمطلب المصرفي السويسري جيكير وإظهارها لشهية عظيمة في التدخل في الشؤون الداخلية للمكسيك فلقد آثرت كل من بريطانيا العظمي وإسبانيا الانسحاب من المكسيك في مارس عام ١٨٦٢م وترك «الجمل المكسيكي» بما حمل لفرنسا.

بعثت فرنسا بمزيد من جنودها للمكسيك وتصدت لهم قوات زاراقوزا وبورفيرو دياز في معركة سنكو دي مايو في يوم ٥/ ٥/ ١٨٦٢م . وفي سبتمبر ١٨٦٢م أمدت فرنسا جيشها في المكسيك بثلاثين ألفا من الرجال تحت إمرة الجنرال فوري وقضت تلك القوات المشتاء في أوري زابا ثم تقدمت في ١٧/ ٢/ ١٨٦٣م نحو بيوبلا ودخلت عاصمة المكسيك في السابع من يونيو. وضح من واقع الحال أن الأمر إن هو إلا حرب احتلال سافرة تهدف إلي قلب حكومة جوريز وإحلال إمبراطورية كاثوليكية في المكسيك تحت إمرة فرنسا. وتم إقناع ماكسمليان (وهو شقيق إمبراطور النمسا) ليكون إمبراطورا علي المكسيك (وكان في الواقع إمعة ودمية في يد الحكومة الفرنسية). كان ماكسمليان رجلا وسيما محسنا لين الجانب رقيق الحاشية، ومن النوع المتحرر الذي لا يتوقع أحد أن يرفض أي شعب توليه لمقاليد حكمه. بيد أن شعب المكسيك لم يرض به وثار عليه وكلف ذلك كله الحكومة الفرنسية أموالا طائلة ورجالا كثيرين لم تكن تتوقع خسارتهم.

فقدت فرنسا في الفترة بين نوفمبر ١٨٦١ – يونيو ١٨٧٣م ما يقارب من ٣٧٠٠٠ من الرجال علي شواطئ المكسيك الموبوءة بالأمراض. مات من أولئك الرجال نتيجة الحمى نحو ١٤١٠ رجلا بينما لم يمت نتيجة القتال المباشر سوى ٣٣٠ رجلا فقط. فتكت بأولئك الرجال الحمى الصفراء والدوسنتاريا. وضاقت المقابر في فيرا كرز – علي اتساعها- عن استيعاب الموتى من الجزائريين والفرنسيين، وأطلق بعضهم ساخرا علي المقبرة التي ضمت أجساد أولئك الجنود «حديقة التأقلم». عند ذلك طلب نابليون الثالث من سعيد باشا والي مصر والابن المفضل لمحمد علي باشا مد يد العون له بفرق سودانية علي أمل أن تتحمل أجساد أولئك الجنود الزنوج أمراض المكسيك بأفضل مما فعل الفرنسيس، ولقد نما لعلم الإمبراطور أن الجنود السودانيين قد تم «استخدامهم» من قبل وبنجاح باهر من قبل محمد علي في موري (في اليونان – المترجم)، ومن قبل إبراهيم باشا في الجزيرة العربية.

استجاب سعيد باشا لذلك الطلب بيد أنه بعث فقط بكتيبة واحدة من فوج المشاة التاسع عشر تتكون من ٤٥٣ من الضباط والجنود. كان على رأس تلك القوة البمباشي جبر الله محمد أفندي مع نائبه اليوزباشي محمد الماظ أفندي. أبحرت السفينة من تولون في يوم ٢٣/ ١٢/ ١٨٦٢م، ووصلت إلى الإسكندرية في الفاتح من يناير١٨٦٣م .تم نقل الكتيبة السودانية سرا إلي ميناء الإسكندرية بين ليل السابع والثامن من يناير واتجهت إلي المكسيك حيث وصلت إلي فيرا كيرز يوم ٢٣/ ٢/ ١٨٦٣م أي بعد ٤٧ يومًا في عرض البحر. كانت الكتيبة مكونة من قائد واحد ورائد وملازم واحد وثمانية من الرقباء و١٥ عريفا و٣٥٩ من الجنود و٣٩ من المجندين و٢٢ من الأطفال تراوحت أعمارهم بين ١٠ – ١٥ عامًا. كان المجندون – والذين بعثت بهم شرطة الإسكندرية مساء يوم الرحيل – شبه عراة، بيد أن بقية رجال الكتيبة– وغالبيتهم من كردفان ودارفور – كانوا في كامل زيهم العسكري وهم يحملون عدتهم وعتادهم. مات في عرض البحر سبعة من الرجال، ربما بسبب حمي التايفويد أو أمراض صدرية، وبعد الوصول إلى فيرا كيرز بقليل مات ١٥ رجلا آخرين، ولم يتحدد إن كان هؤلاء الجنود قد ماتوا بسبب الحمى الصفراء أم بغيرها.

كان الكثيرون يعتقدون بأن تلك الحمى لم تكن موجودة في منطقة فيرا كيرز بين يناير وأبريل ١٨٦٣م لذا فلقد ساد الاعتقاد بأن أولئك الجنود قد ماتوا لأسباب ليست الحمى الصفراء واحدة منها. لم يكن ثمة دليل أن المجندين التسعة وثلاثين الذين دفعت بهم شرطة الإسكندرية سودانيين أصلا أو أن لهم مناعة ضد الحمى الصفراء. ومع حلول شهر إبريل عاودت الحمى الصفراء الظهور في فيرا كيرز بضراوة شديدة واستمرت في الانتشار حتى ديسمبر من ذات العام. قضت تلك الحمى علي قائد القوات الفرنسية في المنطقة وأحد عشر من كبار الضباط وكثير من الجنود الفرنسيين، ولسبب ما لم تصب تلك الحمى أي من الجنود السودانيين عدا قائد الجنود السودانيين البمباشي جبر الله محمد الذي كان الوحيد من بين السودانيين الذين تسببت الحمى الصفراء – حسب السجلات الرسمية– في موته. بل إن بعض المصادر الفرنسية عزت سبب إصابته بتلك الحمى لحالة كونه مصريا وليس سودانيا!

ترك البمباشي جبر الله محمد بعد موته ٥٦٦٧ فرنكا فرنسيًا تم إرسالها إلي حكومة مصر لتقوم بإرسالها لورثته. تمت ترقية نائب القائد محمد ألماظ أفندي إلي رتبة البمباشي وتولي القيادة مكان البمباشي الراحل جبر الله محمد. لم يسلم السودانيون تماما من الآثار المرضة لطقس المكسيك رغم أنهم أبدوا مقاومة أشد لها من رصفائهم

الفرنسيين، بل والمكسيكيين أنفسهم. فعند نهاية ١٨٦٣م مات ٤٧ من الجنود منذ سفرهم من الإسكندرية، بينما سقط نحو ٤٣ منهم.فقط فريسة لأمراض أخرى وقد عزاها البعض لعدم الاهتمام الذي لقيه أولئك الجنود عند وصولهم لأول مرة في فيرا كيرز، فلم يحاول أحد أن يتعرف على لغتهم أو أذواقهم أو طباعهم. لم تكن عملية تنظيم إطعام هؤلاء الجند كافية وكان الطعام المقدم لهم قليلا لا يتناسب مع الأعمال الشاقة التي كان عليهم أداؤها.

وصل الجندون الذين دفعت بهم شرطة الإسكندرية جياعا وشبه عراة في مساء يوم الرحيل إلى فيرا كيرز وهم في حالة مزرية يرثى لها وكانت أغلب حالات الموت وسط الجنود من هؤلاء الجندين. تم بعد فترة قليلة من وصل الجنود إدخال بعض الإصلاحات علي الأوضاع. تمت عملية إعادة تنظيم للكتيبة على النسق الفرنسي فتم تقسيمها إلى أربعة فرق وصرفت أوامر محددة تحدد واجبات كل فرقة وتمت ترقية العديد من أفراد الكتيبة. بعث لخديوي مصر بنسخ من هذه الأوامر والترقيات للمصادقة عليها. بعث الخديوي بهذه الواجبات والترقيات لوزارة الحربية المصرية في ١٦/ ٣/ ١٨٦٤م، وسرت تلك الترقيات بأثر رجعي من يوم ١١/ ٣/ ١٨٦٣م. كانت أسلحة الجنود السودانيين ممتازة بيد أن بنادقهم كانت من نوع مختلف عما هو مستعمل في الجيش الفرنسي وكان ذلك يمثل عقبة في ما يتعلق بالذخيرة مما دعا الفرنسيين إلي إعطاء الجنود السودانيين بنادق فرنسية والاحتفاظ بالبنادق التي جلبها هؤلاء الجنود لحين انتهاء الحملة.

مثلت لغة الجنود السودانيين عقبة أخرى، إذ لم يكن هنالك من يفهم لغتهم ولم يكن من السهل شرح كيفية استعمال هذه البنادق الفرنسية الجديدة لهم. بيد أن الفرنسيين قد اكتشفوا وجود بعض المترجمين وسط الجزائيين في الجيش الفرنسي وكانوا هؤلاء خير عون لقادة الجيش الفرنسي في معرفة احتياجات الجنود السودانيين. أشاد الجميع بانضباط هؤلاء الجنود وبالسرعة الفائقة التي تأقلموا فيها علي الأوضاع الجديدة وذلك عقب معرفة الفرنسيين باحتياجاتهم ومعالجة مشاكلهم الصحية الصغيرة والتعرف علي مواطن القدرة والقوة والتميز عندهم. سرعان ما اكتشف الفرنسيون نشاط وهمة هؤلاء الجنود وأنهم أكثر إجادة من غيرهم في المراقبة والرصد وشجاعتهم تفوق الوصف عند احتدام الوغى، وأنهم يخاطرون بأرواحهم في مواضع يتوجس ويجفل منها الجنود الفرنسيين.

نجح الجنود السودانيون نجاحا باهرا في تعقب الفدائيين ورجال العصابات المكسيكية الذين كانوا لا يكفون عن مهاجمة القوافل التي كانت تحمل الزاد والمؤن في

الأراضي المنخفضة في فيرا كرز، ويعتدون على نقاط الدفاع قليلة الحماية. خلال حصار بيالا (ثانية أكبر المدن المكسيكية) والتي تم الاستيلاء عليها وعلى حاميتها المكونة من ٢٦ جنرالا و٩٠ ضابطًا و١٢٠٠٠ فردا من مختلف الرتب في يوم ١٧ / ٥/ ١٨٦٣م أمر الجنود السودانيين بحماية خطوط الاتصالات بين تلك المدينة والساحل والتي حاول المكسيك مرارا قطعها. وكلف الجنود السودانيين أيضا بحماية خط السكة حديد الذي كان في طور التشييد مما عجل بإكماله في وقت وجيز. رافق بعض الجنود السودانيين القائد العام للجيش الفرنسي مارشال بازين عند دخوله لمدينة مكسيكو العاصمة يوم ٦/ ٧/ ١٨٦٣م، وشاركوا بفعالية في معارك سبقت وأعقبت سقوط العاصمة، وعندما أقام الفرنسيون احتفالا ضخما حضره كل ممثلي السلطات المدنية والعسكرية بمناسبة الاستيلاء على العاصمة. وقع الاختيار على فرقة سودانية لتكون حرس الشرف، وبعد الاحتفالات قام الجنود السودانيون بعرض عسكري في أكبر ساحة عامة في العاصمة.

أثبت الجنود السودانيون كفاءة واقتدارا عظيمين لفتا نظر القادة الفرنسيين مما دعا القائد العام الفرنسي لينتقي من بين الجنود السودانيين فرقة «قوة خاصة» وأن يصرف لكل فرد من أفراد هذه القوة الخاصة علاوة قدرها ٦٥ سنتًا (تعادل قرشين ونصف) في اليوم، وأن يشرف ويميز أفرادها بلبس شارة صفراء خاصة على الذراع. ساهم هذا الإجراء في رفع الروح المعنوية للجنود والضباط إذ أنه أثبت أن الجنود السودانيين قد نالوا احترام وتقدير رؤسائهم الفرنسيين. ومع انصرام عام ١٨٦٣م كان الجنود السودانيون قد خاضوا ثماني معارك سجلوا فيها أعلى درجات الامتياز. كتب عنهم حاكم فيرا كيرز وهو يصف معركة خاضوها في ٢/ ١٠/ ١٨٦٣م : « لقد حمل الجنود السودانيون العبء الأكبر من تلك المعركة، ولقد توجتهم تلك الموقعة بأكاليل الفخار. لم يبال أحد منهم بالنيران الكثيفة التي كان العدو يرميها عليهم من كل صوب. كان عدد أفراد جيش العدو يفوقهم بتسعة أضعاف، ورغما عن ذلك فلقد نجحوا في «اجتثاثه».

كان أهم إنجاز للكتيبة السودانية هو احتلال فيرا كيرز وحماية خطوط الاتصالات بين تلك المدينة والوحدات المتقدمة في داخل البلاد. وتكمن أهمية فيرا كيرز في أنها الميناء الذي تأتي عبره القوات الغازية والمواد التموينية. لذا كان من المهم جدا تأمين تلك المدينة والاتصالات بينها وبين بقية البلاد. وقام الجنود السودانيون بتلك المهمة دون كلل أو ملل من فبراير ١٨٦٣ إلي حين مغادرة الجيش الفرنسي للمكسيك في ١٨٦٧م. علقت أميرة في بلاط الإمبراطور ماكسميليان على الجنود السودانيين قائلة:

«هؤلاء السود من أبناء أفريقيا شديدو الاحتمال لطقس المكسيك وخيم الهواء»، وقامت ذلك الأميرة برحلة من فيرا كيرز إلي ميدلين كان حراسها الشخصيين فيها من الجنود السودانيين. وصفت الأميرة الرجال بأنهم طوال نحفاء وأقوياء الجسم يرتدون زيا أبيضا ناصع البياض ويعتمرون عمامات أنيقة وفي أيديهم بنادق طويلة وفي أحزمتهم خناجر. وقالت ما معناه: يا لروعة أن تكون في حراسة هؤلاء «الأسود السود» الذين يمنحونك شعورا عظيما بالأمن والأمان.

وصفهم أحد القواد الفرنسيين بأنهم رجال منظمون، وأضاف ببعض المبالغة أن أحدا منهم لم يمرض أبدا، وكان يشاهدهم وهم رقود في منتصف النهار القائظ يغطون في نوم عميق تحت أشعة الشمس الحارقة ويستيقظون دونما أي إحساس بألم أو صداع. وكان يقول أن أي فرنسي يحاول أن يفعل مثلهم لن يستيقظ من نومته تلك أبدا ووصفهم قائد آخر بأن «لهم روحا قتالية لا تدعهم يتركون أسيرا ليعيش. لم أر في حياتي روحا قتالية كالتي رأيتها عند هؤلاء السودانيين. ترى إصرارهم في نظرات أعينهم وشجاعتهم تفوق الوصف. إنهم ليسوا ببشر بل هم أسود ضارية». منح الأمباشي عبد الله حسين باشا ميدالية حربية عرفانا بشجاعته وإقدامه وشراسته عند الوغى لتكبيده العدو أفدح الخسائر ، ذكر أن ذلك الأمباشي طعن بسنكي بندقيته رجلا مكسيكيا رفعه بيد واحدة والسنكي ما يزال منغرسا في جسده ، رفع قائد الجيش الفرنسي في المكسيك ومحمد الماظ أفندي تقريرين لوزارة الحربية المصرية بإنجازات الجنود السودانيين في حرب المكسيك وبخسائرهم وبتفاصيل أخري. رفع الوزير التقرير للخديوي إسماعيل والذي فرح كثيرا بإنجازات جنوده وقوتهم ومهارتهم وقرر صرف معاشات لأرامل وعائلات من قتلوا أو ماتوا من الجنود وترقية بعض من تميزوا من أفراد الكتيبة، ووعد بإقامة احتفالات ضخمة لهم عند أوبتهم لمصر «سالمين غانمين إن شاء الله».

أشاد الفرنسيون بحسن انضباط الجنود السودانيين فذكر أحد كبار قادتهم أن كل فرد من أفراد الكتيبة مفعم قلبه بحسن أداء الواجب على أتم وجه، وأنه لم تسجل حالة واحدة لسوء سلوك من أي فرد فيها ولم يتم القبض على جندي واحد وهو نائم عن حراسة ليلية أو غافلا عن واجب أو غائبا بدون عذر. وتمت الإشادة علي وجه الخصوص بالتالية أسماؤهم :ملازم فرح الزين، وملازم أول محمد سليمان والذي ظل واقفا يقاتل رغم تلقيه لست طلقات نارية أدت لجروح خطيرة ونزف دم كثير. نال ذلك الضابط فيما بعد ميدالية العشرين من ديسمبر وتمت ترقيته إلى يوزباشي. كان الجنود السودانيون يزيدون – من تلقاء أنفسهم- من أعداد من عليهم الحراسة

دون أن تصدر أوامر لهم بذلك حتى لا يؤخذوا على حين غرة.

وفي ذات مرة كان الملازم صالح حجازي يقود عشرين من الرجال في مهمة معينة، وفي الطريق اعترض طريقهم ٢٠٠ من الجيش المكسيكي. لم تثن السودانيين قلة عددهم فمضوا في مقاتلة العدو وتمكنوا من الانسحاب المنظم دونما خسائر. وبما أن سمعة هؤلاء الجنود السودانيين في المكسيك قد عمت في المكسيك وفرنسا ومصر فلقد أعطي لبعض أولئك الجنود شرف إطلاق مدافع الشرف تحية للإمبراطورة شارلوت عند وصولها لفيرا كيرز في ديسمبر ١٨٦٥، وكان ٥٠ منهم يمثلون حرس الشرف للأميرة الزائرة والتي نقلت لبعلها ماكسميليان إعجابها بمقدرات هؤلاء الرجال الاستثنائية وعن حسن مظهرهم ونظافتهم أيضا.

عندما بلغ مكسميليان ذلك أمر لهم بزيادة في الراتب بلغت ثلاثا وثلاثين ونصف سنتا (تعادل قرشا وربع) يوميا. وعند أوبة الأميرة إلى أوربا في يوليو من عام ١٨٦٦م كان الجنود السودانيون هم الجنود الوحيدون بالمدينة الذين نالوا شرف توديعها رسميا. ومع نهاية عام ١٨٦٥م كانت الأورطة السودانية قد خاضت ٣٧ معركة، كان أغلبها في الشهور الأخيرة لتلك السنة. وخاضت في ١٨٦٦م إحدى عشرة معركة أخرى. كانت أعداد الثوار المكسيك تزداد يوما بعد يوم واشتد رحى حرب العصابات حتى أنه هاجمت ذات ليلة قوة مؤلفة من ٢٠٠ من الثوار نقطة مراقبة كان بها ٢٦ من الجنود السودانيين. أتى الهجوم المكسيكي مباغتا، إلا أن السودانيين – رغم قلة عددهم – صمدوا ومضوا في الدفاع عن موقعهم حتى الساعة الخامسة والنصف صباحا. حينها انسحبت قوات العدو مخلفة العديد من القتلى والجرحى وراءها. ومع التزايد اليومي لعدد الثوار المكسيك اتضح جليا ضرورة الدفاع عن مدينة فيرا كيرز خشية من سقوطها في يد الثوار إلى حين إرسال مدد جديد من فرنسا بالرجال والعتاد.

نقل للخديوي إسماعيل باشا تقارير عن وضع جنوده في المكسيك وفكر في إرسال كتيبة أخرى لمعاونة الكتيبة المتواجدة هنالك، فأصدر أوامره في ٢٧ فبراير ١٨٦٥م لجعفر باشا مظهر الحاكم العام للسودان حينها لينتقي من بين مشاة قوة السودان أفرادا صغار السن أقوياء البنية حسني المظهر كي يبعثوا عن طريق سواكن إلى مصر. وفي ١٢/ ٤/ ١٨٦٥م بعث الخديوي لقائد الكتيبة السودانية بالمكسيك برسالة يقول فيها: «الرجاء إعلام كل رجالنا معكم بضرورة الجلد والصبر حتى يحافظوا على السمعة الحسنة التي اكتسبوها في المكسيك وأن يواصلوا أعمالهم بكل جد حتى يعودوا لديارهم ويحصلوا على عظيم التقدير والامتنان من إخوانهم، وسوف نقوم بتجهيز

مزيد من القوات لعونهم وسيصلهم هذا المدد قريبا إن شاء الله. عندها سنأمر بعودتكم إلي أوطانكم بعد أن تطاول بقاؤكم في المكسيك». وبعث الخديوي مع ذلك الخطاب بالميدالية المجيدية من الطبقة الرابعة إلى الجنرال الفرنسي مارشال، وهو الضابط الفرنسي المسؤول عن الكتيبة السودانية، ولم يتسلم الجنرال الفرنسي الميدالية إذ أنه كان قد قتل في إحدى المعارك في الثاني من مارس ١٨٦٥م!

أرسل الخديوي السفينة «الإبراهيمية» إلي سواكن استعدادا لجلب مزيد من الجنود السودانيين ليرسلوا للمكسيك وبعث برسائل مستعجلة لحاكم التاكا وسواكن لاستعجال بعث أولئك الجنود. لم تجد «الإبراهيمية» عند وصولها لسواكن أي أثر لجنود. وبعد أيام سرى في سواكن وباء (لم تحدد طبيعته) اضطر معه قائد السفينة للعودة خالي الوفاض إلى مصر بدلا من الانتظار إلي ما لا نهاية. كان إسماعيل باشا قد أمر في هذا الأثناء باختيار جنود من حاميتي بربر ودنقلا ونقلهم لمصر عبر نهر النيل دونما تأخير. رغما عن كل المحاولات التي بذلها الخديوي لإرسال مزيد من الجنود السودانيين للمكسيك إلا أنه لم يتمكن من إرسال جندي إضافي واحد لذلك البلد. كذلك لم ينجح ماكسميليان في الحصول علي أي عون من أوربا رغم نداءاته العاجلة المتكررة.

وضعت الحرب الأميركية الأهلية أوزارها في ربيع ١٨٦٥م، وفي خريف ذات العام أيقن الجميع فشل الحرب المكسيكية. وقامت الحكومة الأميركية التي هزمت ولايات الجنوب بمطالبة الحكومة الفرنسية بسحب قواتها من المكسيك ورفضت الاعتراف بالحكومة العميلة التي نصبها الفرنسيون. وأتبعت واشنطن القول بالعمل فحركت قواتها في بدايات ١٨٦٦م نحو ريو جراندى Rio Grande بعدها أيقن نابليون الثالث أن لا قبل له بأمريكا وجنودها فأعلن صاغرا عن نيته في سحب جيشه من المكسيك. أحس ماكسميليان بأنه بقي وحيدا بعد خذلان الفرنسيين له فالتجأ إلي الحزب الكاثوليكي ثم فكر في التنازل عن العرش رغم ضغوط زوجته شارلوت والتي سافرت لفرنسا لحث نابليون عي نصرة زوجها، فلم تلق منه إلا الإعراض والصدود، فصوبت وجهها نحو روما وتشرفت بالسلام علي البابا وحادثته في أمر زوجها. لم يك حظها مع البابا بأفضل من ما كان مع نابليون الثالث. انتهي الأمر بالإمبراطور ماكسمليان أن يخونه أقرب رجال المكسيك له وأن يقع في أسر الثوار والذين سجنوه لمدة قصيرة قبل تقديمه للمحاكمة وأعرض الإمبراطور – في نبل وإباء- عن محاولة الهرب من الأسر رغم عديد الفرص التي «أتيحت» له. حوكم الإمبراطور بتهم تضمنت التمرد والقتل والسطو المسلح وأعدم رميا بالرصاص في ١٩ يونيو ١٨٦٧م

رغم احتجاج ملوك أوروبا وشخصياتها البارزة من أمثال فيكتور هيجو وجاريبالدي. ولم تسمح الحكومة الثورية بإعادة جثمانه لأوروبا إلا بعد لأي شديد.

غادرت الكتيبة السودانية المكسيك مع باقي القوات الفرنسية في فبراير من عام ١٨٦٧م، وآبت لمصر عن طريق فرنسا. وخلال الأعوام الأربعة التي قضاها الجند في المكسيك كانت جملة المعارك التي ٤٨ معركة كسبوا جلها ونالوا عظيم التقدير والإشادة من السلطات العسكرية الفرنسية. وصلت الأورطة إلي باريس في أبريل ١٨٦٧م وتم استقبالهم استقبالا شعبيا ورسميا ضخما وأنعم عليهم بأنواط الشرف وتم عرضهم علي نابليون الثالث والذي تفقد شخصيا طابور الشرف الذي اصطفوا فيه في يوم ٢/ ٥ وكان برفقته شهيم باشا وزير الحربية المصري .صافح الإمبراطور يد قائد الأورطة البمباشي محمد ألماظ وقلد العديد من الضباط الجنود الأوسمة ومنح من جرح منهم الكثير من العطايا.

غادرت الكتيبة فرنسا متجهة لمصر في مايو من ذات العام وكان عدد أفرادها ٣١٣ (من أصل ٤٥٣). ولحق بأفرادها ثلاثة آخرون بعد أن كان أحدهم قد احتجز في مستشفي بباريس وبعد أن أطلق سراح اثنين كانا قد وقعا في أسر ثوار المكسيك. وفي ٢٨ مايو ١٨٦٧م قدموا عرضا عسكريا أمام الخديوي إسماعيل أمام باحة قصره في رأس التين بالإسكندرية. وأقام لطيف باشا للضباط منهم حفل استقبال وسهرة شرفها بالحضور شريف باشا وقنصل فرنسا وغيرهما من كبار الشخصيات. وزينت صالة الاحتفالات بالأعلام المصرية والفرنسية.

أعلن إسماعيل باشا عن ترقيات واسعة في صفوف تلك الكتيبة ورقي محمد الماظ إلي رتبة الأميرالاي. كتب السير صمويل بيك لاحقا عن بعض جنود الكتيبة السودانية في كتابه «الإسماعيلية» والصادر في لندن عام ١٨٧٩م استعان ببعض أولئك الجند في حملته للقضاء علي تجارة الرقيق في الاستوائية وكانت حملته مكونة من الجنود السودانيين (ومعظمهم من العائدين من المكسيك) ومن الجنود المصريين. وكون السير صمويل حرسا خاصا به من السودانيين العائدين من المكسيك أطلق عليهم «الأربعين حرامي»، ويبدو أنهم ظلوا يحتفظون بمناعتهم ضد الأمراض المدارية، إذ أنهم قاوموا أمراضا ينقلها البعوض في المنطقة بين ملكال وقندروكو بينما تساقط فريسة لها الجنود المصريون. ولاحظ بيكر أن الجنود المصريين كانوا في حالة كربة بائسة نكدة، بينما كان الجنود السودانيون يتلذذون بشرب العرقي ليلا وهم في أتم صحة وأطيب مزاج.

ظل الجنود السودانيون في منطقة أشولي بعد أن غادرها صمويل بيكر في ١٨٧٣م.

زار العقيد الفرنسي لونج فاتيكو في ١٨٧٤م وشاهد معسكر الجنود السودانيين ولم يملك إلا أن يبدي إعجابه الشديد بنظافة أولئك الجند العامة والشخصية وعن ملابسهم ناصعة البياض تحت ظروف لا تساعد على ذلك، بل ولاحظ احتفاظ أولئك الجنود بصابون فرنسي معطر للاستحمام وهم في وسط أدغال أفريقيا. حضر القائد الفرنسي عرضا عسكريا مميزا لأولئك الرجال وعلى صدورهم النياشين والأوسمة التي حصلوا عليها خلال حربهم في المكسيك ومنها وسام جوقة الشرف الفرنسي. استمع القائد الفرنسي في إعجاب إلى الرائد بابا توكا في منطقة فويرا وهو يحكي بشغف عن ذكرياته في المكسيك وعن حياته الباريسية القصيرة. عين مرجان أغا (وهو أحد أفراد الكتيبة السودانية في المكسيك) في جيش أمين باشا بينما عمل بعضهم في دارفور وكردفان وكسلا وارتريا، وقتل اثنان من هؤلاء الجند بنيران جيش المهدي وهما يحرسان غوردون في قصره بالخرطوم.



أدهم باشا العريفي: أول لواء وقائد عام سوداني

جون يودال

تقديم: ورد هذا المقال في مجلة الدراسات السودانية في عددها نوفمبر ٢٠٠٦م عن أول رجل سوداني ترقي لرتبة اللواء ثم القائد العام (سر عسكر Seraskir) في جيش الحكم المصري التركي بقلم جون يودال وهو مؤرخ معروف له كتاب شهير هو The Nile in Darkness يدور حول تاريخ السودان في الفترة بين عامي ١٥٠٤ و١٨٦٢م.

منذ إنشاء مملكة الفونج في سنار عام ١٥٠٤م وإلى حين غزو واحتلال السودان بجيوش الحكم التركي المصري بقيادة محمد علي باشا للسودان في عام ١٨٢٠م كان غالب القادة السياسيين الذين حكموا شمال السودان من العرب من العبدلاب في كردفان والنيل الأبيض والنيل الأزرق (تخشم البحر/ سنجة) والرهد وفازوغلي والتاكا (البجة). كان القادة الأبرز هم ملوك الفونج وحلفائهم ومساعديهم من العبدلاب، ومن الفونج برز الملك الأول للفونج عمارة دنقس (١٥٠٤ — ١٥٣٤م) ومن العبدلاب برز شيخ عجيب المانجلك (١٥٧٠ - ١٦١١م) ومحمد أبو لكيلك (١٧٥٥ - ١٧٧٤م) والذي غزا وحكم كردفان أحد أعمال مملكة الفونج.

إن أبناء السودان المستقل اليوم هم حفدة أولئك القوم. بين عامي ١٨٢٠— ١٨٢١م غزا محمد علي باشا دولة الفونج باسم الإمبراطورية العثمانية وقضى على تلك الدولة المستقلة حتى جاءت ثورة محمد أحمد المهدي في ١٨٩٢م فعاد للسودان استقلاله. كانت المشائخ العربية مقسمة إداريا إلي كواشف/ كشفكلكسات؟ kashifliks يترأسها ممثلي الإمبراطورية العثمانية من الأتراك والشركس والأكراد والألبان، وترك أمر حفظ الأمن والنظام وتحصيل المكوس والجزية لشيوخ القبائل المحليين. ولم يسمح الحكم المصري التركي إلا لشيوخ معدودين بإدارة إقليمهم بصورة كاملة مثل أحمد بيه عوض الكريم أبو سن وإبنه عوض الكريم باشا أحمد وعبد القادر الزين والذي حكم مناطق واسعة في النيل الأزرق والنيل الأبيض لأكثر من ثلاثين عاما.

كذلك احتكر الضباط الأتراك كل الرتب العسكرية عدا الدنيا منها. كتب المهندس الألماني فيردناند فيرني والذي عمل تحت إمرة أحمد باشا أبو ودان في عام ١٨٤٠م:

«كان كل كبار الضباط وحتى الرواد (يوزباشية) والملازمين الأوائل من الأتراك، وكان من الصعب علي عربي أن يحلم برتبة ملازم أول. كان الأتراك لا يكنون كبير احترام للضباط العرب وينظرون إليهم نظرة دونية ولا يتكلمون لغتهم ويعاملونهم وكأنهم خدم لهم لا يحسنون غير جلب القهوة وملء الغليون لهم».

بيد أن ملاحظة المهندس الألماني تلك قد قيلت في زمن بدأت فيه نفوذ حكم الخديوي المصري في القاهرة في الاضمحلال عقب الاحتلال الروسي لجورجيا وسيراكيسا Cherkessia (إحدى أقاليم القوقاز. المترجم). كلف لورد بالمريستون (عمل رئيسا للحكومة البريطانية بين ١٨٥٥ و١٨٥٨م المترجم) السير جون بورنيق بكتابة تقرير عن حالة مصر فكتب تقريرا جاء فيه أن «...الجنس التركي يختفي بصورة سريعة... فخصائص هؤلاء الناس المعروفة تتغير تغييرا صامتا لكنه ملحوظ. إن العنصر المصري يحل بالتدريج محل العنصر التركي. لقد ازداد استعمال اللغة العربية في المعاملات الرسمية، بل إن حسابات الدولة الرسمية تسجل وتحفظ بالعربية». بيد أن النفوذ التركي في السودان قد أخذ وقتا أطول ليبدأ في الاضمحلال. عقب وفاة أحمد ودان في ١٨٤٣م تم تقسيم السودان – ولفترة بسيطة – إلي أقاليم تحكم من القاهرة رغم أن الحكام العسكريين الأتراك ظلوا يسيطرون على الأوضاع في البلاد، إلي أن أعيدت «الحكمدارية» إلي البلاد في ١٨٤٤م.

قدر القتصل البريطاني في الخرطوم عدد أفراد القوات المسلحة ب ١٨٤٧ (منهم ١٦٠٠ رجل) وشمل ذلك ثلاث فرق مشاة. أعاد الخديوي محمد سعيد بعد عقد من ذلك الزمان تقسيم السودان لأربعة أقاليم تحكم من القاهرة مباشرة، بيد أنه أبقى على الجيش موحدا تحت إمرة سر عسكر شركسي هو عثمان باشا جركاس، وكان عدد أفراد ذلك الجيش حينها قد قل كثيرا. وبعد وفاة عثمان باشا في ١٨٦٠م تم تقسيم وتوزيع ما تبقى من كتائب الجيش بين مختلف الأقاليم. كان ذلك من أسباب إضعاف حكومة السودان والتي كان يحكمها من مصر خديوي متردد يعوزه الحزم. أدى ذلك الضعف إلي فتح شهية إمبراطور الحبشة ثيودور الثاني والذي كان يطمح في إعادة احتلال الأراضي التي احتلها من قبل أسلافه في القرن الرابع الميلادي. فوجئ الإمبراطور في اللحظات الأخيرة بموقف خديوي مصر القادم إسماعيل باشا إبراهيم ومن بعد ذلك تعيين المحنك الشركسي موسي باشا حمدي كحكمدار عام السودان في مايو من عام ١٨٦٢م، فتراجع ثيودور عن فكرته تلك. وكعمل انتقامي ضد من رفضوا رغباته التوسعية، قام الإمبراطور ثيودور باعتقال وسجن القنصل البريطاني وأوبيين آخرين في بلاده مما اعتبرته بريطانيا عملا استفزازيا قامت على أثره بحملة

أسمتها حملة ماجدلا (وماجدلا هذه قرية في وسط إقليم الأمهرا أسمها أمبا مريم. المترجم) في عام ١٨٦٨م.

حمل عام ١٨٦٣م أول ظهور لأدهم بيه العريفي في تاريخ السودان. وبحسب تقدير المؤرخ ريتشارد هيل فلقد كان عمره حينئذ خمسين عاما تقريبا. ينتمي أدهم لفرع العريفية من قبائل بقارة دار حامد في وسط كردفان التي أصلها من دارفور وتشتغل بالرعي في مناطق جبال النوبة. كان أدهم بيه يعرف بين الناس بالتقلاوي. عمل الرجل في الفرقة التاسعة من الجيش المصري وكان قد عمل قبل نحو عقد من الزمان كقائد ثاني وكقائمقام في القوات التركية التي كانت تحارب في حرب القرم. عمل أدهم قبل ذلك محاربا تحت إمرة إبراهيم باشا الوالي في الحملة السورية عام ١٨٣٩م. رقي إلي أميرالاي وعينه الخديوي الجديد إسماعيل باشا إبراهيم بطلب من موسي حمدي في مايو عام ١٨٦٣م كقائد لكتيبة جديدة مقترحة.

كانت أولي مهام أدهم بيه العسكرية في السودان هي إخماد تمرد عسكري في كسلا في يوليو ١٨٦٥م عقب تمرد في أكتوبر ١٨٦٤م قام به جنود الفرقة الرابعة وهم مسلمون من قبيلة الدينكا احتجاجا على نقص في الغذاء وتأخير في المرتبات. فشلت وساطة طائفة الختمية بقيادة سيد الحسن الميرغني في عمل هدنة بين الحكومة ومتمردي كسلا. لذا فلقد طلب المسؤولون في كسلا المدد العاجل من الخرطوم. كان أدهم بيه أحد الذين قادوا الحملة التي توجهت إلي كسلا حيث حط رحاله بها في ٣٠ أغسطس، أي بعد ثمانية أشهر من بدء التمرد. كان المتمردون يولون أدهم بيه ثقة عظيمة وكان ذلك مما مكنه من إقناعهم بالتفاوض ثم الاستسلام.

لم تجد مجهودات أدهم بيه تلك فتيلا إذ وصل لكسلا بعد أسبوع من ذلك التفاوض جنود ألبانيون غير نظاميين قاموا بأمر قائد حامية كسلا بسجن المتمردين مما أدى إلي مواجهة بينهم وبين جنود الحكومة أسفرت عن مجزرة قتل فيها أكثر من نصف عدد متمردي الفرقة الرابعة، وأعتقل البقية وبلغ عددهم ٧٥٩ متمردا تم فيما بعد إعدام ٢٤٠ منهم رميا بالرصاص. احتج أدهم بيه بشدة ضد فشل الحكومة في احترام الاتفاق الذي أبرمه مع المتمردين. لم يجد احتجاجه فتيلا رغم أن الخديوي شخصيا كان قد أشاد بموقف أدهم بيه وإنجازه. تم علي أثر ذلك ترقية أدهم إلى رتبة اللواء (وكان حينها باشا). قام إسماعيل باشا بتعيينه قائدا للكتيبتين السوداء الأولى والثانية والتي تم حلهما وإعادة تكوينهما وإرسالهما إلي السودان. صار عدد الجنود في السودان سبعة آلاف رجل. بعد سنتين من ذلك لاحظ جعفر باشا مظهر الحكمدار

الجديد أن أدهم (وخلافا للأوربيين وكبار القادة الأتراك) لم يتلق أي تكريم، فقام بترشيحه لنيل وسام المجيد Medjidieh من الطبقة الثالثة.

تقدم الحكمدار جعفر باشا مظهر باستقالة غاضبة من منصبه في يوليو من عام ١٨٧١م، وهو نفس العام الذي تم فيه إعادة تقسيم حكومة السودان إلي حكومات إقليمية عديدة. أعقب ذلك ترقية أدهم باشا إلي أعلى رتبة في الجيش هي رتبة سر عسكر (seraskir) أي القائد العام للجيش السوداني. تم مرة أخرى ولأسباب أمنية إعادة توحيد قيادة الجيش السوداني في عام ١٨٦٧م وكما هو متوقع وبسبب توصية قوية من جعفر مظهر باشا تم تعيين أدهم باشا كسر عسكر الجيش السوداني.

بدأ الخديوي إسماعيل باشا في تنفيذ سياسته التوسعية الهادفة لضم أجزاء واسعة من أفريقيا انطلاقا من السودان، بيد أنه وخلال حملته التوسعية تلك أهمل الخديوي إدارة نقطة انطلاق حملته: السودان! تجاهل الخديوي كذلك الأزمة المالية التي بدأت تضيق الخناق علي مصر ومضى قدما في تحقيق طموحاته التوسعية في مناطق جنوب البحر الأحمر وخليج عدن. تم تعيين فيرنير مونزنقر (والذي عمل من قبل قنصلا لبريطانيا وفرنسا) كمحافظ لمصوع وحاكم لشرق السودان، وتم ضم بوقوس من الحبشة في أبريل من عام ١٨٧٢م. وفي تلك الأيام من عام ١٨٧٠م بدأ السير صوميل بيكر زحفه من السودان في رحلته الاستوائية لاحتلال الممالك التي تسمى الآن يوغندا، بينما تحركت حملة أخري بقيادة شيخ محمد الهلالي لضم دار فرتيت وشمالي بحر الغزال تمهيدا لضم دارفور.

كان من المتوقع مع كل هذا النشاط العسكري المحموم المنطلق من السودان أن تقوم الحكومة بالسيطرة على الأوضاع في السودان بصورة مركزية وقوية. بيد أن ذلك لم يحدث، بل إن الحكومة ازدادت ضعفا علي ضعف مع استقالة جعفر باشا مظهر وتقسيم حكومة السودان إلي أقاليم إدارية شبه مستقلة. مما زاد الطين بلة إن أحمد ممتاز باشا حاكم منطقة البحر الأحمر (والذي كان من المقربين لخديوي مصر وعينه كحاكم للخرطوم) تم اعتقاله في يوليو ١٨٧٢م بسبب تهم تتعلق بالفساد المالي والإداري وفرض ضرائب غير قانونية. صدر أمر لآدم باشا سر العسكر بأن يقوم باعتقال أحمد ممتاز باشا وأن يحل محله كحاكم عام. وقد فعل.

حلت أخيرا فرصة ذهبية لسوداني قوي أمين أن يتولى منصبا كبيرا ذا خطر... إن لم يكن الحكمدار فليكن الحاكم العام للمناطق جنوب الخرطوم. كان الرجل في منتصف الخمسينات من العمر وله في الإنجازات العسكرية سجل طويل مشرف في خدمة

الجيش التركي المصري، و وكان يتمتع بثقة لا حدود لها من جنوده السودانيين لشجاعته وعدالته ونظافة يده. بهذه الصفات كان الرجل مؤهلا تمام التأهيل لحكم السودان وقد برهن علي ذلك في خلال الشهرين القادمين، بيد أنه لم يك تركيا ولم يكن مقربا من الدوائر الحاكمة في مصر. لذا فلقد ذهب منصب الحاكم العام للشركسي إسماعيل باشا أيوب والذي عمل لسنوات طويلة في السودان وسبق له أن تولى منصب رئيس مجلس الخرطوم في عهد جعفر مظهر وقيادة الكتيبة الأولي في الخرطوم قبل أن يستدعى للرجوع لمصر.

ساق القدر آدم باشا أدهم وإسماعيل أيوب للعمل معا لإنقاذ حملة محمد الهلالي ناظر الخديوي في دار فرتيت. قام الهلالي في مايو من عام ١٨٧٢م بتكليف من جعفر مظهر بحملة ضد زرائب تاجر الرقيق شيخ الزبير رحمة منصور في بحر الغزال، بيد أن تلك الحملة منيت بالفشل ونجح ملازم الزبير الرئيس رابح فضل الله في قتل الهلالي. بعد نحو ثلاثة أشهر وصل الخبر إلي نائب الحاكم العام السر عسكر آدم باشا العريفي والذي نقل بدوره الخبر الحزين إلي القاهرة على الفور. كان تقدير آدم للموقف هو أن قتل الهلالي والقضاء على الحملة التي كان يقودها باسم الخديوي إنما هي نتيجة لخيانة من ملاك «زريبة الزبير». لذا اقترح على مصر أن توجه حملة إنقاذ من كردفان تصوب نحو بحر الغزال لاعتقال الزبير وإحضاره للخرطوم للتحقيق والمسائلة. وخلافا لنصيحة آدم باشا العريفي رمى الخديوي باللوم على الهلالي لهجومه على زرائب الزبير، بل وقرر تعويض ملاك الزريبة إن قرر المحققون أنهم تضرروا من تلك الحملة.

وصل إسماعيل أيوب إلي الخرطوم ليحل أحمد ممتاز واتخذ نفس الموقف اللائم لجعفر مظهر في خذلانه للهلالي. عقب ذلك مضى الزبير تاجر الرقيق العتيد في حملة باسم خديوي مصر لضم دارفور، بينما تم تعيين إسماعيل أيوب كحكمدار. وفي الحادي والعشرين من أكتوبر عام ١٨٧٢م تم إعادة آدم باشا العريفي ليكون سر عسكر الجيش (القائد العام) وظل الرجل يخدم بجد وإخلاص حاكم البلاد لسنين قادمات. لا يعرف علي وجه الدقة ما هي المهام المحددة التي قام بها آدم باشا في بقية حياته العسكرية.

عقب تنصيبه كحاكم عام للسودان بيوم واحد، أمر إسماعيل باشا أيوب في أكتوبر ١٨٧٢م باحتلال القلابات وهي نقطة الحدود التجارية الهامة مع الحبشة. عهد لآدم باشا العريفي بقيادة تلك الحملة وكان الرجل شديد الإدراك لخطورة الأطماع التوسعية عند جون التقري ورونا الأمهري وغيرهما من الذين خلفوا الإمبراطور

الحبشي ثيودور. أفلحت حملة احتلال القلابات في مايو ١٨٧٣م في مسعاها. رقي إسماعيل أيوب إلي منصب الحكمدار في ديسمبر ١٨٧٣ وعمل آدم باشا كنائب له إبان غياب إسماعيل عن عاصمته. كان الاستثناء لذلكم الترتيب هو تعيين رئيس محكمة الاستئناف محمد بيك حسن كنائب للحكمدار وذلك إبان غياب الحكمدار في حملته الكبيرة لمساندة ميليشيا الزبير باشا الخاصة والتي كانت تخوض حربا ناجحة في دارفور. عند أوبة الحكمدار للخرطوم في فبراير ١٨٧٥م تم تخطى آدم باشا العريفي مرة أخري حيث اختير خالد بيك نديم كنائب للحاكم العام.

ليس من المعلوم إن كان آدم باشا العريفي قد تقاعد وهو في رتبة سر عسكر، إذ إن تغييرات كثيرة قد حدثت في تلك السنين في سلم التعيينات والترقيات في السلكين الإداري والعسكري، منها تحول البلاد من أقاليم تتمتع بحكم «شبه مستقل» إلى «حكمدارية مركزية» وغير ذلك.

يفترض أن يكون آدم باشا قد تقاعد وهو في الستين من عمره، بيد أنه من المعروف أنه في أكتوبر من عام ١٨٩٧م لم يرد اسم آدم باشا العريفي من ضمن من رشحوا لشغل منصب الحكمدار بديلا لغوردون باشا.

سيذكر التاريخ أول سوداني وصل لرتبة لواء ثم سر عسكر في الجيش أثناء الحكم المصري التركي، لا سيما وأنه قد ترك وراءه اسما وتاريخا ممتازا مشرفا.



السودان الجديد

سيدني موسلي

تقديم: السطور التالية هي فصل من كتاب صدر للمؤلف عام ١٩١٧م في إنجلترا عن دار النشر «Cassell & Company» بعنوان «With Kitchener in Cairo». ولعل عنوان الفصل يذكر البعض منا بما ورد في الإنجيل من أنه «لا جديد تحت الشمس» .

رغما عن عمله الدؤوب المتواصل من أجل إصلاح مصر، فإن اللورد كيتشنر لم ينس السودان، بل ظل شغله الشاغل هو العمل على رفع مستوى ذلك القطر الواسع المترامي الأطراف لمراقي متقدمة من الرفعة.

كما نعلم فإن تقدم مصر كان – ولمدى بعيد- مرتبطًا أشد الارتباط بتقدم السودان، ولم يحاول اللورد كتشنر أن «يقسم ما لا يقسم»، بل عمل جاهدا لرفعة البلدين. آن لنا أن ننظر إلى ما قام به السير ريجيلاند وينجت (١٨٦١–١٩٥٣م، بريطاني خلف كتشنر في حكم السودان الإنجليزي المصري بين عامي ١٨٩٩– ١٩١٦م بعد استدعاء كتشنر للقتال في جنوب أفريقيا. المترجم) من جليل الأعمال مما سيسجله التاريخ في ما يقبل من أعوام. بيد أنه يكفي لنا، ونحن في القاهرة، أن نلحظ مجهوداته العظيمة في حركة إعمار السودان. قام اللورد كيتشنر في تقرير قدمه في عام ١٩١٢م بالإعلان (المفرح) عن إلغاء المعونة المالية السنوية التي كانت مصر تدفعها للسودان لأغراض مدنية منذ استعادته في ١٨٩٨م. بلغت تلك المعونة السنوية ٢٥٣٠٠٠ جنيها مصريا في عام ١٩٠٨م، وظلت تتناقص سنويا حتى أمر اللورد كتشنر بإلغائها نهائيا ، كان ذلك القرار انعكاسا للتقدم المطرد في السودان منذ عام ١٨٩٨م. كان عدد السكان في السودان قبل تمرد المهدي نحوا من ٩ ملايين نسمة، مات منهم قبل استعادة الخرطوم ٧ ملايين بسبب الحروب والمجاعات.

ذكر اللورد كيتشنر في تقريره في عام ١٩١١م أن «كل الناس كانت تكابد الجوع»، ولكن لم ينقض عام ١٩١٢م إلا وكان عدد سكان السودان قد زاد بما يفوق المليون نسمة، وقفزت عائدات الدولة من ٣٥٠٠٠ جنيه استرليني في عام ١٨٩٨م إلى نحو

١٣٧٥٠٠٠ جنيه إسترليني. بيد أن ذكرى سنوات ١٩١٣- ١٩١٤م ستظل هي الأكثر خلودا في تاريخ السودان الجديد. ففي يناير من عام ١٩١٣م تقدم وفد من رجال الأعمال بطلب إلى رئيس الوزراء البريطاني السيد/ هربرت هنري إسكويث لتقديم قرض لحكومة السودان مقداره ٣ ملايين من الجنيهات الإسترلينية، وسرعان ما طلب وزير المالية السيد / لويد جورج من مجلس العموم الموافقة على تمرير مشروع القرض المذكور للسودان، بعد أن رسم – وكما قالت صحيفة التلغراف- صورة زاهية مغرية عن إمكانات السودان في مجالات زراعة القطن. قالت الصحيفة: «لو أن الوزير كان يسطر كتيبا دعائيا لشركة تجارية لما زاد على ما قاله في البرلمان يومذاك». كانت حقائق الوضع تشير إلى أن التنمية المذهلة التي كانت تجري على أرض السودان الإنجليزي المصري بدت وكأنها أسطورة من نسج الخيال لمن لم يكن يتابع عن كثب ما يجري هنالك من عمل دؤوب.

بدأ في أوائل عام ١٩١٤م الصرف من قرض الثلاثة ملايين. قام اللورد كتشنر والسير ونجت والسير آرثر ويب، والسيد (السير الآن) ميردوخ ماكميلان، وخبراء ري آخرين بزيارات تفقدية إلى السودان، وأجروا فحوصا على تربته الجرداء، والتي كانوا يأملون في تحويلها لمزارع قطن ذات قيمة عالية.

لا زلت أذكر مقدار الحماس البالغ الذي عبر عنه وكيل الشؤون الهندسية عند عودته من السودان حين قال: «إنها أكثر أرض الله روعة»، مشيرا إلى أرض الجزيرة. وأضاف قائلا ووجهه يومض حماسا: «إنها ستنتج قطنا أفضل مما عندنا هنا. لقد بدأنا العمل، وسيبدأ اللورد كتشنر في طلب المال».

سوف يزيد سد على النيل الأزرق، وسد آخر على النيل الأبيض سعر أرض كان لا يتجاوز ١٠ قروش (للفدان؟ المترجم) ألفين ضعفا. كانت تلك هي سنوات الأمل التي شهدها اللورد كتشنر في ذلك البلد. ومع إطلالة عام ١٩١٤م بدأ ذلك العصر الزاهر في الظهور. تم اعتبار منطقة الجزيرة (والبالغ مساحتها مليون ونصف فدان) الأكثر مناسبة لإقامة المشروع. وأشرف العمل في إقامة السدين المنظمين لمياه النيلين العظيمين (الأزرق والأبيض) على الانتهاء، وغدا حلم تحويل «مستنبت بربرية المهدي القديمة» إلى «حقول فردوس» قريب المنال.

عطل قيام الحرب العالمية الأولي من تقدم تنفيذ تلك الطموحات الرائعة، بيد أنه – بالقطع- لم يقض عليها. كان من المؤمل إقامة سد على النيل الأبيض (في منطقة «جبل الأولياء» على بعد ٤٥ كيلومتر جنوب الخرطوم) وسد آخر على النيل الأزرق

في مكوار (قرب سنار). سيفيد المشروع الأول مصر إذ أنه سيستخدم كمستودع للمياه، زيادة لما تخزنه سدود أسوان وزفتا وإسنا وأخريات، بينما كان الهدف من المشروع الثاني هو رفع منسوب النيل بعد مرور الفيضان، وملء القنوات التي ستسقي سهول الجزيرة الكبرى.

لم يشك أحد في أن ملايين القرض الثلاثة ستكون أفضل استثمار ممكن، ولم يقلل من صحة تلك الفرضية إلا نشوب الحرب العالمية الأولى فى عام ١٩١٤م.



السودانيون في بداية القرن العشرين: «شعب متوحش»

وقعت بالصدفة على تقرير سري كتبه أحد أساطين الإدارة البريطانية في السودان وهو اللورد كرومر (١٨٤١ – ١٩١٧م) في بدايات الحكم الاستعماري الثنائي، وتحديد في ١٩٠٤م. وكان ذلك التقرير السري أحد التقارير المعنونة: «تقارير عن الإدارة المالية وأحوال السودان في عام ١٩٠٤م» وتم طبعه في الخرطوم بواسطة ف. نمر وشركائه. واللورد كرومر – لمن لا يعرفه- هو مبعوث جلالة ملكة بريطانيا العظمي والقنصل العام المقيم بالقاهرة، والذي بعث ليكون حسيبًا ورقيبا على إدارة أموال مصر (المثقلة بالديون) بعدما عبث بها الخديوي إسماعيل، وبعد الفوضى التي أعقبت ثورة عرابي الشهيرة.

وفي هذا الجزء من التقرير (والذي نشر في مجلة الدراسات السودانية في مارس من عام ٢٠٠١م في صفحة واحدة تحت عنوان Sudanquote يتحدث التقرير عن أحوال السكان المحليين في الجنوب والشمال في بدايات القرن العشرين. وما جاء في التقرير مثير للغيظ وداع إلى الكراهية...الغيظ من تعالي هؤلاء المستعمرين وعنصريتهم وتكبرهم، والكراهية لهم ولعدوانهم وتعديهم على شعوب الأرض في قارتنا السمراء. بيد أنه لا بد من الاعتراف بأن قراءة معاكسة أخري قد ترد تدفع البعض منا للاقتناع بكل أو بعض ما ورد في التقرير، إذ أنه يذكر من «الوقائع» و«الحقائق» (من وجهة النظر الاستعمارية) ما قد يجعلنا نتذكر كيف كنا وكيف أصبحنا. وهذا بالطبع يثير السؤال المكرور عن فضل (مستحق أو مزعوم) للاستعمار (الأبيض) علي الشعوب (السوداء)، وكيف أن الدفوعات المكرورة عن أن الاستعمار(الأبيض) قد غزا ديار قوم متحضرين متدينين منتجين عاملين، لهم صناعتهم المتقدمة وزراعتهم المتطورة ليس لها في الواقع ما يسندها من دليل أو سند، وأن الرجل الأبيض قد رُزيء بشعوب همجية متوحشة، وتحمل (مشكورا) عبء تمدينها، ونقلها إلي عالم جديد سعيد به كل وسائل التطور والتقدم والراحة، وتتوفر فيه خدمات تعليمية وصحية لم تكن في خيال أو متناول تلك الشعوب (السوداء).

يقول التقرير في مبتدئه أن عددا كبيرا من سكان السودان (خاصة في المديريات الجنوبية) هم من المتوحشين الوثنيين. وهم جنس كريم (fine race) بيد أن فيهم بربرية وهمجية كثيرا ما تلازم تلك الشعوب المتوحشة. وليست هنالك استثناءات

كثيرة لهذا القول غير أماكن قليلة زارها في الأعوام الماضية السير صمويل بيكر، ومكان آخر حيث أقيمت إرسالية نمساوية. لم يكن لهؤلاء السكان المحليين أي اتصال مع العالم الخارجي خلا ما حدث مؤخرا من «تجارب مريرة» مع القبائل العربية التي كانت تغير على قراهم، وتقتل كثيرا من سكانها وتخطف من تبقى منهم كعبيد.

يميز التقرير قليلا بين سكان شطري السودان فيقول عن سكان السودان في غير المديريات الجنوبية أنه يصعب القول بأنهم متوحشون تماما، إذ إنهم كانوا متقدمين بخطوة صغيرة علي الجنوبيين في ميدان الرقي والتحضر. ولاغرو إذ إنهم قد اعتنقوا الدين الإسلامي، ولكن ظلوا على تخلفهم عن ركب الحضارة، لا يفصل بينهم وبين التوحش إلا خيط رفيع. وليدلل كاتب التقرير على ما صحة ما يقول سرد هذه الحكاية القصيرة التي حدثت في ١٩٠٣م والتي قصها السكرتير القضائي السيد/ بونهام كارتر عن أخلاق وعادات أولئك الناس. تقول الحكاية إنه كان رجل يدعي وداعة ود غريب يسكن في سنار قد اتهم بقتل ابن عمه واسمه حامد ود غالي. وعند اعتقاله أدلي المتهم بالتصريح التالي: «لقد كان الناس يضجون بالشكوى من ابن عمي هذا لأنه يخرب زراعة جيرانه عن طريق السحر. لقد حذرته مرارا وتكررا من أفعاله تلك، بيد أنه ظل سادرا في غيه. فلم أجد بدا من أن أطرق بابه وانصحه بالعدول عن فعائله المشينة تلك. لم يقبل نصحي، بل انتزع مدية وهاجمني. رددت علي هجومه بطعنتين من مدية طويلة كنت أحملها، فأرديته قتيلا.»

علق السيد/ بونهام كارتر على إفادة الرجل المتهم بالقتل بقوله: «إن شهادة المتهم بالقتل ليس لها ما يدعمها أو يدلل عليها. يبدو أن السبب الرئيس وراء ارتكابه للجريمة هو خوفه من السحر.»

يقول التقرير في مختتمه بأن وقتا طويلا ينبغي أن يمر قبل أن يستوعب «هؤلاء الناس» الأفكار التي تسود في المجتمعات المتمدنة/ المتحضرة أو شبه المتحضرة، وأن تجد القبول عند كافة طبقات الشعب، والتي يمكن اعتبار «وداعة ود غريب» ممثلا لها.

لاشك أن ذلك التقرير، عند النظر إليه بمنظار اليوم سيعد تقريرا به من الهوى والميل والتحيز ما تنوء بحمله الجبال الراسيات. فليس من المقبول إنسانيا ولا الصحيح سياسيا الآن وصف بشر بالهمجية والتوحش لمجرد أن طرائق عيشهم وسلوكهم ومعتقداتهم الروحية تخالف ما ألفته في بلادك. ثم من أعطاك الحق في أن تصنف البشر بحسب نظرتك (الأحادية) إلي همج متوحشين، وآخرين أقل همجية وتوحشا؟ ومن نصبك مدعيا وقاضيا ومحاميا في آن معا لتحكم بين الناس وتصنفهم؟ ولم لا

تدعهم في حالهم، أو تقنع - كبعض المصلحين من الدعاة والمبشرين - بالدعوة بالحسنى لديانتك السمحاء دون جيوش غازية، واستغلال لثروات البلاد وأهلها.

ولم نسيت عند قولك بأن إغارة «العرب» على القبائل «المتوحشة» في الجنوب كانت هي مدخل تلك القبائل للعالم الخارجي أن تذكر أن تلك التجارة البغيضة مارسها العرب (وهذا جرم تاريخي عظيم ينبغي الاعتراف به، وعدم المراوغة في الإقرار به، والتكفير عنه)، ومارسها أيضا غيرهم من بعض السكان المحليين ومن البيض أيضا. وإن كانت تجارة الرقيق بغيضة لذلك الحد (وهي بلا ريب كذلك) فلم أقرها غوردون عند عودته الثانية (والأخيرة) للخرطوم، ودعا بالصوت العالي وهو يخاطب سكان الخرطوم للإبقاء عليها، وهو من بنى سمعته على محاربتها...أم هي «الانتهازية المتأصلة» في أقبح صورها.

أما حكاية جريمة القتل التي ارتكبها «وداعة ود غريب» في سنار فهي تجسيد حي لبؤس منطق المستعمر، الذي لا يلتفت لعورات نفسه، ويجهد نفسه فوق طاقتها ليبين للناس مدى توحش أولئك السود الأوباش المفرط! فمن تلك القصة التي لا يبدو أنها جريمة بشعة أو غير عادية كما حاول اللورد كرومر تصويرها، إذ أن البشر (من كل الأصناف والألوان منذ آدم وحواء) قادرون على ارتكاب ما هو أفظع منها لا يقاس. فما هي الفظاعة المفرطة الشاذة قتل رجل لقريبة بمدية (حتى وإن بدم بارد) مقارنة بما نقرأ ونسمع وبصورة يومية راتبة في الصحف والتلفاز؟ وماذا عن قتل الآلاف بغاز الخردل خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨م) ومحرقة اليهود والغجر بواسطة النازية (الشديدة البياض والتحضر) خلال الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥م)

مما يسر المرء ويفرحه أن تلك صفحة (سوداء) في تاريخ المستعمر الأبيض قد تم طيها، وتجاوزها الناس من المتحضرين المتمدنين (الأول) وممن تم إدخالهم (لاحقا) طوعا أو قسرا في سلك التحضر والتمدن...بيد أن التاريخ يجب ألاَّ ينسي، وأن لا نكف عن تذكر مقولة علقت بذاكرتي من زمن الطفولة وكانت تذاع من إذاعة أم درمان في عصر كل يوم في «برنامج الجنوب» أيام الفريق عبود في الستينيات...كان المذيع يكرر بصوت جهير لا ينسى وبعربي جوبا: «**عشان ما ننسى، لازم نعرف الحقيقة**»!



شذرات من مقال عن بعض الطقوس الاجتماعية عند الدينكا

جيفري ديل

تقديم: نشر الدكتور جيفري ديل هذه الدراسة المطولة في المجلة الأميركية الرصينة المختصة بعلم الأجناس American Anthropologist في العدد ١١٢ عام ٢٠١٠م. يعمل المؤلف مديرا لمركز «دراسات علم الأجناس والمياه لصحة العالم» في كلية الطب بجامعة جنوب كارولينا بالولايات المتحدة.

اخترت من ذلك المقال الأكاديمي المعنون:

Torture by Cieng: Ethical theory meets social practice among the Dinka Agaar of South Sudan

شذرات قليلة عن بعض ممارسات فرع من فروع قبيلة الدينكا (من أكبر قبائل السودان القديم) هم دينكا اقار (والذين ورد في بعض المصادر أنهم ثاروا على المستعمر البريطاني قرب مدينة رمبيك في ١٩٠٢م وقتلوا القائد البريطاني). مما يبعث على الرثاء ويثير الغيظ أن كثيرا من أهل التخصص (وحتى غيرهم) من السودانيين لا يقومون بمثل هذه الدراسات، ويؤثرون «السلامة» والقعود في المدن الكبيرة وممارسة هوايتهم المعتادة في التنظير الشفاهي، ويتركون «الرجل الأبيض» يؤدي عبئه القديم (الأبدي، فيما يبدو) في البحث في شئون البلاد وشعوبها.

نبذة تاريخية مختصرة: منذ أن نال السودان استقلاله في عام ١٩٥٦م كانت كل من الحكومة السودانية في المركز، والقوات المتمردة في الجنوب تحتفظ بنظم قانونية واقتصادية وقوات مسلحة وهوية ثقافية منفصلة. وظل السودان فعليا يعيش كدولتين منفصلتين، اقتصرت تداخلاهما على الصراع (وليس التعاون لمصلحة شعبيهما) والذي امتد ليغدو أطول حرب أهلية في التاريخ الحديث. استمرت الجولة «الأخيرة» من الحرب بين الشمال والجنوب ما يزيد عن ٢١ عاما، قتل فيها ما يزيد عن مليون ونصف من البشر بحسب تقديرات منظمة الصحة العالمية في عام ٢٠٠٥م. لأغراض هذا المقال سيستعمل تعبير «جنوب السودان» ليعني الولايات العشر التي أعطيت حق الحكم الذاتي بموجب اتفاقية الحكم الذاتي الموقعة في عام ٢٠٠٥م. يجب تذكر أنه، وبالإضافة للحرب الأهلية التي كانت قائمة بين القوات الحكومية الشمالية والقوات الجنوبية، فلقد كانت هنالك أيضا حروب صغيرة عديدة أخرى تدور بين الأعراق

المختلفة في جنوب السودان والتي ظلت لقرون في حالة عداء مستمر.

كانت تلك الحروب القبيلة تستعر في الغالب بين قبيلة الدينكا وبين غيرها من العرقيات الصغيرة الأخرى مثل النوير والأتوت. تدخلت أحيانا قوات الحركة الشعبية لفض تلك النزاعات المسلحة، بيد أنها لم تصب إلا نجاحا قليلا في ذلك. في تلك الحرب ارتكب الجيش (لم يحدد المؤلف من/ ما هو المقصود هنا. المترجم) أعمالا وحشية ضد السكان، فسطا على أبقار الدينكا (وهي تعد عملتهم التي يتعاملون بها) وأخذها كبار الضباط كغنائم شخصية. جعلت الحملات المتكررة للقوات المسلحة الهادفة لإخماد النزاعات الإقليمية في أوساط الدينكا من استعمال القوة العسكرية ضد المدنيين شيئا معتادا، وساهمت في توطيد دعائم سطوة قادة الجيش على المواطنين، وعلى حكومتهم المدنية الأخرى (أشار المؤلف هنا لمؤلف د/ فرانسيس دينق المعنون: «حرب الرؤى» الصادر في عام ١٩٩٥م).

عن عمل المؤلف: عمل د/ ديل منذ عام ٢٠٠٣م حتى بداية عام ٢٠٠٨م كطبيب وباحث مستقل في قرية تكاجوك Ticagok في جنوب السودان وفي ما حولها. أتى الرجل في بادئ الأمر للعمل في الجنوب كطبيب بدعوة من إحدى المنظمات غير الحكومية لمدة سبعة عشر شهرا، وجمع خلال عمله الحقلي كثيرا من القصص عن حياة الناس في المنطقة التي عمل بها، وقام بعمل استبانات عن معرفتهم وسلوكياتهم وممارساتهم (تعرف مثل هذه الدراسات اختصارا بـKAP - Knowledge, Attitudes and Practices. المترجم) وكذلك استبيانات عن القرابات، وجمع كذلك صورا وتسجيلات كثيرة عن أحوال السكان في تلك المنطقة. سجل كذلك إفادات من أفراد وعائلات تعرضت للتعذيب، ومن القادة المحليين ومسؤولين حكوميين وقادة في الجيش، وكذلك من «مخبرين» وأفرادا عاديين من قبيلة الدينكا.

ذكر المؤلف أنه قرأ لهؤلاء الناس ما كتبته، واستعان بكثير من تصويباتهم وإضافاتهم ونفاذ بصيرتهم. جمع د/ ديل نحوا من ٤٤٣ تسجيلا لمقابلات مع السكان المحليين، وللاجتماعات وللطقوس الممارسة، وجمع كل ما تحصل عليه في جداول وأشكال بعد أن أخضعها لعمليات إحصائية مناسبة. يقول المؤلف أنه (بالإضافة إلى هذه الأعمال «الجانبية» فقد نفذ – مع آخرين- وبعون سخي من متبرعين (لا ريب أنهم من غير بني جلدتنا. المترجم) بناء مستوصف صحي كبير، وساعد في بناء مدرستين وعدد من مشاريع المياه.

القصة الأولى:

درس في «السينق **cieng**»: بعد مرور خمسة أيام من افتتاحنا لعيادتنا في تكاجوك تلقيت دعوة مكتوبة للمثول أمام كبير القوم وقاضيهم. امتثلت للأمر وذهبت إلى

حيث كان الزعيم تحت شجرة ضخمة من أشجار التين مع ثلة من شيوخ القبيلة الذين بدؤوا في التقاطر على مهل. تمت مسألتي عن أشياء من قبيل: لماذا لم أعين أناسا بعينهم، ولماذا لم أقم بذبح ثور عند افتتاح العيادة الطبية للظفر ببركات الرب «نيهلاك Nhialac (وهذا طقس من الطقوس التقليدية المعتادة عند قبيلة الدينكا)، وسئلت كذلك عن سبب حرقنا لمراتب قديمة بينما كان من الممكن إعطائها لبعض السكان. كان كبير القوم يخاطبني عند طرحه لأسئلته تلك باسمي الدينكاوي. رددت بالقول أننا عينا من نراه أهلا للمهمة، واتفق معي كل الحضور في أن هذا من حقي. كذلك شرحت لهم أننا قمنا بحرق المراتب لأنها كانت ملوثة بأمراض من كان ينامون عليها – دون غطاء- من المرضي. هز الجميع رؤوسهم دلالة التفهم والموافقة. أخبرتهم أيضا بأننا كنا قد خططنا لإقامة احتفال بمناسبة افتتاح العيادة الطبية.

بيد أن نزاعا دمويا كان قد شجر بين طرفين مسلحين على بعد أقل من ٤٠٠ متر من بوابة العيادة، ورأينا أنه سيكون من عدم الحكمة أن نجمع عددا كبير من الناس في مثل تلك الأجواء. وافق الجميع على ذلك التفسير. يبدو أنهم لم يكونوا معترضين على أي من القرارات التي اتخذناها. كل ما في الأمر هو أننا لم نجلس مسبقا مع كبار الشيوخ في القبيلة للتشاور قبل أن نقدم على ما أقدمنا عليه. أحس هؤلاء الشيوخ ببعض الضيق من حالة أننا كنا نقوم بأعمالنا بصورة مستقلة عنهم، وهم يريدونا أن نعمل جماعيا مع أفراد المجتمع المحلي، وليس بمعزل عنه. للدينكا كلمة تفيد معاني مثالية للوحدة والقرارات الاجتماعية المتخذة جماعيا هي كلمة «سينق cieng». تعني الكلمة حرفيا «العيش في ود وصداقة مع بقية أفراد المجتمع» أو «العيش في مكان واحد، أو حي» أو «شخص يمكن تبادل الآراء (السياسية) معه». ذكر المؤلف أيضا تعريفا مطولا للكلمة أتى به د/ فرانسيس دينق في كتابه الصادر في ١٩٧٢م عن الدينكا.

خلصت إلى أنني استدعيت لمقابلة زعيم القوم وكبرائهم، ليس نتيجة لقرار اتخذته، أو عمل قمت به، بل لتفسير عملية (process) اتخاذ هذا القرار أو تنفيذ ذلك العمل. كان القوم يعتقدون أن ما قمنا به يفتقد إلى «السينق cieng»، وهو بالتالي عمل غير صالح، بغض النظر عن ما أفضى إليه ذلك العمل من خير عميم.

القصة الثانية:

بداية المشكلة: تتلخص القصة الثانية التي حكاها المؤلف عن نزاع مسلح شجر بين فرقتين من أفراد دينكا اقار هما البنيار والنيوي. بدأ النزاع في حفلة رقص شبابي. جرت العادة أن يأتي الشاب حاملا عصا صغيرة ويتقدم نحو الفتاة التي تعجبه

ويدعوها للرقص معه بمسها مسا خفيفا بعصاه على كتفها. حدث قبل عام كامل من ذلك النزاع أن قام شاب من النيوي باختيار فتاة من البنيار للرقص معه، لكن الفتاة رفضت العرض، وكررت رفضها عندما طلب منها الرقص معه في رقصة تالية، فأسرها الشاب في نفسه وقرر الانتقام لكرامته التي أهدرت أمام الآخرين. بعد مرور شهور على ذلك الحفل، صادف الشاب الدينكاوي من فرع نيوي وهو مع أبقاره رجلا دينكاويا آخر من فرع بينار يمت بصلة قرابة لتلك الفتاة، فعالجه بعصاه بضربة شجت رأسه.

قام الشاب البيناري المضروب فيما بعد برد الهجوم عليه وانتقم لنفسه بضربات متتالية على ذلك الشاب النيوي أطاحت به أرضا وأسلمته سرير المستشفي أياما عديدة. ما أن شفي الشاب النيوي حتى قرر الانتقام، فدعي الشاب البينارى للقتال. رفض الأخير الدعوة للنزال بذريعة أنه لم يعد يحس بغبن تجاهه، وأن لا داعي للقتال في أمر مضى. أصر الشاب النيوي على الانتقام، وتصاعدت الأمور وزادت تعقيدا عندما حملت فتاة أخرى من البينار من رجل من النيوي. معلوم أن الخطاب في قبيلة الدينكا يحبون الطول في الرجل ويقدرونه، لذا فإنهم لم يقبلوا بالرجل النيوي زوجا وصهرا لهم، إذ أنه كان قصير القامة لا يصلح زوجا لفتاتهم. تعقدت الأمور أكثر عندما تنازع البنيار والنيوي على مرعى للأبقار، فحدثت المزيد من الصراعات الدموية.

حكي المؤلف باستفاضة عن قصة أخرى تلت القصة الأولى أدت لمزيد من التعقيدات في الموقف عن خطبة رجل (آخر) من البنيار لفتاة من النيوي، قادت إلى مزيد من سفك الدماء، وعن فظائع وحشية منها أن رجلا قصيرا من رجال النيوي قتل رجلا طويلا من رجال البنيار. أصر رجال البنيار أن قتل الجاني النيوي وحده ليس كافيا، إذ لا يستوي الرجل الطويل والقصير عندهم، وطالبوا بقتل رجلين من رجال النيوي كعقاب «تعويضي» لما فقده ذلك الفرع القبلي.

القصة الثالثة:

قتل في مؤتمر السلام: تقول القصة هذه والتي عنوانها «قتل في مؤتمر للسلام» إن لام مالوك (وهو زعيم محترم من البنيار) حاول أن يصلح بين فرعي القبيلة، فدعا لاجتماع لكبار القوم من الفرعين المتصارعين. سرت إشاعة (شائعة) مفادها أن البنيار يدبرون مكيدة لقتل كبار رجالات فرع النيوي عند قدومهم لذلك الاجتماع، وذلك انتقاما من مقتل عدد من أفراد فرعهم. تجاهل لام مالوك التهديدات والشائعات واستخدم نفوذه وسلطته لإجبار كبراء فرع النيوي لحضور ذلك الاجتماع. مضى الاجتماع بسلام، ونحرت الذبائح، وعبر شيوخ الفرعين عن ضرورة إيقاف ذلك الصراع الدامي. عند قرب نهاية الاجتماع (في

ذات الشجرة الضخمة التي أحضرت للمثول أمام كبار القوم تحت ظلها بعد أسابيع) برز من بين العشب الكثيف المجاور رجل من البينار كان يراقب المشهد منذ بدايته، ومعه صاحب له، وانتزعوا بسرعة فائقة بندقية من يد جندي كان موجودا في المكان، وأطلقوا النار على شيوخ من النيوي، فقتلوا احدهم، وأصابوا آخر إصابة بالغة، ثم اختفوا في سرعة البرق في دغل مجاور.

حدثت هذه القصة بعد نصف عام من حمل الفتاة من البنيار من رجل من النيوي، وحدثت بعدها حوادث قتل عديدة. من اللافت للنظر في هذه الحوادث أن رجال القبيلة لا يذكرون اسم قاتل بعينه عند رواية الأحداث، بل يذكرون أن «بنيارا» قتل «بنيويا». ليس هنالك من يلتفت لبراءة (أو إدانة) شخص بعينه، وإنما يذكر فقط فرع القبيلة كلها عند الحديث عن ما حدث من قتل أو جرم.

القصة الرابعة:

رجل بريء يجلد: كان القائد جون أويل هو من خطط وقاد الكمين (الناجح) الذي نصبه الجنوبيون في عام ١٩٨٥م للجيش السوداني، وفيه تم تدمير كامل الفرقة الحكومية، ولم يبق منها إلا نحو درزينة من العربات العسكرية المدمرة والمحترقة، كانت مقدماتها متجهة نحو الشمال، وكأنها كانت في طريقها للهرب نحو الخرطوم. كان جون أويل – مع غيره من الجنوبيين المحاربين- يؤمن أشد الإيمان بأنه يحارب من مارسوا عليه العسف والظلم والاضطهاد طويلا. كان جون أويل يعد «بطلا قوميا» بين شعبه، حتى عين كحاكم في احدي الولايات الجنوبية. خاض في وظيفته الجديدة معارك أخرى... ليس ضد الشماليين هذه المرة، بل ضد بعضا من بني جلدته في حروب قبيلة صغيرة.

كنت في تلك الأيام التي قضيتها في الجنوب قد علمت عن مقتل ١١ من الشباب الجنوبيين في صراع دموي بين فرعي قبيلة الدينكا من البنيار والنيوي. سمعت فيما بعد أن هنالك أعدادا أخرى (لم تحدد) قد قتلت أيضا. هجر الناس قراهم وفروا منها للغابة عبر طرق وممرات طالما ألفوها. تجمع من بعد ذلك بعض الشباب من «معسكر مالكي الأبقار» وحملوا السلاح وخرجوا لقتال «أعدائهم» في سلسلة من الحملات الانتقامية. كانت الحصيلة (الرسمية) لتلك المعارك هي ٥٢ قتيلا. أسر لي نائب وزير الصحة الجنوبي إن الرقم الحقيقي للضحايا هو أضعاف ذلك الرقم، إذ أن قتلى شباب «معسكر مالكي الأبقار» لم يكونوا – كما هي العادة- يدخلون في الحساب!

كنا ذات يوم أنا وصديق لي في طريقنا من العيادة إلى خيام معسكر سكننا حين مرت بنا سيارة حكومية تحمل الوالي مع عدد من الضباط. مرت من بعد ذلك عدد من سيارات

الجيش تحمل عددا كبيرا من الجنود. لمحت في المقعد الخلفي في سيارة SUV في وسط الموكب العسكري القائد لام مالوك، صديقي الجنوبي الصدوق. كان الجند قد أتوا بصديقي من معسكر الجيش الرئيس بعد جلده. كان الضحية يجلد بعنف شديد بسوط أو عصا خشبية بعد أن يربط حول جذع شجرة بحسب عدد الجلدات التي تقررها المحكمة أو القائد العسكري. كانت تلك المرة الأولى التي يجلد فيها لام مالوك، وسيجلد من بعد ذلك مرتين أخريين.

القصة الخامسة:

وصول الجنرال وموت شجرة مانجو: يعترف القادة المحليون والإقليميون بأن قرية تيكاجوك Ticagok في جنوب السودان وما حولها منطقة عصية على الحكم، إذ إن سكان تلك المنطقة من دينكا أقار معرفون بأنهم محاربون يعتزون بأنفسهم وبقدرتهم على خوض الحروب والقتل من أجل أي قضية تقريبا، والقتال هو الطريقة (الوحيدة) لرجال تلك المنطقة من رعاة الأبقار لنيل سمعة طيبة وشهرة واسعة في الشجاعة والرجولة (الحقة). لقد شاهدت بأم عيني رجال تلك المنطقة من المعتقلين وهم يسبون جلاديهم ويزدرون بمن يقيدهم بالسلاسل الحديدية. لم يسمحوا لجلاديهم قط بتحطيم روحهم المعنوية. كان ذلك يثير غضب جون أويل ويدعوه لمزيد من العنف ضد المعتقلين.

قرر أويل أن لا بد من تعيين قائد عسكري للمنطقة يكون غاية في الشدة والصرامة والقسوة حتى يتمكن من فرض السلام في تلك المنطقة المضطربة. وقع اختياره على الجنرال ملوال كوات، وهو دينكاوي من فرع مختلف ومنطقة أخرى. ما أن حط الجنرال رحاله في عاصمة المنطقة (والتي كانت تبعد بنحو ٤٠ كيلومترا من معسكرنا) حتى بدأ في العمل ليثبت أنه بالفعل «الرجل المناسب في الموقع المناسب»، وذلك بقطع شجرة المانجو. كان تعبير «قطع شجرة المانجو» هو التعبير المحلي لمثل ما قام به ذلك الجنرال.

كانت هنالك شجرة مانجو كبيرة على جانب الطريق في طرف المدينة الجنوبي يستخدمها الأهالي – ومنذ سنوات- كمقر للاجتماعات، وللعب الورق (كونكان ١٤) وللدردشة حول «ساس يسوس» وسماع آخر الأخبار من المحطات العالمية، خاصة هيئة الإذاعة البريطانية، حتى أن رجال تلك الشجرة من مختلف الأعمار والاتجاهات كانوا يسمون شجرتهم «البي بي سي». كانت تسود بين جل مرتادي تلك الشجرة روح من الحرية والانطلاق والتحرر من الخوف. كان بعض «الخواجات» (غالبا من البيض ومن غير رجال الدينكا) يغشون أحيانا تلك الشجرة، بيد أنه ليس من المؤكد إن كانوا يشاركون في ما يدور من نقاشات سياسية تحت ظلها الظليل.

تشقق الحديث (السياسي) عند البعض وتفرع حتى طال صراحة بعض الضباط، وعن كيف أن الحال كان سينصلح لو تم عزل بعضهم عن مراكز القوة والقيادة والسلطة.

وصلت أنباء تلك الانتقادات التي كان يجهر بها بعض مرتادي تلك الشجرة لمسامع القائد جون أويل فقام بعمل ناجز وعلني لا يخلو من غرابة. قاد بنفسه موكبا عسكريا مع ثلة من الجنود المدججين بالسلاح إلى تلك الشجرة وأحاط بها. خطب في المحاصرين تحت ظل الشجرة من لاعبي الورق بالآتي: «إن كان من بينكم أحد أعلى رتبة مني فليظل جالسا، ولتقف البقية ». هب بالطبع الجميع وقوفا. مشى القائد يتوكأ على عصاه بهدوء وتمهل نحو الرجال الواقفين وتفحص في وجوههم. أمر بأحد «الخواجات» فأخرج من وسط رجال الدينكا وأوسعه ضربا مبرحا. ما أن فرغ منه حتى أمر جنوده بضرب كل الموجودين ففعلوا، ثم اعتقلوا بعضا منهم وأودعوهم السجن. لم يغادر المكان إلا بعد أن أصدر أمره بقطع الشجرة، وتم في نهاية ذلك اليوم تنفيذ الأمر باجتثاث الشجرة. حتى يوم كتابة هذا المقال ظل جزع الشجرة الضخم المقطوع ملقى على الطريق، ربما لتذكير كل من تسول له نفسه نقد الحكومة بالأخطار المترتبة على فعلته!

عند وصول الجنرال ملوال كوات لقريتنا أمر بالقبض فورا على عشرات الأفراد من لهم أدنى صلة بالرجل الذي اغتال شيخ القبيلة في مؤتمر للسلام سبق الإشارة إليه. شهد الكثيرون ما حدث ذلك اليوم، وكان القاتل رجلا معروفا بين الناس. رغم ذلك أصر الجنرال ملوال كوات على اعتقال كل فرد في أسرة القاتل. كان القاتل قد فعل فعلته تلك ثم ذهب لمنزل أخته حيث حلق شعر رأسه (ليعطيه ذلك كما قال بعض الذكاء) وليتدبر في أمر تفادي القبض عليه. سمع الجنود بتلك القصة فاعتقلوا أخت الرجل وأوسعوها ضربا وتعذيبا. خلال التعذيب أقرت الأخت أن أخاها القاتل زار والدته لمدة قصيرة وكان يتحدث عن تسليم نفسه للسلطات.

زعمت الأخت أن والدة القاتل أثنته عن تسليم نفسه، وأخذته إلى كاهنين لعمل سحر يقيه شر الاعتقال. تم على أثر ذلك اعتقال الأم كذلك وجلدت بالعصا – وعلى فترات- ما مجموعه ٣٠٠ جلدة (أفادت بعض المصادر أن والدة القاتل جلدت نحو ألف جلدة)، وهذا أكبر رقم سمعت به في حياتي. تم كذلك اعتقال الكاهنين وجلدهما. رأيتهما في السجن، بيد أني لا استطيع تأكيد حالتهم الصحية بعد الجلد، ولا علم لي بأنهما استطاعا تحمل الجلد، وعاشا بعده. صرح الجنرال ملوال كوات بأنه لن يتوقف عن الجلد والتعذيب إلا بعد أن يسلم القاتل نفسه للسلطات. سبق لي أن لاحظت أن السكان كانوا في حالة شكوى دائمة من الجنرال ملوال كوات لأنه

كان يداوم غزو ديارهم ويسلب أبقارهم ويعذبهم بوسائل بشعة منها على سبيل المثال أن يحفر للضحية حفرة يرمي فيها وتشعل حولها نار متقدة، أو أن يحصر الضحية في مكان بالغ الضيق ثم يرش عليه رماد روث الأبقار. لم تسلم عيادتنا الصغيرة من شرور ذلك الرجل وجنوده، الذين كانوا «يغزون» عيادتنا طلبا للسيارات والأدوية.

كان «مخبرينا» يتفهمون سلوك الجنرال ملوال كوات على أنه سلوك رجل شديد القسوة قد كلف بمهام عسيرة، وأنه كان يقوم بمهمة عقاب جماعي لجريمة ارتكبها فرد واحد من فرع للقبيلة، ويرون ذلك أمرا «معقولا» يسهل تفسيره عندهم.

القصة السادسة:

ذنب المؤتلفين: قام الجنرال ملوال كوات باعتقال كل من فر من مكان جريمة القتل التي حدثت في «مؤتمر السلام» الذي دعا له كبير القوم. فر من المنطقة أحد الرجال من دينكا البينار (كان يعمل ممرضا) عندما سمع بأن دينكا النيوي ينوون الانتقام لمقتل كبيرهم. تم اعتقاله بدعوى أنه فر مع رجل يحمل بندقية رغم أن كثير من أصدقائه ومعارفه أكدوا للسلطات أنه لا يملك سلاحا. قابلت والد الرجل في مركز للشرطة، وكان في غاية الضيق وهو يحكي أن ولده بريء مما نسب إليه، وأنه يلقى أسوأ معاملة في السجن. حاولت التوسط لإطلاق سراحه، ولكن دون جدوى. بعد شهور من السجن والجلد المتواصل وافق الجنرال ملوال كوات على إطلاق سراح الممرض المسكين، وتركه في عهدتي الشخصية. دبرنا له وظيفة كممرض في عيادتنا لنضمن إطلاق سراحه. طالبني كثير من المسجونين بالتوسط لإطلاق سراحهم كما فعلت مع ذلك الممرض، بيد أني لم أنجح في ذلك إلا في حالات قليلة فقط. اكتشف الممرض عند إطلاق سراحه أن رجال الجيش قد استولوا على كل أبقاره وأكلوها، وبذلك نجحوا في القضاء عليه فعليا، إذ أنه فقد كامل ثروته ولم يعد له في الزواج من أمل.

كان موقف والد ذلك الممرض غريبا. فمن ناحية كان يؤمن ببراءة ولده ويدافع عنه، وطلب مني التوسط لإطلاق سراحه، ومن ناحية أخرى كان يؤمن أيضا أن فرع القبيلة التي ينتمي لها القاتل مسئولة – بصورة جماعية- عما جرى. هذا ما اسميه «ذنب المؤتلفين».

بعد شهور من وقوع الحادثة وأسابيع من إطلاق سراح الممرض، وفي يونيو من عام ٢٠٠٧م سلم القاتل نفسه للسلطات. كان الرجل قد أصيب بطلق ناري في ساقه قامت بنتي الكبرى بعلاجه. وجدته حيث كنا نقوم بتطعيم الجنود والمساجين ضد داء التهاب السحايا (السحائي)، ذلك المرض الذي كان قد انتشر في المنطقة قبل شهور وقضى على المئات من

الأطفال. استخدمنا الوباء كغطاء للوصول للسجناء، وحررنا بعضهم، ودافعنا عن آخرين. في يوم من الأيام كنت في السجن أقوم بالتطعيم حين شهدت مساجين يجلدون. لعل تلك كانت رسالة من السلطات لي لتذكرني بمن بيده القيادة. وبناء على نصيحة من منظم عالمية للدفاع عن السجناء سجلت خلسة في ورقة مخصصة للتسجيلات الطبية أسماء المساجين، وأريت المسؤولين ذلك السجل آملا أن تسهم معرفة العالم الخارجي بأسماء أولئك المساجين في حمايتهم على الأقل.

بعد ثلاثة أيام من القبض عليه، نجح ذلك السجين المتهم بالقتل في الفرار رغم أنه كان مربوطا بسلسلة حديدية إلى مسجون آخر. ما زال ذلك السجين فارا بعد مضي ٣ سنوات من القبض عليه أول مرة. أقامت الحركة الشعبية قاعدة دائمة لها في قريتنا «تيكاجوك»، وأمر قاضي هناك بإطلاق سراح جميع السجناء هنالك. لم تدفع أي تعويضات للأبرياء الذين تمت مصادرة ممتلكاتهم وجلدوا ظلما دون ذنب جنوه. تم نقل الجنرال ملوال كوات لمنطقة أخرى لمدة عام، ثم استدعى مرة أخرى لمنطقتنا بعد حدوث مزيد من الصراعات القبيلة المسلحة. قال لي أحد أبناء الجنرال: «إن المنطقة تحتاجه لأنه يعرف كيف يتعامل مع هؤلاء الناس» .

أطلق سراح لام مالوك أخيرا بعد ثبوت براءته مما نسب إليه، وبعد أن شفيت الجراح التي نتجت عن الجلد المستمر. رحل الرجل إلى جوبا حيث بدأ في عمل تجاري متواضع. ظل كثير من دينكا النيوي يطالبون بقتل لام مالوك الدينكاوي البينيار جزاء على جريمة اغتيال كبير دينكا النيوي. رحل غالب دينكا بنيار من قرية "تيكاجوك" بعد الأحداث طلبا للسلامة، وانتقلوا لمنطقة بعيدة أقاموا فيها قريتهم الجديدة. تواصلت الحملات الانتقامية بين فرعي القبيلة، واستمرت معدلات القتل في التزايد. وفي هذا الأثناء نشب قتال عنيف بين دينكا أقار والأتوت لأسباب تشابه ما ذكرنا من قبل.

خاتمة: اختتم المؤلف مقالته بنقاش فلسفي عن «حقوق الإنسان» من وجهة نظر عدد من الفلاسفة من أمثال سيكتس أمبريكس وديفيد هيوم ونيشتة وهيجل، وبين الفروقات في مفهوم «حقوق الإنسان» عند أولئك الفلاسفة، وعن علاقة كل ذلك بالأحوال السياسية والواقعية العملية، وطرق التعامل مع «حقوق الإنسان» في ظروف وأوضاع مختلفة في أرجاء العالم. ناقش كذلك مفهوم الدينكا للعقاب، ومسئولية الفرد (البريء) عن أخطاء فرد أو أفراد من قبيلته. يقول الكاتب أنه يجب تحليل وفهم «العنف» الوارد في القصص المذكورة ضمن فهم شامل لرؤية الدينكا لمفهوم «العقاب الجماعي» والأوضاع السياسية غير المستقرة وحالة الحرب التي تمر بها البلاد، وكذلك مفهوم «السينق Cieng » الذي سبقت الإشارة إليه، وهو مفهوم عند الدينكا يختلف عنه عند جيرانهم النوير.

رئيس أمريكي فى الخرطوم

تقديم: زار السودان فى عامي ١٩٠٩ و١٩١٠م الرئيس الأمريكي ثيودور روزفلت (٢٧ / ١٠ /١٨٥٨م – ٦/ ١٠/ ١٩١٩م) فى رحلة للصيد، وفى الخرطوم ألقى خطابا أمام الإرسالية الأميركية فى السادس عشر من مارس من عام ١٩١٠م. الخطاب – مثله مثل خطب كل السياسيين منذ أن عرف الإنسان السياسة – حمال أوجه، ويفهم كل من يسمعه أو يقرؤه ما يريده منه. بالطبع يجب قراءة الخطاب فى سياق إطاره التاريخي والسياسي الذي قيل فيه. ففى الخطاب إشارات مهمة حول التفكير الغربي تجاه الاستعمار والمستعمرات عموما، ويحمل الخطاب أيضا كثيرا من الأفكار الرأسمالية/ الغربية المحافظة المعروفة حول ضرورة الإنعتاق من ربقة وأغلال العمل الحكومي وإعلاء دور العمل المدني الحر ورفع شأن المبادرة الفردية وغير ذلك.

قدم القس الدكتور جون غيفن الرئيس الأمريكي ليخاطب المحتفين به.

لكم كنت أتوق لزيارة السودان. لا أشك لحظة فى حقيقة أنه ما من منطقة على ظهر هذه البسيطة شهدت تحولا وتطورا سريعا وحقيقيا خلال الاثنى عشر عاما الفائتة مثل ذلك الذي شهده السودان، وذلك بفعل إحلال المدنية والتحضر محل التوحش والهمجية. أعتقد أنكم تستشعرون واجبكم الخاص تجاه الحكومة التي تنعمون بالعيش تحت ظلها، وترجمة هذا الشعور بالواجب نحو الحكومة يجب أن تكون بالعمل – وبإخلاص – لضمان ديمومة هذه الأحوال الحالية الرغدة. ينبغي على كل مواطن سوداني صالح أن يحافظ على الأوضاع السائدة، وأن يعمل على عدم حدوث انتكاس فيها أو نكوص، وعلى أن يتواصل عهد حكم السلام والعدل. وفى ذلك تقع علي عواتقكم المسؤولية، والتي يجب أن تولوها شديد حرصكم ليس كواجب وتكليف ثقيل إنما كشرف نحو ضمان ديمومة الظروف التي جعلت هذا التقدم ممكنا، بفضل الحكومة القائمة الآن، والتي تمثلها هنا يا سلاطين باشا.

إنني فى غاية السعادة إذ أرى أمامي هنا ضباطا من الجيش. لقد أديتم بالطبع قسم الولاء. أذكركم فقط بأنكم ملزمون بكل حرف فى هذا القسم للإخلاص فى الميدانين المدني والعسكري لتنفيذ الغايات التي ذكرتها آنفا. ولكنم معشر المدنيين لستم بأقل إلزاما والتزاما بهذا الولاء من نظرائكم العسكريين.

بيد أنه لا يجب أن تفهموا مما ذكرته لكم بضرورة الإخلاص والالتزام بالحكومة أن تعملوا في وظائفها. بل إنني على العكس تماما، أرى أن العمل الذي قمتم به هنا يا دكتور غيفن، أنتم وبقية المؤسسات التعليمية التي ترتبط بكم أو تنتسب لكم سوف يمضي ويكتمل، إذ أن المواطن الأكثر فائدة لحكومته قد يكون شخصا لا يحمل أدنى رغبة فى الالتحاق بأي وظيفة حكومية. إنني أكره أن يكون هدف الكليات التبشيرية الأساس هو تخريج موظفين للعمل فى الحكومة، إذ أنني أتمنى أن يكون مطمح الخريج العادي من مثل هذه الكلية هو أن يؤدي – بصورة من الصور– دورا فى الحياة المدنية العامة دون أي راتب أو عون من الحكومة. وإذا كان الخريج قد تدرب ليصبح مهندسا حاذقا أو ميكانيكا مجيدا أو زراعيا جيدا أو تاجرا ناجحا فسوف يكون – من موقعه الخاص - مواطنا صالحا يعمل لخدمة مواطنيه. إنه من خطل الرأي فى أي دولة، فى أمريكا أو أوروبا أو أفريقيا، أن يظن الخريج أن لا ملجأ له فى مجال التوظيف إلا خدمة الحكومة.

لا ضير عندي أن يعمل عدد قليل من خريجي كلياتنا التبشيرية فى الوظائف المدنية والعسكرية الحكومية، بيد أنى أرى أن أمثال هؤلاء ينبغي ألا يمثلوا إلا شريحة ضئيلة من مجمل الخريجين. إن الهدف الأسمى لهذه الكليات هو تخريج رجال يستطيعون مساعدة أنفسهم والآخرين بالعمل الحر الخاص المستقل عن كل رابط يقيدهم بالحكومة. إنني شديد الإيمان بهذا الأمر، وأؤمن بضرورته هنا تماما كما أؤمن بضرورته فى أمريكا.

وهنالك أمر آخر يا سادتي أود أن أتحدث فيه قليلا وهو أمر يتعلق بالعمل الديني لإرساليتكم.

إنني آمل أن يفهم كل عضو فى الكنائس المسيحية أن صراعات وخصومات الكنائس مع بعضها لا يساهم إلا فى تشويه سمعة المسيحية وإضعاف الثقة برجالها أمام العالم.

وينطبق أمر تجنب الخلاف والصراع على أوساط الفرق المسيحية مثلما يجب أن ينطبق أيضا على سلوكنا تجاه إخواننا من غير المسيحيين، وعلى الإنسانية جمعاء (ومضى يسرد مواعظ مطولة فى ضرورة أن يكون الجندي المسيحي والمدني المسيحي مثالا لغيره فى الإخلاص والشجاعة والإقدام إلخ..المترجم).... يجب أن نتفادى الشجار والخصومات ما أمكننا ذلك. ويجب أيضا أن نعمل على ألا يجد الآخر سببا للشجار والخصومة معنا.

وأختم بنصح الشباب من الخريجين: لا تحسبوا أن التعلم قد اكتمل بنيلكم لشهادة التخرج! على العكس تماما. ينبغي أن تدركوا إنكم، عند التخرج، لم تقطعوا نصف مسيرة التعلم بعد!

إنني وقد بلغت الخمسين من عمري لا أنقطع عن التعلم، ولو فعلت لانقطع عملي فى مجال خدمة مجتمعي. وأنصحكم بأن لا تركنوا للخمول بعد تخرجكم، بل أود أن يحدث كل امرئ منكم نفسه بأنه قد حصل على أساس متين من التعليم ينبغي أن يتعهده بالتعلم المستمر واكتساب مزيد من التدريب والمعارف والخبرات. ومع مرور السنين والعقود، وعوضا عن أن أظل جامدا متحجرا، ينبغي على أن أطور مهاراتي وأن أسهر على تجويد عملي أكثر فأكثر.

لقد زرت قبل سنوات قليلة كلية بيروت، ولمست أي عمل جليل تقوم به تلك المؤسسة. ولضيق وقتي لن أستطيع آسفا زيارة كلية أسيوط، رغم علمي بعظيم مساهمات تلك الكلية وخريجيها فى إعمار مصر والسودان أيضا. أنني فخور – كأمريكي– بمقابلتي لرجال من أمثالك يا دكتور غيفن، وللرجال الأمريكيين الآخرين وللنساء اللواتي أتين معهم.

أنني أقول دوما أن الرجل الأمريكي شخص جيد ورفيق ممتاز، ولكن المرأة الأميركية أكثر امتيازا. إنني أكن بالغ الاحترام للرجل الأمريكي، بيد أن احترامي للمرأة الأمريكية أشد.

لقد توقفت قبل أيام فى إرساليتنا بسوباط وذهلت من حجم ما قدم من عون للأهالي خاصة فى المجال الطبي. يتقاطر على تلك الإرسالية من على بعد نحو ١٢٠ ميلا مئات المرضى طلبا للعلاج فى عيادة الإرسالية. والآن لدى الطبيب الجراح قرابة ثلاثين مريضا يتعهدهم بالرعاية والعلاج. لا أعلم من هو أفضل من طبيب يأتي لتلك المنطقة ويعطيها كل ما لديه. إنه يقوم بعمل ممتاز من أجل التمدن والتحضر. وإذا اقتنع رجل ما بأنك تقوم بعمل طيب نحو جسده، فلسوف يسهل عليك إقناعه بأنك ستقوم بذات العمل الطيب نحو روحه.

لقد كانت يا سادتي فرصة طيبة لي أن التقيكم. وعند أوبتي للولايات المتحدة فلسوف يكون هذا الاجتماع واحدا مما سأحرص على اطلاع شعبي عليه ليعلموا أي عمل عظيم تقومون به فى هذا البلد. أتمنى لكم من كل قلبي كل الخير، وأشكركم على استضافتي اليوم.

دور السودانيين في إدخال الإسلام لأوغندا

أ.د. إبراهيم الزين صغيرون

تقديم: السطور التالية هي ترجمة لمقتطفات من الفصل الرابع في كتاب عن تاريخ أوغندا للخبير في شؤون شرق أفريقيا وتاريخها بروفيسور إبراهيم الزين صغيرون. اعتمد المؤلف في كتابه على كثير من المراجع المعتمدة في هذه الشؤون، مثل كتاب جي. ترينجهام: «الإسلام في شرق أفريقيا» الصادر في ١٩٦٥م، وكتاب أير أوديد: «الإسلام في أوغندا» الصادر في ١٩٧٤م، وغيرهما.

دخول الإسلام لمنطقة البحيرات العظمى:

دخل الإسلام إلى منطقة البحيرات العظمى (والتي تشمل تنزانيا ويوغندا ورواندا وبورنودي والكنغو وأجزاء من كينيا) بعد مرور وقت طويل من دخوله وانتشاره في ساحل أفريقيا الشرقي ودول القرن الأفريقي. قام العديد من المؤرخين بدراسة انتشار الإسلام في هذه المناطق مما لا سبيل لتفصيله هنا. نود هنا التأكيد على أن التأثير الإسلامي في هذه المنطقة أتى من مصدرين:

١. كان المصدر الأول والرئيس هو ساحل أفريقيا الشرقي. ففي ما بين عامي ١٨٠٠ – ١٩٠٠م غزا سكان الساحل من التجار العرب والسواحليين منطقة البحيرات العظمى، وأسهموا – إضافة لعملهم التجاري- في تدريس الدين الإسلامي لسكان تلك المناطق، وانتعشت تجارتهم مع بدء الحكم العماني، واتخاذ السيد سعيد زنزبار عاصمة لعمان في عام ١٨٤٠م، فطفقت مئات القوافل تسير نحو المناطق الداخلية، وأتاح التعامل التجاري بين أولئك التجار والسكان المحليين فرصة عظيمة للتبشير الإسلامي (الدعوة الإسلامية). وعندما كان هؤلاء التجار يمارسون نشاطهم وسط قبائل «صديقة» لهم، فإنهم كانوا يستفيدون من «التركيبة السياسية» الموجودة لنشر رسالة الإسلام. وقد حدث هذا في بوغاندا (Buganda) في الفترة ما بين عامي ١٨٤٤ -١٨٩٢م (بوغاندا هي واحدة من ممالك أوغندا القديمة الأربعة، وسكانها يسمون غاندا. المترجم)، ولكن فشل هؤلاء التجار في نشر الإسلام في مناطق مثل رواندا، حيث كان زعماء القبائل في تلك المناطق أقل ودا نحوهم.

٢. كان المصدر الثاني الذي دخل عن طريقه الإسلام لمناطق البحيرات العظمى هو السودان. دخل التجار السودانيون لتلك المناطق من الشمال بأعداد متزايدة بعد فتح خديوي مصر للسودان، وازداد التأثير الإسلامي عند انضمام أعداد كبيرة من الجنود السودانيين العاملين في جيش الخديوي في خدمة الحكومات الاستعمارية الحاكمة لمنطقة البحيرات، وذلك بعد نجاح تمرد المهدي في الاستيلاء على معظم مناطق السودان، مما أدى إلى فصل تلك القوات عن مركز قيادتها في مصر. لم يكن لسكان مناطق البحيرات جيوش نظامية، مما دعا المستعمر للاعتماد على جنود الخديوي من السودانيين المحصورين في جنوب القطر لحفظ الأمن والسلام في أوغندا وباقي المناطق الواقعة تحت سيطرة الحكومة البريطانية. سيتناول هذا الفصل دور الجنود السودانيين في انتشار الإسلام في يوغندا.

تجنيد السودانيين للعمل في الجيش الأوغندي بواسطة الكابتن ليوقارد:

كان النقيب ليوقارد ممثلا لشركة شرق أفريقيا الإمبريالية البريطانية والتي كانت تشرف على تلك المناطق. زار ذلك النقيب في أغسطس من عام ١٨٩١م مدينة كالفيس، حيث كانت تعسكر القوات السودانية، وأبدى إعجابا منقطع النظير بتلك القوات وحسن تنظيمها وإخلاص رجالها وانضباطها، واشاد أيضا بقيادة سليم بيه لها. كان النقيب ليوقارد شديد الانتقاد لحملة إستانلي، خاصة لعدم إنقاذها لسليم بيه وجنوده (عقب انتصار المهدية). كتب النقيب ليوقارد« »إن مشهد بقايا ذلك الجيش النبيل وجنوده من الرجال شديدي الإخلاص للخديوي ولعلمه ورأيه كان مشهدا مؤثرا يقطع نياط القلوب. كانوا مجموعة كبيرة من الرجال الجرحى والمرضى الذين نحلت أجسادهم، واشتعلت رؤوسهم شيبا، وقد هجروا بلا معين في قلب مجاهل أفريقيا. أحمد الله كثيرا أن إنقاذ أولئك الرجال كان على يدي، وكان من حسن حظي أنني استطعت إلحاقهم بخدمة الشركة...«

تقاطرت على معسكر سليم بيه في كالفيس أعداد كبيرة من السودانيين العاملين في جيش الخديوي من مديرية أعالي النيل. استقبل سليم بيه وجنوده النقيب ليوقارد وفيلقه بترحاب كبير، بيد أنهم لم يبدوا ارتياحا كبيرا لفكرة انضمامهم لجنود شركة شرق أفريقيا الإمبريالية البريطانية، إذ أنهم كانوا قد أقسموا يمين الولاء لخديوي مصر. طمأن النقيب ليوقارد سليم بيه وجنوده بأنه سيحصل لهم من الخديوي على إذن يتيح لهم العمل كجنود في فرقة الشركة. وافق سليم بيه على ذلك، وقام بالانسحاب مع جنوده في رفقة جنود النقيب ليوقارد نحو أوغندا. أرسل النقيب على

الفور خطابا للخديوي طالبا منه السماح لجنوده المحصورين في كالفيس بالانضمام لجند الشركة، ولم ينس في خطابه أن يشيد بسليم بيه وجنوده السودانيين وبإخلاصهم للخديوي.

دور الجنود السودانيين وأتباعهم في أسلمة أوغندا:

مثلت المستوطنات التي أنشأها السودانيون في المناطق النيلية مراكز انطلاق لنشر الدعوة الإسلامية في أوغندا، وسهل النظام الفكري والثقافي للإسلام، والشعور بالتفوق والامتياز الذي يعطيه ذلك الدين لمعتنقيه من السكان المحليين من عملية الأسلمة. أفلح الدعاة (المبشرون) السودانيون في نشر الإسلام وسط الأهالي، نسبة لاستقرارهم وتمازجهم مع أولئك السكان وتكييف سلوكياتهم وأنماط معيشتهم لتوائم الظروف المحلية.

للمؤرخ ترينجهام نظرية مفادها أن النظام الفكري والثقافي للإسلام، والشعور بالتفوق والامتياز الذي يعطيه ذلك الدين لمعتنقيه من السكان الأصليين، وكذلك قدرة التجار المسلمين على التكيف كانا من أهم أسباب انتشار الإسلام في أوغندا (انظر كتابه «تأثير الإسلام على أفريقيا، الصادر في لندن عام ١٩٦٨م). كان الجنود يقومون باستصلاح مساحات شاسعة من الأراضي وزراعتها بالخضروات وأشجار الفواكه، ويزرعون كذلك القطن الذي منه ينسجون الأقمشة. اتخذ الجنود السودانيون المسلمون لهم زوجات وسراري من نساء المنطقة، ودخلوا في تبادل تجاري واسع مع السكان المحليين. وبذا كانت المناطق التي تمركز فيها أولئك الجنود مناطق عامرة بأنماط جديدة من العيش سادت فيها – وببطء- ملامح من أنماط الحياة في الشرق الأوسط وأخلاقياته وأذواقه وتقاليده ولغته العربية ودينه الإسلامي، وامتزج كل ذلك بثقافات أفريقيا فيما وراء الصحراء.

أكد أمين باشا على حقيقة أن الجنود السودانيين قد تكيفوا تماما مع أوضاعهم الجديدة بحيث أنهم كانوا يعتبرون أوغندا وطنهم البديل. فلقد كانت لكل منهم عائلة كبيرة وأعداد كبيرة من المعز والبقر. لا شك أن تكيف هؤلاء الجند مع أوضاع «وطنهم الجديد»، وتزاوجهم مع القبائل المحلية قد ساهم في انتشار الإسلام، وفي ذيوع «الثقافة السودانية» في تلك الأنحاء.

دور السودانيين كدعاة (مبشرين) خلال العهد الاستعماري:

كتب السير هاري جونسون (وهو أول معتمد لبريطانيا في أوغندا بين عامي

١٨٩٩ – ١٩٠٢م) عن دور السودانيين كدعاة (مبشرين) خلال العهد الاستعماري، وذكر أن هؤلاء الجنود السودانيين كانوا طبقة مميزة محظوظة، وكانوا بمثابة نواة للجيش الأوغندي. كان من رأيه أيضا أن أولئك السودانيين «كانوا في المقام الأول محمديين مستمسكين بدينهم، وشديدي الرغبة في نشر تعاليم عقيدتهم في أوساط سكان المحمية (يقصد أوغندا)، ويضمرون احتقارا دفينا لعقيدة الحكام المسيحية».

ما أن حل عام ١٨٩٧م حتى كان الجيش اليوغندي (والذي أنشئ لحفظ السلام في تلك البلاد) مكونا في غالبه من الجنود السودانيين المسلمين. أكد السير هاري جونسون على الطبيعة الإسلامية لذلك الجيش، وأضاف أن أفراده كانوا يدينون بالولاء لمصر، وكان بعضهم من أبناء ذلك النفر، ومن المسترقين، ومن الذين دخلوا الإسلام وصاروا «مستعربين» بصورة من الصور. انطبق ذات الوصف على بقية المستعمرات في شرق أفريقيا، وظل الجنود المسلمون يشكلون الجزء الأعظم من جيوش تلك المناطق إلى عام ١٨٩٠م. في عام ١٩٠٥م كان من بين ١٠٥٢ جندي في إحدى الكتائب اليوغندية نحو ٦٤٦ من السودانيين المسلمين، وتوزع البقية على الهنود (١٩٩) والسواحليين (١١٨) والبوغاندا (٦٠).

عمل بعض الضباط السودانيين كمرشدين دينيين للأمراء اليوغنديين. جاء في تقرير لأحد الضباط البريطانيين – وأسمه بيركيلي- أن الضابط السوداني علي سليم كان يقوم بتدريس مبادئ الدين الإسلامي للأمير رمضان (وهو ابن أخت موبوقو القائد اليوغندي المسلم). كان الضباط الإنجليز يظهرون إعجابا شديدا بحماس السودانيين لدينهم الإسلامي، ولرغبتهم في نشره، بل أن بعض الوثائق تشير إلى تشجيع البريطانيين لهذا المسلك. كتب الرائد ريجي في مدينة عنتبي لرئيسه ما نصه: «كمأمور للمنطقة أجد تحت قيادتي عددا كبيرا من المحمديين، وأطلب من سعادتكم السماح لهؤلاء بأن يكون يوم الجمعة هو يوم عطلتهم الأسبوعية (كما هو موضح في المنشور رقم ١٣ لعام ١٩٠٦م)، إذ أنني قد علمت أن هذا اليوم هو يوم يقدسه المحمديون هنا. سيقلل هذا من التمييز الديني ضد هؤلاء الناس. لا شك أنكم ستوافقون على أهمية تشجيع رجال الجيش على ممارسة حريتهم الدينية، وعلى اكتساب معلومات أساسية وبسيطة عن هذا الدين».

كان الدور الذي لعبه السودانيون المسلمون في أوغندا موضع إشادة من المبشرين المسيحيين أيضا. كتب المبشر المسيحي تيقارت بعد زيارته لمنطقة قاني في أغسطس من عام ١٩١١م: «إن مطمح الناس في هذه المنطقة ينحصر في شيئين: أن ينضموا للجيش كعسكر، وأن يصيروا مثل النوبة (السودانيين)!. لقد غير السودانيون هنا حتى من

طريقة إلقاء السلام (التحية)، وكان هؤلاء النوبة يستضيفون كل من يزور مدينة موساندي. كل ذلك يشير لتنامي المحمدية». وكتب القس أشي، بعد أن عبر عن تخوفه من تنامي نفوذ المحمدية وسط السكان المحليين، ما نصه: «والسودانيون...على الرغم من بغضي لهم، وندمي على إدخالهم لأوغندا، يتحلون بصفات حميدة لا يمكن نكرانها، وهي صفات جعلتهم في وضع أرفع بكثير من الأوغنديين البسطاء الطيبين. إنهم كما يقول الأسكتلنديون bodies dour وجوههم مكفهرة عابسة، وهم دائمي الكآبة، بيد أنهم رغما عن ذلك يتميزون بالشجاعة واحترام الذات».

عمل كثير من الأفندية المتقاعدين في نشر الإسلام خاصة في شمال أوغندا، وسبب ذلك هو أن البريطانيين كانوا يستفيدون من هؤلاء كقادة محليين، وكان دورهم هو التنسيق بين رؤساء القبائل ومأمور المنطقة والسكان المحليين.



ملك بوغاندا (أوغندا) موتيسا يكاتب الجنرال غوردون مستعطفا

تقديم: السطور التالية هي تلخيص وجيز (و بتصرف) لقليل مما جاء في الباب الأول من كتاب بالإنجليزية من تأليف البروفيسور إبراهيم الزين صغيرون صدر في سلطنة عمان عام ١٩٩٢م وعنوانه:

Islam, Christian Missions and the Colonial Administration in East Africa

يزعم شاعرنا السوداني أن «التمسح بالفرنجة غير مجد»... بيد أن ملك أوغاندا (يوغندا) موتيسا (الأول) كان له رأي آخر. فمنذ أن حط المستكشف البريطاني هنري إستانلي رحاله في يوغندا في ١٨٧٥م تغير تاريخ تلك البلاد والمنطقة علي وجه العموم تغيرا عظيما. فلقد أتي الرجل في وقت تزايدت فيه الضغوط علي أوغندا من جانب مصر، الشيء الذي جعل ملكها موتيسا يبحث بحثا محموما عن حلفاء يساندونه سياسيا وعسكريا. لجأ أولا إلي سلطان زنزبار الجديد برقاش بن سعيد. ثم التجأ إلى هنري إستانلي بحسبانه يمثل قوة عظمي يمكن أن تجابه وتتفوق علي الضغوط المصرية التي كان يجابهها. نصح هنري إستانلي ملك يوغندا أن يسمح للمبشرين المسيحيين بالعمل في بلاده، فوافق الملك علي ذلك من فوره.

بدا أن هنالك تسابق محموما بين أولئك المبشرين وبين مبشري المسلمين في تنصير أو أسلمة شعب أوغندا. ورغم أن إستانلي كان متضايقا من طلبات موتيسا التي لا تنتهي من البنادق والذخيرة والعتاد إلا أنه كان فرحا بوصول أعداد متزايدة من هؤلاء المبشرين الذين كان يعدهم من أنجع وسائل نشر المدنية والتحضر والوقاية ضد المد الإسلامي في المنطقة. بل إن صحيفة الديلي تلغراف قد نشرت في ١٨ نوفمبر ١٨٧٥م نداءا من هنري إستانلي إلى من يرغب من المبشرين في الذهاب إلى أوغندا حيث سيجد فرصة عظيمة للعمل في أرض بكر يبث فيها المدنية الحديثة، ووعد من يذهب هنالك بأن مليكها سيعطيه كل شئ: البيوت والأراضي والماشية ... وأضاف: « ربما يملكه مقاطعة كاملة في يوم ما»! استجابت العديد من الكنائس التبشيرية للعرض السخي فدفعت بعشرات المبشرين لأرض موتيسا البكر.

أعجبت تلك الاستجابة السريعة موتيسا فأشهر مسيحيته بعد سنوات من تبنيه للإسلام. نبذ الرجل دينه القديم لشعوره بالحاجة إلى أن يقف مع الجانب الأقوى في

العالم ولصد الضغوط المصرية عليه ولرغبته في أن يحصل على خبراء بريطانيين يساندونه ويدفعون عنه أي أذي محتمل من قبل خديوي مصر.

اشتد الصراع بين المبشرين المسيحيين والإسلاميين حول من يوافق له الملك موتيسا علي العمل وسط شعبه. كان لوجود العرب المسلمين في أوغندا أثرا اقتصاديا عظيما في تلك الدولة. فلقد كان يعيش في عاصمتها في عام ١٨٧٥م نحوا من ألفا وخمسمائة تاجر، كان أغلبهم يعملون في تجارة ينتفع منها موتيسا بتصدير العاج والرقيق من المناطق الداخلية إلي زنجبار. ولعل هذا ما كان قد دعا موتيسا لإشهار إسلامه أمام سلطان زنجبار. كتب ويلسون أحد المبشرين المسيحيين: « إن تجار العاج (وربما الرقيق) من العرب لا يحبون وجودنا في هذه البلاد، بل إنهم أسروا للملك بضرورة طردنا بعد أن أشاعوا عنا أشنع الأكاذيب ووصفونا بالطمع في خيرات البلاد والرغبة في ضمها لملكنا. إن مصالحهم تتضاد مع مصالحنا، ليس فقط في مجال الدين، بل في جوانب أخرى..».

كتب موتيسا خطابا طويلا إلي الجنرال غوردون في الثالث من أبريل عام ١٨٧٦م يوضح مدي تعلق الرجل بأهداب دينه الجديد والذي كان يؤمل أن يساعده أهله في صد التقدم المصري الآتي من الشمال.

جاء في الخطاب: «هذا من موتيسا الملك العظيم في أفريقيا، موتيسا ملك يوغندا ويوسوقا وكرواجي. لقد غدوت صديقكم الصدوق. إنني مسيحي الديانة بيد أني لم أعمد بعد. إنني أؤمن بالرب الأب المقدس والخالق المهيمن علي السموات والأرض، وأؤمن كذلك بعيسي المسيح الابن الوحيد للرب، والذي خلق من قبل خلق أبينا للأرض. أؤمن بأنه رب الأرباب. لقد غدت ملكتكم أم لي وصرت لها ولدا. غدا أبنائها وبناتها أخوة لي وأخوات، أنا موتيسا ملك يوغندا.

كان المسلمون يخبرونني بأن محمدا هو أول وآخر الرجال الأخيار، بيد أن وجدت أن ذلك ليس صحيحا، بل هو كذب صريح. دعنا نعمل سويا ونقف صفا واحدا.

أناشدك أيها الجنرال غوردون أن تعمل كي يعم السلام بين إنجلترا وأوغندا، ولكي تسعد إنجلترا دوما. أدعوك أيها الجنرال غوردون أن تأتي لزيارتي هنا، وإن لم تفعل فلترسل لي بعض رجالك البيض من معاونيك. أتوق لاستلام رد من سعادتكم في هذا الأمر.

ليكن الرب مع الملكة.

ليكن الرب مع جلالتكم، وأطلب مكن الآن تعجيل إرسال بعض الأوراق والحبر والأقلام فإن مخزوني منها قد نفد» .

مواجهة (تاريخية) بين الزبير باشا وغوردون باشا

شارلس ترنش

تقديم: السطور التالية هي محاولة تلخيص وترجمة بضع صفحات من كتاب ألفه شارلس ترنش عن سيرة حياة الجنرال شارلس غوردون بعنوان: «الطريق إلي الخرطوم». وقد صدر عن دار نورتون في الولايات المتحدة في عام ١٩٧٩م. ويصف المؤلف في الكتاب تفاصيل لقاءين جمعا بين غوردون والزبير في مصر في يومي ٢٦ و٢٧ من يناير ١٨٨٤م، وكان غردون حينها يتأهب للسفر للسودان بتكليف من الخديوي لإخلائه من الحاميات المصرية عقب انتصارات المهدية. اعتمد المؤلف في هذا الجانب علي وثائق الحكومتين البريطانية والمصرية وعلى كتابات من شهدوا تلك الوقائع. ونحاول ترجمة بعض ما سبق ذكره عملا بأن «لا حياء في التاريخ» وأن «التاريخ حمال أوجه».

أرسل غوردون للسودان فى محاولة (أخيرة) لمواجهة ذلك الثائر (من دنقلا) – وكما هو متوقع- لتنظيم وترتيب عملية إنسحاب منظمة وسريعة للحاميات المصرية من السودان. أبحر غوردون للسودان عن طريق مصر وحط رحاله فى ميناء بورسعيد فى يوم ٢٤/ ١/ ١٨٨٤م حيث التقاه من سلمه رسالة رسمية تخطره بأن يسافر للخرطوم عبر القاهرة وذلك فى مهمة تتلخص فى تنظيم إجلاء منظم وسريع للقوات المصرية بحيث يحافظ – قدر الطاقة – على الدماء والأرواح، وأن يسعى أيضا لتكوين إدارة سودانية من نوع ما تجنب البلاد السقوط فى براثن الفوضى وإراقة الدماء التى سوف تلى حتما انسحاب القوات المصرية. بيد أن تلك التعليمات لم تك تنسجم تماما مع ما كان يتوقعه مجلس الوزراء البريطانى فى لندن (ولكن تلك قصة أخرى!). فى صباح اليوم التالى لوصوله ذهب غوردون للسلام على الخديوى وليعتذر عن وقاحة سابقة بدرت منه فى أيام سابقات فى حق الخديوى ومصر، وعند إيابه لمقر إقامته عقد اجتماعا مع عدد من كبار الضباط الإنجليز بمصر وذلك في محاولة لوضع خطة نهائية لمهمته في السودان، وكانت تتلخص في التالي:

١. وضع مبلغ ١٠٠ ألف جنيه إسترليني تحت تصرف غوردون.

٢. ضرورة أن يتم إجلاء القوات تدريجيا.

٣. أن يصدر الخديوي فرمانين – مرسومين- يكون الفرمان الأول بغرض

الاستهلاك المحلي ويقضي بتعيين غوردون حاكما عاما للسودان، والفرمان الثاني – والذى سيظل سريا لحين مجيء الظرف المناسب- هو سحب أفراد الجيش المصري وتكوين إدارة سودانية خالصة لإدارة دفة شئون البلاد.

٤. أن يقابل غوردون فى اليوم التالي (٢٦/ ١/ ١٨٨٤م) الزبير باشا رحمه والذي كان موجودا حينها في مصر.

٥. لمعادلة وتحييد نفوذ المهدي في غرب السودان يجب أن يمنح أحد حكام دارفور (السابقين) مبلغ ٢٠٠ ألف جنيه إسترليني وأن يعطي كذلك زيا رسميا مذهبا ومزينا بأعلى الأوسمة والنياشين مما يتيسر الحصول عليه وأن يرسل كل ذلك لدارفور عاجلا.

٦. تقرر كذلك أن يذهب غوردون للسودان بصفته حاكما عاما للبلاد مبعوثا من خديوي مصر، وأن يذهب كذلك بصفته ممثلا ساميا لجلالة ملكة بريطانيا.

كانت الحكومة البريطانية تريد أن يقوم غردون بمهامه فى السودان أساسا كموظف فى الحكومة المصرية، بيد أنها عينت السير إيفلني بارنج كوسيط للتعامل معه بخصوص مهمته في السودان.

أحضر بارنج لمقر غردون في اليوم التالي (٢٦/ ١) عددا من الضباط من ذوي الخبرة الطويلة بشؤون السودان، وكان من ضمن هؤلاء رجل سوداني طويل القامة نحيف الجسم في نحو الخمسين من عمره. كان ذلك الرجل يرتدي بزة شديدة السواد ويضع على رأسه طربوشا شديد الحمرة. وصف أحد الحضور من الإنجليز الرجل بأن له وجها أقرب ما يكون لوجوه الشياطين! تم تقديم الرجل لغوردون على أنه الزبير باشا رحمه.

انفرد غوردون بالزبير (فى حضور شخص واحد من الانجليز كان يجيد العربية تحدثا وكتابة).مد غوردون يده مصافحا للزبير، بيد أن الزبير لم يمد يده لمصافحه، وأغضب ذلك غوردون فاستشاط غضبا وسأل الزبير وهو يتميز من الغيظ عن سبب إمساك يده عن المصافحة. رد الزبير على الفور قائلا: « لقد وقعت بيدك هذه على وثيقة إعدام إبني سليمان. كيف لي أن أمس اليد التي تلوثت بدم فلذة كبدى» أجابه غوردون وبسرعة: « يا زبير...أنت الذى تسأل عن من قتل إبنك؟! لقد سطرت أنت لابنك هذا الذى تتحدث عنه خطابا من القاهرة تحثه فيه على التمرد على سلطتنا. إن خطابك هذا موجود ضمن ملف القضية التي نظرتها المحكمة العسكرية ويمكننا أن نجد الآن خطابك هذا فى مكاتب وزارة الحربية بالقاهرة». رد الزبير على ذلك الاتهام قائلا: « هذا ليس صحيحا البتة. لم يحدث أبدا أن كاتبت ولدى فى الشأن الذى تزعم. دعني أرى الخطاب الذي تتحدث عنه» هنا أمر غوردون وينجت باشا بالذهاب إلى

وزارة الحربية وأن يبحث في المحفوظات عن محاضر المحكمة العسكرية تلك.

يحكي وينجت أنه سار على الفور إلى حيث أمر وبعد بحث لم يستغرق طويلا عاد وهو يتأبط تلك المحاضر وكانت كلها باللغة العربية والتي يجهلها غوردون تحدثا وكتابة (وسيندم غوردون لاحقا على جهله بتلك اللغة). تم فحص الوثائق بعناية ولكن لم يعثر لخطاب الزبير المزعوم على أثر، بل لم يعثر حتى على أى ذكر أو إشارة لمثل ذلك الخطاب فى جميع المحاضر. بدا واضحا أن غوردون قد خدع وأن الزبير كان فيما يبدو صادقا فى كلامه.وإلى حين انتظار نتائج البحث عن خطاب الزبير لابنه تم تأجيل اجتماع غوردون مع القادة العسكريين حتى صباح اليوم التالي.

بعث السير إيفلني بارنج برسالة طويلة وصف فيها ذلك اللقاء العاصف بين غوردون والزبير، بيد أنه ولسبب غير مفهوم أغفل ذكر حقيقة أن خطاب الزبير المزعوم لابنه لم يتم العثور عليه أبدا. وبعد مرور عدة أسابيع وصلت وثيقة لوزارة الخارجية عن طريق إنجمونت هايك (كاتب مذكرات غوردون) والسير هنري غوردون قيل أنها هي خطاب الزبير المزعوم. تمت ترجمة الوثيقة تلك للغة العربية ولكن – حسب علمنا– لم يتم فحص هذه الوثيقة أو التأكد من صحتها، وظل وينجت باشا واثقا من أن تلك الوثيقة إن هي إلا محض تزوير، بينما أصر بارنج على موقفه من أن تلك الوثيقة لا تؤيد زعم غوردون تماما غير أنها – في ذات الوقت– تشير إلى تورط ما للزبير وابنه.

قام السير إيفلني بارنج بصياغة وصف رسمى مفصل لمهمة غردون فى السودان بناء على ما دار فى اجتماع اليوم السابق وقام بقراءة هذا التوصيف الرسمى بصوت عال أمام المجتمعين. كان هذا التوصيف الوظيفى يتمحور حول القيام بإجلاء الحاميات المصرية ونحوا من ١٢ – ١٥ ألفا من المدنيين المسيحيين من موظفى الحكومة المصرية وزوجاتهم وأطفالهم إلخ. من الذين لا يودون البقاء بعد رحيل القوات المصرية. لم تعط لغوردون أى تفاصيل بخصوص الطرق والوسائل التى يمكن له أن يستعملها لتنفيذ مهمته. كانت خلاصة التعليمات تقضى بأن يقوم الرجل بعملية إجلاء القوات المصرية والمدنيين الراغبين فى الرحيل على أن يقوم هو بوضع التفاصيل الدقيقة الكفيلة بتنفيذ المطلوب. توقف السير إيفلني بارنج عن القراءة وسأل غوردون إن كان يوافق على ما سمع. رد غوردون بالإيجاب المؤكد. واصل بارنج القراءة وقال: « نقترح عليكم إتمام المهمة بسلام فى خلال الشهور القليلة القادمة. يتعين عليكم أيضا إعادة حكم البلاد بواسطة السلاطين (الصغار) الذين كانوا يحكمون المناطق المختلفة عند احتلال البلاد بواسطة محمد علي أو بما بقي من ذرياتهم. ويجب محاولة عمل اتحاد فيدرالي بين هذه السلطنات الصغيرة.

يحظى هذا المقترح بتأييد الحكومة المصرية شريطة أن لا تبقى الحكومة المصرية جنودها في السودان لحماية هذه السلطنات المقترحة....»

تناول الاجتماع أيضا أمر الزبير باشا وتم استدعاءه علي عجل. عند دخوله لقاعة الاجتماع تقدم نحوه غوردون مصافحا ومعتذرا عن اتهامه له في اليوم السابق. رد الزبير قائلا : « لا شك عندي أن أحد أعدائي قد وشى بي وشوه سمعتي عند سعادتكم مستغلا عدم معرفتكم باللغة العربية. لا ريب أن أحدهم أراك مكتوبا بالعربية علي أنه خطاب مني لولدى سليمان. إنني في غاية السعادة لتبرئة ساحتي مما نسب إلي وبأننا عدنا أصدقاء من جديد. سأكون خادمكم للأبد وسأفعل كل ما تطلبونه مني» ومد يده وصافح غوردون الذي غمرته السعادة مما سمع وقال لمن حوله : « أتمنى أن يأتي معي الزبير للسودان»

كان غوردون قد سبق له تقديم اقتراح اصطحاب الزبير معه للسودان وكتب لبارنج ما نصه: «رغم أن الزبير أكبر تاجر رقيق وجد علي سطح الأرض إلا أنه أكثر الناس في السودان تأهيلا الآن لقيادة تلك البلاد. لا يستطيع أحد مجاراته في القدرات القيادية. إنني لعلى ثقة في أن الأنصار سوف ينفضون من حول المهدي لحظة وصول الزبير للسودان. لا تنس أن كثيرا من قادة المهدي الآن كانوا في الأصل يعملون تحت إمرة الزبير من قبل. إن السبيل الوحيد المتاح لحكم السودان هو تنصيب الزبير حاكما عاما لتلك البلاد المضطربة. سينهي الزبير تمرد المهدي في شهرين أو أقل. إذا كان الأمر يتعلق بإجلاء الحاميات المصرية فلا حاجة لنا فى الزبير، بيد أننا إذا أردنا أن يستقر الوضع في السودان بعد الجلاء فإن وجود الزبير ضرورة لا غنى لنا عنها (sine qua non). إن لدى شعورا صوفيا غامضا بأن الرجل أهل للثقة».

كانت النقطة الجوهرية التى فات على غوردون ذكرها هى أن تمرد المهدى كان فى الأصل تمردا دينى الطابع، وأن الزبير رجل مسلم تقى ورع شديد الأيمان ويدعى أن نسبه ينتهى عند العباس عم الرسول. بل لقد طلب منه بعضهم فى وقت ما أن يعلن أنه هو المهدى المنتظر. ينتمى الرجل إلى قبيلة الجعليين الذين يقطنون في المناطق المحيطة ببربر. إن الناس ليحترمون الزبير أشد الاحترام ويخافونه أشد الخوف.

أثار اقتراح أن يستصحب غوردون معه الزبير فى رحلته للسودان عاصفة من الجدال الداوى. صرح واطسون الضابط الكبير فى الجيش المصرى أنه إذا قدر للزبير الذهاب مع غوردون فإن أحدهما بالتأكيد لن يعود أبدا. لم يكن بارنج يكن أى قدر من الثقة فى «الشعور الصوفى الغامض» لدى غوردون بأهلية الزبير للثقة وذكر الحاضرين بأن غوردون نفسه كان قد اقترح من قبل أن يتم نفي الزبير لجزيرة قبرص

وها هو الآن يقترح أن يستصحبه للسودان ليعينه حاكما عليه! رغم ذلك كان بارنج ميالا نحوا ما لقبول أن يذهب الزبير للسودان كحاكم له. لم يكن للمجتمعين من بد لحسم أمر اقتراح سفر الزبير مع غوردون سوى التصويت (وهو أمر غير مألوف فى مثل تلك الاجتماعات العسكرية). هزم اقتراح غوردون بأغلبية ضئيلة، وكان رأى الفئة التي غلبت هو أن إرجاع الزبير للسودان هو مغامرة وتجربة لا يمكن التنبوء بنتائجها، وعلى كل حال فإن نفوذ الزبير فى السودان قد غدا موضع شك بعد أن انفض عنه «البازنجر» وأعلنوا انضمامهم للمتمردين أنصار المهدي.

وصل للقاهرة قادما من السودان تاجر فرنسي عبر لمن لقاه في القاهرة عن الذعر والقلق والرعب الذي يسود في أوساط سكان الخرطوم مما لم تفلح في تهدئته البرقية المختصرة التي أرسلها غوردون لهم وكتب فيها: «لا يصيبنكم الذعر. نحن رجال ولسنا نساء. إنني قادم». بدأ غوردون رحلته (الأخيرة) يوم ٢٩/ ١/ ١٨٨٤م، وقضى يومين في الباخرة التي أوصلته إلى كورسكو، عبر بعدها الصحراء ووصل إلي أبي حمد في نحو أسبوع ومنها انطلق نحو بربر برفقة الشاب الوسيم أحمد ابن شيخ بربر على ظهر جمل أبيض جميل.

لم ينس غوردون قبل بدء رحلته الزبير فكتب للسير بارنج يوم ٢٨ / ١/ ١٨٨٤م يقول: « إن الزبير هو السوداني الوحيد المؤهل لقيادة البلاد، هذا إذا رغبنا في تهدئة الأحوال في تلك الديار المضطربة. إنه رجل استثنائي رائع. لكم كنت أود لو أن زوجتك الليدي بارنج رأته»، وكتب مجددا في ذات اليوم مطمئنا بارنج بأن الزبير سيعيد الأمن والاستقرار للبلاد خلال شهر واحد وأن محمد أحمد سيتوقف عن إطلاق كلمة «المهدي» على نفسه و«المهدى» كما يرى لقب أطلقه عليه رؤوف باشا على أية حال.

بقي تساؤل عن مصير الرقيق في السودان وهل سيتم تحرير الرقيق عند استقلال السودان عن مصر في ١٨٨٩م بحكم المعاهدة (الاتفاقية) الإنجليزية المصرية لعام ١٨٧٧م. أجاب غوردون: «طبعا لا». بل وأصدر بيانا طمأن فيه كل من يمتلك عبيدا بأن «له الحق في الاحتفاظ بهم والتحكم فيهم والاستفادة من خدماتهم». قيل أن ذلك أسعد الناس أكثر من أي شئ آخر، ودليل ذلك هو الاحتفال والابتهاج الذى لقيه الرجل عند وصوله للخرطوم فى صبيحة يوم ١٨/ ٢/ ١٨٨٤م حيث قابله رجال الدولة والأعيان وكبار التجار الذين كانوا يخشون مما سوف يحيق بهم إن كتبت الغلبة للمهدى ورجاله من .... المولعين بالتكسب (acquisitive) وما طرق أسماعهم من إشاعات زرعت الرعب في قلوبهم وكانوا يرون ويؤملون أن يكون غوردون منقذهم مما هو أسوأ من الردى.



ملك في الخرطوم

من كتاب: «لن يؤسر حيا: حياة الجنرال غوردون»

روي ماكريجور هاستي

تقديم: السطور المترجمة التالية هي بضع صفحات من كتاب يحكي أشتاتا من سيرة حياة الجنرال غوردون لكاتب معجب بالرجل اسمه روي ماكريجور هاستي، نشرته دار سيدوك وجاكسون للنشر في لندن عام ١٩٨٥م. وأهدى المؤلف كتابه لرئيسة وزراء بريطانيا آنذاك مارجريت ثاتشر، ولا غرو فالرجل يميني محافظ . وتحكي السطور المترجمة عن بعض الأحداث التي صاحبت عودة غوردون للخرطوم وعن لقائه الدرامي بابن الزبير رحمة...

عند مروره بالقاهرة قابل غوردون الخديوي والذي أبدي سعادة غامرة بقبول قائد إنجليزي عظيم للعمل في خدمة حكومته ومساعدته في القضاء على تجارة الرقيق وعلى إبرام معاهدة مع بريطانيا العظمي. كان الخديوي يؤمل في أن يقضي غوردون السنين القادمات في إدارة شؤون السودان بطريقته الممتازة المعهودة ، بيد أنه كتم عنه حقيقة أن الأوضاع الحالية في تلك الأصقاع ليست على ما يرام. سبق لغوردون أن أفلح في استرجاع النظام والقانون واستعادة السيطرة والأمن على مناطق أعلي النيل والاستوائية، بيد أن الوضع قد انقلب إلي ما كان عليه بمجرد مغادرة غوردون لتلك الأقاليم.

كانت المتاعب تأتي دوما من جهة الشرق (أي على الحدود الأثيوبية) وكان الخديوي قد استخدم نصيبا كبيرا من الأموال التي حصل عليها من بيع أسهمه في قناة السويس في شراء أسلحة ليغزو بها إثيوبيا. بيد أن حملته تلك قد استطالت ومنيت في آخر المطاف بهزيمة نكراء. لقد فشل الجيش المصري والمسلح بأحدث البنادق آنذاك (من نوع ريمنجتون Remington) في هزيمة المشاة الإثيوبيين بحرابهم وسيوفهم. بل غنم الأثيوبيون من المصريين آلاف الجنيهات الذهبية والتي لم يروها من قبل وكانوا يجهلون قيمتها الحقيقية فباعوها بثمن بخس واستبدلوا بها دولارات الفضة! ولم يكن ملك إثيوبيا ليدع فرصة أجواء الحرب تلك فصوب جهوده نحو حرب من نوع آخر

كان يدبر لها منذ وقت طويل، فقاد جيشه نحو قتال منيليك ملك شوا (Shoa).

كانت ثالث المناطق التي تثير القلاقل في السودان هي الممالك المسلمة في كردفان ودارفور والتي ازدهرت فيها تجارة الرقيق بعد أن كان غوردون قد أفلح في القضاء عليها من منبعها في الاستوائية، وفرح شيوخ تلك الممالك وشمتوا في هزيمة جيش الخديوي من على بعد آلاف الأميال ومضوا في تمردهم على إدارته المحلية.

تم تنوير غوردون الحاكم العام الجديد للسودان أثناء رحلته الطويلة من مصوع للخرطوم بأنباء كل الأحداث التي جرت أثناء غيابه عن البلاد. كان الحاكم الجديد قد حط الرحال في مصوع في ٢٦/ ٢/ ١٨٧٧م ومنها أمتطى جملا في رحلة مرهقة لعاصمته الخرطوم والتي وصلها ولقى فيها استقبالا حارا في الفاتح من مايو. تأثر غوردون كثيرا بحماسة جموع مستقبليه فألقى على مسامعهم خطابا حماسيا جاء فيه: «سوف أعمل بعون من الله على إشاعة العدل وإقامة القسط والميزان بين كل الناس». كان عليه أن يقوم – وعلى وجه السرعة- بإنجاز الكثير من المهام العاجلة فبدأ بحل كل المليشيات العسكرية والتي كانت تنشر الرعب وتشيع الذعر في قلوب السكان خاصة التجار منهم. وأعلن أنه سيأخذ بشدة ويحمل بعنف على كل من تسول له نفسه الإخلال بالأمن، وأنه لن يكون كسلفه في إعتماد سياسة اللين والحلم، وصرح أيضا بأنه سيقيم العدل بين الناس وفوق ذلك فإنه سيحرص غلى أن يرى الناس أن العدل يقام.

وجريا علي عادته في غتوندكورو Gondokoro قام بوضع صندوق به فتحة عليا خارج داره ليقوم مخبروه السريون ومن يرى أن ظلما قد حاق به بوضع تقريره أو تظلمه داخل ذلك الصندوق المغلق. وكانت تلك فكرة اقتبسها غوردون من صديقه الإيطالي جيسي Gessi (المقصود هو روملو جيسي باشا ١٨٣١ – ١٨٨٨م وهو ضابط ورحالة إيطالي عمل تحت إمرة غوردون وساهم في استكشاف بحر الجبل من منبعه في بحيرة ألبرت، وعمل حاكما لبحر الغزال حيث قضى على تجارة الرقيق بها، وكان مهتما بتصدير الصمغ. مات في السويس بعد مرض ألم به في رحلة عودته من السودان.المترجم..من موقع http://en.wikipedia.org/wiki/Romolo_Gessi

أمر غوردون أيضا بإصلاح أعطاب وسائل الصرف ومصادر المياه ومنع رسميا تعاطي الرشوة على الرغم من أن الناس لم يكن يرون بأسا (أو بدا) من إعطاء «بقشيش» لموظف الحكومة بغرض تسريع أداء عمل ما ولم يكن يعدون ذلك عملا يستوجب العقاب. منع غردون أيضا عقوبة الجلد العلنية التي كانت تشهدها طائفة من

النظارة، بيد أنه احتفظ بحقه في شنق من يدانون بجريمة القتل وقام باستبدال عقوبة قطع اليد للسارق بعقوبة أخف وطأة. عززت تلك الإجراءات من شكوك أتباعه ومريديه من أنه «النبي الجديد».

قضى غوردون الأسبوعين التاليين في توطيد دعائم سلطته الجديدة ووضع السياسات وتنفيذ المخططات وتباهى متفائلا بالقول: «سأنجح بإذن الله في خلال عامين أو أكثر قليلا في جعل الخرطوم محافظة ممتازة ذات جيش قوي وتجارة مزدهرة وإيرادات كبيرة، وستنعم الخرطوم بالأمن والنظام وسيقضي على تجارة الرقيق. سأعود بعد إنجاز كل ذلك إلى بلادي وآوي إلي الراحة ولن أغادري سرير نومي إلا بعد انتصاف النهار، ولن أجهد نفسي بالسير لأكثر من ميل واحد في اليوم».

أرسل غوردون مكتوبا إلى ملك إثيوبيا مذكرا إياه بصداقتهما القديمة وأكد له التزامه جانب الحياد حيال أي حرب بينه وبين ملك شوا. التفت غوردون من بعد ذلك لمشاكل كردفان ودارفور. غادر غوردون عاصمته متوجها نحو دارفور (و التي تبعد أكثر من ٤٠٠ ميلا) علي ظهر جمل سريع الخطو طار به (كما زعم هو لاحقا) بأسرع مما سار به البراق! رافقه في رحلته تلك فرقة من الهجانة والموظفين ومعهم وثيقة إلغاء وتحريم تجارة الرقيق مكتوبة بأربع لغات. كان غوردون يهدف من حملته تلك لنظر ورصد الرقيق حسب الجنس والدولة / القبيلة أو الأصل. وكان يهدف للاتصال بذوي الرقيق أو أصدقائهم أو معارفهم بغرض إعادتهم لمواطنهم الأصلية أو إعادة توطينهم في أماكن أخرى، مع كل ما يستتبع ذلك من مشاكل اجتماعية عويصة مثل ما سيحدث للنساء اللواتي تزوجن بعد استرقاقهن، وملكية الأراضي التي قد تكون قد تبدلت عديد المرات.

وبعد مرور ٧ سنوات علي بقائه في مصر و١٢ عاما في السودان فلقد أقر غوردون تحرير كل الرقيق وإعادة توطينهم إما في مناطقهم الأصلية أو في المناطق التي تم تحريرهم فيها حسب مقتضي الحال ، رغم كل ذلك كان غوردون متشككا في إمكانية منع تجارة الرقيق منعا تاما إذ كتب يقول: « إذا كان بإمكانك إستخراج الحبر الذي كتبت به على ورقة نشاف، فإنك نستطيع القضاء المبرم على تجارة الرقيق في هذا البلد. كان الشرق الأوسط يعج بأسواق الرقيق، ولطالما كان هنالك «طلب» فإن أحدا من الناس سوف يتصدى بلا ريب لمهمة توفير «العرض». ورغما عن ذلك فإننا يجب أن نمضي قدما في محاربة تلك التجارة ولا بد من أن يبدأ أحد الناس في منعها.»

عبر غوردون حدود دارفور يوم ٦/٧ وحط رحاله في فوجيا Fogia عاصمة

الإقليم وكان مديرها قد بث العيون لترصد ومتابعة مسيرة غوردون ومعرفة مراحل تقدم مسيرته نحو فوجيا إذ كان شديد الحرص على إظهار عظيم إخلاصه وثروته وقوته للحاكم الجديد، ولم يكن يرغب في أن يؤخذ على حين غرة بوصول غوردون فجأة لمدينته، وكان يود إعداد استقبال لائق ومؤثر لغردون عند وصوله لفوجيا. ولكن لسوء حظ مدير فوجيا فلقد سبق غوردون ومرشده في الطريق (وهو من شيوخ العرب البدو) العيون والجواسيس الذين بثهم ذلك المدير وعبر غوردون بكامل زيه العسكري الجيدي المزركش والذي منحه إياه الخديوي ومعه البدوي بوابة البلدة دون أن يثير شكوك الحراس. أجلس غوردون المدير أمامه ومضى يلقي عليه في انفعال شديد خطابا مؤثرا لساعة كاملة حتى وصل بقية جنود غوردون، حيث انضم الجميع لوليمة فاخرة أعدت على عجل عند المغيب. وعلى الرغم من المظهر المزري لجنود غوردون إلا أن وصول هؤلاء الجنود أحدث ردة فعل دراماتكية بالغة الأثر في إتجاه مكافحة تجارة الرقيق.

كانت حملة غوردون مرهقة مضنية بيد أنها كانت أيضا تمتاز بالبساطة وشدة الفعالية. كانت معظم أنحاء دارفور صحراء مجدبة غير أن بها كثيرا من الآبار والواحات من مختلف المساحات. ولم يكن بها من مصادر أخرى للمياه، لذا فإن من يتحكم في مصادر المياه هو من يبسط سيطرته على كافة أرجاء الإقليم وفي الحركة خلاله. طاف غوردون بين شهري يونيو وأكتوبر على كل آبار الإقليم وعين لكل بئر قد يمر بها تجار الرقيق حراسا. لم يعلن غوردون عن برنامج تطوافه، فلقد كان دائم التنقل بين أم شنقة ودارا والفاشر وشاكا.

برزت في تلك الفترة قصة غدت من «الفلكلور» العربي في دارفور، ألا وهي قصة سليمان بن الزبير (ابن الزبير باشا رحمة) والذي كان قد ذهب لمحاربة الروس.

كان سليمان – في لحظة طيش شبابي متهور- قد أعلن على رؤوس الأشهاد أنه لن يذعن أمره لسلطة رجل إنجليزي كافر مجنون، وأنه سيتجاهل أمره بمنع تجارة الرقيق، وأنه سيحكم جنوب دارفور باسم والده حتى يؤوب من ساحة حربه. شكل ذلك تحديا وتهديدا خطيرا لغوردون ولم يك له من القضاء على سليمان من بد. جهز غوردون جيشا اتجه به نحو دارا (المدينة الرئيسية في جنوب دارفور). سبق غوردون – كعادته- جيشه في الوصول للمدينة . وصف غوردون حاله عند وصوله لدرا بأنه كان: «رجلا وحيدا متسخا محمر الوجه علي ظهر جمل يحوم حوله الذباب» . اتجه غوردون مباشرة نحو الديوان (المقر الرئيس للحاكم) وواجه سليمان. وصف غوردون كيفية إخضاعه لسليمان وكتب التالي:

دارا في ٢/ ٩/ ١٨٧٧م

لم أتناول أي طعام بعد وصولي إلى دارا، بيد أن وصولي لتلك المدينة قد أنساني رهقي وعذابي. قضيت ليلة هادئة وصحوت عند الفجر وارتديت الحلة الذهبية التي أهدانيها الخديوي وسرت لأتفقد جنودي. امتطيت من بعد ذلك صهوة جوادي وسرت في موكب صغير من الباشبوزق لمسافة ٣ أميال تقريبا حيث لقيت ابن الزبير. كان فتى بهي الطلعة في نحو الثانية والعشرين من عمره، وكان جيشه يضم نحو ٣٠٠٠ من الرجال والصبيان. سرت مباشرة نحو خيمة منصوبة في وسط معسكره. بدا أن الجميع كانوا في غاية الاندهاش من ظهوري بينهم فجأة هكذا. وبعد أن تجرعت كوبا من الماء عدت لابن الزبير وصحت فيه آمرا أن يأتي معي هو وعائلته لديواني، ولقد فعل.»

لم يستطع سليمان أن يقنع رجاله بأن غوردون – في نهاية الأمر- ليس نبيا جديدا! (فمن كان بإمكانه غير رجل ملتاث العقل أو أحد القديسيين أن يذهب طائعا مختارا لمعسكر العدو) ...لم يكن أمام سليمان من خيار فخر علي قدمي غوردون يقبلهما وهو يقسم بأنه سيحل ويسرح جيشه ويجنح للسلم ، كتب غوردون لاحقا:« لقد أفلحت في ترويض الشبل...لنر ما يمكن فعله حيال الأسد عند أوبته». واحتاج سليمان لعامين من الزمان ليخضع أفراد قبيلته لطوعه وسلطانه.

كان استصدار القوانين لتحريم تجارة الرقيق أو الحد منها أمرا يسيرا مقارنة بإيجاد الطرق العملية لإعادة توطين الرقيق المحررين. انتقم تجار الرقيق من غوردون وقوانينه بطرق شتي شملت ترك قوافل الرقيق في عرض الصحراء دون زاد أو ماء بعيدا عن الآبار. علق غوردون بالقول: « لم يكن من السهل إيجاد طعام وماء لأولئك التعساء الذين هجرهم تجار الرقيق في عرض الصحراء. أقسم صادقا بأنني علي استعداد للتضحية بحياتي من أجل أولئك التعساء ، قد أكون ساذجا مغفلا ولكن لم يكن بوسعي رؤية أولئك الناس دون أن يطفر الدمع من مقلتي».

بعد أن جرد غوردون سليمان الزبير من سلطته المعنوية التفت إلى إقامة سلطة محلية له في شاكا معقل سلطة الزبير. لقد كانت شاكا كما كتب غوردون ملجأ لكل قاتل ولص وتاجر رقيق. وكان هؤلاء يغيرون علي القبائل الزنجية للحصول على بضاعتهم. ومنذ ١٦/ ٩ كان غوردون قد نجح في إخافة ساكني شاكا وتشتيت شملهم دون إراقة دماء كثيرة فتفرقوا أيدي سبأ. كتب لاحقا يقول: «لا أحد يدرك بشاعة الحروب. إنها عملية قتل منظم تتميز بالقسوة والنهب والسلب. نادرا ما يقع عبء

الحرب على الرجال المحاربين فقط، بل إن عبئها يتحمله الأطفال والنساء والعـواجيز ، بيد أن القرم Crimeaهي الاستثناء» (شبه جزيرة جنوب أوكرانيا جرت فيهـا حـرب بين عامي ١٨٥٣-١٨٥٦م تحالف فيها الإنجليز والفرانسـيس والأتـراك ضـد الـروس وهزموهم. المترجم).

كانت من «فوائد» حرب غوردون في دارفور أنها أديرت بأقل قدر ممكن من سفك الدماء، وأكسبت تلـك الحملـة غـوردون احـترام أهـل دارفـور والقتلـة واللصـوص والأوغاد والشرفاء علي حد سواء. أدرك الدارفوريون أنه ليس بالرجل الـذي يـؤذي امرأة أو طفلا أو يدنس مسجدا. كانت مسيحيته أمرا خاصا به لم يكـن ليفرضـه علـى غيره من أهل الديانات الأخرى. كان شديد الغضب مـن كتـاب بـلاده الـذين كـانوا يحثونه علي تنصير أهل البلاد التي حكمها وللتمهيد لإدخال المبشرين. كـان يخـاطبهم بقوله:« لا أؤمن بدعاويكم ومقولاتكم. إن تنصـير الكـل عمـل عقـيم عـديم الطعـم والفائدة. إن أكبر هم غالب الناس في إنجلترا هو ما يضعونه على مائدة طعـامهم، ولا شيء بعد ذلك يهم. ويعلم الله أن فئة قليلة فقط هي التي يهمها أمر تجارة الرقيـق. إن ذلك لأمر مفجع....هل أزيدك من هذا السالمون الرائع.....؟»



حول مقتل غوردون وتأثير مذكراته على الثقافة الفيكتورية

فيرقس نيكول

تقديم: نشرت هذه القطعة في عدد يناير ٢٠١٠م في مجلة الدراسات السودانية (التي تصدر في بريطانيا) بقلم «فرقس نيكول» وهو طالب للدراسات العليا يحضر لدرجة الدكتوراه في جامعة «ريدنق» البريطانية حول ذات الموضوع. والترجمة التالية هي شذرات مختصرة لما ورد في ذلك المقال.

الصحافة والثقافة الشعبية:

تم في الخامس والعشرين من يونيو ١٨٨٥م نشر مذكرات الجنرال تشارلس غوردون التي سطرها أثناء وجوده في الخرطوم، أي بعد خمسة شهور فقط من مقتله بواسطة جند مهدي السودان. أحدث نشر تلك المذكرات دويا هائلا في الأوساط الثقافية في بريطانيا في عهدها الفيكتوري، وحملت المقالات العديدة التي تطرقت لهذه المذكرات جملا من نوع «طال انتظارنا لها» و«ظللنا نتوقع صدورها بفارغ الصبر». كان جميع النقاد على اتفاق تام بشأن الثناء على تلك المذكرات من حيث أنها «شاملة» و«متماسكة» و«وافية». بل عدت بعض الصحف في إسكتلندا وأيرلندا الكتاب الذي أصدره «أيجمون هيك» ويشمل تلك المذكرات هو «كتاب العام» بلا منازع. ووصف أحد الصحفيين المذكرات بأنها: « قصة متميزة لمحارب مسيحي وحيد... إنها تاريخ حقيقي كتبت كلماته الأخيرة بحروف من نار قبل نحو نصف عام. لم تخب جذوة الاهتمام بهذا الكتاب منذ صدوره وإلى الآن».

رغم كل ذلك، فلم تعدم تلك المذكرات بعض الأصوات الناقدة، فلقد هاجمت مجلة «كونتري جنتلمان» المذكرات ووصفتها بأنها «مخيبة للآمال» رغم اعترافها بالقيمة «الأدبية» لها. بل وكتبت أن المال الذي دفع مقابل الحصول على حقوق طبع تلك المذكرات، والبالغ قدره خمسة آلاف جنيه إسترليني، مال ضائع، وأن القصة بكاملها يعوزها الترابط. أشار آخرون إلي أن أسلوب «غوردون» أسلوب يتصف بالتكرار الممل والانتقال المشوش، وبكونه استطراديًا وخاليًا تماما من اللمحات الفنية الجميلة، رغم أن مضمون تلك المذكرات يؤكد إنسانية «غوردون» وتواضعه وتفرده وحسه

الفكاهي الساحر وحماسه الشديد لدينه.

وجد دارسو تلك المذكرات صعوبة جمة في تصنيفها، فهي لا تخلو من استطراد وتشتت، لاسيما وهي تمتد لتشمل ما حدث خلال ستة وتسعين يوما كاملة وقعت فيها أحداث جسام. ولجأ كثير من المحققين إلى بتر أجزاء واسعة مما كتب «غوردون» لعدم صلتها بما سبقها، أو لعدم ملائمتها تماما للموضوع الذي تخوض فيه.

مما اتفق حوله كثير من الباحثين في أمر ما سطره «غوردون» هو أنه كان شديد الحزن على الضابط «هاميل ستيوارت» ومن قتل معه على ظهر الباخرة «عباس» (الباخرة عباس هي تلك الباخرة التي كانت تقل الموظفين المدنيين الذين حاول غوردون إجلاءهم من الخرطوم تحت إمرة الضابط ستيوارت. المترجم). كذلك أتفق هؤلاء الدارسون علي تركيز «غوردون» على ضرورة تعيين «الزبير رحمة» كخلف له علي حكم البلاد. كذلك لم يخف على الدارسين لهذه المذكرات روح «غوردون» المرحة وسخريته اللاذعة، وشجاعته وثباته ودفاعه عن عقيدته. كذلك أشادوا بنوعية الرسومات الساخرة (الكاريكاتورية) التي وردت في تلك المذكرات.

لم يكن ثمة مهرب من أن يكون لما جاء في مذكرات غوردون تأثيرا ضخما على السياسة الداخلية البريطانية. فلقد عبرت عدد من الصحف عن تأثير تلك المذكرات على السياسة اللبرالية، وعلى سياسة جلاديستون في السودان، وعن أسف غوردون على تأخر حملة الإنقاذ. (جلاديستون ١٨٠٩ – ١٨٩٨م هو رئيس الوزارة البريطانية عند مقتل غوردون.المترجم). كذلك أوردت صحيفة إسكتلندية عن كيف أن غوردون صرح بوضوح أن سياسة حكومة جلالة الملكة قد أهدت ل «قوى الشر» القدرة لفعل ما فعلته! بيد أن التايمز اللندنية ذكرت أن هجوم غوردون الشخصي على سياسة الحكومة التي بعثت به للخرطوم كان أقل مما هو متوقع! وذكرت ما نصه التالي: «من العسير أن تقرأ مذكرات الجنرال غوردون هذه الأيام دون أن تشعر بالتعاطف الشديد معه لما لقاه من العنت والعناء والعذاب، ومن التجاهل الذي أصابه من قبل الحكومة. لو أن الحكومة قابلت عنفوانه وحيويته ونشاطه بمثله، لما سقطت الخرطوم أبدا».

تصاعد الاحتفاء بغوردون في الصحف والمجلات وتعداه إلي قاعات الموسيقى. ففي الثمانينات من القرن التاسع عشر كان الناس يرددون أعمال المغنين والموسيقيين وهم يؤدون أغنيات مثل «تو ليت ...تو ليت» أي «متأخر جدا...متأخر جدا»، والتي كانت كلماتها تمدح غوردون وتشيد بالتزامه للخدمة وللواجب وحماية السكان

المحليين. وذاعت أغنية «غوردون بطل الخرطوم» والتي ورد في أحد مقاطعها : ...حيث ترك هنالك ليموت وحيدا»(*). وتناول مسرحيون كذلك مقتل غوردون بأعمال درامية عسكرية عديدة الفصول.

وحد مقتل غوردون في الخرطوم من آراء الطبقة المثقفة من أبناء علية القوم في المدارس العامة (التي تخرج زبدة الصفوة من الأرستقراطيين وكبار موظفي الخدمة المدنية العاملين في خدمة الإمبراطورية والحكومة)، وبعضهم كان معاديا للإمبريالية والبعض الآخر كان يؤيدها...توحدت آراؤهم جميعا ضد جلاديستون. سطر الكثير من طلاب المدارس الشهيرة مثل هارو ورادلي وولينجتون الكثير من المراثي باللغتين اللاتينية والإغريقية حزنا على غوردون، وفازت الآراء المعارضة للحكومة بأغلبية مطلقة عند التصويت في نقاشات الجمعيات الأدبية وحلقات النقاش.

تأثر كثير من عباقرة الموسيقي بقصة غوردون. بدأ المؤلف الموسيقي إدوارد ايلجر في تأليف سيمفونية اسماها «سيمفونية غوردون»، بيد أنه لم يكملها أبدا، رغم أنه نقل كثيرا من أفكار وعواطف وأحاسيس تلك السيمفونية (غير المكتملة) إلى مؤلفاته الأخرى مثل «أحلام جيرونتس». استبق صحفي الأحداث فكتب يشيد بمؤلف ايلجر الموسيقي «سيمفونية غوردون» ويقول إن عظمة غوردون وحياته العسكرية والسياسية الحافلة وطاقته الجبارة وعزيمته التي لا تخور وعاطفته الدينية المتأججة هي ما حفز خيال الموسيقار ايلجر ليبدع تلك السيمفونية التي توافق مزاج الإنجليز الشجعان الصادقين وتنال رضاهم!

مجتمع «الصالونات»:

كان الشعور العام لدى الكتاب المعاصرين لمقتل غوردون كذلك عاطفيا وشديد المرارة تجاه حكومة جلاديستون. قد يصح القول بأنه ما من روائي قام بتأليف رواية « إمبريالية كلاسيكية» لتلك الفترة وأحداثها، بيد أن رواية «سيريل» لمؤلفها دريق والتي تتناول أحداثا جرت في روسيا (وليس مصر أو السودان) أتت في فصلها الأخير علي بعض الإشارات والتحليل لمهمة غوردون واقتطفت أجزاء واسعة مما سطره غوردون في مذكراته.

وعلى النقيض من الروائيين المعاصرين الذين لم ينجحوا في تحويل قصة غوردون لعمل روائي، لم يجد الشعراء عناءا كبيرا في فعل ذلك. نجح طالب في جامعة كمبردج

(*)سأثبت في نهاية المقال المترجم النص الكامل قصيدة رثاء غوردون ، رغم أنها لم ترد في المقال .المترجم .

الشهيرة في العثور على ناشر لنصوص شعرية (سوناتات) تصور انتصارات غوردون ووصوله للخرطوم ودفاعه البطولي عن تلك المدينة، بينما تناول الشاعر والتر ويليامز سياسة جلاديستون (الخاطئة) في مصر والسودان، ودور بريطانيا عموما في العالم، ورثى غوردون بزفرات حرى!

كذلك أقيمت العديد من «المسابقات الشعرية» المغرقة في التطرف السياسي في تخليد ذكرى غوردون، وجمعت الكثير من الأعمال الشعرية في مرثيات غوردون باللغات الإنجليزية واللاتينية والإغريقية. بينما قامت قلة من الشعراء المعارضين للإمبريالية الفيكتورية بإسماع أصواتهم، خاصة بعد «ثورة عرابي» في مصر، بل إن واحد من هؤلاء كان قد طالب من قبل مقتل غوردون بضرورة جلاء الحاميات المصرية من السودان، وترحيل الإداريين المدنيين، وحذر من أن الوقوف في وجه المهدي (حاكم البلاد الإسلامي الشرعي) سيجلب كارثة محققة.

أرسل هذا الرجل (واسمه بلنت، ومن العجيب أن اسمه يعني حرفيا «الصريح») خطابا طويلا لغوردون قبل سفره للخرطوم تنبأ فيه بما حدث فعلا، وجاء في ختامه الآتي: «سيتخذ أمراء الحرب موتك في الخرطوم سببا للدعوة للانتقام واستعادة السودان. يا ليت كل الذين يودون أن يراسلوك للخرطوم في مهمتك تلك يعلمون ما سيحدث لك.» بل مضي هذا الرجل «الصريح» في الدفاع عن المهدية علنا، بل ونشرت له صحيفة التايمز في يوم ١٠/ ٣/ ١٨٨٤م مقالا يدعوا فيه انسحاب بريطانيا من مصر والسودان، وعقد «اتفاقية سلام» مع المهدي.عرض الرجل نفسه كوسيط بين بريطانيا والمهدي من أجل فك الحصار عن غوردون، بيد أن جلادستون رفض ذلك العرض فورا.

تعرض الكاتب الأسكتلندي الشهير روبرت لويس إستيفنسون (صاحب «جزيرة الكنز» و«رحلات علي ظهر حمار») إلى قصة غوردون وسقوط الخرطوم، فسطر خطابا إلي صديق له عبر فيه عن حزن عميق للأيام السوداء التي تعيشها الأمة نتيجة لكارثة مقتل غوردون، وقال أن إنجلترا «تقف أمام العالم ويدها ملطخة بالدم وملوثة بالعار». كان استيفنسون، كحال غيره من الكتاب الآخرين، يفصل فصلا واضحا بين غوردون «الرجل» وغوردون «القسيس السياسي». لم يهاجم إستيفنسون رئيس الحكومة جلاديستون كما فعل رفقائه الأدباء وكثير من الناس، وفسر الكاتب صمته هذا بأنه ليس من حقه أن يلوم أحدا من الناس على ما حدث. قال إستيفنسون: «لا يمكنني التوقيع باسمي على أي مذكرة احتجاج إلا أن أوقع بالآتي: «زميلك المجرم في نظر الإله». كفر إستيفنسون في أخريات أيامه عن «تقاعسه» في الكتابة عن مقتل غوردون

بالقول بأنه لم يكن بوسعه إنقاذ غوردون، بيد أنه كان يمكن أن على الأقل أن يفعل شيئا.

الأدب يقابل السياسة:

كان اليسار البريطاني يعارض مهمة غوردون في السودان. وكان كثير من اليساريين ونشطاء السلام يشعرون بالإهانة المذلة لفشلهم في جمع ما يكفي من الأصوات لمنع غزو واحتلال مصر في ١٨٨٢م. كانوا يعدون غوردون مجرد «حصان» في لعبة التدخل الإمبريالي في الخارج. بعد سقوط الخرطوم ومقتل غوردون انقسمت المجموعات اليسارية على نفسها ما بين مؤيد ومعارض وآخذ بالعصا من النصف. عقب سقوط الخرطوم سارع واحد منهم بالقول بأن الخرطوم قد عادت لأهلها الحقيقيين، وكان ذلك هو موقف «الرابطة الاشتراكية». قال الرجل: «إن طبقة الرأسمالية هي التي أشعلت الحرب في السودان وذلك من أجل زيادة رقعة الاستغلال، وإن النصر الذي أحرزه السودانيون هو انتصار للحق على الباطل، حقق بواسطة شعب يناضل من أجل حريته».



عودة غوردون

شارلس ترنش

تقديم: السطور التالية هي محاولة تلخيص وترجمة بضع صفحات من كتاب ألفه شارلس ترنش عن سيرة حياة الجنرال شارلس غوردون بعنوان: «الطريق إلى الخرطوم»؛ وقد صدر عن دار نورتون في الولايات المتحدة في عام ١٩٧٩م. ويصف المؤلف في هذا الجزء من الكتاب تفاصيل وصول غوردون للخرطوم، وعن ما قام به لتنفيذ ما جاء لأجله للسودان (أي إجلاء القوات المصرية ومن يرغب من المدنيين). اعتمد المؤلف في هذا الجانب على وثائق الحكومتين البريطانية والمصرية، وعلى كتابات من شهدوا تلك الوقائع. ونحاول هنا ترجمة بعض ما سبق ذكره عملا بأن «لا حياء في التاريخ» وأن «التاريخ حمال أوجه».

استقبل غوردون عند وصوله للخرطوم صبيحة يوم ١٨/ ٢/ ١٨٨٤م استقبال الابطال المنقذين من قبل الموظفين الرسميين بأزيائهم الرسمية المذهبة، وشارك في الاستقبال أيضاً الكثيرون من مواطني الخرطوم العاديين.

مهما اختلف الناس حول سمعة غوردون، فيجب الإقرار بأن الرجل قد أفلح، بشخصيته الجذابة وطاقته المتوقدة، في إثارة اهتمام وإعجاب سكان الخرطوم، والذين تقاطروا لاستقباله من كل حدب وصوب. ظل تجار المدينة يرتعدون رعبا مما سيحيق بهم إن كتبت الغلبة للمهدي وجيشه من البقارة المولعين بالتكسب.كان غاية أملهم أن يقوم غوردون بإنقاذهم مما ينتظرهم على يد جيش المهدية.

أقيم حفل استقبال رسمي في قصر الحاكم العام، استقبل فيه غوردون العلماء والمستشارين وكبار الموظفين. بعد الفراغ من تناول المرطبات والقهوة تمت قراءة الفرمان (المرسوم) الذي بموجبه تم تعيين غوردون حاكما عاما للسودان. ألقى غوردون بعد ذلك خطابا جاء فيه ما يلي: «ما من شك عندي أن الله سيعيننا وسيأخذ بيدنا لتجاوز أوضاعنا الحرجة الراهنة». لقد كان بمقدوري أم أجلب معي جيشا جرارا، بيد أني لم أفعل لثقتي التي لا تحدها حدود في جنودكم هنا». قام غوردون بعد ذلك بتقديم إستيوارت للحضور على أنه «أخ» و«وكيل» له (بمثابة رئيس وزراء) تتوجب طاعته وتنفيذ أوامره وكأنها صادرة منه شخصيا. أضاف أيضا أن إستيوارت

قد أتى معه «على عجل»؛ وهذا يفسر عدم إحضاره لزيه الرسمي! ثم توالت من بعد ذلك الكلمات التي كان الجميع في انتظار سماعها: «لقد قررنا إلغاء كل متأخرات الضرائب المفروضة على جميع المواطنين حتى نهاية ١٨٨٣م، وسنقوم بإحراق جميع ملفات الضرائب القديمة، كما سنقوم بتخفيض الضرائب لعام ١٨٨٤م إلى النصف. وأعلن لكم أيضا أنني أبيح تجارة الرقيق، وأسمح بها تماما كما كان الأمر في الأيام السالفة».

وبما أن غوردون كان يتمتع بمواهب استعراضية هائلة، فلقد أعقب خطبته بالقيام بحرق بعض ملفات الضرائب القديمة، وأحرق معها بعض «الكرابيج»، وكانت تلك من أدوات التعذيب الرسمية التي كانت تستعين بها السلطات على استخلاص الضرائب من المواطنين. بدأ غوردون على الفور وبصحبة ثلة من الكتبة في النظر في العديد من الطلبات والاسترحامات المتراكمة، بينما اتجه إستيوارت نحو السجن حيث كان يقبع فيه المئات من السجناء محشورين كالسردين، وقد قيد كل اثنين منهما بالسلاسل، وشرع استيوارت في التحقيق في أحوال السجناء وشكاويهم. ما أن حل عصر ذلك اليوم حتى كان ٢٠ من أولئك السجناء يتنسمون عبير الحرية خارج أسوار السجن العتيق، ذلك أن ستيوارت قد اكتشف أن أولئك الرجال كانوا إما قد اعتقلوا دون محاكمة، أو ظلوا في الحبس من بعد انقضاء محكوميتهم، أو لعدم كفاية الأدلة ضدهم.

عبر غوردون عن بالغ أسفه لفقدانه ليده اليمنى «برزاتي بيه»، والذي كان قد لقي مصرعه مع هكس باشا، وأصر على زيارة عائلته المكلومة، وتعهد بتبني أطفاله اليتامى، ونفح أرملته المكلومة ١٠٠ جنيه إستيرليني. لم يتسع وقت غوردون لتناول وجبة فاخرة من الديك الرومي (الحبشي) والبيرة من النوع الفاخر والتي قام السيد «بوار» بتحضيرها بنفسه خصيصا للمناسبة.

وفي اليوم التالي واصل إستيوارت حملته لتخفيف السجون من أحمالها، بينما قام غوردون بزيارة المدارس حيث احتشد التلاميذ وأساتذتهم بملابسهم الرسمية، والجميع يؤدون الأناشيد التي تشيد بالزائر الكريم. قال غوردون فيما بعد ساخرا: «أعجبني جذل الصبية السود وهم يتصايحون طربا لإلغاء الضرائب، بينما لم يكن أحد من أهاليهم في الواقع قد دفعها فعلا»! لم ير غوردون من داع ليقرب الكافور من أنفه كترياق لعفونة الخرطوم كما كان يفعل سلفه «دي كتولنج»، بيد أن رائحة الفساد السياسي كانت تملأ الآفاق. أقدم غوردون ، وهو في أشد حالات الغضب، على

فصل العديد من المسئولين، ووجه كلمات قاسية محذرا عددا آخر.

قام غوردون بالإعلان الرسمي عن «تعيين» المهدي كسلطان على كردفان، وأعلن عن تكوين مجلس من الأعيان قام باختيارهم بنفسه. قام كذلك بتفتيش الحاميات المختلفة في أماكن متفرقة، ولاحظ تحسنا ملحوظا منذ أن قام إستيوارت بزيارتهم في المرة الأخيرة، ولم تفته ملاحظة أن عدد الجنود السود في ازدياد، وكذلك الضباط من ذوي الخبرة، ومنهم أولئك الضباط السودانيين الذين سبق لهم أن قاتلوا ببسالة مع الجيش الفرنسي في المكسيك. تم إرسال الجنود المصريين (البيض) والباشبزوق عبر النيل الأبيض للسيطرة على أمدرمان. كتب إستيوارت في يوم ١٧/٢ الآتي: « إن مشكلة إخلاء السودان لا تزال نصب أعيننا، بيد أنه كلما أمعنا النظر في الأمر ازداد الأمر صعوبة وتعقيدا. ولكننا في نهاية المطاف لا بد لنا من أن نواجه المشكلة بصورة أو أخرى».

كان غوردون يرى إخراج الجنود البيض وفاتحي اللون من السمر والباشبوزق من المعركة تماما، والاعتماد التام على الجنود السودانيين السود ليقوموا بتولي زمام أمورهم. وحين اقترح فرج بيه والعلماء استمرار الجنود المصريين لفترة أطول، غضب غوردون عليهم وشتمهم، بل وطردهم من حضرته، ولكن ليس قبل أن يصف فرج بيه بالمرأة العجوز، وبعد أن لقن العلماء درسا في ضرورة الثقة في الله. ظل إخلال الجنود المصريين من أولويات غوردون، وقد عقد عددا من الاجتماعات مع إستيوارت «لتقييم الموقف».

دعنا نقوم بفحص الجوانب المختلفة للمشكلة حسب ما تراءت لغوردون في العشرين من فبراير عام ١٨٨٤م. كان هدف غوردون - كما تقدم- هو إجلاء الجنود من غير السودانيين، ثم موظفي الحكومة المدنيين، وقناصل الدول الأجنبية، ثم يأتي بعد ذلك كل من يرغب من الرجال في الرحيل بعائلته إلى كورسكو، والتي تبعد مسافة ٦٠٠ ميل بأقصر الطرق (بالنهر إلى أبي حمد، ومن ثم عبر الصحراء النوبية). استقر الرأي على إجلاء حاميتي بحر الغزال والاستوائية عن طريق أوغندا، وإجلاء الجنود القابعين على الحدود الحبشية باتفاق مع الملك يوهانس، والذي لم يك يكن أي ود للمهدي، وإجلاء الجنود الموجودين في شرق السودان عن طريق ميناء سواكن. وخلال ذلك كله يتوجب الحفاظ على بربر لأطول وقت ممكن.

كان هم غوردون الأكبر ينحصر في تأمين الخرطوم وسنار والواقعة حوالي ٢٠٠ ميل جنوب الخرطوم، والتي كان لا يزال بالإمكان الوصول إليها بالباخرة. كانت

حامية الخرطوم تتكون من ٢٠٠٠ من «البيض» و١٩٠٠ من «الباشبوزق»، وكان في حامية سنار حوالي ٧٠٠ من الجنود «البيض» مع عدد قليل من الضباط وعائلاتهم، وكان بينهم بعض العائلات السودانية التي آثرت البقاء في السودان مما حد قليلا من عدد الذين يرغبون في الرحيل. كان عدد الموظفين الحكوميين في الخرطوم نحو ٢٠٠، نصفهم من المصريين مع عائلاتهم، وكان من بين الدبلوماسيين قناصل عدد من الدول مثل فرنسا واليونان وغيرها. كان من بين أشهر الأجانب حائك (ترزي) نمساوي، وزراع قطن من اليونان، والعديد من التجار السوريين والمصريين واليونانيين مع عائلاتهم؛ وكانوا كلهم بلا استثناء يرغبون في الرحيل.

كان إيفيلن بارينج (سياسي ورجل دولة ودبلوماسي وإداري في المستعمرات عاش بين ١٨٤١ – ١٩١٧م. عرف باسم كرومر. المترجم) يقدر عدد سكان الخرطوم في يوم ٢١ يناير بأربعة وعشرين ألفا منهم نحو ١٠– ١٥ ألف أجنبي. كان ذات الرجل قد قدر عدد الأجانب قبل ذلك بعشرة أيام بستة آلاف (من الصعب تفسير ذلك التناقض في التعداد. المترجم). لم تلتزم الحكومة المصرية بإجلاء أي فرد في السودان عدا جنودها، بيد أن غوردون كان يرى أن من واجبه إجلاء جميع من يرغب في الرحيل من السودان. كانت تقديرات غوردون للأجانب في السودان كما يلي:

الجنود ٤٦٠٠

موظفو الحكومة ١٠٠

أفراد العائلات ٨٠٠

آخرون ١٠٠٠٠ – ١٥٠٠٠

المجموع ١٥٥٠٠ – ٢٠٥٠٠

لخص غوردون العوامل التي قد تؤثر على عملية الإجلاء في الآتي:

١. النقل والترحيل: شكل الحصول على إبل تكفي لنقل كل هذه الأعداد من الناس معضلة هائلة، إذ لم يكن غوردون يثق في إخلاص مالكي هذه الإبل، بل وكان يخشى أن يقوم هؤلاء «الأبالة» بنهب الراحلين عوضا عن عن مساعدتهم في الهرب. كان بعض المصريين قد غالى جدا في عدد الإبل المطلوبة لرحليهم ونقل متاعهم. فلقد طالب حسين باشا سري مثلا بخمسين جملا لحمل متاعه الشخصي، وقنع أخيرا بخمسة عشر من الإبل! شكلت الشلالات (خاصة الشلال الرابع) وحالة النهر عقبة عقدت من عمليات الإجلاء.

٢. **سلوك واتجاهات القبائل القاطنة حول مسار الإجلاء**: كانت أكبر قبيلة تقطن على الضفة الشرقية للنيل بين الخرطوم وملتقى نهر عطبرة هي قبيلة الشايقية القوية (هل هذا صحيح؟... المترجم) والتي كانت تتبع للزعامة الروحية لعائلة الميرغني طائفة الختمية والذين كانوا يعادون المهدي. كان الاحتلال المصري يثق في ولاء الشايقية والذين كانوا يمثلون مصدرا (غير منتظم أحيانا) لقوة الجيش المصري. كان هنالك أيضا بدو الكبابيش وهم في حالة عداء مع المهدي (والذي كان يحرم التبغ والمريسة وهم لهما مدمنين). وكانت لهم مع مصر مصالح تجارية مشتركة. كان ولاء الشايقية والكبابيش لمصر متوقعا، رغم أنه لم يكن مضمونا تماما. كان غوردون يعتبر الجعليين والدناقلة من أعدائه المحتملين، إذ أنه كان قد ضيق عليهما الخناق عند محاربته لتجارة الرقيق وعادى «الجلابة».

استقر رأي غوردون على أن أسلم الطرق للإجلاء وأشدها عملية، هو عبور النهر إلى «أبي حمد» ومنها عبر الصحراء إلى كورسكو. كان عليه إتمام عملية الإجلاء قبل هبوط مستوى النهر في أكتوبر، وكان من المقرر أن تأخذ الرحلة من الخرطوم إلى إبي حمد جيئة وذهابا نحوا من أسبوعين.

بدأت عمليات الترحيل بنقل المرضى والنساء، ولكن بدا جليا أن العملية محاطة بالعقبات من كل نوع. رغما عن كل ذلك، وصل بسلام إلى كورسكو ١٧٩٨ مدني و٣٤٠ جنديًا. حمل غوردون للسيد دي كتلونج رسالة للنشر العام قال فيها إن الخرطوم غدت آمنة مثل حديقة كنجيستون!

كان غوردون يؤمن بضرورة أن تظل القبائل القاطنة على النيل بين الخرطوم والحدود السودانية المصرية هادئة ومسالمة. وضح لغوردون أن فكرته الأولى لتقسيم السودان إلى سلطنات صغيرة لم تكن فكرة صائبة، إذ أنه لم يجد فعليا من يستحق من شيوخ القبائل أن ينصب سلطانا على منطقته. كان هنالك شخص واحد يمكنه الحفاظ على الهدوء والنظام والأمن في وسط السودان...كان ذلك الشخص هو الزبير باشا رحمة ...فبالإضافة لكونه شخصا ملهما، فقد كان أيضا أحد أفراد قبيلة الجعليين العريقة، وصديقا لمدير مديرية بربر، مما يوفر مركز قوة في ذات المكان الذي يحتاج إليه فيه، وستكون كلمته مسموعة ومطاعة في أواسط القبائل التي تتعامل في تجارة الرقيق أكثر من غوردون.

لم يتمكن غوردون أبدا من التأكد من قبول الزبير لعرض ملك السودان. في يومه الأول بالبلاد أرسل غوردون تلغرافا «مثيرا» إلى السير بارنج مقترحا عليه أن يعلن

تبعية السودان لبريطانيا بدلا عن عن تبعيته للخديوي في مصر، وأن تختار بريطانيا حاكما محليا للسودان (هو الزبير دون ريب)، وأن تقدم له العون المعنوي وليس أكثر من ذلك. كان كل ذلك مشروطا بألا يتعهد الزبير – بعد أن تقدم له مساعدات بسيطة لتضمن عدم خيانته لبريطانيا- بألا يقرب من دارفور أو بحر الغزال أو الاستوائية، وأن يداوم على دفع معاشات الحكومة لأصحابها، وأن لا يقوم بالانتقام من الذين سحقوا تمرد إبنه عثمان، وأن لا يفرض ضرائب أو عوائد تتجاوز قيمتها ٤٪، وأن يخطر مصر بصورة منتظمة بارتفاع منسوب النيل. سأل غوردون أستيوارت عن مقترحه هذا فأجاب الرجل إجابة حذرة تفيد بأنه لم يبق بالبلاد مدة كافية تتيح له الإدلاء برأي مناسب في هذا الموضوع. كرر غوردون طلبه الملح بتنصيب الزبير ملكا على السودان، وأضاف قائلا: «يجب أن نترك للزبير الجنود السود حتى نعطيه فرصة جيدة ليبدأ بداية عادلة».

بر بارينج بوعده ووافق على إرسال الزبير للسودان، ولكن ليس قبل أن يغادره غوردون. وكان هذا خطأ فادحا، إذ أن الغرض الرئيس لإرسال الزبير للسودان كان هو تهدئة القبائل الشمالية وضمان إتمام الجلاء في أمن وهدوء، بل وأقر بارينج استمرار تجارة الرقيق في السودان، – مهما يكن من حكمه- منعا لنشوب تمرد أو فتنة وسط القبائل الشمالية، وقال إن إقامة الزبير في مصر لسنوات قد تكون بذرت في نفسه بذرة صغيرة من الإنسانية. أثار سماح غوردون وبارينج باستمرار تجارة الرقيق في السودان ثورة غاضبة في إنجلترا من قبل كثير من جمعيات محاربة تجارة الرقيق، وكانوا يرون أن تعيين الزبير تاجر الرقيق السابق أمرا غير مقبول البتة لدى الرأي العام البريطاني، واقترحوا أن يقوم غوردون بترشيح شخص آخر غيره، بيد أن غوردون لم يفعل، ولم يك بمقدوره ترشيح شخص آخر حتى إن أراد.

أرسل غوردون برقية عاجلة لمصر مساء ٢٦ فبراير جاء فيها أنه يعتقد أن المهدي لو نجح في الدخول إلى الخرطوم فإنه لن يترك مصر تنعم بالسلام، لذا فهو يؤمن بضرورة القضاء المبرم على المهدي، إذ أنه يراه شخصية مكروهة في الخرطوم، وأن هزيمته ممكنة. وأضاف: «إن أردتم سحق المهدية فابعثوا لي بمائة ألف جنيه إسترليني و٢٠٠ من الجنود الهنود إلى وادي حلفا...» أثارت تلك البرقية إزعاج الوزارة البريطانية، فما لمثل ذلك عاد غوردون للخرطوم، وكان ما اقترحه مخالفة صريحة للأوامر الصادرة إليه.

وفي العاشر من مارس أتى نبأ من بربر يفيد بقطع الطريق إلى مصر بعد تمرد القبائل

هناك وتجمع آلاف العرب على مقربة من الخرطوم، وبدأ فعليا حصار الخرطوم. استمر الوضع في التدهور، ووصل المهدي شخصيا إلى أم درمان في ٢١ أكتوبر مع تعزيزات ضخمة من الجهادية السود، وكذلك مع أسراه من الأوربيين.

أحصى غوردون عدد قواته في ١٩ أكتوبر، وكانت على النحو التالي:

الجنود النظاميون السود ٢٣١٦

الجنود النظاميون المصريون ١٤٢١

الباشبوزق ١٩٠٦

الشايقية ٢٣٣٠

المليشيا «المدنية»٦٩٢

المجموع ٨٦٦٥

وفي ٢٨ أكتوبر فقد غوردون السيطرة على بربر، وتوالى سقوط حاميات غوردون الواحدة تلو الأخرى، وبدأت الحكومتان البريطانية والمصرية في التحضير لحملة إنقاذ لغردون المحاصر...



سلاطين والخليفة

بايرون فارويل

تقديم: كتب بايرون فارويل كتابا بعنوان «سجناء المهدي» صدر عام ١٩٦٧ من دار هاربر وراو. وعنوان الكتاب لا يدل علي كامل محتوياته إن الكتاب يصف نشوء المهدية، ويؤرخ لبعض من سجن خلال حكمها من الغربيين من أمثال سلاطين، والأب أوروالدر، وشارلس نيوفلد. من محتويات الكتاب أيضا إعادة احتلال كتشنر للسودان، وإنشاؤه للسكة حديد، وقيادته لمعركة أم درمان ... ..السطور المترجمة هنا هي عن الخليفة وسلاطين (وقد نال الأخير نصيب الأسد من صفحات الكتاب) وتقييم (تقويم) **ما حوته هذه السطور متروك للقارئ...**

من مشهور مقولات مادبو التي آمن سلاطين – رغم صغر سنه- بصحتها قوله: « من يعش طويلا يرى كثيرا»، ذلك أن سلاطين كان قد رأى الكثير المثير الخطر خلال سنين حبسه الاثني عشر. لقد شهد مولد أول دولة أفريقية في العصور الحديثة قامت بعزيمة وقوة وإرادة أهلها، ورأى رأي العين أيضا هذه الأمة الكبيرة تحكم – وبفعالية عالية- بواسطة رجل لا يقرأ ولا يكتب... ظل مغمورا، لم يزد عن كونه رجل قبيلة بسيط إلي أن بلغ الخامس والثلاثين من عمره. لم يتقلد عبد الله حتى مشيخة قبيلته قبل أن يضع فيه المهدي كامل ثقته، وما أن نال تلك الحظوة حتى أتته السلطة والقوة والنفوذ «تجرجر أذيالها»، وتركزت في يديه كل السلطات بعد رحيل المهدي. ولم يك للرجل بعد وفاة المهدي سوى أن يعتمد على عزيمته وقدراته ولا شيء سواهما.

كان سلاطين يرى في الخليفة رجلاً ظلوماً بربرياً معدوم الضمير والأخلاق، له في الطغيان والمكر والقسوة والغرور نصيب عظيم. لقد كان بالفعل كذلك، ولكن من يستطيع أن ينكر أن إنجازاته السياسية قد لامست حد الإعجاز. استطاع الرجل دون أن يغادر – ولو لمرة واحدة-المدينة التي اصطنعها عاصمة له أن يحكم مختلف أنواع البشر المنتشرين على رقعة عظيمة الاتساع تربو مساحتها على مئات الآلاف من الأميال المربعة. إن كان الرجل قاسياً فدعنا نتذكر أنه كان يحكم شعباً همجياً (بربرياً)، وإن كان ماكراً فيجب ألا ننسى أن تلك صفة مطلوبة لهذا النوع من الحكام، وإن كان

مغروراً فهذة خلة إنسانية متأصلة. كان لعبد الله ألف سبب وسبب ليصاب بالغرور، وكان لرعيته كذلك أسبابها في تملقه وكسب وده. ورغماً عن أخطائه وعثراته ومحدوديته، فإن عبد الله قد أفلح في حكم السودان بفعالية تفوّق فيها علي غردون وعلى كل الحكام المصريين الذين سبقوه.

بالطبع كانت الصعوبات التي تواجه الحاكم في إدارة تلك المساحات الشاسعة جمة وهائلة. كان الخليفة مهموماً بإحكام سيطرته على السودان، وأيضا بالقيام بتنفيذ وصية المهدى لنشر المهدية خارج حدود البلاد فامتد طموحه لغزو الحبشة ومصر.

في اليوم الثاني عشر من أبريل١٨٨٧م وقف على بوابة الحدود البريطانية المصرية في وادي حلفا أربعة من الدراويش يحملون رسالة من الخليفة موجهة لخديوي مصر، ولسلطان تركيا وللملكة إنجلترا. بعث الرسل للقاهرة، وكانت كل الرسائل ذات فحوى واحدة لا تتعدى المطالبة بالإيمان بالمهدية والتسليم لخليفة المهدي عبد الله. كانت لغة الرسائل جميلة ولكنها فظيعة وبالغة السذاجة. جاء في رسالته للملكة فيكتوريا ما مضمونه الآتي:

«إن آمنتي وشهدتي بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، واتبعتي المهدي – عليه السلام- ورضيتي أن تكوني من رعايا حكمي فإنني سأقبلك وأعطيك من قطوف الرحمة لتنجي من عذاب النار. ستكونين في مأمن وفي دعة. سيكون لك ما لنا وعليك ما علينا. وسينشأ بيننا حب في سبيل الله، وسيغفر المولى لك ما أسلفت من الذنوب إبان كفرك. ولكن إن أبيتي .....اعتماداً على ما عندك من الجيوش والمؤن فاعلمي أنك تقترفين خطأ شنيعا، وفي مقابل كل ما لديك من تجهيزات وخطط، فاعلمي أن لدينا ما سنواجهك به: لدينا الإيمان الصادق بالله، وبما وعدنا به من ملك الملوك من عضد ونصر مبين. ومن من الناس بمقدوره مقاومة الرب وعصيان أمره. إن قدرة الله لا تجارى، ونصره قريب قريب. إن قدرة الله قاهرة فاحذريها.....

إن رجال المهدي رجال من حديد، رزقهم الله حب الموت والشهادة، الردى أحب إليهم من الماء البارد للظمآن. لذا فهم شديد والوطأة علي الكفار، لا يلقون بالاً لعرض الدنيا الزائل ويرون كل شيء في الدنيا خلا الله باطلاً، ويسعون للشهادة ونعيم الآخرة الأبدي».

تجاهل الخديوي والسلطان و- بالطبع- الملكة رسالة الخليفة ودعوته لهم بالدخول في المهدية. وبعد مرور عامين أعاد الخليفة الكرّة وبعث برسالة أخرى للملكة وكذلك للخديوي والسلطان.

ثم ما لبث أن أرسل جيشاً لغزو مصر قاده عبد الرحمن النجومي، مني بهزيمة ماحقة في معركة توشكى في الثالث من أغسطس عام ١٨٨٩م.

وفي نوفمبر من عام ١٨٩٣م جهز الخليفة جيشاً قاده ود علي إلى جنوب شرق السودان. لم يكن حظ ود علي بأفضل من حظ النجومي، إذ قام الجيش الإيطالي بقيادة أقردوت بسحق جيش الخليفة وقتل ود علي واحتل كسلا.

كانت إدارة أرضي السودان الواسعة عسيرة على الخليفة، إذ لم يكن الرجل قد رأى في حياته شيئا من العالم المتحضر، وخلا القليل من موظفي الحكم السابق، فإن إدارته كان يعوزها الإداري المتمرس. بيد أنه رغما عن ذلك أبلى بلاءً حسناً في الإدارة، إذ نصّب أمراء على مختلف المناطق وفرق الجيش، وأنشأ إدارات للقضاء في المناطق، وما يشبه المحكمة العليا في أم درمان وعيّن لها القضاة. وعيّن كذلك «مراقبين إداريين» في الأقاليم وأميناً لبيت المال. وكان كل ذلك أفضل ألف مرة من الحكم السابق الذي تميّز بالفساد والرشوة. وعلى الأقل، فإن لم يكن حكم الخليفة أفضل من الحكم المصري للسودان، فإنه لم يكن أسوأ منه بحال. كان حكم الخليفة مصمما لإحكام قبضته الشخصية – كأقوى ما تكون القبضة– وكان هذا هو هدفه بالضبط.

وصف سلاطين نظام البريد فى المهدية بأنه نظام متخلف جداً، ولكنه يعمل. خصص الخليفة نحواً من ستين إلى ثمانين من إبل الركوب واختار بعناية عدداً من الرجال للعمل في البريد في كافة أرجاء إمبراطوريته الواسعة. اقترح عليه ذات مرة إبراهيم عدلان إنشاء نظام «نقاط المبريد» تتوقف وتستريح فيها إبل البريد وسعاته، بيد أن الخليفة رفض الاقتراح، ولعله كان مصيباً في هذا الرأي، إذ إنه كان يعول كثيراً على التقارير الشفوية التي كان يزوده بها سعاة البريد. كان يستجوبهم شخصياً ويستخلص الكثير من إفاداتهم فيما يخص أمراء المناطق وسلوكهم أكثر مما يستخلصه من تقاريرهم المكتوبة. إن للأمية مزاياها، وكان الخليفة الأمي يتفادى الخطأ الإداري الشائع بالاعتماد المفرط على الكلمة المكتوبة.

كان القضاء فى عهد الخليفة يقيم العدل مستنداً على قاتين الشريعة الإسلامية حسب فهم المهدي لها، وأحيانا حسب «تعديلات» الخليفة. وفي هذا النظام القضائي لا يمكن رد دليل الشهود، بيد أن للقاضي حرية قبول أو رفض الشهود، ولا يحق للمتهم أن يحتج. وبما أن القضاة كانوا يقبلون الرشوة، وكانت رواتبهم متدنية جدا، فلم يكن للأثرياء ولذوي الشوكة (بعكس الفقراء والدهماء) أن يخافوا من ردع وسلطة القوانين.

قام الخليفة بفرض مختلف أنواع المكوس والضرائب والإتاوات على الكثير من المنتجات والنشاط الاقتصادي. ووقع عبؤها الأكبر على رجال الأعمال والصناعة (وهذه من الأخطاء التي تقع في حبائلها قديماً وحديثاً حتى الحكومات الأكثر تطوراً). لم تكن هذه الضرائب – رغم غلوها والقسوة التي كانت تصاحب جبايتها – أفدح من تلك التي كان يفرضها الحكم المصري السابق.

كانت الصناعات والتجارة في عهد المهدية أقل نشاطاً من تلك الموجودة فى العهد السابق، بيد أن تبادلاً خجولا للتجارة بين مصر والسودان كان قد بدأ في العودة، وبدأت بعض البضائع الأوروبية القليلة فى الوصول للبلاد رغم أن السودان كان في حالة عزلة شبه تامة عن التجارة مع العالم الخارجي. كانت التجارة الرائجة الوحيدة هي تجارة الرقيق، خاصة في النساء والأطفال. كان أغلب الرقيق الذكور من أملاك الخليفة، وكان على كل من يود بيع عبده الذكر في أم درمان أن يتوجه به إلى بيت المال حيث يعوّض بقيمة اسمية، ويتم تجنيد العبد في الجيش، وإن كان لا يصلح للخدمة العسكرية فإنه يرسل إلى أحد بيوت الخليفة للخدمة. كان تجار الرقيق يبيعون النساء ويشترونهن، وكان امتلاكهن دليل الثروة والجاه.

كان سوق النخاسة في أم درمان يقع على بعد يسير (في الاتجاه الجنوبي الشرقي) من بيت المال، وكان عبارة عن فضاء واسع يقوم في وسطه مبنى طيني تتم فيه صفقات البيع والشراء وعرض «البضاعة» وفحص «المعروضات». زار سلاطين ذلك السوق عديد المرات بترخيص من الخليفة بدعوى الرغبة فى بيع أو شراء الرقيق. ولقد سجل وصفاً دقيقاً لممارسات ذلك السوق جاء فيه:

«كانت النساء والبنات يقفن أو يجلسن حول حائط المبنى. وكان بعضهن من العواجيز ذوات الجمال المتدني، بينما كان بعضهن من «السراري» المليحات. كان الناس ينظرون إلى هذه التجارة بحسبانها ممارسة طبيعية وقانونية. وكان الرقيق المعروض للبيع كالسوائم يفحص بعناية فائقة من أعلى الرأس إلى أخمص القدم دون أدنى تحفظ من قبل المشترين. يفتح الفم للتأكد من سلامة الأسنان، ويعرّي الجزء الأعلى من الجسم والظهر، وتفحص الأيادي. ثم تؤمر المرأة بالسير للخلف وللأمام للتأكد من سلامة الخطوة والحركة، ثم يتم استجوابها بسيل من الأسئلة للتحقق من مدي معرفتها باللغة العربية. في واقع الأمر كان عليها أن تخضع لأي نوع من الفحص يرغب في إجرائه من يرغب في الشراء.

تتفاوت بالطبع أسعار السراري تفاوتاً كبيراً. كانت النساء المعروضات للبيع ينظرن

للأمر كله وكأنه أمر طبيعي وقدر محتوم، ولا يعرنه كبير اعتبار. بيد أنه في مرات قليلة كنت أحس من نظرة المرأة المعروضة للبيع نوعاً من «الضيق» بذلك الفحص الدقيق، إذ ربما تكون تلك المرأة «تحن» لسيدها القديم باعتبار أنه كان يعاملها كمجرد خادم له وليست عبدة، أو أنها كانت تعامل كأحد أفراد الأسرة وأن حظاً عاثراً أو ظروفاً اضطرارية هي التي أجبرت سيدها على عرضها للبيع.

وبعد أن يفرغ المشتري المحتمل من فحص بضاعته جيداً يتنحي بالبائع ويسأله عن السعر الذي كان قد دفعه في المرأة، وقد يسأله إن كان لديه «بضاعة» أكثر جودة معروضة للبيع ذلك اليوم، وقد يحاول المشتري جاهداً تقليل السعر بزعم أن الوجه ليس مليحا بما يكفي، أو أن الجسم ليس مكتمل النمو، أو أنها لا تتحدث العربية، أو هكذا. وفي المقابل يحاول البائع جهده إظاهر مزايا بضاعته وحسنها (بذكر تفاصيل لا داعي للخوض فيها هنا). من العيوب (السرية) التي قد تجبر البائع علي تخفيض السعر، الشخير، وسوء الخلق والصفات الذميمة مثل السرقة وأشياء أخرى. وفي نهاية المطاف عندما تتم البيعة وتستخرج الأوراق وتوقع ويدفع السعر تصبح المرأة عبدة لسيدها الجديد.

يتم دفع أثمان الرقيق بالعملة المحلية والتي كانت تسمي «عملة جديدة» (دولار) ورغم اختلاف معدلات السعر حسب تقلبات السوق والطلب على جنس معيّن فإن الأسعار كانت تجري علي النحو التالي:

امرأة عاملة كبيرة في السن ٥٠ – ٨٠ دولارًا

امرأة متوسطة العمر ٨٠ – ١٠٠ دولارًا

بنت صغيرة (٨ -١١ عام) ١١٠ - ١٦٠ دولارًا

سرية ١٨٠ –٧٠٠ دولار

وللمقارنة، فهذه هي أسعار بعض الأشياء الأخرى:

جمل (لحمل الأثقال) ٦٠ - ٨٠ دولارًا

جمل (للركوب) ٢٠٠ –٤٠٠ دولارًا

حصان حبشي ٦٠ - ١٢٠ دولارًا

بقرة ١٠٠ - ١٦٠ دولارًا

عجل٣٠ –٥٠ دولارًا

خروف ٥ - ٢٠ دولارًا

خلال الحكم المصري السابق كانت العملة السائدة في السودان هي دولار ماريا تيريزا أو المجيدي (دولار تركي أو مصري) وسك حكم الدراويش على الأقل تسعة أنواع من «دولار المهدية» كان آخرها «العملة الجديدة» وفي ذلك الوقت كان المجيدي ودولار ماريا تيريزا يعادلان ٨ و٥ من العملة الجديدة، على التوالي.

كانت الأخلاقيات المتعلقة بالجنس (sexual morality) بحسب المعايير الأوروبية بالغة التدني. كان سلاطين يقول أنه يعلم عن رجال اتخذوا من الزوجات ما يفوق الأربعين أو الخمسين في خلال عقد من الزمان (مع الالتزام بأربع زوجات فقط في أي وقت معيّن)، وهنالك من النساء من كان لها مثل ذلك العدد أيضاً من الأزواج. وكان بعض ملاك الرقيق يتاجرون بممتلكاتهم من النساء في الدعارة ويأخذون على ذلك نصيباً مرقوما. وزعم سلاطين أن «عدم الأخلاق أو الانحلال immorality » كان على أشده لدى ال...... إذ كانوا – كما ادعى- يتبادلون الزوجات، وشاعت بين كثير منهم المثلية (هنالك مزيد من التفاصيل التي يمكن لمن يرغب أن يرجع إليها فى الأصل. المترجم).

لقد كان سلاطين لصيقا بدائرة الخليفة الضيقة مما أتاح له ما لم يتح لغيره من الأوروبيين أو السودانيين معرفته. لقد رأى سلاطين الخليفة يدمر ليس فقط أعداءه بل ثلة من أصدقائه عندما كان يحس بتنامي نفوذهم وسطوتهم، مما دعاه للخوف من إمكانية إيذائهم له. ولم تتعد دائرة من حظي بثقته غير أهله المقربين. فوقع الزاكي طمل (والذى كان من فرسان المهدية وخدم الخليفة بإخلاص) في صدام مع يعقوب أورده السجن ثم الموت في السجن جوعاً وعطشا، ولأن الأمور في السودان لا تعمل «بأنصاف الحلول halves» فلقد تم قتل سبعة من أخوان الزاكي وأهله المقربين، بينما جلدت أخته حتى الموت.



من رسائل ونستون تشيرشل

من كتاب فريدريك وودز«حروب الشاب ونستون: الرسائل الاصلية للمراسل الحربى ونستون تشيرشل ١٨٩٧ - ١٩٠٠م)»

تقديم: جمع فريدريك وودز الرسائل التي كان يبعث بها المراسل الصحفى الشاب ونستون تشيرشل الى الصحف البريطانية من السودان وجنوب أفريقيا في أخريات القرن التاسع عشر فى كتاب عنونه «حروب الشاب ونستون: الرسائل الأصلية للمراسل الحربى ونستون تشيرشل ١٨٩٧ - ١٩٠٠م) ونشر الكتاب فى عام ١٩٧٢م من دار فيكنق للنشر فى نيويورك. السطور المترجمة هنا هى لإحدى رسائله القصيرة عقب انتهاء موقعة كرري.

معسكر أمدرمان . ١٠/٩/ ١٨٩٨

سأفترض أنه سيثير اهتمامك - كما أثار اهتمامي - أن أصف لك ساحة القتال بعد أن وضعت الحرب أوزارها. وأثق أنا تمام الثقة من أن أي وصف للمناظر القطيعة التي أراها أمامي تختلف عن الحقيقة ، تماما كما يختلف ظل الشيء عن أصله. ومهما أوتيت من براعة الوصف ودقة التقل فلن أستطيع أن أصور لك ما أراه تصويرا يشابه الحقيقة , بيد أني أحمد الله في الوقت ذاته أنني لا أستطيع أن أنقل لك عبر هذه الرسالة ما أشمه من روائح تزكم أنفي بعفونة لا تطاق، ولكنك على أية حال لا شك ستجدتها فى ما سأقصه عليك من خبر هذه المعركة وما تلا أهوالها من مشاهد بالغة الفظاعة. لا أجد في نفسي رغبة في في معاودة زيارة هذا المكان لذا لابد من أن تتحمل معي يا عزيزي القارئ وصفي لزيارتى الأولي (و الأخيرة) هذه.

دعني في البدء أصف لك شكل ساحة الحرب. يجري نهر النيل من الجنوب الي الشمال، وتوجد على ضفته الشمالية «زريبة» الجيش البريطاني (وهي تتجه غربا)، وعلى بعد ميل منها يقع جبل كرري بزاوية قائمة على النيل، وعلى بعد ميل آخر إلي الشمال توجد جبل آخر اسميه .

Heliograph Hill وأسمي فيما بعد جبل لانسر Lancer Hill. يمثل الجبلان والنهر ثلاثة أضلاع (أبعاد) للصورة، ويمثل الضلع الرابع سهلا واسعًا يبدو كسراب

في فضاء عريض تلوح منه تلال بعيدة لا تعنينا الآن. يوجد في هذا الفضاء الواسع المترامي نحو أحد عشر ألفا من الجثث، وقريبا منها تبعثرت مئات أخرى لجثث ضحايا هجوم الخيالة أو الطلقات الطائشة أو من الفارين من المطاردة.

في يوم الخامس من سبتمبر امتطيت صهوة جوادي برفقة لورد توليباردين وهو أحد فرسان الجيش المصري, وذهبنا سويا لتفقد ساحة الحرب. وكنا نسير بمحازاة الخور والذي كان يسقي الجبش المنتصر عصر الثاني من سبتمبر، ومنه سرنا عبر السهل الرملي إلى المنحدرات الواقعة جنوب Heliograph Hill ومنه وصلنا للمكان الذي بدأت منه الفرقة الحادية والعشرين هجومها, وهنا لاح لنا فجأة فى وسط السهل المنبسط خور عميق (يسميه الهنود نولا Nulla) وكان بمثابة مصيدة عرضها عشرون قدما ويمتد عمقها لخمس أقدام. وفي هذا وجدنا أكثر من اثنتي عشرة جثة لجنود الدراويش ونصف درزينة من الحمير النافقة وبعض قرب الماء المصنوعة من جلد الماعز وكمية من السروج والأسلحة المهشمة. وعلى مقربة من ذلك المكان رأينا منطقة واسعة مغطاة بالجثث. كانت هناك بعض القبور التي أقامها على عجل فيما يبدو أصدقاء للقتلى نثرت عليها بعض الرمال البيضاء لتمييزها. وكانت تحوم حول المنطقة خيول تحررت من سروجها ولجامها. ورأينا في وسط المكان علما ذا لونين : الأبيض والأحمر وكان مربوطا إلى خشبة طويلة وهو يرفرف فوق قبور جنود فرقة المشاة. كان ذلك هو كل ما هناك... بيد أن المكان اكتسب أهمية خاصة نسبة لتوافد كبار الضباط عليه من كل الفرق.

وغذذنا السير، وصعدنا لقمة الجبل تماما كما فعل بعض جنودنا قبل أيام ثلاث, وبدا لنا أن ذلك الموقع هو ذات المكان الذى اصطلت فيه صفوف الدراويش بنيران مدافعنا, وتناثرت في المكان جثث الدراويش المخلصين وهم بلباسهم الأبيض المرقع, وفعلت أشعة الشمس الحارقة علي مدي الأيام الثلاث فعلتها في الجثث، فانتفخت وغدت أحجامها كبيرة مرعبة تفوق ضعفي حجم الإنسان العادي، لم يعد شكل الجثة يشبه في شيء شكل الآدمي بل صار إلى القربة المتضخمة أقرب، بدت على جثة كل درويش من الدراويش الذين لقوا حتفهم آثار ندوب فظيعة وغطت جبة الواحد منهم بقع سوداء من الدم المتيبس الذي صلته الشمس الحارقة. ضاعفت الروائح الكريهة من كآبة المنظر.

غذذنا السير مرة أخري، ولفحتنا من جهة الغرب ريح قوية حارة بالغة العفونة عبرت السهل العظيم في اتجاه النهر. ومع مسيرنا كانت الصورة الفظيعة لما حدث تتضح أكثر فأكثر. هاهنا الموقع الذي منه بدأت المدفعية في حصد جموع الدراويش

المتقدمة. كانت كل قذيفة تقتل خمسة أو ستة رجال, وبقرب الزريبة (بنحو ٨٠٠ ياردة) بدأت فعالية الآلة الحربية في الظهور. وجدنا جثة واحدة تقريبا في كل عشر ياردات. وتجلت كثافة النيران وقوتها كأوضح ما تكون حيث حصدت بالبنادق والمكسيم الآلاف. وضح أيضا أن المخلصين من الدراويش الشجعان لم يهابوا جحيم نيران العدو فتقدموا بالعشرات ليحصدهم الموت المحقق في دقائق. وتراكمت جثث هؤلاء بعضها فوق بعض. وكونت الجثث فى بعض الأحايين طبقات ثلاث من الأشلاء الممزقة. لقد رأيت بأم عيني فى مساحة لا تكاد تتعدي المئة ياردة ما يفوق الأربعمائة جثة. هل بمقدورك أن تتصور الأوضاع التي كانت عليها تلك الجثث، والتي كانت – وإلى وقت قريب- في صورتها التي خلقها ربها في أحسن تقويم؟ لا تحاول أبدا إذ أنك إن أفلحت في ذلك فستداوم على سؤال نفسك دوما – مثلي تماما- «هل لي أن أنسى أبدا؟»

لقد حاولت أن أمجد الحرب أو أن أزينها وأن أعزي نفسي في أصدقاء شجعان أعزهم كثيرا ...ماتوا من أجل قضية آمنوا بها – مهما يكن مصيرهم في العالم الآخر. عندما يقتل جندي من جنود قوة متحضرة فى الحرب فإن أجزاء جسمه تضم – و باحترام بالغ- وتوضع في قبر معلوم، ويصاحب ذلك قرع للطبول وعزف لموسيقي الوداع الجنائزية الحزينة، وتقال في قداسه بضع كلمات مزهوة بالنصر. ويحيط بالجثمان رفقاء السلاح والأصدقاء ولربما حسد الميت علي ما ناله من شرف الاستشهاد وعلو المكانة. كل ذلك من شأنه تخفيف وقع مصيبة الموت وفداحته. بيد أن قتلى الدراويش لم ينالوا من مثل هذا أدنى نصيب، لم ينالوا شيئا من الكرامة الإنسانية التي لا ينبغي أن تهزم، وكان كل ما في الأمر فسادًا متعفنًا لقد كان الدراويش أشجع من مشي على الأرض، وتولد عندي إيمان راسخ بأنهم طلبوا الموت بشرف وعزة وكرامة تماما كما فعل جنودنا. قد تكون تلك فكرة تفتقر إلى الأصالة أو قد تكون فكرة مكذوبة، بيد أنه من المؤكد أنها فكرة لم تكن لتلاقي أي استحسان عند جيشنا!

كانت الخطوط والآثار التي خلفتها المجزرة تحكي تفاصيل الأحداث. هنا كانت فرقة ماكدونلادز وهنا ثلاث بطاريات للمدفعية وعدد من مدافع المكسيم قامت بصد هجوم لجيش الخليفة. وهنا علم الخليفة الأسود الذى تمت السيطرة عليه وسقط دونه مئات الرجال مكونين تلا كبيرا من الجثث المتراكمة. وهنا موضع قاتلت فيه فرقة بريطانية علي ود حلو مع عشرات الآلاف من جنوده، وهنا انطلق فرسان البقارة في هجومهم الرائع لملاقاة مصيرهم المحتوم، اختلطت أجساد فرسان الدراويش بملابسهم

البيضاء مع أجساد الخيول البنية والسوداء لذا بدا هذا الجزء من الميدان أقل بياضا مما سواه، واجه الآلاف من الدراويش نيران المدافع الحامية, وتقدموا بأقصى ما لديهم من سرعة تجاه الجيش الغازي، وكان الواحد منهم عندما يسقط من على ظهر جواده يطير للأمام مسافة بعيدة أمام الجواد ، كانت الآلة الحربية تحطمهم ولكنها لا تهزمهم.

صغرت في عيني – وأنا أمام كل هذه المناظر البشعة – صورة انتصارنا الدامي وتملكني حزن مقزز كسيف. كان هذا مما يؤذي النظر، ولكن كان هنالك ما هو أسوأ. بعد الموتى رأيت الجرحى، إن الجندي أو الضابط الذي يهجر ميدان القتال بعد إصابته بجراح له على الدولة دين مستحق، ففي حالة النفر (private) مثلا، فإن ذلك قد يعني معاشا تقاعديا، وبالنسبة للضابط فقد يعني الجرح مكافأة ضخمة ووسام وذكر حسن وبالتأكيد صعودا في سلم الترقيات، وتظل ندبة الجرح – وإن صغر– مصدرا للزهو والفخار وعذرا للضابط في إعادة ترديد القصة! لالآم الجرح يستعمل الأطباء أدوية التخدير، ولتعجيل البرء يقف العلم وموارده علي أهبة الاستعداد, بيد أن جروح الدراويش لم تجد من يداويها! كان هنالك مئات من الجرحي من الدراويش الذين تكدسوا وسط أكوام القتلي، لم يك الوضع العام يشجع على الاقتراب منهم، وتناثرت أجساد الكثيرين منهم فى السهل، بدأنا في الاقتراب من بعض هؤلاء لفحص حالتهم بحذر شديد ومسدس في اليد.

كان لدى اللورد توليباردين قارورة ماء كبيرة، ترجل اللورد وطفق يسقي كل جريح بضع قطرات إلى أن نفد ما عنده من ماء، يجب أن نتذكر أن ذلك كان بعد مرور ثلاثة أيام من انتهاء المعركة، كانت الشمس ترسل سياط أشعتها الحارقة على تلك الأجساد البائسة دونما رحمة. كان الجرحي في حالة عطش تفوق الوصف، تمنيت لو كان لي سطل كبير من الماء البارد الصافي لأضعه أمام كل رجل مرتعش محموم مثخن بالجراح، أما ذاك أو أن يأتي رجل مجهول الهوية يحمل مسدسا كثير الطلقات يطوف على تلك الأرواح البائسة فيخلصها مما تعاني من ويلات العذاب.

كانت المناظر أمامي تبعث على التقزز. شاهدت أربعًا من الجرحي يزحفون ببطء قاتل نحو شجيرة صغيرة شحيحة الظل ليلفظوا أنفاسهم الأخيرة تحت ظلها. علق أحدهم خرقة بالية فوق الشوك ليزيد من مساحة الظل، نال ثلاثة من أولئك الرجال مبتغاهم بينما نجا رابعهم، كان قد أصيب بطلقة أصابت رجليه الاثنين واستقرت في ركبته اليمني، مما شل حركة طرفه الأيمن تماما. سقينا الرجل بضع قطرات من الماء ولا أظن أن بمقدورك أن تتخيل مقدار السعادة التي جلبها ذلك الكوب الصغير من الماء.

فحص اللورد ركبة الرجل وفى لحظة استل سكينه ومضي يعملها في ركبة الرجل وما هى إلا لحظات حتى استل الطلقة من مكمنها. أيمكن أن تصاب بمزيد من الغثيان والقرف من أهوال تلك الساحة. لقد وجدت رجلا جريحا ظل يزحف نحوا من ميل خلال الأيام الثلاث التي أعقبت المعركة، وتبقى له ميلان قبل أن يصل لشاطئ النيل وكان يزحف بساق واحدة, إذ كان قد فقد الأخرى في الميدان.لم أنقطع عن التعجب والحيرة وأنا أتساءل إن كان الرجل سيصل لمبتغاه، ورأيت آخر تهشمت رجلاه تماما ولكنه ظل في وضع الجلوس يقطع نحو ٤٠٠ ياردة في اليوم زحفا، إن حيوية وقوة تحمل أولئك البؤساء غير العادية تطيل من أمد عذابهم وشقائهم. نجح أحدهم في الوصول إلي النيل، ولكن فاضت روحها في ذات اللحظة على شاطئه، دعنا نؤمل أن يكون قد ارتوى قبل موته.

كان كل ذلك بعد مرور ثلاثة أيام علي انتهاء الحرب، ولكن في التاسع من سبتمبر (أي بعد مرور أسبوع على انتهاء الحرب). كان هنالك بعض الجرحى من الذين لم يموتوا ولم يوفقوا في الزحف بعيدا وظلوا يتجرعون العذاب أفظعه. كيف بقوا عل قيد الحياة طوال تلك الفترة دون ماء أو طعام؟ لقد تلقوا بعض العون من النساء ومن الذين جردوا من سلاحهم من أهالي أم درمان. قام هؤلاء بمساعدة أهاليهم ومن يعرفون من المحاربين المهزومين ، بيد أن من أتى من هؤلاء الجرحي من أماكن بعيدة ولا أقرباء لهم في أم درمان كان مصيره الموت البطيء جوعا وعطشا، كان الواحد منهم يحصل بالكاد على جرعات قليلة من الماء مما تجود به أنفس المحسنين من أهالي أم درمان وينتظر يومه فى ثبات وصبر،كان هذا من أقسى المناظر التي قدر لنا أن نشاهدها.

دعنا نؤوب للمعسكر، إذ لم تك من فائدة في البقاء في ذلك المكان اللهم إلا إذا أردت أن يتحجر قلبك، وأن تتجرد وإلى الأبد من أي نوع من المشاعر الإنسانية، إنني أكتب لك الآن عن الانتقام ودفع الديون المستحقة، يقال: إن الآلهة قد حرمت الانتقام على البشر وخصت به أنفسها وذلك لحلاوته المسكرة. هب أن ذلك صحيح, أفينبغي أن نشرب كأس الانتقام الحلو المسكر حتى الثمالة! أو ليست نهايته ذات طعم مستقذر؟ أوليست خلة الإفراط مما يستهجن ويستقبح؟

وهكذا ومع مغيب الشمس وإسدال الليل لأستاره قفلنا راجعين لأم درمان «موطننا» وتركنا ساحة تلك المعركة لسكانها الصامتين،تركناهم جاثمين في الصحراء،أولئك الفرسان المغاوير الذين استبسلوا في الدفاع عن عقيدة فاسدة وحكم ساقط ذهب ريحه... أولئك الذين تركوا تاريخا لم يحفظه غير من هزمهم. لم تبق من

آثارهم غير بقايا عظام ستغطيها الرمال في سنوات قلائل قادمات، كنا قبل أيام ثلاث نسمع صوت هتافهم الداوي الواثق من النصر ونرى برق نصال سيوفهم وأعدادهم الكثيرة. نكاد نلمس حماسهم وشراستهم. كانوا شديدي الثقة في قوتهم وفي عدالة قضيتهم وفي نصرتهم لدينهم، لم يتبق منهم الآن إلا بقايا أشلاء ممزقة وأجساد مثخنة بالجراح مبثوثة في السهل العريض.

لقد لعبت آلة الحرب الفظيعة دورها باقتدار في الحرب العلمية الحديثة ومزقت جيش الدراويش شر ممزق، وكان هذا منتظرا ومتصورا. الزمن يضحك / يسخر من العلم والعلم يضحك من القوة وسيأتي يوم يكتسح الزمن فيه القوة والعلم معًا. وسيأتي يوم تدخل فيه وسائل الري الحديثة لتغير وجه أم درمان البائس إلى حدائق ذات بهجة وستصبح قطاطي أم درمان الطينية القميئة يوما ما مساكن جميلة ومسارح ومدارس وسيأتي يوم يشار فيه إلي ساحة تلك الحرب بلافتة تقول :« هنا كانت في زمان مضى حرب».....و هكذا ستخلد ذكرى تلك الحرب.

٦/ ١٠/ ١٨٩٨م.



الخروج من أم درمان

فيليب زيقلر

To arrive at a just estimate of a renowned man's character one must judge it by the standards of his time, not ours. MARK TWAIN

Patriotism ruins history. GOETHE

تقديم: السطور التالية هى تعريب لفصل فى كتاب فيليب زيقلر «أم درمان» والذى صدر فى نيويورك عام ١٩٧٤م عن دار .Alfred Knope والفصل بعنوان «هروب نصف إله» Flight of a Demi-God وترجمتها إلى «الخروج من أم درمان». وهذا الفصل يصف المعركة الغربية والحاسمة التي قادها البريطانيون (حسب زعم المؤلف) انتقاماً لمقتل غردون فى الخرطوم. والكاتب – بطبيعة الحال – يكتب بلسان وعقل وعاطفة المستعمر ويعكس وجهة نظر قد يعارضها – كلياً أو جزئياً – كثير من الناس. ويروي المؤلف هنا قصة «هروب» الخليفة مع بعض التفاصيل الأخرى.

انقضت إلى الآن نحو أربع ساعات، منذ أن غادر الخليفة ساحة المعركة، وكان أول عمل قام به هو التوجه نحو قبة المهدى للصلاة. أكانت الصلاة طلباً للهداية والرشد أم رغبة فى الاستغفار وطلب الصفح؟ من يدرى؟ من بمقدوره معرفة ما دار بخلد الرجل وهو يرى – رأى العين- كل ما بناه وعاش من أجله يتهاوى أمام ناظريه... صرف الخليفة من كان معه من أفراد عائلته أسرته، وتخلص من غالب متاعه، وأمر بزوجاته فرحلوا فى موكب متجهين جنوباً. انصرف الخليفة بكلياته نحو تركيز الجهود لمعركته الدامية المقبلة. وقف في مصلاه وأصدر أوامره بضرب الطبول و«دق النحاس» ليتجمع حوله المحاربون، وانتظر بصبر المؤمن الصادق التئام شمل مناصريه. جال بخاطره أن الموت فى انتظاره؛ وزاده ذلك تصميماً على أنه إذا لم يكن من الموت بد فإنه - على الأقل- لن يموت إلا بشرف وسط أتباعه وحوله جثث الكفار وأشلاؤهم.

مرت نصف ساعة قبل أن يقنع نفسه بأن أنصاره قد انفضوا من حوله وأن أتباعه قد هجروه. تسلل بعضهم هربا من ساحة الوغى ورمقوه بأعين اختلط فيها الخجل

بخيبة الأمل... زحفوا عائدين من حيث أتوا، بينما وجد بعضهم فى نفسه الشجاعة ليصيح فى وجه الخليفة متسائلاً:

«لماذا لا تجلس على فروة صلاتك تنتظر الموت الآتي؟»... والجلوس على فروة الصلاة عند قادة العرب رمز للاستسلام والرضاء بقدر الموت الآتي. أصاب الإحباط الخليفة فاستدعى أبا القاسم سكرتيره الخاص وسأله النصح عما يمكن الآن فعله، فأجابه أبو القاسم ساخراً أن عليه مواصلة الصلاة وسينصره الله دون ريب. لم تقع تلك الإجابة موقعا حسنا عند الخليفة، فأمر أبا القاسم بالذهاب لقصره وجلب من يجده هنالك من أفراد أسرته. أظهر أبو القاسم الطاعة، ولكنه ذهب ولم يعد! وبقي حول الخليفة قليل من أنصاره الأوفياء المخلصين. قام بإرسال اثنين منهم للاستطلاع ومعرفة مدى تقدم الجيش الغازي المتجه نحو المدينة. لم يستغرق الأمر إلا نحوا من عشر دقائق عاد بعدها الرسولان ليبلغا سيدهما أنهما شاهدا جنود القائد الإنجليزى (إسميث دورين) وهم يتقدمون نحو بيت المال.

كان واضحا أنه لن تنقضي دقائق يسيرة حتى يكون جنود العدو على مقربة من قصر الخليفة. كانت تلك هى لحظات الحسم. أيبقى الرجل ويقتل مع حفنة من حراسه فى معركة خاسرة، أم ينسحب (فى الأصل: يهرب) ويحيا ليقاتل في يوم آخر؟ تلزم أعراف الحرب عند العرب القائد بالصمود فى موقعه ولقاء الموت، بيد أن الخليفة لم يكن قد أفلح في الحفاظ على حكمه لسنين (رغم ما واجهه) بالالتفات إلى «أعراف العرب». أعمل فكره على عجل وأمر بعض حراسه بمقاومة طلائع جنود الفتح ريثما يكسب دقائق قليلة ثمينة، بدل خلالها الخليفة ملابسه وانسل خارجا عبر ممر سري فى القصر. عندما بدأ الجنود السودانيون فى جيش الغزو (الفرقة ١٣) يمطرون بوابة القصر الرئيسة بنيران أسلحتهم ويقتحمونها، كان الخليفة قد انسحب بسلام وهو على صهوة حصانه (مع نفر قليل من أتباعه الأوفياء) ينهب الأرض نهباً بحثا عن فلول جيشه المهزوم.

تقدم رجال إسميث دورين نحو مقبرة المهدي، وكانت تقع فى نهاية طريق ضيق أمام بوابة القصر. إذا كانت هنالك لحظة «لقاء أخير» فلقد كانت تلك بالقطع هى اللحظة. وقف خلف السردار كتشنر الجنود السودانيون. بدأت فى تلك اللحظة حركة مقاومة غير فعالة، إذ ظهر فجأة اثنان من فرسان البقارة على ظهر جواديهما من بين الظلال وانتصبا أمام البوابة، وباغتا الجنود الغزاة بهجوم انتحاري. أصاب أحد الفارسين جندياً من جنود الغزو بحربة عرضها نحو ١٥ بوصة، أزالت رأس الجندي عن جسده كما يزال أعلى البيضة، وقتل عريف قبل أن تملأ رصاصات

الجيش الغازي جسدي الفارسين. حدث كل ذلك في ما لا يزيد عن دقيقتين أو ثلاث، بيد أن تلك الدقائق كانت كافية للخليفة كي يمضي قدما في طريقه بعيداً عن القصر. لم يتسن للغزاة غير رؤية الغبار الذى أثارته حوافر خيول موكب الخليفة الهارب.

هجرت أم درمان جموع وقوافل من الدراويش، ومن الشباب والعجائز والنساء اللواتي كن يحملن ما تيسر من متاع بائس قليل متجهين جنوبا. كان الخليفة من بين أولئك الفارين، وكان من المتعذر التعرف عليه وسط تلك الجموع.

وقف الضابط «بيتي» على أعلى الباخرة «المتمة» وحلق بناظريه على المباني المتناثرة من تحته. كان مأمورا بإطلاق النار على تلك الجموع الفارة، ومضى ينفذ الأمر دون كبير حماس. قال في نفسه: «أولم تكن مذبحة اليوم كافية؟» أطلقت مدافع المكسيم نيرانها «لتنظيف» الطريق القادم من النهر... ولكن عثر الفارون – بذكاء وحنكة– على طرق ملتوية لتفادي دائرة النيران. ومع مرور الوقت كان الخليفة يبتعد أكثر وأكثر عن عدوه الذي لم يكن يبغ غير رأسه.

تقدمت فرق العدو – وعلى رأسها ماكسويل – إلى المساحة الخالية بين مقبرة المهدي وقصر الخليفة. كان حال مدينة من أعظم مدن أفريقيا آنذاك مدعاة للحسرة والأسف والسخرية. لم يجد الغزاة غير تكلا (جمع كلمة «تكل» وهو المطبخ) بائسة من القش وبعض عصي ملتوية وقطاطي صغيرة يستطيع المرء بالكاد الدخول في إحداها، وأشياء أخر لا تدل إلا على بؤس شديد وفقر مدقع.

بدا أن كل شيء هادئ وساكن في المكان إلا حين عثر الجنود على ثلاث من الأسود الجائعة موثوقة الرباط بقرب دار الخليفة. وبدأ زئيرها الغاضب المرعب يشق الصمت القلق. ثم أطل فجأة رجل من أحد القطاطي وتقدم بحذر شديد نحو الفاتحين. وما أن أدرك آخرون معه أنه لم يصب بنيران العدو حتى ظهروا من كل الفجاج وتكاثرت أعدادهم فبلغت مئات كثيرة. كان بعضهم ما زال يحمل سلاحه. كان أولئك هم حراس الخليفة الذين عصوه وانفضوا من حوله في ساعة (وساحة) محنته...و حان الآن أوان استسلامهم للمنتصرين.

لم تكن شروط الاستسلام واضحة بينة. ومرت على الجنود المصريين والبريطانيين لحظات عصبية إذ كان المستسلمون من جنود الخليفة يفوقونهم عددا. صاح فيهم أحد الضباط آمرا إياهم بلسان عربي مبين أن ألقوا أسلحتكم. مرت لحظات ظن فيها الغزاة أن الدراويش لن يفعلوا ما أومروا به. وفجأة انطلقت رصاصة مجهولة الهوية

وانطلق معها- كالسهم- شخص من خلف زاوية فى مكان ما واختفى في الظلام. أصابت الرصاصة أحد الجنود السودانيين فى جيش الغزو فوقع ميتاً. كان يمكن لتلكم الحادثة أن تحدث مجزرة رهيبة، بيد أنها - وللغرابة- أدت إلى استسلام فوري. يبدو أن الدراويش قد خافوا من مغبة انتقام جيش الغزاة لجنديهم الذي قتل فآثروا الاستسلام وألقوا بأسلحتهم على الأرض؛ وشكلت تلك الأسلحة الملقاة تلاً كبيراً، أمر ماكسويل بالمستسلمين من الدراويش فأسروا وذهب بهم بعيدا، ولم تمر على تلك اللحظات سوى ثمان وأربعين ساعة ، حتى تم تعيين ذات الرجال كجنود في جيش الخديوي المصري!

بقيت الفرقة السودانية (١٣) بقرب مقبرة المهدي نحوًا من ربع الساعة انتظارا لوصول السردار ومعرفة أوامره. لم يبدد ملل تلك الدقائق إلا أصوات دجاج الخليفة والذي راح - في استخفاف بين بالغزاة- يبحث في خشاش الأرض بحثاً عن طعامه. استحال كثير من ذلك الدجاج إلى طعام شهى للجنود في تلك الليلة. وفجأة ظهر على بوابة القصر ذلك الحصان الأبيض الشهير وصاحبه الأشهر، دلف السردار ببطء إلى وسط المكان وخلفه الحراس. كانت راية الخليفة السوداء ما زالت ترفرف عالية فوق رأسه. كلف وجود ذلك الرمز الهام للخليفة الغزاة غالياً، كانت أوامر السردار للفرقة ٣٢ مدفعية تقضي بأن تفتح نيران مدافعها على كل أثر يدل على الخليفة. أخذ جنود تلك الفرقة وجود علم الخليفة الأسود وهو يرفرف على قبة المهدي كدليل على وجود الخليفة فى المكان. لذا لقد بدؤوا فى إمطار القبة والعلم الذى يرفرف فوقها بوابل من نيرانهم. تخطت قذائف المدفعية رأس السردار بأقدام قليلة، وهبطت على رؤوس رهط من الجنود السودانيين فقتلت وجرحت منهم العشرات.

مرت لحظات عصيبة لم يتبين لأحد فيها مصدر النيران الحامية، وتوالى انهمار القذائف، قفز الجنرال هنتر من على ظهر جواده والتقط بعضا من شظايا قذيفة، وبصوته الجهورى المميز خاطب قائده كتشنر قائلا: «معذرة يا سيدى ولكن يبدو أن هذه هى قذائفنا نحن» وجم كتشنر للحظات ثم قال: «حسناً يا سادتي الأجلاء.... لا أدرى كيف سنوقف هذا الهجوم، سيكون من المؤسف أن نخسر الموقف بعد انتصار اليوم الساحق. يجب أن نعطيهم ذلك الشرف». تحرك بحصانه نحو البوابة يتبعه ضباطه فى عجلة تعوزها الكرامة، وتم إخلاء المكان وسرعان ما حطت بذات المكان الذى كانوا يقفون عليه قذيفة تلتها أخريات، أزالت شظية أذن حصان فرانك سكودمور مراسل صحيفة الديلى نيوز بينما أصابت شظية أخرى هربرت هوارد مراسل التايمز فى مقتل. كان هوارد من هواة المغامرة يسعى لها ويلاحقها حتى لقي حتفه في

إحداها. شهد معركة كررى ولم يصب فيها بخدش بيد أنه لقي حتفه فى تلك الحادثة الغبية.

قام عازف البوق (الترمبيطة) بعزف «وقف إطلاق النار Cease Fire » من على سطح مبنى قريب لقبة المهدي في محاولة متأخرة لإخماد غضب نيران فرقة المدفعية ٣٢. تقدم كتشنر على ظهر حصانه نحو سجن الخليفة. كان تشرشل قد وصف ذلك السجن بأنه «عرين متعفن مظلم». كان بالفعل متعفناً بيد أن حالة كونه مظلماً كان مما يحبه السجناء لانعدام أى نوع من الظل فى ذلك السجن. كان سور السجن طينياً رقيقاً لم يكن ليحول دون هروب السجناء، ولكن كان هؤلاء المساجين التعساء مقيدين بسلاسل حديدية مؤلمة وثقيلة تحد من الحركة بل وتمنعها تماماً. وعلى مرأى من المساجين علقت المشانق على رؤوس الأشجار، كان هناك جسد يتدلى من أحد تلك المشانق،و كان هذا مشهد يومي مألوف القصد منه ردع من تسول له نفسه مجرد التفكير فى التحدي ومحاولة الهرب.

كان كتشنر يعلم أن التاجر الألماني شارلس نيوفلد كان من بين مساجين الخليفة فى أم درمان لمدة جاوزت إحدى عشر عاماً، لكنه لم يكن متأكدا من أنه ما زال على قيد الحياة ومن من الآخرين كان مسجونا معه. ظن كتشنر أن الخليفة – وكعمل انتقامي– قد يقوم بقتل المحبوسين فى سجنه. أكد إدريس مسؤول الشنق (عشماوى الخليفة) أن الأوامر كانت قد صدرت إليه بذلك، بيد أنه أكد أنه وبداعي الإنسانية (كما أقسم هو للسجناء المحررين) أو بداعي المصالح الذاتية (كما يعتقد السجناء) لم يفعل ما أمر به بل ظل يسوف ويماطل في تنفيذ أوامر الشنق لسبب أو لآخر حتى ظهر الكفار على الباب. حينها اقتنع الرجل بأن الوقت قد فات لعمل أى شيء قد يثير غضب أسياده الجدد، فأسرع الخطا نحو المكان الذى كان نيوفلد مسجونا فيه.

كان مقيدا بالسلاسل الثقيلة وكانت إحدى قيوده الحديدية تزن أربعة عشر رطلا، أصابت نيوفلد الفرحة لدرجة الهيستريا عندما أخبره إدريس بأن إخوانه الإنجليز يملؤون القصر وأن رجلا طويلا ضخما يسأل عنه. وبمعاونة اثنين من الحراس قام نيوفلد متعثرا نحو البوابة وهو ينتحب بشدة. سمع من على البعد صوتا مبحوحا يناديه: «هل أنت نيوفلد؟ هل أنت بخير؟» قام كتشنر وأطبق على يد الرجل محييا. كان صوته هامسا بيد أن مشاعره كانت بالغة العمق: « ظللت لثلاث عشرة سنة أترقب مثل هذه اللحظة».

وأمر السردار بفك قيوده ففكت، وربت على كتفه قائلا: « نيوفلد....أذهب فأنت

حر طليق. سأذهب أنا الآن». وأتى من بعده رتل من المساجين الأوربيين من بينهم سستر تريسا جريوجولين والتى اعتقلت مع الأب أوروولدر من قبل سنين سبع، وجوزيف رجونين ووالعديد من التجار اليونانيين. كانوا جميعا جائعين وخائفين ولكن أحدا منهم لم يكن مقيدا بسلاسل كنيوفلد، إذ أنه كان قد اتهم قبل حين بمحاولة الهرب من سجن الخليفة. وضع نيوفلد على ظهر حصان وسيق لميز (mess) القيادة شمال المدينة حيث شارك الضباط العشاء الاحتفالي والمكون من البسكويت والماء مع قليل من كسرة السجن (و التى جلبها نيوفلد معه لإضافة بعض التجديد فى قائمة طعام العسكر).

وفى ذلك الأثناء دخل سلاطين وماكسويل ومجموعة من الجنود السودانيين إلى قصر الخليفة وطافوا بغرفه وغرف حريمه وكانت كلها خاوية على عروشها. كان الخليفة فى ذلك الأثناء فى عرض الصحراء فى طريقه لنقطة معدة سلفا للقاء مجموعة تنتظره على ظهور إبلها، كانت تلك ضربة موجعة لسلاطين، إذ كانت إحدى المهمات الموكلة له هى ضمان عدم هروب الخليفة. وكانت تتملكه غريزة الانتقام الشخصي. كان يطوف بين الغرف فى عصبية واضحة بحثا عن غريمه اللدود وهو يردد ووالغيظ يتملكه: « لقد فقدت أثره...لقد فقدت أثره!»

صار البحث عن الخليفة هو الشغل الشاغل للجيش الإنجليزى المصري. كان من المقرر أن تقوم فرقة الخيالة ٢١ بتعقب الخليفة، بيد أن تلك «النيران الصديقة» التى أصابتهم فى ذلك اليوم قد جعلت السردار يقرر عدم مشاركتهم فى العملية. ترك أمر تعقب الخليفة إلى بروود وود وفرسان الجيش المصري. كان الضابط «هيج» قد سار بجنده نحو خور شمبات وهم في غاية الإنهاك. كانوا يمنون أنفسهم بالنوم والراحة فإذا بسلاطين يأتيهم مسرعا على صهوة جواده فى حوالي السابعة مساء لينقل إليهم أمر السردار بمواصلة المسير تعقبا للخليفة الهارب. ما إن مرت عشر دقائق حتى كان بروود وود قد استأجر خبيرين من قبيلة الكبابيش ليدلاه على طرق الصحراء. كانت مهمة الفرقة مقضيًا عليها بالفشل من قبل أن تبدأ، إذ لم تكن تعلم إلى أي الأصقاع توجه الخليفة. كان الأمر يشبه البحث عن إبرة فى كومة قش (وما أكثر «كيمان» القش في السودان).

أدلى كل من سأله سلاطين أو برووود وود عن مكان الخليفة بإجابات متباينة، وكان مبعث ذلك فى بعض الأحوال هو الجهل وفي غالبها هو الإخلاص للزعيم المهزوم. كانت القوات تتحاشى جموع جيش الدراويش المنسحب، وصادفت في مسيرها أرضا رملية مبتلة صعب على الخيل السير فيها مما عطل المسيرة. وعندما حلت الساعة

الحادية عشرة ليلا قرر بroوود وود أنه من الغباوة الاستمرار في المسير، فلبث منتظرا وجنده حتى الثالثة صباحا عند طلوع القمر. كان الجند فى أقصى حالات الإنهاك والجوع، إذ لم يكونوا قد ذاقوا طعاما سوى قليل من البسكويت وبضع قطرات من الماء الآسن، اقتربت الفرقة عند السابعة صباحا من النهر ولاحت لهم من على البعد الباخرة «المتمة» والتي كانت تحمل الزاد لهم ولخيولهم, فارتفعت الروح المعنوية ومنوا النفس بطعام لذيذ وشراب ساخن. ولكن لم يتم لهم ما تمنوا إذ أن الباخرة ذات الإمداد (والتى لم تكن لتبعد عنهم سوى نحو أربعمائة ياردة) تعذر رسوها على الشاطئ بسبب الأعشاب الكثيفة والأشجار المقطوعة الملقاة على ضفة النهر. وقف الجند يرمقون باخرة زادهم بأسى وهى تعود أدراجها ومعها راحت أدراج الرياح أمانيهم فى طعام طيب وشراب.

صدرت لهم الأوامر بمواصلة السير بمحاذاة النهر حتى يتسنى العثور على مرفأ مناسب للباخرة ولكن هيهات، وتوغل الجند أكثر فأكثر فى الصحراء. وفى أثناء سير الجند سرت أنباء عن وجود مجموعة من الدراويش «المهمين» يختبئون خلف الشجيرات على مقربة منهم. تهيأ الجند للقتال، ولكن سرعان ما ثبت أن تلك المجموعة لم تكن سوى بعض نساء الخليفة (من بينهن كبيرتهن فاطمة الزوجة الأولى ووالدة شيخ الدين) فتم أسرهن. تفحص قرين ولكنسون النسوة الأسيرات جيدا وكتب فيما بعد: « كانت إحداهن جميلة جدا لم يتعد عمرها السابعة عشر ربيعا. وكانت هجينا من الأمهرة وشعب آخر. ولعلها المرأة المليحة الوحيدة التى رأيتها فى السودان. كانت كل النساء الأسيرات ودودات، بيد أن الجوع كان قد نال منهن، فقمنا بإرسالهن للسردار». لا أظن أن السردار كان فرحا بهديته تلك (حتى وإن كان من بينهن تلك الصغيرة المليحة) بيد أن أسر فاطمة كان قد أحدث ضجة وشعورا بالحماس في أم درمان وأسهم فى زيادة تحطيم الروح المعنوية للخليفة وأتباعه.

قرر بroوود وود أنه قد فعل ما فيه الكفاية وما إن حلت الساعة الثانية حتى اكتشف أنه لم يتقدم أكثر من سبعة أميال، وأن ما لديه من بسكويت قد نفذ تماما، ولم يتبق للخيول التى تحملهم سوى وجبة واحدة،وباخرة زادهم «المتمة» بعيدة المنال فى وسط النهر، ليس بإمكان أى إنسان أو حيوان فعل المزيد. وبينما أصر سلاطين على مواصلة حملة تعقب الخليفة – ليطفئ نار حقده على الرجل- أمر بroوود وود بالرجوع لأم درمان عند الحادية عشرة. بدا من حالة الإعياء البادية على الجند والخيل أن الخليفة قد نجح نجاحا باهرا فى كسب انتقام سريع وغير مستحق.

وفى ذلك الأثناء من ليل الثاني من سبتمبر لم ينعم الغزاة المنتصرون بنوم. صدرت

الأوامر ببقاء الجند في حالة استنفار يقظ على أطراف المدينة الغربية، ولكن ثبت أن هذا الأمر البسيط نظرياً كان من الصعوبة بمكان. أسدل الليل أستاره ولم يكن هنالك من معلم يدل على المدينة خلا قبة المهدي، وجاس الجند المرهقون - والعرق يتصبب منهم - خلال شوارع المدينة الضيقة المتعرجة وهم يسبون ويسخطون. بين لحظة وأخرى كان دوي رصاص جند الدراويش يسمع هنا وهنالك، بيد أن ذلك لم يسبب أدنى أذى لأحد.

لم يدخل السردار المدينة إلا بعد منتصف الليل بساعتين. قضى الرجل ليلته تلك - كما اكتشف لاحقا- في الحوش المخصص للإعدامات، كان الخليفة وتحسبا لما سوف يحدث، ولإيقاف سيل الهاربين من المدينة قبل سقوطها المتوقع قد أمر بذبح كل الإبل والخيل والبغال والحمير التي لم يك جيشه بحاجة لها. وجد الجيش الغازي نفسه يقيم معسكره في مقبرة للحيوانات النافقة... كانت الرائحة لا تطاق، بيد أن الجنود احتملوها حتى الصباح. وعلى بعد قريب في الصحراء كان يرقد الآلاف من جنود الدراويش وهم يئنون ويصرخون ويتوجعون ألماً من جراحهم. كان همهم الوحيد هو الهروب من جحيم أرض المعركة... ولكن لا يدرون إلى أين؟ فقط حيث لا توجد نيران العدو. لم تكن حال المدينة أكثر هدوءاً. كان هنالك الكثير من الجنود السودانيين في الجيش الغازي. وقد تم تجنيد المئات منهم عقب معركة عطبرة، ولم يكن هنالك من يبغض الخليفة أكثر من أولئك الجنود.

طرق أحدهم باب إبراهيم اليعقوبابي، وما أن أطل الرجل من خلف الباب حتى رأى عبده الهارب يرتدي زي جيش كتشنر. ظن إبراهيم أن الرجل قد أتى لمواساته في ساعة هزيمته، ومد يده له مصافحا فعالجه العبد السابق برصاصة في بطنه أردته قتيلا. وأقبل أهله من داخل البيت عند سماع صوت الرصاص ورأوا الرجل الذي ربوه منذ أن كان طفلا وهو يضع حذاءه على بطن سيده إبراهيم القتيل. توارى الجميع في هلع حذر الموت.

روي بابكر بدري أنه شاهد (بعد أن عاد سالماً من موقعة كرري) جندياً زنجياً يجر معه بنتاً مملوكة من يدها ورأى مالك البنت يحاول اللحاق بهما وتخليص مملوكته من قبضة الجندي؛

فما كان من ذلك الجندي إلا أن التفت نحو الرجل وأسكن جسده عدة طلقات من بندقيته فقتله. أخذ الجندي يد المملوكة وجدّا في السير وهما يتضاحكان. كان الجندي أخا لتلك البنت وكانا قد عاشا معا في كنف (خدمة) سيدهما القتيل.

ترددت في ما تبقى من ساعات الليل أصوات طبول تنادي على من بقى من جند الخليفة أن هلموا لترتيب الصفوف ومعاودة القتال. لم يكن ذلك ليزعج جند كتشنر، إذ أنهم كانوا يعلمون أن الخطر قد زال وأن المعركة قد كسبت.

ما أن حل صباح الثالث من سبتمبر حتى بدأ الجيش الغازي في تفقد جرحاه والعناية بهم. بالطبع كان القدر الأكبر من العناية من نصيب الضباط والجنود البريطانيين، بينما اكتفى الجنود المصريون والسودانيون بما كان يقدمه لهم الأطباء والممرضون المصريون وهؤلاء يعوزهم التأهيل والتدريب. أشارت المجلة الطبية البريطانية لهذه المفارقة (العنصرية) وذكرت أن الجنود المصريين والسودانيين كانوا «يرصون» رصاً على ضفة النهر لساعات في انتظار العلاج. أبدى تشرشل أيضا امتعاضه مما حدث، وذكر أنه نبه كتشنر لذلك. بلغ عدد المصابين ٤٣٤ منهم ١٥٣ من البريطانيين و٢٨١ من المصريين والسودانيين، وتم دفن من مات منهم (٢٣ من البريطانيين و٢٠ من المصريين ووالسودانيين) قرب شاطئ النهر.

كانت ساحة الحرب مقززة للعين والأذن وقبل ذلك للأنف. تناثرت جثث كثيرة على مدى مئات الأفدنة، وانتفخت الجثث المشوهة. وحول راية الخليفة السوداء ارتفع «تل» ضخم من الجثث المتراصة والتي كان أصحابها قد تدافعوا للدفاع عن شرف قائدهم. ترك الغزاة الآلاف من جرحى جيش الخليفة ليقضوا نحبهم في رحلة عذاب موت بطيء بعد أن كانوا قد بعثوا في الرابع من سبتمبر لميدان المعركة بنحو ١٥٠ بغلاً محملة بالماء وبعض البسكويت. ولكن كان ذلك قطرة في محيط.

أسر كتشنر الآلاف من الدراويش. وكتب إلى كرومر مزهواً بأن لديه نحو ثلاثين ألفا من الطباخين والمحظيات «السريات/ السراري» (concubines) وهو لا يحتاج إليهم (اليهن) في شيء. وبدا أن نصف سكان مدينة أمدرمان كان على استعداد للعمل مع جيش الغزاة. قام السردار بطرد هؤلاء من معسكره ولكنهم عادوا يستجدون الطعام والوظائف ويسألون عن أنباء ذويهم المفقودين. كان قلة من الأسرى من طينة مختلفة تماما، إذ رفضوا التعامل مع العدو الكافر والانضمام لجيش الخديوي، بينما قبلت الأغلبية منهم بتبديل الولاء وارتداء ملابس جيش الخديوي. ولم يمض يومان حتى كان هؤلاء ينضمون في زريبة العجيجة إلى من كانوا يصوبون نحو صدورهم البنادق في أمس قريب. ومن حسن الحظ أن ولاء هؤلاء المستجدين في جيش الخديوي لم يختبر في ساحة المعركة.

كانت قبة المهدي قد أصيبت بقذائف المدافع مما أحدث فتحة كبيرة في قمتها

البيضاوية، وتم اقتحام القبة ونهب محتوياتها ونبش القبر بداخلها، وكان يوماً سعيداً وكنزاً قيما لهواة جمع التحف والتذكارات والآثار. لم تشف تلك المذلة والمهانة صدر كتشنر؛ وطفق سلاطين يوغر صدره بنصحه إياه بإزالة القبة تماما ومساواتها بالأرض كي يزول آخر معلم من معالم المهدية. ورغم أن تشرشل وصف تلك النصيحة بأنها «خبيثة» إلا أن كتشنر استجاب لنصيحة سلاطين مؤملا قطع عشم كل من كان يظن بأن المهدية ستبقى حية فى القلوب وأن المهدي إنما ذهب إلى «زيارة الجنة» وسيبعث جسده تارة أخرى.

أجمع الكثيرون على أن كتشنر قد أخطأ خطأ فادحاً بفعلته تلك، وأنه قد خسر كثيرا من سمعته الحسنة كفارس. كتب الرائد سبارك:« إن عظام المهدي قد ألقيت فى النهر، وهذا في نظري عمل يفتقر إلى المروءة». أوكلت مهمة تدمير ما بقى من قبة المهدي إلى مونكى غوردون مما عزز الانطباع بأن الأمر لم يك إلا محض انتقام شخصي. زال – وإلى حين– رمز من رموز المهدية، ثم تمت إعادة بنائها بعد ذلك بسنوات.

تم الاحتفاظ بجمجمة المهدي الكبيرة الحجم. وأراد كتشنر استخدامها كدواية حبر (محبرة) أو ككوب للماء بيد أنه تراجع عن ذلك عندما تبين له مقدار ما ستلقاه فكرته تلك من استهجان في بريطانيا. وقرر أخيراً إهداء الجمجمة لجمعية الجراحين الملكية (وكان يظن أن تلك الجمعية تحتفظ أيضا بأمعاء نابليون!!). سمعت الملكة فيكتوريا بتلك الأخبار فأعربت عن سخطها للورد ساليسبورى, فأبرق ذلك اللورد كرومر طالباً منه «إيقاف ذلك العبث على الفور». ورد كتشنر في برود على كرومر قائلا: « أنا آسف جدا إذا كانت جلالة الملكة تعتقد أن بقايا المهدي لم تعامل بطريقة لائقة. سوف أصدر أمراً بدفن جمجمة المهدي كما طلبت الملكة فيكتوريا». وفى نهاية الأمر تم دفن الجمجمة بكرامة (ولكن من دون طقوس احتفالية) فى مقبرة للمسلمين فى وادي حلفا.

تم نهب بنادق وسيوف وحراب جيش الخليفة (والتي وجدت مكومة بإهمال فى قصره) من قبل جامعي التحف والتذكارات. كانت أغلب هذه الأسلحة مما غنمه الخليفة فى حربه ضد الأحباش قبل سنين. كان من ضمن الغنائم سيف ملك الحبشة، ومقراب (تليسكوب) يخص غوردون، وعلب ساردين ملفوفة فى عدد من جريدة Etoile Belge بتاريخ ٢٤ مارس ١٨٩٤م، ونظارات أحد الضباط الإنجليز، وجلود لحيوانات نادرة، وحزام (للتعذيب) به أسنان معكوفة وحادة. بيعت بعض هذه «المقتنيات» وذهب ريعها إلى صندوق خيري للجنود، وأرسل بعضها للمتاحف

البريطانية.

تقرر إقامة قداس لروح غوردون. وبعد الكثير من الخلافات بين معتنقي مختلف الطوائف المسيحية تقرر أن تقيم كل طائفة قداسها الخاص؛ وعزفت فرقة الحرس مارشاً عسكريا هو Dead March، بينما عزفت فرقة السودانيين Scipio لهاندل (يمكن الاستماع لهذا المارش في:

http://footguards.tripod.com/06ARTICLES/ART15_scipio.htm المترجم

لاحظ الناس أن ذلك القداس قد أراح كتشنر راحة عظيمة، فزالت عن وجهه ملامح الكآبة والكدر وانقلب حاله إلى حال إنسان بكل ما تحمله الكلمة من معان.أخرج الرائد سنو (وكان ضمن من اشتركوا فى حملة إنقاذ غوردون الفاشلة قبل سنين زجاجة شمبانيا كان قد أقسم ألا يفتحها إلا حين استعادة الخرطوم, وها قد أبر بقسمه!

بعد شهرين (أى فى نوفمبر ١٨٩٩م) تم قتل الخليفة فى أم دبيكرات ....وتلك قصة أخرى.



من تاريخ ما أهمله التاريخ

سليم بيه مطر: ضابط في جيش أمين باشا في مديرية الاستوائية

بروفسير إبراهيم الزين صغيرون

تقديم: ورد هذا المقال في مجلة الدراسات السودانية في عددها مارس ٢٠٠٩ عن سليم بيه مطر وهو ضابط سوداني عمل في جيش أمين باشا في مديرية الاستوائية، وعن أعمال هذا الضابط الكبير في أعقاب قيام الثورة المهدية وإلي حين انضمامه إلى الخدمة تحت إمرة الرائد ليوقارد في القوة التابعة للشركة الإمبريالية البريطانية في شرق أفريقيا في عام ١٨٩١. والسطور التالية تلخيص لبعض ما جاء في ذلك المقال.

أحدث قيام الثورة المهدية في السودان آثارا هامة على مديرية الاستوائية، وخاصة على الحاميات السودانية المتواجدة شمال بحيرة ألبرت في المناطق الشمالية ليوغندا المعاصرة.

عين المهدي كرم الله محمد كرقساوي كأمير لبحر الغزال، وبعث به جنوبا علي رأس جيش مكون من بضع آلاف للاستيلاء علي مديريتي ليبتون والاستوائية. حملت مسيرة جيش كرم الله في خلال عبورها جنوبا الكثير من جنود حامية ليبتون علي في التمرد والعصيان والهرب، وكسب جنود المهدي جانب الدينكا والذين كان ليبتون قد دخل معهم في صراعات وحروب.

كتب أمين باشا في آخر رسائله لليبتون ما يلي:

«لقد كاد الأمر أن ينتهي بالنسبة لي هنا. لقد انضم كل فرد هنا للمهدي وجيشه سوف يسيطر على كامل المديرية خلال يوم أو يومين... إن ما بين ٨٠٠٠ و١٠٠٠٠ من الرجال المسلحين جيدا في طريقهم إليك، فخذ حذرك!»

عندما سمع أمين باشا بسقوط أمادي في مارس من عام ١٨٨٥ قرر الانسحاب جنوبا حيث يمكنه الاتصال بمصر عن طريق زنجبار. بيد أن حاميتيه لم تتحمسا لهذا القرار بل عارضتاه صراحة، ورغم وصول إنذار وتحذير قوي من الأمير المهدوي كرم الله كرقساوي، فلقد رفض جنود أمين التحرك جنوبا مع عائلاتهم وعدوا فكرة فتح قناة اتصال بمصر عن طريق زنجبار فكرة خيالية لا يمكن الركون إليها أو حتى

تصديقها. كانوا لا يصدقون أن هنالك طريقا للقاهرة غير الاتجاه شمالا عن طريق الخرطوم. ظل جنود حاميات الخديوي في الاستوائية، وبعد مرور سنوات طويلة على سقوط الخرطوم على إيمان عميق لا يتطرق إليه شك في أن السلطة في الخرطوم ما تزال بيد حكومة خديوي مصر، وأن تلك الحكومة لن تتخلى عنهم أبدا.

لم تكن القوات السودانية في الاستوائية تحت إمرة أمين باشا قد سمعت أبدا بقيام الثورة المهدية ولا أسباب قيامها. وكتب باسيلي باكتور في ذلك ما نصه: «عندما طرق مسامع جنود حاميات الاستوائية نبأ جيش المهدي حسبوا أن الأمر أمر سياسي لا دخل للدين به، وأن الجنود السود لم يشاركوا أبدا في تلك الحرب، بل كانوا يقولون: إن المهدي رجل منتحل دعي، وإن تجرأ وهاجم الاستوائية فسوف يحاربونه باسم حكومة الخديوي».

ولكن ما أن حل عام ١٨٨٨ حتى بدأ موقف أمين باشا في التدهور السريع، خاصة بعد وصول بعثة ستانلي لإنقاذه. لقد تم – وبصورة متكررة- تجاهل أوامره وظل يتلقي أنباء متضاربة من مصر فشل في جعل جنوده السودانيين يصدقونها رغم كونهم شديدي الإخلاص لأفندينا (الخديوي). ومن عجب أن ذلك الولاء المطلق للخديوي كان سائدا بين الجنود السودانيين الذين لم يروا مصر أصلا، أكثر مما هو حادث بين المصريين أنفسهم. كان الجنود السودانيون يعتبرون الخديوي شخصا لا يمكن الوصول لمقامه العالي « مثل رجل فوق السحاب»! كتب أحدهم عن ذلك الأمر ما يلي: « لقد تم تعليمهم أن الخديوي هو سلطانهم، وأن العلم الخفاق الذي به يفتخرون عند كل مناسبة إنما هو علمه. بيد أنه كان شخصية أسطورية يبعث لهم بين فينة وأخري كلمات طيبة. وخلال السنوات الماضية الطويلة لم يساعدهم أبدا بل ولم يبعث لهم حتى برواتبهم».

تمرد حاميات الاستوائية ضد أمين باشا:

بدا إستانلي وجيفسون من بين ضباط أمين باشا كعملاء أوربيين يحيكون مؤامرة إنجليزية تستهدف – ضمن ما تستهدفه- أمين نفسه. لم تكن من ضمن أهدافهما بالطبع مصالح الخديوي ولا مصالح الحاميات نفسها، بدا إنهما يهدفان لإخلاء المديرية وبيع الجنود السودانيين كعبيد للإنجليز. كان هؤلاء الجنود يرفضون رفضا باتا تصديق أن الحكومة المصرية يمكن أن يخطر ببالها إخلاء الاستوائية، ويعدون أمين باشا «خائنا» للخديوي.

كان توجس الجنود السودانيين من بيعهم كعبيد للإنجليز يعكس الجو السائد للمجتمع الإسلامي آنذاك في مقابل القوة المسيحية الغالبة. كان من ضمن الضباط

السودانيين المتمردين سليمان آغا وفضل المولي الذي كان قد تحالف وتعاون مع الحاميات المنسية في الشرق مثل فابو وفاتيكو ودعاها إلى «مقاومة المسيحيين» ومنع «الشرور التي ينتوي أمين باشا إطلاق عقالها في المديرية».

كان أغلب أتباع فضل المولي من الذين تمردوا على أمين باشا وعارضوا رغبته في الانسحاب من الاستوائية، بل وصرحوا أنهم يفضلون الاستسلام للمهدي على أن يستسلموا «للإنجليز الكفار». نجح فضل المولى وجنده أخيرا في استمالة السواد الأعظم من قوات أمين، باشا واستولى على ذخيرة وعتاد كثير وترك موقعه في وادي لاي وتحصن بالجبال، ومن بعد ذلك دخل في مفاوضات مع الضباط البلجيك في حملة فان كيرك هوفن ومع قادة المهدية قبل أن يقتل في مناوشات دارت حول وادي لاي في يناير من عام ١٨٩٤.

سليم بيه مطر:

كان سليم بيه مطر واحدا من أشهر الضباط السودانيين في الربع الأخير من القرن التاسع عشر في الاستوائية وأوغندا، وأكثرهم احتراما،كان هو قائد الجنود السودانيين عندما تم توقيع اتفاق مع الرائد ليوقارد لإلحاق الجنود السودانيين بالقوة التابعة للشركة الإمبريالية البريطانية في شرق أفريقيا، جعلت صفات سليم بيه الشخصية ووضعه العسكري المميز القائد الأوحد للسودانيين بأوغندا. لعب الرجل فيما أقبل من أيام دورا هاما جدا في الاستوائية وفي تاريخ المسلمين في أوغندا.

ورد تقرير للمخابرات محفوظ في دار الوثائق المركزية يفيد بوصول أحد عشر ضابطا وضابط صف وعائلاتهم إلى القاهرة عن طريق مومبسا قادمين من الاستوائية.في يونيو،من عام ١٨٩٢. حوى ذلك التقرير بعض المعلومات الهامة عن سيرة سليم بيه مطر. جاء في ذلك التقرير أن « سليم من أبناء جبال النوبة (جنوبي كردفان)، ومولود في قرية كبوشية في مديرية بربر. خدم والده (و اسمه مطر) كشاويش في جيش محمد علي باشا».

عمل سليم مطر في خدمة جيش إبراهيم باشا إلى أن بلغ رتبة «أمباشي» (عريف)، ثم نقل إلى التاكا (في المديرية الشرقية للسودان المصري)، وعاد بعد فترة عمله هنالك إلى القاهرة والتي انتقل منها للخرطوم. ظل مكان سليم بعد مغادرته الخرطوم لغزا لم يحل بعد.

جاء في تقرير الاستخبارات ما يلي: «شاهد أحد المخبرين سليم مطر في الاستوائية وهو برتبة اليوزباشي (المقدم)، والتحق بنفس شركته إلى أن ترقى سليم بيه إلى رتبة قائمقام (عقيد). اتخذ سليم له زوجتين مصريتين ولم يخلف أطفالا غير بنت واحدة

تقيم الآن في القاهرة. تقيم زوجتاه معه في الاستوائية، وولدت له إحداهن بنتا لم تعش طويلا. أورد هذه المعلومات الشاويش عثمان جابر».

سليم بيه مطر في نظر معاصريه من الأوربيين في الاستوائية:

كان صفات سليم بيه الشخصية موضع إعجاب الكثير من الأوربيين الذين زاروا الاستوائية بصفات متباينة وذرائع مختلفة، وكانوا يسبغون عليه أنبل الصفات وأكرم الخلال. وصف القس سي تي ويلسون أحد أعضاء الجمعية التبشيرية الكنسية سليم بيه عندما التقاه وهو يعمل كمدير وقائد لنقطة عسكرية في كودج، ووصفه بأنه: « رجل هادئ الطبع وشديد التدين، إذ لا تكاد تراه إلا وهو يصلي». ووصفه قس آخر هو القس ر.و. فليكن عندما لقيه كحاكم لميرلي (عندما كان غوردون حاكما لمديرية الاستوائية) بذات الصفات وبذات الكلمات... وصفه بأنه «هادئ الطباع وشديد التدين». وصف أ. جيفسون أحد الضباط الأوربيين العاملين مع أمين باشا سليم بيه بأنه رجل سوداني عظيم، طيب القلب، ضخم الجثة، عريض المنكبين، يفوق طوله ستة أقدام.

ووصف الرائد ليوقارد سليم باشا بأنه: « رجل ذو شخصية عظيمة لم يقارب في حياته خمرا ولم يدخن تبغا أبدا. كان رجلا ذا عزيمة ماضية، ويشهد على ذلك الخط المستقل الذي اختطه لنفسه عندما ادلهمت الأمور في السودان واضطربت الأوضاع في السنوات القليلة الفائتة مع أمين باشا». وفي رسالة خاصة كتبها الرائد ويليامز للرائد ليوقارد ورد ذكر سليم بيه حيث كتب يقول: « لطالما وجدت سليم بيه رجلا مستقيما لين الجانب دمث الأخلاق... أما عن الرجال ... هم سندنا وقوتنا... وبوغاندا تعلم ذلك جيدا. ما من أحد غيري يمكنه الحكم على هؤلاء الرجال ...».

مقابلة سليم بيه الأولي مع الرائد ليوقارد قائد القوة التابعة للشركة الإمبريالية البريطانية في شرق أفريقيا في ١٨٩١م.

كان سليم بيه هو الضابط الكبير الوحيد الذي بقي على اتصال مع أمين باشا وكان يرغب في أن ينضم له في رحلة مغادرته للبلاد عند رجوع حملة إستانلي لإنقاذ أمين. وبهذا عزل سليم بيه عن موقعه كقائد في جيش أمين باشا، وترك فراغا تبرع فضل المولي بملئه، حيث رقي نفسه لرتبة بيه! كان من أهداف سليم بيه وصحبه أن يقضوا في وادي لاي أطول فترة ممكنة حتى يرتبوا أوضاعهم وأمور عوائلهم قبل أن يلحقوا بإستانلي وينسحبوا من الاستوائية مع تلك الحملة.

وصلت رسالة إلى كفالس يوم ٢٦ مارس من عام ١٨٨٩ من سليم بيه جاء فيها

أنه يجد السعي في إخلاء الاستوائية كما قد وعد، بيد أنه يجابه مصاعب جمة في هذا الأمر. عند وصول تلك الرسالة سليم بيه أخبر أمين باشا ستانلي أنه ليس بإمكان سليم بيه عمليا إنجاز الإخلاء قبل العاشر من أبريل (و هو اليوم الذي عزم فيه إستانلي على بدء رحلة العودة) ورجاه تمديد ذلك الموعد المضروب. لم يستجب استانلي ورفقاؤه من الضباط الأوربيين ذلك الرجاء إذ كانوا شديدي الريبة من أمين باشا وجنوده وأصروا على بدء الحملة في موعدها المضروب في العاشر من أبريل متجهين نحو الساحل سواء ألحق بهم سليم بيه ورفاقه في كفالس أم لا. وفي وداي لاي كان موقف سليم بيه آخذا في التدهور السريع، خاصة مع ما جري من موقف فضل الله مما سبقت الإشارة إليه. بدأ سليم بيه ومعه نحو مائتين من الضباط والجنود والكتبة في الانسحاب إلى ميسوا، وهنالك بلغهم أن ستانلي قد بدأ فعلا في رحلة إخلاء الاستوائية. وفي يوم ٢٢ أبريل كتب سليم بيه رسالة إلى ستانلي يرجوه فيها أن ينتظر مقدمه ومن معه، بيد أن إستانلي رد عليه بالقول بأنه لن يفعل، لكنه أضاف بأنه بعد أن يعبر نهر سميليكي فإنه سيبطأ الخطو قليلا ليمكن سليم بيه وجماعته من اللحاق بحملته إن كان جادا بالفعل في مرافقة الحملة والخروج من جنوب السودان. كانت تلك هي الرسالة الأخيرة التي تبادلها الرجلان.

سليم بيه وانضمام جنود أمين باشا للقوة التابعة للشركة الإمبريالية البريطانية في شرق أفريقيا في أوغندا (١٨٩١):

كان لرد ستانلي أثرا سالبا علي سليم بيه إذ وضعه في موقف عصيب وبالغ الحرج. كان يفتقد للذخيرة، ولهذا السبب لم يغامر بالسير مع رفاقه وعوائلهم نحو حملة ستانلي، خاصة وأن استانلي وجنوده كانوا قد كسبوا عداوة الأهالي بسبب النهب والتخريب الذي أحدثوه خلال عبورهم لقرى أولئك الأهالي. ولم يكن بوسع سليم بيه العودة لموقعه القديم في وادي لاي بسبب وقوعها في فضل المولي وجنوده، لم يجد سليم خيارا غير أن يمكث هو ونحو ٩٠ من جنوده مع نسائهم وأطفالهم في كفالس. كان أول ما فعله سليم بيه في كفالس هو رفع العلم المصري وانتظار الفرج الآتي من الساحل، ثم تقاطر عليه من بعد ذلك في كفالس العديد من القادمين الذين هجروا مديرية الاستوائية. وفي أغسطس من عام ١٨٩١ وصل الرائد لوجارد إلي كفالس، ولم يملك إلا أن يبدي إعجابا شديدا بسليم بيه وحاميته ورجاله المخلصين. أبدي الرائد لوجارد أسفه البالغ على خذلان حملة استانلي لسليم بيه وكتب قائلا: « إن القلب لينفطر حزنا عندما يرى هؤلاء الجنود المخلصين لدرجة التعصب لعلمهم وللخديوي، وهم يعانون من الجروح والجوع والخوف، لقد اشتعلت رؤوس بعضهم شيبا، ونشفت جلودهم وهم في عزلة قاسية في قلب أفريقيا. أنني أحمد الله كثيرا أن

قيض لي إنقاذ هؤلاء التعساء، وأحمده كذلك أن خصني بالحصول على جنود ممتازين للعمل في القوة التابعة للشركة الإمبريالية البريطانية».

رحب سليم بيه ورجاله بالرائد ليوجارد، بيد أنهم ترددوا في بادئ الأمر في الانضمام لتلك الشركة إذ إنهم ما زالوا مخلصين للخديوي. أقنعهم ليوجارد بأنه سيؤمن موافقة الخديوي، وكتب رسالة إلى الخديوي طالبا موافقته علي ضم جنود سليم بيه لقوات الشركة، وأشاد في الرسالة بإخلاص أولئك الرجال للخديوي، وذكره بالصداقة القوية والتاريخية بين الخديوي وبين الإنجليز. على أثر ذلك وافق سليم وجنوده علي السير مع الرائد ليوجارد نحو يوغندا.

كان عدد الذين رافقوا الرائد ليوجارد من رجال سليم بيه من كفالس إلى أوغندا كالتالي:

عدد الرجال ٢٠٨٥.

عدد النساء ٣٠٦٥.

عدد البنات ١٤٨٤.

عدد الأولاد ١٣٥٨.

المفقودون ١٤.

المجموع ٨٠٠٦ .

أقام الرائد ليوجارد سلسة نقاط على بعد مسيرة يومين من بعضها وجعل أغلب الرجال وعوائلهم يقيمون في تلك النقاط والتي كانت تحت إمرة الضباط الإنجليز.و في عام ١٨٩٥ ومع بلوغ عدد من الأطفال سن الجندية بلغ عدد تلك النقاط سبعة عشر مبثوثة في بوغاندا وتورو وبودو وبوسوقا وأسماها البريطانيون «بنادق أوغندا». كان للتوطين النهائي لهذه القوات في أجزاء مختلفة من يوغندا آثار عظيمة ونتائج بالغة الأهمية في تاريخ أوغندا الحديث والمعاصر من الناحية السياسية والاجتماعية(*).

في هذا الأثناء لقي سليم بيه ربه في يوم ٢٠ أغسطس من عام ١٨٩٣م

(*)سمعت من المؤلف أن سليم بيه مدفون في نيفاشا، وله هناك قبر يزار. ومن دلائل شهرة الرجل أن هنالك الآن فريقا أوغنديا لكرة القدم يسمى فريق «سليم بيه». ذكر المؤلف أيضا أن رجال الحكم العسكري الأول (١٩٥٨ – ١٩٦٤م) كانوا يحتفون بالعسكريين السودانيين الذين عملوا في الجنوب ويوغندا في «الأعياد الوطنية/ العسكرية».

قصة بناء خط السكة حديد عبر الصحراء

من كتاب: «من الكيب للقاهرة»

مارك إستراج

في الفاتح من مارس عام ١٨٩٦م أباد الأحباش في موقعة «عدوة Adowa » الجيش الإيطالي بقيادة الفريق براتيري، وكانت الهزيمة الساحقة مصدرا لأول قفشة دبلوماسية موثقة، إذ كتب ساليسبوري ما نصه: «كم وددت لو أن أصدقاءنا الطليان كانوا يتمتعون بقدرة أقل على تلقي الهزائم»!

وضعت هزيمة موقعة عدوة بريطانيا أمام أزمة مزدوجة، إذ أنها جعلت الجزء الشرقي من السودان عرضة للأخطار، وكانت تؤمل أن تحميه جيوش الفريق براتيري من أطماع الفرنسيين. ومن جهة أخرى فلقد ساد الخوف من أن يؤدي انتصار الأحباش الساحق على الطليان البيض إلى تشجيع الدراويش على معاودة الهجوم على مصر. لهذا اجتمع مجلس الوزراء (البريطاني) في ١٢/ ٣/ ١٨٩٦م وقرر أن يستبق الأحداث، وأن يسدد الضربة الأولى. لم تتم استشارة أي من كرومر أو كيتشنر في الأمر، بل تلقيا فقط أمرا بالزحف بقواتهما في عمق السودان.

كانت «وادي حلفا» هي نقطة انطلاق الحملة. وهذه المدينة هي أغرب مدن الأرض طرا. كانت تمتد ثلاثة أميال على الشاطئ الشرقي للنيل، بيد أن عرضها لم يكن يتعد أربعمائة ياردة (بل وكان في بعض المناطق لا يتجاوز الأربعين ياردة). وفي نهاية الجزء الشمالي للمدينة بنيت مجموعة صغيرة من «الفلل» الصغيرة التي تظللها الأشجار الكثيفة، ومسجد ومآذن وسوق. كان كل ذلك داخل سور طيني قصير. تمتد جنوب تلك المباني ثكنات الجيش (البركس) الطويلة، ومباني أخرى منخفضة ذات نوافذ صغيرة لا زجاج فيها، ومستودع للأسلحة ومستشفى عسكري وورشة وصفوف من منازل صغيرة متراصة وأنيقة لسكن الضباط. مع نهاية تلك المنازل يقع الجزء الغربي من المدينة، وكان لا يعدو أن يكون أكواخا طينية متهالكة فيها أزقة ضيقة. تحرس الصحراء جانب اليابسة وتخوم المدينة الجنوبية، ثلاثة حصون وخمس قلاع متفرقة نصبت عليها مدافع.

بدا أن كان هنالك آثار حراك مرتقب. وفي ذلك كتب ستيفنس مراسل صحيفة الديلي ميل الآتي: «كانت خطوط السكة حديد تجري على كل شارع مغبر، وكانت القطارات واللواري تجوس خلال المدينة جيئة وذهابا، وبدت حلفا لكل العالم مشابهة لشيكاغو (مرتدية عمامة)».

كان كتشنر قد أمر بإقامة خط للسكة الحديدية، وكان من المقرر أن يسلك ذلك الخط نفس الطريق الذي خطه إسماعيل باشا قبل عقدين من ذلك الزمان؛ بيد أن هذا الخط الحديدى لم يكن من أجل نقل الحضارة والتمدن للسودان، أو من أجل ترحيل القطن السوداني. كان الغرض الرئيس من إنشائه هو نقل المؤن والطعام للجيش أثناء عبوره أرض السودان. كان حلا لمشكلة عويصة. وضعت للمشروع ميزانية بلغت نحو نصف مليون جنيه إسترليني، ومع توقع أن تكون العمالة من جنود الجيش. وتم إقناع / فرض الأمر على كرومر (والذي كانت موافقته لازمة لصرف مثل ذلك المبلغ)، بأنه ما من طريق آخر أقل كلفة. كانت الشلالات تمتد لنحو مائة ميل جنوب وادي حلفا، وكان من المستحيل على الجيش عبور تلك الصحراء مشيا على الأقدام.

افترض كرومر أن الخط الحديدى سيكون من أرخص الأنواع، إذ أنه كان خطاً حديدياً ضيقاً. نجح كتشنر – وللمرة الأولى والأخيرة- في أن يغلب رأيه، وأن يستخدم خطا حديديا يبلغ عرضه ثلاثة أقدام ونصفاً، وهي من نوع الخطوط الواسعة العريضة التي استخدمها سيسل رودس عند مده للخط الحديدي الرابط بين كمبرلي وبليوه (في جنوب أفريقيا). ربطت علاقة صداقة قوية بين الرجلين امتدت سنين عددا، وكانا يحملان ذات الأفكار والخطط الطموحة. كان الرجلان قد تقابلا قبل أسابيع فقط وذلك عند مرور رودس بالقاهرة وهو في طريقه عائدا إلى جنوب القارة. حينها طلب رودس من كتشنر أن يمنحه شحنة من الحمير السودانية لاستخدامها في روديسيا. لعل صداقة كتشنر للرجل هي ما يفسر إصراره على أن يكون الخط الحديدي من النوع العريض. تطلب الأمر تصنيع وابورات صغيرة عرفت ب «rolling stock» حسب الطلب للمساعدة في تشييد الخط الحديدي (حاشية: قام ردوس هنا بمد يد العون لصديقه كتشنر بثلاثة من هذه القطارات كان قد تم تصنيعها للاستعمال في سكك حديد أفريقيا الجنوبية).

يضاف إلى ذلك انعدام اليد العاملة المناسبة والآلات والأدوات المطلوبة، مما أحال المشروع إلى كابوس حقيقي. لكن (وكما سجل المراسل الصحفي ستيفنس) : «حالف الحظ كتشنر مرة أخرى. حظى كتشنر بأفضل المرؤوسين، وكان الرجل قد جمع بين

جـرأة الفرنسـيين في الخيـال، وبراعـة الأمـريكيين في الاخـتراع، وعنـاد البريطـانيين وإصرارهم على الإنجاز». تمثل كل ذلك في هذا المشروع، مشروع كتشنر. وتمثلت كـل تلك الصفات الدولية في مهندس كندي الجنسية يدعى جايورارد. تخـرج الرجـل مـن كلية كنجستون في أنتاريو، وعمل في مشروع إنشاء خط سكة حديد كنـدا الباسـفيكية قبل أن يلتحق بخدمة الجيش البريطاني كملازم في سلاح المهندسين.

كان جايورارد في طريقه من هليفـاكس في نوفـا إسـكوتيا إلى جزيـرة موريشـيوس عندما سمع كتشنر بإسمه، فطلب لقاءه في لندن. كان جايورارد في تلـك المعاينـة بـالغ العفوية ومفرط اللامبالاة في علاقاته برؤسـائه، فلقـد أدى الرجـل التحيـة العسـكرية لكتشنر بيده اليسرى، إذ كان يخفي في يده اليمنى سيجارا ضخما! كان كل من يعمـل مع كتشنر يرهبه ويخشى بأسه ويرد على أسئلته بإختصار وخنوع، إلا جايورارد، فإنـه لم يكن يهاب أو يخاف من كتشنر أو غيره. كان يكسر قواعـد البرتوكـول دون وجـل، وكانت إجاباته لأسئلة كتشنر مطولة، ولهجته عالية متفردة، مما ميزه عـن الكـل. كـان كنشنر يدرك تميز الرجل ويقدره جيدا. كتب عنه المراسل الصحفي ستيفنس مـا يلـي: «إنه الشخص الوحيد في كل أفراد الجيش المصري الذي أجمع الكل على شجاعته أمام السردار».

عندما وصل جايورارد إلى وادي حلفا في نهاية شهر مارس ١٨٩٦م كانت خطوط السكة حديد التي مدها إسماعيل باشا إلى صرص (والبالغ طولها ٣٣ ميلا) مـا زالـت بحالة جيدة، وكانت هنالك أيضا خطوط حديدة أخرى طولها ٥٤ ميلا أقيمـت علـى عجل في ١٨٨٤م أثناء الحملة الفاشلة (والمنحوسة) لإنقاذ غوردون، بيد أن الدراويش كانوا قد اقتلعوا تلك الخطوط. كانت آخر قطعة حديدية في ذلك الخط قـد غـرزت في وضع عامودي في الرمال وشدت بالحبال. اهترأت تلك الحبال، ولكن بقـي أثـر لمـن كان قد استعملها: جمجمة بشرية وبقايا عظـام جلـت لونهـا الأبـيض شمـس حارقـة وريح عاصفة.

شرح جايورارد – بقدر ما يمكـن لعمالـه البسـطاء أن يسـتوعبوه- خطتـه لإرسـاء خطوط حديدية. كان جل أولئك العمال من الفلاحين المصـريين الـذين جلبـوا عنـوة من مصر، ومن كل من تيسر قبضه من السودانيين مـع ٢٠٠ مـن المسـاجين الـذين تم العفو عنهم لهذا الغرض. كانت من نتائج عمل هؤلاء الرجال مسيرة مضطربة شديدة الاهتزاز (لوابور القطار) وبعض الحوادث... طاحـت بعـض القطـارات عـن خطهـا الحديدي، بيد أنها أرجعت وكأن شيئا لم يكن إلى مسارها المرسوم بعد جهد جهيد من أولئك الرجال الأشداء! لم يكن من المتوقـع أن يشـتكي ركـاب تلـك القطـارات مـن

وعورة الطريق واضطراب مسير القطار!

كانت الحكمة تقتضي أن تمتد خطوط السكة حديد محاذية لمجرى النيل مما يؤمن الحماية والمصدر الثابت للمياه، بيد أن جريان النيل يتخذ منعرجا رشيقا وطويلا يكاد يضاعف من طول المسافة التي يقطعها. لم يكن أمام الجيش وقت ولا مال لمنعرج رشيق وطويل، إذ كان هنالك طريق مستقيم واحد ينتهي عند «أبي حمد»، والتي منها يسير النيل في اتجاه الجنوب. حكم كل الخبراء الذين تمت مشاورتهم في الأمر على المشروع بالجنون، وذهب المهندسون - وهم في ذلك من المحقين- إلى أنه لا توجد أي معلومات مسبقة عن طبيعة تلك الأرض...بسهولها المنبسطة ومنحدراتها العميقة. تساءل الجنود: بحق الشيطان كيف يمكن لكتشنر أن يحمي خطا حديديا يمتد على طول الصحراء، وفي عمق أرض العدو بهدف الاستيلاء على بلد يقع تحت سيطرته؟! لم يكن الاستيلاء على البلاد ممكنا بالطبع دون قوات مسلحة ضاربة، ولكن كان لابد لتلك القوات المسلحة الضاربة من أن تكمل إنجاز الخط الحديدي، ولم يكن من الممكن إكمال الخط الحديدي دون الاستيلاء على «المحطة النهائية» للعدو! لم يكن كتشنر مغرما بمثل تلك النقاشات «الدائرية المفرغة». سأل كتشنر جايورارد سؤالا واحدا محددا: «ما الذي تحتاجه لبناء خط حديدي مستقيم من «وادي حلفا» إلى «أبي حمد»؟« جاءت إجابة جايورارد مفصلة ووافية وكافية، ولم تكن هناك حاجة بعدها للسؤال عن قطعة حديد إضافية واحدة. كانت الصعوبات اللوجستية جد هائلة.

يوما بعد يوم كان الخط الحديدي يتقدم للأمام، وكانت تسبقه مجموعة من المساحين يكونون دوما على بعد ٦ أميال لكشف الطريق ووضع العلامات الدالة عليه.

لم تسجل إلا حوادث قليلة تصادم فيها قلة من الدراويش مع بناة الخط الحديدي. ولسبب غير معلوم تماما لم تقم جيوش الدراويش بمهاجمة بناة الخط الحديدي بصورة جادة أو مكثفة، مع أن هؤلاء كانوا لقمة سائغة لكل من كان يود مهاجمتهم، ولم يحاول الدراويش أبدا تخريب ما تم إنشاؤه من الخط الحديدي، والذي لم يكن تحت أي نوع من أنواع الحماية. كان المهندس جايورارد محظوظا أيضا في تمكنه من الحصول على الماء في تلك المنطقة الجرداء من العالم، إذ قاده «الإلهام» وحده إلى أن يقوم بحفر بئرين في الميل ٧٧ والميل ١٢٦. ولما لم تكن هنالك أي علامة تميز هذين المكانين فلقد أطلق عليهما رقم ٤ ورقم ٦، على التوالي، ولا يزال هذان الرقمان هما اسماهما حتى اليوم.

كان مما حبب جايورارد لكتشنر هو قدرة ذلك المهندس الكندي على إكمال تنفيذ ما يوكل إليه من مهام بالحرف الواحد. قام جايورارد بإتمام بناء الخط الحديدي من «وادي حلفا» إلى «أبي حمد» والبلغ طوله ٢١٢ ميلا تماما كما كان قد خطط له...بالمسطرة والقلم. وصلت القضبان الحديدة إلى مرساها الأخير يوم ٣١/ ١٠/ ١٨٩٧م، أي بعد ١٦٩ يوما من العمل المتواصل، وبلغ طول القضبان المستخدمة ٢٣٠ ميلا.

«لقد كسبت السكة حديد الحرب»...هكذا كتب المراسل الصحفي ستيفنس. «كانت حلفا هي النقطة الحاسمة في الحملة...إذ أنها كانت المكان الذي منه انطلقت أشد أسلحة البريطانيين فتكا بالمهدية: **خطوط السكة حديد**»، وتغزل وينستون تشيرشل (كعادته) في النصر فكتب: « النصر جميل كزهرة فاقع لونها. وكان النقل (transport) هو الساق التي لولاها لما تيسر للزهرة أن تتفتح».



نهاية السكة حديد: عصر تشييد الطرق البرية والجسور في السودان (١٩٨٠ - ٢٠٠٩م)

بروفسور: مصطفي محمد خوجلي

تقديم: نشر هذا المقال بالإنجليزية في مجلة «دراسات السودان» التي تصدر في بريطانيا في عددها رقم ٤٢ في يوليو ٢٠١٠م ، وهو بقلم الأستاذ الدكتور مصطفي محمد خوجلي، والذي سبق له العمل أستاذا بقسم الجغرافيا بكلية الآداب في جامعة الخرطوم، وبالمملكة العربية السعودية، ثم بكلية التربية بجامعة الخرطوم. يتحدث المقال عن نهاية (أو فناء) السكة حديد في السودان مع بداية ثمانينات القرن الماضي وبدء عصر النقل البري وبناء الجسور. يؤكد المؤلف أن السكة حديد لعبت دورا حيويا في تنمية السودان، ويؤرخ في إيجاز لقيام وسقوط «إمبراطوريتها».

رغم قيمة ما قدمه الكاتب (والذي نترجم بعض أجزائه بتصرف) من حجج وبراهين على فضل النقل البري على «السكة حديد» (على الأقل في السودان، وليس سواه) إلا أن حبنا القديم للسكة حديد وعمالها وورشها وقطاراتها يبقى كما هو! بيد أنه من الواجب القول بأن تدهور خدمات السكة حديد (بفعل فاعل معلوم) قد جعل الناس ييأسون من إصلاح حالها ولسان حالهم يقول:

اعتيادي على غيابك صعب واعتيادي على حضورك أصعب.

تقديم:

عندما بدأت في التفكير في كتابة هذه الورقة، طافت بذهني وخاطري ذكريات من أيام الطلب في مدرسة وادي سيدنا الثانوية بأم درمان، حين كنت أسافر متنقلا من «دنقلا» للخرطوم بالباخرة إلى «كريمة» التي أستقل منها القطار للخرطوم. كانت تلك الرحلة تستغرق أياما ثمانية تبدأ صباح الأربعاء وتختم مساء الأربعاء الذي يليه! وتزداد أيام تلك الرحلة إلى نحو ثلاثة عشر يوما كاملا في موسم الأمطار التي تجرف خطوط السكة حديد. اختصرت تلك الأيام الطويلة هذه الأيام بفعل النقل البري الآن إلى ساعات قليلة. لقد فاقم فشل شبكة السكة حديد في تقديم خدمات سريعة

ومناسبة في شعور الإحباط الذي ساد في أوساط الجمهور المستخدم لتلك الخدمات. بيد أن السياسة (التي وضعت خططها الأولي في الثلاثينات من القرن الماضي) والقاضية بأن تكون الطرق البرية هي الوسيلة المثلى لنقل البضائع والركاب إلى أقرب محطة للسكة حديد، لم تجد طريقها للتنفيذ إلا في بداية الثمانينات. لم يتم فعليا تنفيذ تلك الخطة إلا في ١٩٨٦م مع تغيير نظام الحكم الذي كان سائدا آنذاك. رغم كل ذلك إلا أنه من الواجب القول بأن شبكة السكة حديد قد أسهمت وبفعالية في تنمية السودان، ويجب البدء بها.

شبكة السكة حديد:

ظلت السكة حديد ولما يزيد عن السبعين عاما هي الوسيلة الرئيسة للنقل في السودان. بدأ إنشاء السكة حديد بخطوط قصيرة ادخلها الجيش البريطاني- المصري عند غزوه وفتحه للسودان وإنشائه لدولة الحكم الثنائي. كان أكبر إنجاز حقيقي لذلك الحكم هو إنشاء خط حلفا – الخرطوم بحري وذلك بقضبان ضيقة العرض امتدت لأكثر من ألف كيلومتر (١٠٦٨ كيلومترا بالتحديد). شهد اليوم الأخير من القرن التاسع عشر الافتتاح الرسمي لذلك الخط، والذي خصص أساسا لنقل الركاب والمعدات. توالت بعد ذلك الخطوط الجديدة لمدن أخري، فأنشأ خط لبورتسودان في عام ١٩٠٦م، وآخر للأبيض في عام ١٩١٢م. وكانت لتك الخطوط الجديدة مآرب أخرى منها الاقتصادية والعسكرية.

عندما بدأ السودان يحكم ذاته في ١٩٥٤م كان مجموع طول خطوط السكة الحديد فيه يبلغ نحو ٣١٠٤ كيلومترات. وزادت عليها الحكومة الوطنية بدوافع تقوية لحمة الوحدة الوطنية والتنمية الاقتصادية ثلاثة خطوط أخرى: خط قصير من سنار للروصيرص والدمازين بغرض بناء خزان الدمازين، وخطين آخرين أكثر طولا من عرديبة إلى نيالا في دارفور، وآخر من بابنوسة إلى واو في بحر الغزال، وبذلك زاد الطول الكلي للخطوط إلى ٤٥٨٨ كيلومتراً. بالإضافة لذلك تقوم مصلحة السكة حديد بتنظيم وإدارة رحلات نهرية طوال العام من دنقلا لكريمة ومن الخرطوم لجوبا، وبصورة موسمية من مشرع الرنك وعبر نهر سوباط. وللسكة حديد كذلك خدمات نهرية من وادي حلفا في السودان إلي الشلال جنوب أسوان في مصر.

كان لتلك الخدمات تأثيرات هامة على الاقتصاد والسياسة والوحدة الوطنية:

١. لعبت السكة حديد دورا هاما في تنمية السودان، إذ أنه بدونها لم تكن المشاريع الكبيرة مثل مشروع الجزيرة (والذي يزرع فيه ربع مليون فدان قطنا طويل التيلة) أن

تقوم. كذلك شجعت السكة حديد المزارعين التقليديين في مناطق السافنا للجمع بين المحاصيل التي يزرعونها للاستهلاك والمحاصيل المخصصة للإنتاج التجاري.

٢. وفرت السكة حديد – وكثيرا- وسيلة نقل عصرية للجمهور، وجعلت الحركة والتنقل أكثر سهولة نسبياً، وربطت الأقاليم إلى حد كبير بمركز القطر وبأجزائه الأخرى. بيد أن مناطق أخرى لم تدخلها السكة حديد (كدارفور وجنوب السودان) أحست بالعزلة مما صار مصدرا وسببا هاما لعدم الرضاء والكثير من التبعات السياسية الضارة.

٣. كان للسكة حديد دور فعال (لكنه غير مباشر) في تأخير بناء الطرق المسفلتة في الأيام التي بدأ فيها النقل البري في منافسة السكة حديد في نقل البضائع والركاب، لم يعجب (بالطبع) إدارة ألسكة حديد ظهور منافس جديد لها، وسعت بنجاح في إقناع حكومة السودان بضرورة «كبح جماح» ذلك المنافس الجديد، إذ أصدر الحاكم العام في عام ١٩٣٤م لائحة أعطيت بموجبها السكة حديد حق الاحتكار الكامل لنقل الركاب من الميناء إلى داخل البلاد. وشمل هذا عمليا أيضا احتكار نقل الركاب من داخل البلاد للميناء. منعت تلك اللائحة بناء أي طرق مسفلتة، بيد أن المنع لم يطل إقامة الطرق المؤدية (لمحطات) السكة حديد، والتي ظلت طرقا ترابية أو مرصوفة بالرمل أو الحجارة الصغيرة.

٤. كنتيجة لاحتكارها لنقل البضائع والركاب، جنت السكة حديد أرباحا معقولة، تحولت لخسائر هائلة في السنوات الأخيرة.

٥. شجعت السكة حديد على زيادة الإنتاج الزراعي، ولكن مع مرور السنوات، وخاصة بعد إنشاء خط السكة حديد لنيالا، تزايد طلب الركاب على خدمات السكة الحديدية، والتي عجزت عن مقابلة ذلك الطلب وعن نقل كميات البضائع الهائلة التي تنتظر النقل. شكلت موسمية الإنتاج الزراعي مشكلة عويصة للسكة حديد، إذ خلقت ارتفاعا حادا في طلب نقل كمية كبيرة من البضائع في الفترة من نوفمبر إلى مارس.

رأت إدارة السكة حديد أن زيادة قدرتها الاستيعابية وخدماتها قد تنجح في حل مشكلة الزيادة الموسمية الحادة في الطلب، بيد أن ذلك سوف يخلق فائضا معطلا في قدراتها لمدة تتراوح بين ستة إلى ثمانية أشهر في العام، مما سيترتب عليه خسائر اقتصادية جمة. لم يكن ذلك المنطق مقنعا لرجال الأعمال الذين كانوا يكرهون بالطبع أن يروا أموالهم الطائلة التي أنفقوها في شراء المحاصيل تظل «مجمدة» أمام ناظريهم لما

يقرب من نصف عام وهي تنتظر الترحيل في محطات السكة حديد أو في المخازن. كان رجال الأعمال يرون أيضا أن سياسية السكة حديد السائدة (آنذاك) من شأنها أن تقلل من قدرتهم على المنافسة في داخل القطر، أو خارجه مع البلاد التي تنتج ذات المحاصيل التي ينتجها السودان.

توالت شكاوى أخرى مشابهة من التجار المستوردين. ليس لهؤلاء مواسم يزداد فيها الإنتاج أو الطلب، لكن السكة حديد فشلت في نقل البضائع المستوردة وظلت تقبع في الميناء لشهور عديدة مما تسبب في خسائر وازدحام لا مبرر له. لم تنجح الحكومة ولا إدارة السكة حديد في إصلاح هذا الوضع رغم المحاولات الكثيرة.

يمكن تلخيص الأسباب التي أدت إلى تلك الإخفاقات في الآتي:

١.سوء الإدارة: أشار البنك الدولي في أحد تقاريره (عن طريق شركة استشارية هي سوفريل) لهذا الجانب كعامل أساس وذلك في عام ١٩٧٤م، وتم بالطبع وضع ذلك التقرير «على الرف».

٢. انعدام الصيانة للوابورات والقطارات والآلات الأخرى.

٣. الفساد المستشري الذي سرى في جسد السكة حديد، والذي غذاه شعور عند إدارة تلك المصلحة بأن هنالك الكثير من الطلب على خدماتهم من قبل رجال الأعمال. وبما أن الطلب هنا يفوق العرض، ويستحيل تلبية طلبات الكل في ذات الوقت، فإن باباً كبيرا للفساد قد انفتح، ولم تعد الخدمات تقدم بعدالة حسب الأسبقية، وانعدمت المراقبة والمحاسبة والمراجعة الدقيقة.

٤. الإضرابات المتكررة: ظلت المرتبات متدنية، وطفقت النقابات العمالية تتصرف بعدم مسؤولية وتتسبب في كثير من التأخير، (لابد من التحفظ الشديد على وصف النقابات بعدم المسؤولية وهي تدافع عن حقوق أعضائها والكاتب نفسه يقر بتدني المرتبات. (المترجم).

٥. المشاكل السياسية مع الولايات المتحدة الأمريكية: كان نحو ٨٠٪ من الآلات التي تستخدمها السكة حديد منتجة في الولايات المتحدة الأمريكية، وعندما أعلنت تلك الدولة المقاطعة الاقتصادية للسودان تأثرت بتلك المقاطعة السكة حديد كأشد ما يكون التأثير.

ضاعفت تلك الإخفاقات من الضغوط الشديدة على سلطات السكة حديد وعلى الحكومة، ودعا بعض الخبراء لحل مشكلة النقل عن طريق بناء الطرق البرية المعبدة،

ليس فقط من أجل خدمة الاقتصاد، بل لأن الطرق تعد مظهرا من مظاهر الدولة العصرية.

بناء الطرق:

بدأ في النصف الأول من القرن العشرين بناء الطرق المسفلتة في الخرطوم ومدن قليلة أخرى، بينما ظلت الطرق في خارج المدن والمراكز طرقا ترابية أو رملية أو مغطاة بالحصى تسير على آثار خطا البشر والحيوانات على الأرض. عند إدخال اللواري اتخذت من مثل هذه الطرق مسارا لها، ونجحت – رغم المصاعب – في أن تنافس السكة حديد. ازدادت أعداد اللواري العاملة في طرق السودان بمختلف أنواعها عقب نهاية الحرب العالمية الثانية، وبدأ نقاش جدي (حول بناء الطرق). قام هـ. أ.موريس بنشر أوراق أكاديمية في مجلة «السودان في مذكرات ووثائق» تعضد فكرة بناء طرق مسفلتة في السودان، وطلبت حكومة السودان رسميا في عام ١٩٥٧م من الأمم المتحدة المشورة التقنية في الأمر.

أسفرت تلك المشورة الفنية عن تقرير للجنة برئاسة كامبل (سمي تقرير كامبل) اقترح فيه بناء ٣١٠٠ ميل (نحو ٥٦٠٠ كيلومتر) من الطرق القومية والإقليمية. لم يسفر التقرير عن نتيجة عملية نتيجة لضغوط من مصلحة سكك حديد السودان، ونتيجة للمصاعب الاقتصادية التي جابهتها الحكومة في الفترة من ١٩٥٨م إلى ١٩٦١م. وفي عام ١٩٧٤م اقترحت إدارة المعونة الأميركية بناء طريقين سريعين هما طريق الخرطوم – بورتسودان عن طريق وادي مدني (لخدمة مشروع الرهد)، والخرطوم الأبيض عن طريق كوستي. تمخض الأمر في نهاية المطاف عن طريقين صغيرين هما الخرطوم – مدني (ويبلغ طوله ١٨٩ كيلومترا) والخرطوم – الجيلي (٣٣ كيلومترا).

حفز فشل السكة حديد في تقديم خدمات مناسبة وعاجلة أصحاب اللواري لكسر لائحة عام ١٩٣٤م التي تتيح للسكة حديد حق احتكار خدمات النقل من وإلي بورتسودان، بيد أن التنفيذ الفعلي لبناء شبكة طرق برية في السودان لم يبدأ إلا في عام ١٩٨٦م مع تغيير الحكم السياسي القائم. كان السؤال الأول الذي طرح هو: أين هو المال الذي ستبنى به شبكة الطرق هذه؟ ساهمت أموال النفط في ذلك مساهمة مقدرة، وإلي الآن تم تشييد شبكات الطرق التالية:

١. الطريق السريع الذي اقترحته إدارة المعونة الأميركية من الخرطوم لبورتسودان عن طريق ودمدني وكسلا.

٢. الطريق السريع من الخرطوم لبورتسودان عن طريق عطبرة (طريق التحدي).
٣. طريق الإنقاذ الغربي من الخرطوم للأبيض عن طريق كوستي، وتم تمديده لنيالا، ويتم الآن العمل لإيصال الطريق للفاشر. لهذا الطريق فرع يمتد من كوستي للكاكا.
٤. طريق الإنقاذ الشمالي من أم درمان عبر صحراء بيوضة إلى دنقلا ومروي.
٥. على شرق النيل يقوم طريق من كريمة إلى دنقلا ووادي حلفا، مع طريق يربطه مع طريق الخرطوم – بورتسودان.

بناء الجسور:

كان أول الجسور التي شيدت في السودان من أجل السكة حديد. كانت جسورا ضيقة بها مسارات للمشاة والحيوانات. وتطور الحال إذ استعملت للسيارات الصغيرة وعربات النقل الصغيرة. شملت جسور السكك الحديدية الآتي:

١. جسر على نهر عطبرة ، شيد عام ١٨٩٧م .
٢. جسر على نهر النيل الأزرق يربط الخرطوم والخرطوم بحري، تم تشييده في ١٩٠٨م
٣. جسر على النيل الأبيض في عام ١٩١١م .
٤. جسر على نهر النيل الأبيض يربط الخرطوم وأم درمان، تم تشييده في ١٩٢٤م

شملت جسور الطرق الجديدة (خارج الخرطوم الكبرى):

١. جسر عطبرة الجديد (والي يربط طريق التحدي مع طريق بورتسودان).
٢. جسر كوستي الجديد (مع طريق الإنقاذ الغربي).
٣. جسر حنتوب على النيل الأزرق (من أجل طريق الخرطوم – بورتسودان عن طريق مدني وكسلا).
٤. جسر مروي – كريمة (٢٠٠٧م).
٥. جسر دنقلا – صيم (٢٠٠٩م).
٦. جسر الحصاحيصا – الجنيد (لعل المؤلف يقصد الحصاحيصا – رفاعة. المترجم) (٢٠٠٩م).
٧. جسر أم الطيور – كريمة (٢٠٠٩م).

أنشئت في الخرطوم الكبرى عدد من الجسور الجديدة على النيلين الأبيض والأزرق، تهدف كلها إلى تقليل الزحام وتسهيل المرور دون الحاجة للعبور عبر وسط مدن الخرطوم والخرطوم بحري وأمدرمان. شملت هذه الجسور:

١. جسر القوات المسلحة الرابط بين الخرطوم والخرطوم بحري
٢. كوبري شمبات الرابط بين الخرطوم بحري وأمدرمان.
٣. كوبري الفتيحاب الرابط بين الخرطوم وأمدرمان (١٩٨٥م) (يبدو أن هنالك خطأ في التاريخ هنا. المترجم).
٤. كوبري المنشية الرابط بين الجريف غرب والقرى الواقعة شرق النيل الأزرق والخرطوم (٢٠٠٩م).
٥. جسر الملك نمر الرابط بين الخرطوم بحري والخرطوم (٢٠٠٩م).
٦. جسر القذافي الرابط بين الخرطوم وجزيرة توتي (٢٠٠٩م).

توجد كذلك جسور أخرى في طور الإنشاء، منها واحد يهدف لتسهيل الوصول للمطار الجديد.

تأثيرات شبكة الطرق الجديدة:

لم ينقض وقت طويل وكاف لتقييم تأثير شبكة الطرق تقييما شاملا، ولكن توجد بعض المؤشرات على وجود تأثيرات ملحوظة. لا شك أن السكة حديد قد خسرت معظم ركابها لمصلحة النقل البري. تناقص عدد ركاب السكة حديد في الخمسة وعشرين عاما بين ١٩٧٠م – ١٩٩٥م من ٣,٢ ملايين ركاب إلى ٣٠٠٠٠ راكب فقط. لاشك إذن في تفضيل الركاب للنقل البري على النقل بالسكة حديد، إذ إن المركبات الحديثة توفر قدرا من الراحة أكبر مما توفره السكة حديد، وبسرعة أكبر وبوتيرة أعلى. يحتاج المسافر للأبيض أو الأبيض من الخرطوم مثلا نحو ٢٧ إلى ٣٠ ساعة، بينما تأخذ المركبات نحو ثمانية أو تسع ساعات فقط، وتستغرق الرحلة بالقطار إلى واد مدني نحو خمس ساعات، بينما لا تتعدى تلك الرحلة ساعتين بالمركبات. يمكن لحافلة أن تسافر لسنار أو كوستي من الخرطوم وتعود في نفس اليوم. كانت الرحلة بالقطار والباخرة إلى دنقلا تأخذ نحوا من ثمانية أيام، بينما تستغرق فقط خمس ساعات بالحافلات. كذلك لا تحتاج المركبات لحجز مسبق كما هو الحال مع سفريات السكة حديد، كما أن لها محطات تتوقف فيها لتناول الطعام والمرطبات، علاوة على أنها أقل كلفة من تذاكر السكة حديد في درجتها الأولى والثانية.

وكما فقدت السكة حديد معظم زبائنها من الركاب، فإنها فقدت الكثير في مجال نقل البضائع. نقلت السكة حديد على سبيل المثال ٢,٩٦ مليون طن من البضائع في الفترة بين ١٩٧١ – ١٩٧٤م، بينما تناقص هذا الرقم إلى ٠,٧ مليون طن في الأعوام من ١٩٨٥ – ١٩٩٠م. ارتفع هذا الرقم الأخير من بعد ذلك بسبب نقل السكة حديد لمعدات ثقيلة تخص تطوير صناعة النفط، مما يؤكد أنه ما يزال للسكة حديد دورا تلعبه في نقل المعدات الثقيلة بأسعار قليلة نسبيا، وهي ليست من نوع البضاعة التي يفضلها أصحاب الشاحنات واللواري الذين يفضلون نقل البضائع الغالية الثمن ولمسافات قصيرة.

تأثر سلبا بالنقل البري أيضا النقل الجوي، إذ إن هذا النقل مكلف جدا وغير عملي في كثير من الأحايين. تكلف التذكرة بالطائرة من الخرطوم لدنقلا نحو ١٥٠ جنيها، مقارنة ب ٤٩ جنيها لتذكرة الحافلة (البص)، علما بأن رحلة الطائرة تتطلب الحضور للمطار قبل ساعتين أو ثلاثة قبل الإقلاع. لا عجب إذن أن ظلت الخطوط الجوية السودانية في حالة خسارة اقتصادية مستمرة، خاصة في خطوطها المحلية. كانت تلك الخطوط تسير رحلاتها لدنقلا بمعدل ثلاث مرات في الأسبوع، تناقصت لرحلة واحدة في الأسبوع، وهذه الرحلة الوحيدة نادرا ما تكون كاملة العدد.

تركت شبكة الطرق المعبدة تأثيرا إيجابيا على استغلال الأراضي الزراعية. كان المزارعون في الماضي يترددون كثيرا قبل الدخول في مغامرة زراعة وتسويق المحاصيل ذات القيمة العالية كالفواكه وذلك خوف فسادها أثناء الترحيل بواسطة السيارات التي تسير على طرق سيئة وغير معبدة وتأخذ وقتا طويلا قبل الوصول لمحطتها المبتغاة. معلوم أن المزارعين يتميزون بالحذر وعملية التغيير في أوساطهم عندهم بطيئة جدا. سيستغرق الأمر وقتا طويلا لمعرفة الأثر الفعلي الذي تركته الطرق الحديثة المعبدة في نوعية الإنتاج الزراعي. رغم ذلك يمكن ملاحظة التأثير الإيجابي الذي تركه طريق الخرطوم – بورتسودان على الإنتاج الزراعي في كسلا وما حولها، والمتمثل في زيادة الصادر من الخضر والفواكه إلي أسواق الخرطوم وبورتسودان، وتشييد بعض رجال الأعمال لثلاجات ومباني مبردة لحفظ الإنتاج المتزايد من تلك الفواكه. لذات الأسباب توسعت صناعة الدواجن.

بيد أننا يجب ألاّ نحسب أن تلك كانت «حادثة معزولة». يلاحظ الآن في الخرطوم أن بإمكان المرء أن يجد مانجو من جبال النوبة وأسماك من سد مروي. كذلك ظهرت بوادر عودة للريف نسبة للتحسن في شبكة الطرق البرية وشعور البعض بأن بإمكانهم العيش في المناطق الريفية وكسب عيشهم من الإنتاج الزراعي.

ساهمت الطرق البرية في زيادة حركة السكان والمناسبات الاجتماعية، بيد أنها ساهمت أيضا في زيادة الهجرة، خاصة إلي المناطق الحضرية، إذ زاد سكان العاصمة المثلثة من ربع مليون نسمة في الخمسينيات (جلهم من الشماليين من عناصر معينة)، نجد أن العدد قد تضاعف إلى أن صار نحو ثمانية ملايين نسمة من كل بقاع السودان شماله وجنوبه، شرقه وغربه.

المستقبل:

أعلن في عام ٢٠٠٩م أن الحكومة بصدد «إعادة الحياة» للسكة حديد، إذ إنه من المسلم به أن السكة حديد هي أفضل الوسائل لنقل البضائع الثقيلة لمسافات طويلة بتكلفة قليلة، خاصة إن علمنا أن المسافة بين الخرطوم ونيالا هي ١٤٠٤ كيلومترات، وبين الخرطوم وواو هي ١٥٠٠ كيلومتر، وبين الخرطوم وبورتسودان نحو ٩٠٠ كيلومترات. توجد أيضا بالإضافة للأسباب الاقتصادية المعلومة أسباب سياسية . عقد في الخرطوم في عام ٢٠٠٩م اجتماع لمناقشة ربط داكار ببورتسودان بخط حديدي. يذكرنا ذلك بالخطة الاستعمارية القديمة (والتي لم تر النور أبدا) لربط القاهرة بكيب تاون وداكار بجيبوتي.

لا زالت شبكة الخطوط البرية حتى الآن في طورها الهيكلي. لابد من القول بأن هنالك مساحات شاسعة تنتظر وصول شبكة الطرق الترابية لها، ومعظم طرقها الآن لا يمكن استعماله طوال العام (خاصة في فصل الأمطار). لابد من إعطاء المناطق الطرفية الأولوية في مد شبكات الطرق، خاصة وهي مناطق تمتاز بإنتاج جيد مثل مناطق دارفور وجبال النوبة وجبال الأنقسنا، وكل جنوب السودان.



تاريخ الشكرية وآل أبو سن

جون أودال

نشر المؤرخ البريطاني المتخصص في «الشأن السوداني» هذا المقال المطول في المجلة البريطانية «الدراسات السودانية» (العدد ٣٨ بتاريخ يوليو ٢٠٠٨م) عن التاريخ المبكر لقبيلة الشكرية وعن زعمائها من «آل أبو سن».

وفي نهاية المقال تقدم المؤلف بشكره للشيخ أحمد محمد أحمد أبو سن علي المعلومات التي زود بها المؤلف. لا يسع المرء إلا أن يعجب من «تقاعس» أهل «الجلد والرأس» من ذوي الاختصاص من الكتابة في شأنهم، خاصة مع تكاثر الجامعات والمعاهد المتخصصة. فحتام يواصل «المؤرخ الأبيض» في تحمل عبئه الثقيل؟! لم يحظ التاريخ القبلي للشكرية بكثير بحث ودرس، مما يعد أمرا غريبا بالنظر إلي أهمية هذه القبيلة في شمال السودان.

ولعل أهم الدراسات الأكاديمية التي نشرت حول هذه القبيلة هو ما نشره صمويل هيلليسون عام ١٩٢٠، محول «قصائد الشكرية التاريخية ورواياتها» وما نشره إستيفان رايشموث حول «انتفاضة أحمد بك أبو سن (١٧٩٠م – ١٨٧٠م) والشكرية ضد الحكم الأجنبي» والمنشور في عام ١٩٩٠م، كذلك تتبع السير هارولد ماكمايكل والدكتور يوسف فضل نسب الشكرية (الخلافي) لعرب جهينة وتاريخ القبيلة المتقطع في أيام مملكة الفونج (١٥٠٤م – ١٨٢٠م) مما هو مذكور في كتاب : «الفونج: مملكة سنار» لمؤلفه أ. ج. س. كرافورد، وكتاب «عصر سنار البطولي» لمؤلفه جاي سبولدنق.

يمكن القول بأن الشكرية لم تعد قبيلة ذات شأن يعتد بها في «جزيرة مروي» الواقعة بين نهر أتبرا والنيل الأزرق إلا بعد أن هزمت بقيادة آل أبو سن همج الفونج وركابية البطانة في نهاية القرن الثامن عشر.

القيادة التاريخية: ينسب الشكرية أنفسهم تاريخيا إلى شاع الدين ود التويم والمولود في حوالي العام ١٦٣٥م (١٠٤٥ هجرية). كان مركز القبيلة في كلكول والواقعة على الشاطئ الشرقي للنيل الأزرق مقابل مدينة الكاملين. أسر الفونج شاع الدين وهو صبي صغير في أحد غاراتهم وأخذوه إلى سنار في عهد الملك بادي الثاني (بين حوالي

١٦٤٢ – ١٦٧٧م الموافق لـ ١٠٥٢ – ١٠٨٨ هـ). دفع أعمامه فدية مقابل إطلاق سراحه وكان من شروط صفقة إطلاق سراحه أن يتلقى الصبي قدرا من التعليم في العاصمة. تبرع شاع الدين، وهو يعد في ميعة الشباب، بمهمة إقناع حامية من حراس الملك بادي كانت قد هربت من موقعها بالاستسلام، واستطاع بمعونة رجال قبيلته الشكرية من القبض على الفارين وتسليمهم للملك بادي. لم يكن شاع الدين قد بلغ سن العشرين عندما كافأه بادي بتزويجه من إحدى بناته في حوالي عام ١٦٥٥م / ١٠٦٥ ه). أثمر ذلك الزواج ولدين هما نايل وعبد الكريم.

استقر القائد الجديد شاع الدين معززا مكرما في جبل قيلي والتي غدت المدينة الأم لعائلة أبو سن. ولعل شاع الدين كان ما زال يقطن هنالك إبان زيارة الرحالة التركي إيفليا سيلبي إلى أربجي وسنار في حوالي عام ١٦٧١م (١٠٨٣ ه). خلف شاع الدين ابنه الأكبر نايل والذي بسط سلطته حتى «أبو دليق» أرض البطاحين شمالا. أنجب نايل عدلان (المولود في حوالي ١٦٨٠ ميلادية/ ١٠٩١ ه) والذي أعقبه محمد الدغيم (المولود في ١٧١٠م/ ١١٢٢ ه) بيد أنه لا يعرف الكثير عن فترات حكم كل هؤلاء، رغم أن المؤرخين يعتقدون أن سلطة هؤلاء كانت محدودة نسبيا ولم تتعد أرض البطانة إلى غيرها مثل مناطق الركابيين والبطاحين. ظل الشكرية في مركزهم في جبل قيلي وكلكول بالقرب من أربجي تحت المراقبة اللصيقة لملوك سنار من الفونج (المانجل) وشيوخ العبدلاب المتمركزين في قري وأربجي.

كتب جاكسون في عام ١٩١٢م أن مرتبة «المانجل» (ويعتقد أنها من كلمات الهمج) كانت تعني الرفعة وامتلاك الأرض التي يقيم عليها تابعيه كهبة من السلطان. كتب جوست وفرانسس وهم بعض من قادوا الحملة الاستكشافية من أرض مصر العليا لأثيوبيا عن طريق سنار (١٦٩٨ –١٧٠٥م / ١١١٠ 1117– هـ) الكثير عن شيوخ العبدلاب. كانت هذه الحملات في عهد الملك بادي الثالث (الأحمر) آخر نسل عمارة دنقس المباشرين. ربما يكون الشيخ نايل قد أقام في جبل قيلي .شيخ عوض الكريم محمد (أبو علي) ١٧٧٥م (١١٨٩هـ) – ١٧٧٩م ١١٩٣هـ): خلف شيخ محمد الدغيم بن نايل أحد أبنائه ممن قدر له إرساء قواعد عهد ازدادت فيه سلطة الشكرية مواشيهم إلى جبل قيلي، ومنها إلى نهر أتبرا.

كان ذلك الابن هو شيخ عوض الكريم محمد والشهير بأبي علي. قيل في مدح أبي علي أبيات أفادت بصعود نجمه، إذ كان يحظى بحب أهله وبلده، وبجيش عرمرم من أقربائه وعبيده. حاول حكام البلاد الفونج والعرب كسب وده واستقطابه، بيد أنه ثار عليهم

وجرعهم الهزائم. تعرض الشكرية في عهد الناظر شيخ عوض الكريم في حوالي ١٧٧٥م/ ١١٨٩هـ إلى اعتداءات مسلحة من ركابية البطانة في مناطق الكاملين، والذين كانوا يسيطرون علي مصادر المياه التي يؤمها الشكرية. في عهد ملك الفونج عدلان الثاني (١٧٧٥ – ١٧٨٩م، ١١٨٩ – ١٢٠٠ هـ) (والذي لم يكن أكثر من ألعوبة في يد وزيره بادي ود رجب ابن أخت / أخ قائد الفونج العظيم محمد أبوالكيلك (أقدم أحد أبناء شيخ ركابي علي قتل ابن لأبي علي أسمه محمد عندما كان يسقي إبل الشكرية في جبل ماندرا (شرق الكاملين). منع أبو علي قومه من الانتقام ممن قتلوا فلذة كبده لعلمه بتفوق الركابية عسكريا على الشكرية ولصلتهم بالهمج في سنار.

بيد أنه وبالصدفة المحضة وبعد مرور أيام قليلة على مقتل محمد ابن زعيم الشكرية قابلت ثلة من رجال الشكرية قاتل محمد فأردته قتيلا. رفض الركابية قبول مبدأ الصلح والتهدئة بحكم أن مقتل الرجل كان بحكم النفس بالنفس، ولجؤوا إلى سنار يطلبون من حكامها العون لقتال الشكرية. تجمعت قوات سنار والركابية قرب جبل مندرا لهجوم مشترك ضد الشكرية. قاد علي عوض الكريم أبو سن (أكبر أبناء أبو علي) وأخوه حسن جيش الشكرية في المعركة في ١٧٧٨م/ ١١٩٢هـ. أفلح حسن في قتل كرنكا أحد ثلاثة حراز« وأخبرهم بما جرى، ففروا سريعا ومعهم مواشيهم إلى جبل قيلي، ومنها إلى نهر أتب من قواد الهمج وفي إجبار قوات الهمج والركابية المهاجمة علي الفرار، وغنم الشكرية الكثير من نسائهم وخيولهم.

بعد ذلك الانتصار تمدد نفوذ الشكرية شرقا في البطانة إلى نهر أتبرة بينما مضى الفونج ومليكهم يتجرعون كؤوس الهزيمة المذلة. فكر بادي ود رجب في خدعة ماكرة استطاع بها أن يقنع أبو علي وأولاده في حوالي ١٧٧٩م/ ١١٩٣هـ بقبول دعوة الملك للقاء مصالحة في «أبو حراز» بعيدا عن نهر أتبرة. وما أن أخذ أبو علي وأولاده مجلسهم كضيوف مكرمين حتى انقض عليهم من الركابية من قام بقتلهم جميعا. كان أبو علي قد رفض من قبل وبعناد شديد أن يصدق تحذير قريبه علي ود النور من احتمال الغدر بهم في تلك الرحلة الأخيرة. نجح علي ود النور في الفرار من كمين «أبو حراز» ولحق بأهله الشكرية في معسكرهم خارج «أبوحراز» وأخبرهم بما جرى ففروا سريعا ومعهم مواشيهم إلى جبل قيلي، ومنها إلى نهر أتبرة

مقدم آل «أبو سن»: عوض الكريم علي أبو سن (١٧٧٩م/ ١١٩٣هـ– ١٨٠٢م/ ١٢١٧هـ):

بعد مقتل زعيم الشكرية «أبو علي» في ١٧٧٩م/ ١١٩٣هـ كان لزاما على كبراء

القبيلة انتخاب ناظر جديد لها. رشح كبار القوم محمد دكين، بيد أن الشاب الثائر علي ود النور رفض ذلك الاختيار ورشح بدلا عنه عوض الكريم ود علي، أحد صغار أبناء الزعيم المغدور في «أب حراز» في ١٧٦٠م. من بعد انتخابه عرف الرجل بعوض الكريم أبو سن. وسبب تسميته بأبي سن هو أن إحدى أسنانه الأمامية كانت سوداء اللون. عقب اختياره لزعامة القوم ورغم صغر سنه فلقد بدأ الناظر الجديد في التحضير للانتقام والثأر من حكام سنار الهمج الذين قتلوا والده فحاربهم في موقعة أساوي وهزمهم شر هزيمة. خلدت كثير من القصائد تلك المعركة وقائدها «ود علي» الذي انتقم لأبيه المغدور وجرع عدلان ملك الفونج كؤوس الهزيمة.

أزاح موت كبير الفونج بادي رجب عن عاتق الشكرية هم وتكاليف الاستعداد لمجابهة حكام سنار لقرابة عقد من الزمان أو على الأقل حتي موت الملك عدلان الثاني في ١٧٨٩م/ ١٢٠٣ه. خلف بادي رجب ابن عمه الأصغر ناصر محمد والذي قبل بوساطة شيخ العركيين يوسف أب شرا في أب حراز في ١٧٩٠م/ ١٢٠٥ه لعقد صلح بينه وبين شيخ عبد الكريم أبو سن. ولتعزيز هذا الصلح ولإبداء حسن النية تزوج عبد الكريم من إحدى كريمات شيخ يوسف أب شرا. صادق ملك الفونج الجديد بادي (الخامس) دكين على معاهدة الصلح في العام التالي (في العاشر من نوفمبر ١٧٩١م الموافق ١٢ ربيع الأول من ١٢٠٦ه) والتي أعطت الشكرية – ودون منازع- ملكية الأراضي المروية بالأمطار (عدا الأراضي المملوكة للعبدلاب) والتي ذكرت الإتفاقية أنها: «تمتد حدود الأراضي المملوكة للشكرية إلى نهر أتبرا شرقا، وإلى «أبو دليق» شمالا، وحتى النيل الأزرق ونهر الرهد غربا، وأرض العبدلاب جنوبا».

شملت قائمة شهود ذلك الاتفاق ناصر محمد وشيوخ قري وتاكا وبيلا وخشم البحر و«مصبات كردفان» وأربجي، وكلهم من حملة «المنجلية» مالكي الأراضي التي منحها إياهم الملك هدية منه. لم يكن شيخ «أبو دليق» شيخ صالح علي من ضمن شهود الاتفاق الموقعين. أشار جاكسون في عام ١٩١٢م إلى أن الملك عندما يعطي مساحات واسعة من «أراضيه» لشيخ ما كهدية، فإنه من المتوقع ضمنا أن يدفع الشيخ له نظير تلك الأرض مبلغا كبيرا من المال (أربعين أوقية من الذهب وخمسين قنطارا من السمن أو عددا من إناث الإبل). توفي الملك بادي دكين في العام التالي (١٧٩٢م/ ١٢٠٧ه)، بينما ظل الشيخ عوض الكريم أبو سن مسيطرا - دون كبير عناء- علي كافة أراضي البطانة ومصادر المياه فيها وأسواق الحبوب، ولم تقع في عهده سوى بعض المعارك الصغيرة ضد البطاحين. وقعت إحدى تلك المعارك في ١٨٠٢م/ ١٢١٧ه في شمبات وكلفت عوض الكريم أبو سن حياته.

كان لأبي سن ثمانية من الأولاد تولي أكبرهم واسمه حمد (١٨٠٢م/ ١٢١٧ه – ١٨١٨م/ ١٢٣٣هـ) نظارة الشكرية بعد مقتل أبيه. اغتيل حمد بيد رجل بطحاني أسمه علي ود برير في ١٨١٨م/ ١٢٣٣هـ وهو عام فاض فيه النيل وغرقت فيه البشاقرة (شمال كلكول). وللحصول علي الحماية هدد قاتل حمد علي ود برير بالسعي للحصول علي عون عسكري من ابن عمه (و عدوه اللدود) الملك نمر ومن الملك موسي ود سعد في المتمة غرب شندي. أخيرا فر علي ود برير غربا وبذا تم تفادي حدوث نزف دموي كبير.

الغزو المصري:

بعد نحو عامين واجه الملك نمر في شندي وشيخ محمد أبو سن (والذي خلف أخيه حمد في نظارة الشكرية) وشقيقه الأصغر أحمد عوض الكريم الغزو المصري في ١٨٢٠م بقيادة إسماعيل ابن الخديوي محمد علي باشا. سقطت سنار في عام ١٨٢١م/ ١٢٣٦هـ. كان الملك نمر قد استسلم للغزاة في بربر، وبعد مرور ستة شهور على استسلامه سمح له بالأوبة إلى شندي حيث قام لاحقا - بالاشتراك مع موسي ود سعد- وردا علي إهانة شخصية بالقضاء على إسماعيل وجيشه في نوفمبر من عام ١٨٢٢م/ ١٢٣٨ه وهم في طريق العودة لمصر. انقسمت قبيلة الشكرية حيال الغزو المصري لفسطاطين... لجأ أحد الفريقين (الشيخ محمد أبو سن وأتباعه) إلى أتبرا تفاديا لأي احتكاك، بينما تحالف الفريق الآخر بقيادة شيخ أحمد عوض الكريم (والذي نشأ مع والدته في أب حراز) مع الحكام الأتراك الجدد، محتفظا بمقر رئاسته على النيل الأزرق.

شيخ أحمد عوض الكريم أبو سن (١٨٢٢م/ ١٢٣٨هـ – ١٨٦٩م / ١٢٨٦هـ):

أعقب مقتل إسماعيل باشا في نوفمبر ١٨٢٢م/ ١٢٣٨ه وفي خلال شهور حدوث حملة انتقامية شرسة ضد سكان شندي والمتمة قادها سرعسكر وخليفة إسماعيل باشا الدفتردار محمد بيه خوسرو الدرملي. كان الملك نمر وقتها قد انسحب من شندي ولجأ إلي بطاحين «أبو دليق» ليرتب حركة مناوئة للغزاة قوامها العبدلاب والبشاريين والحسانية والشكرية. قام الدفتردار في بدايات ١٨٢٣م بقتل وحرق من بقي من سكان شندي والمتمة. نجح الملك نمر برفقة مساعد وشيخ العبدلاب الأمين ناصر بخداع متعقبيهم من الأتراك بالالتفاف حولهم فعادوا إلى شندي ومنها إلى «أبو دليق حيث جرت معركة دموية قضت فيها القوات التركية على جنود الملك نمر. فر الملك نمر هذه المرة مع ثلة من «النمراب» إلى تلال الحبشة، ودفع حلفاءه من شكرية الشرق

والبشاريين ثمنا غاليا نظر اشتراكهم في الثورة ضد الغزاة الأتراك.

وفي تلك الأيام وعقب استسلام بادي ملك الفونج وتنازله عن عرشه لإسماعيل باشا في سنار عام ١٨٢١م/ ١٢٣٦هـ كان أصغر أبناء عوض الكريم أبو سن واسمه أحمد، وهو رجل متعلم قضي سنوات حياته الحادية وعشرين في «أب حراز» قد اختير من قبل الحكومة لينوب عن أخيه وناظر الشكرية محمد والذي كان قد انسحب هو وغالب أفراد قبيلته إلي ما وراء نهر أتبرة لتفادي لقاء الغزاة الأتراك. رحب أحمد عوض الكريم أبو سن بالحكام الجدد والذين قلدوه وسام شرف لسعيه كسب تأييد الشكرية للحكم التركي وجلبه لعدد من رجال الشكرية من البطانة لتقديم فروض الولاء والطاعة لإسماعيل باشا. وبعد مقتل إسماعيل في شندي في نوفمبر ١٨٢٢م/ ١٢٣٨هـ وما أعقب ذلك من مجازر وحشية قادها الدفتردار تم تعيين أحمد عوض الكريم أبو سن حاكما للعاصمة الجديدة في واد مدني وذلك لاستعادة الأمن والنظام في مناطق شرق النيل.

نجح الناظر المعين أحمد عوض الكريم أبو سن في إقناع أغلب رجال الشكرية لإعادة احتلال البطانة، بينما أصر أخوه الأكبر الناظر «المخلوع» علي البقاء في معزله قرب نهر أتبرا الذي يؤويه ويحميه مع تابعيه عن الحكومة التركية الجديدة. وبعد مرور سنوات عديدة تنازل الرجل العجوز والذي عمل ناظرا للشكرية لثلاثين عاما عن النظارة لأخيه أحمد عند زيارة الخديوي محمد علي باشا للسودان في عام ١٨٣٨م/ ١٢٥٤هـ. يجب القول بأن أحمد ظل خلال سنوات عمله مع الحكومة يظهر غاية الاحترام لأخيه الأكبر محمد، بل واختار أحد أبنائه ليكون ضمن معاونيه المقربين وعين ابن آخر له كشيخ على منطقة أتبرا.

تنامت مع مرور سنين الحكم التركي سلطة أحمد عوض الكريم أبو سن ونفوذه السياسي. بيد أن شكرية البطانة رعاة الإبل كانوا ينظرون بعين الريبة والشك للرجل الذي تلقي تعليمه في أب حراز وتزوج إحدى فتيات العركيين والتي أنجبت له أكبر أبناءه عوض الكريم أبو هلبة، ولم يشفع له أن الرجل قضي سنوات شبابه الأولي في البطانة وكان له فيها قطيع كبير من الإبل واختار زوجته الثانية من الحسناب، ولدت له تلك المرأة ولده محمد الحاردلو في رفاعة في عام ١٨٣٠م/ ١٢٤٦هـ، وقد غدا الحاردلو فيما بعد شاعرا رومانسيا مجيدا، ونصبته الحكومة التركية شيخا لمشايخ الشكرية، رغم أنه آثر حياة الترحال في ريرة شرق جبل قيلي في البطانة.

قام أحمد (والد الحاردلو) بإنشاء وصيانة آبار عديدة في ريرة وإقناع بعض رجال

الشكرية والجعليين للاستقرار في مناطق رفاعة الزراعية على النيل الأزرق وفي القضارف حيث أنشأ سوقا عرف ب«سوق أبو سن» والذي كانت له معاملات تجارية مع الحبشة. كان استقرار هؤلاء علامة فارقة، وأحدث أثرا كبيرا في الحياة التقليدية لعرب الشكرية الرحل. وفي ما أقبل من أيام وجد أحمد عوض الكريم أبو سن نفسه مجبرا دون شك على التعاون مع الحاكم العام علي خورشيد باشا في تجنيد العبيد لجيش الخديوي، وهي سنة ساعد علي نشرها الرجل الداهية شيخ المشايخ عبد القادر الزين يعقوبابي سنار.

في عهد حكام السودان من الأتراك بدءا من علي خورشيد ومن بعده أحمد باشا أبو ودان (١٨٢٨-١٨٤٣م/ ١٢٥٤-١٢٥٩هـ) بدأ نجم أحمد أبو سن في البزوغ واللمعان. تم استدعائه ليكون ضمن كوكبة من نبلاء السودان للتشرف بالسلام علي حضرة الخديوي عند زيارته للخرطوم في نوفمبر ١٨٣٨م/ ١٢٥٤هـ، حيث أبدى عند مقابلته – مع الآخرين- للخديوي كياسة وتحفظا وتأدبا ملحوظا، خلافا لما تفوه به شيخ سليمان أبو ريف (من رفاعة) مخاطبا الخديوي مذكرا إياه بأنه (أي الخديوي) في مملكته هو، وأنه (أي سليمان) ليس في مملكة الخديوي. دفع شيخ سليمان حياته مسموما نظير ذلك «التطاول» اللفظي على مقام الخديوي.

أحمد عوض الكريم وأحمد باشا ودان:

استدعي أحمد عوض الكريم أبو سن للخرطوم ليكون في معية وفد كبار الشخصيات السودانية التي تشرفت بلقاء الخديوي في نوفمبر من عام ١٨٣٨م/ ١٢٥٤ه. وبعد مرور نصف عام على ذلك اللقاء واجه أحمد باشا أبو ودان تمردا في بربر قاده جماعة من الشايقية احتجاجا على عدم التزامه بتعهد سابق كان قد قطعه لهم سلفه الحاكم السابق خورشيد بإعفاء الشايقية من دفع ضرائب وعوائد علي أرضي للجعليين كانوا قد وضعوا أيديهم عليها بعد أن هجرها أصحابها عقب حملة الدفتردار الانتقامية. أصر أحمد باشا أبو ودان على موقفه الرافض بإعفاء الشايقية من الضرائب والعوائد فثاروا عليه بقيادة حمد الملك (من فصيل العامراب) وخربوا وأحرقوا كل ما صادفهم من زراعة ومحاصيل وانسحبوا جنوبا من البطانة أرض الشكرية. قيل :إن أحمد عوض الكريم أبو سن كان قد حذر الحاكم أبو ودان من خطورة تواجد الملك حمد وأهله في مناطق نظارته وقام في ذات الوقت بتحذير الملك حمد من أن أحمد باشا أبو ودان سيقوم (وبمعونة ملك الشايقية الآخر كمبال) بشن هجوم كاسح عليه. ولعل هذا هو ما مكن الملك حمد من التصدي بنجاح لهجوم أحمد باشا

أبو ودان في شندي قبل أن ينسحب مع ثلة من مناصريه إلى مناطق قريبة من الحدود الحبشية (حيث سبقه اليها من قبل ملك الجعليين نمر) ومن هنالك ظل مصدر خطر مستمر على أحمد باشا أبو ودان.

عالج أحمد باشا أبو ودان الأمر بحكمة وروية واستطاع بحكمة ومشورة وواسطة شيخ عبد القادر الزين وشيخ أحمد عوض الكريم أبو سن من أن ينهي تمرد الملك حمد حيث أصدر أمرا بالعفو عنه وسمح له بالعودة دون مساءلة أو حساب في نوفمبر من عام ١٨٣٩م للخرطوم، والتي غادرها بعد حين إلى شندي ثم إلى دنقلا، وسمح لجماعته الشايقية بتملك أراضي الجعليين التي هجروها بعد حملة الدفتردار الانتقامية دون دفع ضرائب أو عوائد.

كانت تلك وساطة حكيمة موفقة تلك التي قادها أحمد عوض الكريم أبو سن، وزادت من ثقة أحمد باشا أبو ودان في شيخ أحمد مما جعله يدعوه لمشاركته في الحملة الحربية التي كان يزمع القيام بها للسيطرة الكاملة على أرض التاكا شرق نهر أتبرا وذلك في مارس من عام ١٨٤٠م/ ١٢٥٦هـ. كان هدف الحملة هو فرض الأتاوات الباهظة والمكوس العالية علي مزارعي أراضي دلتا القاش في أرضهم الخصبة الغنية. وما أن حل نوفمبر من ذلك العام حتي تمت السيطرة أيضا علي قبائل الهدندوة القوية وكذلك الحلنقة، وأنشأت مديرية جديدة عاصمتها كسلا. غدت كسلا من بعد ذلك التاريخ مركزا لطائفة دينية (روحية) جديدة هي طائفة الختمية. أسس تلك الطائفة السيد محمد عثمان الميرغني والذي ربطت بينه وبين أحمد أبو سن علاقة جيدة، وطلب منه الأخير أن يوسط ابنه الحسن الميرغني لتهدئة النزاع بين رجال الشكرية وبين الحسناب.

تم اغتيال أحمد باشا أبو ودان في الأول من أكتوبر عام ١٨٤٣م/ ١٢٥٩هـ، وربط البعض ذلك الاغتيال بما أشيع عن اعتزام أبو ودان للتخطيط لفصل السودان والانفراد بحكمه، حاولت قبائل المتكناب (؟) في دلتا القاش استغلال الموقف فبدأت تمردا علي الحكومة قام بإخماده في مجزرة رهيبة أحمد باشا المانكلي والذي كان قد جاء للسودان ليشرف علي تقسيم «حكمدارية السودان» إلى أقاليم متعددة وشبه مستقلة. أجبر أحمد باشا المانكلي كلا من أحمد أبو سن وشيخ عبد القادر الزين وشيوخا آخرين من الجزيرة علي مرافقته في حملته التأديبية الدموية، تلك وظلوا يشاهدون في صمت وعجز المجزرة التي ختم فصولها الدموية في ١٨٤٤م/ ١٢٦٠هـ،و ظل الحكام الذين تعاقبوا علي حكم السودان من بعد تلك الحملة يعتمدون علي ولاء وتعاون هؤلاء

الشيوخ في إدارة مناطق النيل الأزرق.

كان أحمد باشا أبو ودان قد بعث بثلاث حملات نيلية لاستكشاف منابع النيل الأبيض في الفترة بين ١٨٣٩-١٨٤٢م / ١٢٥٥ -١٢٥٨هـ، وأوضحت تلك الحملات الاستكشافية مدي المنافع التجارية التي يمكن أن تجني من تجارة العاج في بحر الجبل. وفي اكتوبر من عام ١٨٥٠م/ ١٢٦٦هـ استدعي عبد اللطيف باشا حاكم عام السودان التجار الأوربيين العاملين في الخرطوم ليحثهم علي تنظيم بعثات تجارية لجلب العاج من مناطق الجنوب، وكان قبل ذلك قد أعلن عن احتكار الحكومة لتلك التجارة. أعلن الحاكم للتجارة أن الحكومة ستأخذ ثلث ما يجلبونه من عاج. كان الشيخ أحمد أبو سن مع الحاكم حين أعلن ذلك، وبدا أن الحكومة تعتمد علي ولاء الشيخ أحمد وزعماء قبيلته في الحفاظ على استقرار الأوضاع فيما أقبل من سنوات. تمت ترقية شيخ عبد القادر إلى رتبة «معاون الحكمدارية»، والتي كانت تعني عمليا وظيفة نائب الحاكم العام، بينما أنعم علي أحمد أبو سن برتبة البكوية.

أورد الرحالة الأميركي جيمس هاملتون أن عوض الكريم أكبر أبناء الشيخ أحمد أبو سن دعاه وهو في طريقه من كسلا للخرطوم عام ١٨٥٤م/ ١٢٧٠هـ لمقابلة والده في رفاعة. كتب الرحالة الأميركي عن الشيخ أحمد أبوسن وعن حضوره الطاغي وطوله الفارع وكتب يقول في كتابه عن تلك الرحلة والصادر في ١٨٥٧م: «وجدت الشيخ باسق القامة مستقيما كعصاة، وله عينان حادتان النظر ولحية بيضاء تتدلي إلى وسطه».

ما أن حل عام ١٨٥٦م/ ١٢٧٢هـ حتى انتشر وباء الكوليرا في البلاد. قضي الوباء على الكثيرين ومنهم القيادات السودانية التي زاملت الشيخ أحمد أبو سن، كان الشيخ حينها في السادسة والستين من عمره، وكان الخديوي محمد علي قد مات وخلفه ابنه بالتبنى إبراهيم باشا ومن بعده حفيده عباس الأول (ابن طوسون) ثم محمد سعيد باشا (١٨٥٤ – ١٨٦٣م/ ١٢٧٠-١٢٨٠هـ). قرر محمد سعيد باشا فور توليه سدة الحكم القيام بزيارة شخصية للسودان. فكر الباشا في أمر حكم السودان وهو يهم بالقيام بتلك الزيارة (و التي كان من المؤمل أن تتم في ١٨٥٦م / ١٢٧٣هـ) وبعد أن سمع عن الأخطار التي كانت تتهدد السودان من الحدود الحبشية وعن تناقص أعداد الجنود السودانيين بفعل وباء الكوليرا المنتشر. كل ذلك دعا الباشا لإعادة النظر في مجمل الوجود العسكري التركي في السودان وعن إمكانية إحلال إدارة أهلية محلية محله تكون تحت السيطرة العسكرية المركزية للأتراك تحت إمرة سرعسكر.

كان ذلك التحول المرتقب محل ترحيب من الشيخ أحمد أبو سن وقبيلته، وكان الشيخ يتوقع – بعد خمسة وثلاثين عاما من خدمة الحكم المصري-التركي- وبالنظر إلي خبرته وسنه أن ينال، علي الأقل، منصب حاكم سنار إن لم يظفر بمنصب الحاكم العام في الخرطوم. جرت الأمور بغير ما يشتهي الرجل، إذ أن الخديوي وهو في طريق رحلته الطويلة للخرطوم عبر صحراء العتمور هاله ما رأي وقر رأيه علي إجلاء كل المسئولين الأتراك من السودان، وعلى التوقف في الخرطوم فقط لتلاوة وإقرار دستور جديد. وفي تغيير لرأيه مجددا قرر الخديوي أن يعين أرمنيا مسيحيا هو أركيل بيه الأرماني (٣٠ عاما) كحاكم عام للخرطوم وسنار، وأن يقسم السودان لأربعة أقاليم تكون تحت الإشراف العام لابن الخديوي أحمد والذي يشغل منصب وزير الداخلية في القاهرة. لم يقبل الشيخ أحمد أبو سن بهذا الأمر، إذ أنه كان لا يري أن اختيار شاب مسيحي غريب أمرا موفقا، وأعلن صراحة عن معارضته لهذا الاختيار، وعن تأييده للمفتي إبراهيم عبد الدافع في اعتراضه علي اختيار الشاب المسيحي ليحكم مسلمي السودان. غضب أركيل من رفض شيخ أحمد أبو سن لقرار تعيينه فمضي في موكب ضخم نحو شمال البطانة لمواجهة شيخ أحمد. أعد شيخ أحمد موكبا مهيبا من فرسان الشكرية للقاء أركيل. كتب إستيفان رايشموث عن أن وضع سلطة شيخ أحمد كان مهزوزا إذ أن أبناء إخوته وخليفته من بعده الناظر محمد كانوا في الجانب الآخر! لم يسفر اللقاء عن أي حل للمشكلة والتي كانت تنبع أساسا من كون أركيل مسيحي الديانة وليس من المألوف أن يحكم رجل مسيحي قوما مسلمين.

ظل أركيل في الحكم رغم معارضة شيوخ القبائل له خاصة من الزبير ولد شيخ عبد القادر الزين ومن التجار المحليين والذين ضاقوا ذرعا بالإصلاحات الضريبية التي فرضها الحاكم الجديد. لم يثن ذلك أركيل عن القيام بمحاولات جادة للتخفيف من فساد الموظفين الحكوميين وعبء الضرائب على الفقراء ومنع التعذيب والسجن دون محاكمة. كل ذلك وجد قبولا من عامة الناس فأسموه تحببا «العادل». لم يعمر حكم أركيل طويلا فلقد مات الرجل في ١٨٥٨م/ ١٢٧٥هـ بسبب مرض الدوسنتاريا.

اهتزت سلطة أحمد بيه أبو سن كثيرا نسبة لمعارضته لمعارضته قرار الخديوي تنصيب أركيل حاكما، وبسبب ما أشيع أن أحمد بيه كان على اتصال سري بإمبراطور الحبشة ثيودور الثالث والذي كان يهدد بغزو السودان. تم استدعاء أحمد أبو سن والمفتي للقاهرة في ١٨٥٨م/ ١٢٧٤هـ حيثا خضعا للإقامة المنزلية الجبرية لمدة ثمانية عشر شهرا. تم العفو عنهما في ١٨٦٠م/ ١٢٧٧هـ، وفي يوليو من العام الذي أعقب ذلك قابل صمويل بيكر (مكتشف فروع نهر النيل) الشيخ أحمد في شرق البطانة. في

العام التالي (١٨٦٢م/ ١٢٧٩هـ) تم تعيين إسماعيل باشا إبراهيم حاكما لمصر وموسى باشا حمدي كحاكم للسودان. أتى موسى للسودان في أغسطس ومعه تعزيزات عسكرية للدفاع عن السودان ضد الغزو الحبشي المحتمل.

استفاد أحمد بيه أبو سن – وهو في سنوات حياته الأخيرة- من تلك الأحداث. فلقد كان الرجل معروفا لدي موسى باشا حمدي منذ أيام الحملة علي التاكا في ١٨٤٠م/ ١٢٥٦هـ، ومن بعد ذلك حين تم تعيين موسى كحاكم لسنار والخرطوم في ١٨٤١-١٨٤٣م / ١٢٥٧-١٢٥٩هـ. استقبل موسى الشيخ أحمد أبو سن والذي أتاه لتقديم فروض الولاء والطاعة، بكل احترام وتقدير، وأصدر أمرا بتعيينه محافظا للخرطوم وسنار في ١٨٦٢م/ ١٢٧٩هـ. تنازل بعدها شيخ أحمد عن نظارة الشكرية لأخيه الأصغر علي عوض عبد الكريم. مما سيسجله التاريخ أحمد بيه أبو سن عونه المقدر لموسي حمدي في حملته إلى مناطق فازوغلي وفي عونه لآدم باشا العريفي في حملته للدفاع عن كسلا أثناء تمرد عام ١٨٦٥م/ ١٢٨٢هـ، وعن تدبيره في رفاعة لزواج ابنه الأكبر عوض الكريم من ابنة كبير الهمج. كذلك واجه أحمد أبو سن صراعا حول نظارة القبيلة من الشكرية في شرق البطانة من الحفدة المباشرين لشيخ محمد عوض الكريم أبو سن، بيد أنه نجح في الاحتفاظ بالنظارة في نسله. عند بلوغه الثمانين في عام ١٨٦٩م/ ١٢٨٦هـ سافر مرة أخرى للقاهرة من أجل حضور افتتاح قناة السويس بيد أن المنية وافته أثناء تلك الرحلة.

شيخ عوض الكريم أحمد والمهدية (١٨٧٢ – ١٨٩٨م):

تم بعد تعيين أحمد بيه أبو سن حاكما لسنار والخرطوم في عام ١٨٦٢م/ ١٢٧٩هـ تنصيب علي عوض الكريم، الأخ الأصغر لأحمد بيه كناظر للشكرية.

بعد فصل أحمد بيه ممتاز (الحاكم العام للخرطوم) من الخدمة في عام ١٨٧٢م/ ١٢٨٩هـ، تم تعيين عوض الكريم أحمد بيه أبو سن كمعاون للحاكم ثم باشا وفي ١٨٧٤م/ ١٢٩١هـ وعقب موت أخ أحمد بيه الأصغر علي عوض الكريم، فلقد صار علي أحمد (أخ عوض الكريم أحمد الأصغر) ناظرا لقبيلة الشكرية.

لم يكن أحمد ممتاز باشا ذا نفع للشكرية، إذ لم يفلح في حمل القبائل القاطنة علي ضفاف نهر أتبرا علي الهجرة نحو دلتا القاش، بيد أن الرجل كان شديد الإيمان بأهمية الزراعة واستغلال أراضي النيل الأزرق لزراعة القطن في مناطق القضارف حيث قام في عام ١٨٧٥م/ ١٢٩٢هـ بقيادة حكمدارية الخرطوم بشراء ١٠٠٠ وحدة من القطن الخام لحلجه وإرساله لبربر. رغم أن سنوات ١٨٧٢م/ ١٢٨٩هـ

و١٨٧٥م/ ١٢٩٢هـ كانت شحيحة الأمطار، فلقد كانت سنوات السبعينات – علي وجه العموم– سنوات سمان للشكرية تزايدت فيها قطعان الحيوانات وازدهرت الزراعة. قام الجنرال غوردون باشا حاكم عام السودان في احدي زياراته النادرة لشرق السودان في عام ١٨٧٧م/ ١٢٩٤هـ بمقابلة الناظر علي أحمد أبو سن في القضارف بعد أن التحق بركب غوردون – دون علمه– في موكبه المتجه لكسلا التي تبعد نحو مائة وعشرين ميلا.

بعد عامين علي استقالة غوردون باشا الأولي كحاكم عام السودان في سبتمبر من عام ١٨٧٩م/ ١٢٩٦هـ كان المهدي قد استقر في جبل قدير بعد أن نجح في القضاء على حملة حكومية أرسلت لمحاربته من فشودة. وفي الفترة ما بين إزاحة خليفة غوردون باشا محمد رؤوف باشا ووصول عبد القادر حلمي باشا للخرطوم في مايو من عام ١٨٨٢م/ ١٢٩٩هـ قام عوض الكريم باشا أبو سن من مقر إقامته في سنار بإظهار سلطته فقام وبرفقته أعداد كبيرة من فرسان الشكرية ونحو عشرين من أبنائه وأقربائه بالسير نحو جيجلر باشا المسيحي والانضمام لحملته. وصفهم جيجلر بأنه كانوا يرتدون «زي محاربي القرون الوسطي بدروعهم وخوذاتهم الحديدية»، نجحا معا في هزيمة التمرد المهدوي الذي هدد «أبو حراز»، وبذا أمنا سنار من جيش المهدي، بعد وصول عبد القادر باشا تخلى الشيخ عوض الكريم عن منصبه الحكومي وعاد لمواصلة مهامه كناظر للشكرية.

بعد سنوات قليلة من تلك الأحداث واجه الشكرية معضلة عظيمة أدت لانقسام حاد في أوساط «آل أبو سن»، خاصة محمد وأحمد أبناء عوض الكريم أبو سن، بدأت إرهاصات الخلافات مع استيلاء الحكم التركي في مصر علي السودان في ١٨٢١م/ ١٢٣٦هـ. عززت هزيمة المهدي لحملة هكس باشا في الأبيض في نوفمبر ١٨٨٣م/ ١٣٠١هـ من قناعات الحكومة البريطانية بضرورة تعضيد الانسحاب المصري من السودان، فلقد قرر غوردون إخلاء بربر في ١٢ فبراير ١٨٨٤م/ ١٣٠١هـ والاعتراف بالمهدي كسلطان علي كردفان. كل ذلك كان مما شجع المهدي للتقدم نحو الخرطوم.

لم يكن عوض الكريم أبو سن في الخرطوم وعلي أبو سن في رفاعة وعبد الله أبو سن في القضارف علي رأي واحد (ليس مؤكدا أن كان عبد الله هو الأخ الأصغر أو ابن عوض الكريم عبد الله أبو سن)، ولكن يقال إن انشقاق ولجوء عبد الله إلي المهدي في الأبيض كان برضا (بل وبإيعاز) عوض الكريم باشا (والذي عاد الآن

لتولي نظارة قبيلته). رأي عبد الله (ومعه آخرين) أن انحياز عبد الله للمهدي يوفر فرصة ذهبية للتفاوض والتسوية السلمية مع المهدي، وفي ذات الوقت يبرر ويحافظ علي نظارة عوض الكريم أبو سن للشكرية وولائه للحكومة المصرية وتعاونه مع خطط غوردون الرامية لإخلاء السودان.

أعلن غوردون بعد وصوله للخرطوم في فبراير من عام ١٨٨٤م/ ١٣٠١هـ عن «فرمان» الخديوي بخصوص إخلاء السودان وتعيين مجلس للأعيان لتولي إدارة البلاد. جرت محاولات لإقناع الشيخ عوض الكريم أبو سن بتولي رئاسة ذلك المجلس، بيد أن غوردون كان قد بعث برسالة تلغرافية لبريطانيا يشدد فيها على أن الاختيار الأمثل لرئاسة ذلك المجلس هو الزبير باشا منصور رغم رفض الزبير (المقيم في مصر) لذلك العرض. كرر غوردون القول بأن الزبير هو «الوحيد الذي بمقدوره أن يحكم السودان وأن يظفر بقبول كل الناس». يبدو أن غوردون لم يلق بالا لمن كانوا يدعونه للجلاء عن البلاد فورا وتنصيب شيخ عوض الكريم حاكما (كما يزعم آل أبو سن) والذي كان يؤمل في استسلام المهدي بوساطة أخيه عبد الله الذي انضم للمهدي في الأبيض، لاسيما وأن غوردون كان يعرف عوض الكريم منذ أيام كان «حكمدار» في أعوام ١٨٧٧- ١٨٧٩م/ ١٢٩٤-١٢٩٦هـ. قد تكون «العجلة من الشيطان» بيد أن غوردون كان قد حزم أمره في من يراه صالحا لحكم السودان قبل وصوله الخرطوم. أصر غوردون على إرجاع الزبير باشا لحكم السودان، بيد أن الحكومة البريطانية لم توافق علي رأيه وأعلمته بذلك في الثاني والعشرين من فبراير ١٨٨٤م/ ١٣٠١هـ.

بعد نحو شهر من وصول غوردون للخرطوم قامت قوات المهدي بقطع طريق الهرب شمالا في حلفا، وأرسل المهدي نسيبه إلي قبائل النيل الأزرق للثورة ومهاجمة حامية المسلمية الحكومية. كانت تلك المنطقة من أقدم وأثرى مناطق نفوذ الشكرية مما دفع بعوض الكريم أبو سن للتهديد بأنه إذا ما لم يقم غوردون بالاستجابة الفورية لقائد حامية المسلمية المصري لتعزيز حاميته فإنه سوف يأخذ الأمر بيده وينحاز مع قبيلته لجيش المهدي. ولم يكن وحده في ذلك الأمر، فلقد كان يحظى بتأييد مجلس الأعيان. أرسلت بالفعل تعزيزات لحامية المسلمية بيد أن ذلك لم يمنع سقوطها بعد شهرين بعد أن استسلم قائدها المصري لجيش المهدية. كذلك استسلمت القضارف للأمير عبد الله عوض الكريم أبو سن.

سقطت الخرطوم في أيدي القوات المهدية في السادس والعشرين من يناير ١٨٨٥م/ ١٣٠٢هـ. نجح شيخ عوض الكريم في الهرب في الوقت المناسب ولجأ إلي ريرة في البطانة، تاركا لأخيه الأصغر عبد الله أبو سن مهمة استسلام قبيلة الشكرية

للمهدي. في الثاني والعشرين من يونيو من عام ١٨٨٥م/ ١٣٠٢هـ قبض المهدي وخلفه عبد الله التعايشي. استدعي الخليفة عبد الله شيخ عوض الكريم باشا للعاصمة ولتقديم فروض الولاء والطاعة له، بيد أن عوض الكريم أعرض عن الاستجابة، فقام الخليفه باعتقاله وسجنه في أم درمان. ظل الشيخ سجينا إلى أن مات في ١٨٨٦م/ ١٣٠٤هـ.

أجبر الخليفة عبد الله الأمير المهدوي عبد الله أبو سن (الأخ الأصغر لعوض الكريم) علي البقاء مع عائلته الصغيرة في أم درمان. غدت أرض الشكرية الغنية «سلة غذاء» الدولة المهدية، بينما خبا نجم القبيلة. عين الأمير عبد الله ملازما للأمير محمود ود أحمد في معركته ضد كتشنر في أتبرا والتي انتهت بانتصار كتشنر في أبريل من عام ١٨٩٨م/ ١٣١٥هـ. وخلافا لمصير قائده، فلقد نجح الأمير عبد الله أبو سن في الانسحاب إلى القضارف حيث انضم لقائدها الأمير أحمد فضل والذي واصل النضال ضد الغزاة حتى بعد استيلائهم على أم درمان. بعد مقتل الخليفة عبد الله وجد عبد الله أبو سن نفسه في حل من ولائه للمهدية فاستسلم للمتصرين في عام ١٩٠٢م/ ١٣٢٠هـ واعترف به الحكم البريطاني المصري كناظر لقبيلة الشكرية. عند موته في ١٩٢٣م/ ١٣٤١هـ خلفه ابنه الأكبر عوض الكريم.



رحالة يهودي في ضيافة سلطان الفونج عمارة دنقس (١٥٢٣م)

جبيرل واربورق

تقديم: السطور التالية هي ترجمة مختصرة لجزء من مقال بقلم جبريل واربورق عن حدث نادر في تاريخ السودان والمنطقة بشكل عام ألا وهو زيارة مغامر أوربي يهودي الديانة لمملكة الفونج ولسلطانها عمارة دنقس. والمقال منشور في مجلة دراسات السودان (التي تصدر في بريطانيا) في عددها رقم ٣٤ في يوليو ٢٠٠٦م، كان قد قدم أيضا في المؤتمر السنوي للجمعية الدراسات السودانية في جامعة جورج تاون في صيف ٢٠٠٣م. كانت تلك الزيارة موضوعا لمقال مشهور بقلم باحث إنجليزي اسمه إس .هيللسون في مجلة «السودان في مذكرات ومدونات» نشر عام ١٩٣٣م.

شد اليهودي المغامر ديفيد روبيني (روفيني) الرحال إلي سنار للقاء سلطان الفونج عمارة دنقس عام ١٥٢٣م. كان أمرا مثيرا للدهشة أن يزور رحالة أوربي تلك السلطنة الإفريقية البعيدة العصية القياد، والتي لم تثر اهتمام أي رحالة أوربي أو من دولة أخرى. أتي ديفيد إلي سنار قادما من مكة، وهو أمر مثير للغرابة إذ أن الرجل لم يكن مسلما.

من حسن الحظ أن ديفيد روبيني احتفظ بيوميات ضافية عن مغامرته تلك كتبها بلغته العبرية. حفظت أصول تلك المذكرات في أكسفورد، بيد أنها اختفت في عام ١٨٦٧م. وبعد عقدين من ذلك التاريخ قام نيوباور في أكسفورد بتحرير ونشر بعض نصوص تلك اليوميات. لم يكن معلوما تماما عما إذا كان ديفيد روبيني يهوديا ألمانيا (كما زعم نيوباور) أو أن المخطوطة التي تركها لم تكن إلا تسجيلا خطيا لشهادة شفهية أدلي بها الرجل بلغة أخرى وسطرها يهودي ألماني بلغته.

لم يهتم إس .هيللسون بكون أن ديفيد روبيني مغامر ودعي، أو أنه كان عضوا في حركة شلومو مولوخو المسيانية اليهودية Shlomo Molcho's Jewish messianic movementكما زعم مؤرخ يهودي بارز هو جراتز، بل انصب جل إهتمامه علي التأكد من صحة ما رواه ديفيد في وصفه لسنار ومملكة الفونج، وعما إذا كانت بحق تعد إضافة إلي ما هو معلوم سلفا عن تلك البقاع.

لفهم يوميات ديفيد روبيني جيدا يجب أن نضعها في إطارها ومضمونها التاريخي

الصحيح. ينبغي كذلك ملاحظة أنه وعقب محاكم التفتيش الإسبانية ونفي اليهود من مملكة فيردناند وإيزيبيلا قامت حركات يهودية عديدة في أوساط يهود الشتات، خاصة في البرتغال وإسبانيا وكذلك في أوساط اليهود الذين بدلوا دينهم بالمسيحية (وعرفوا بالمارون). لم يعلن ديفيد أبدا عن أنه مسيحي، إلا أنه ارتبط بصورة ما ببعض تلك الحركات اليهودية وبخاصة بجماعة شلومو مولخو. كانت تلك فترة صراعات دينية وثقافية في أوروبا، خاصة بعد طرد المسلمين من غرناطة بإسبانيا في عام ١٤٩٢م Kلذا فلقد سادت حينها تطلعات عند بعض الأوربيين للتمدد شرقا بغرض إزاحة الإسلام من بعض تلك المناطق، وللحصول علn عون الإسبان والبرتغاليين في إعادة تحقيق حلم اليهود بإعادة توطينهم في أرض أجدادهم الأول.

لم يلتفت إس. هيللسون في ورقته الشهيرة عن ديفيد روبيني إلي المواضيع الخلافية في أصل ديانة الرجل، بل ركز علي زيارته لسنار وقرر أن معلومات ديفيد عن سنار في عام ١٥٢٣م تبدو دقيقة ولم تكن لتتأتي له دون أن يكون قد ارتحل شخصيا إلي ذلك الصقع. سافر ديفيد إلى سنار منتحلا شخصية شريف من مكة (أي من نسل النبي محمد). يفسر ذلك الحفاوة الكبيرة والشرف العظيم الذي أسبغه الناس عليه في مملكة الفونج الحديثة العهد بالإسلام، وكان عمارة دنقس يعامله وكأنه «قديس.»

زعم ديفيد روبيني أنه ابن للملك سليمان وأخ للملك جوزيف والذي كتب عنه أنه « يحكم في مملكته في صحراء «خابور» (خيبر) khabor (بلاد العرب؟) نحوا من ٣٠٠٠٠٠ نسمة ينتمون لثلاث من «القبائل اليهودية العشرة الضائعة». زعم ديفيد أن أخاه الملك جوزيف قد أمره بالتوجه إلى روما للقاء البابا. يكتب الرجل أنه ترك من كانوا معه وقطع ضحراء «خابور» وحل في جدة بعد مسير عشرة أيام. بعدها ركب ديفيد روبيني البحر الأحمر على ظهر مركب صغير رسا به في سواكن في أرض «كوش» حيث اكتري لنفسه دارا أقام بها شهرين متتابعين مع خادمه العجوز الأبكم الأصم. إلتحق الرجل بقافلة تجارية مكونة من ثلاثة آلاف من الإبل متوجهة لشيبا (سبأ Sheba) واستغرقت الرحلة شهرين كاملين. عند وصوله قابل ديفيد روبيني الملك عمارة دنقس (١٥٠٤ – ١٥٣٣م).

سجل ديفيد في يومياته أن عمارة دنقس يسكن علي النيل ويسمي مملكته شيبا وعاصمتها لامول؟(Lam'ul) ، وهو رجل أسود اللون يحكم أناسا سودا وبيضا. ذكر هيللسون في مقاله عن ديفيد في مجلة «السودان في مذكرات ومدونات» المنشور عام ١٩٣٣م أن لامول هذه تقع على النيل الأبيض على بعد مسيرة ثمانية أيام جنوب سنار.

قدم ديفيد نفسه لعمارة دنقس علي أنه «شريف من مكة»، فغمره بهدايا عديدة وأجزل له العطاء ومنحه الكثير من الرقيق .امتنع ديفيد عن قبول الهدايا وقال لدنقس : إنه إنما جاء لمملكته بغية التعرف على مباهجها وليس من أجل غرض آخر.

قضى ديفيد روبيني عشرة أشهر في ضيافة عمارة دنقس في لامول، حزم بعدها حقائبه علي عجل مع خادمه العجوز وسافر إلى سنار والتي وصلها بعد مسيرة ثمانية أيام. قيل: إن السبب في رحيل ديفيد العجول هو وصول «شريف مكي» ثالث أسر لعمارة دنقس بأن ديفيد رجل يهودي ومحتال دعي.

كانت لهجة ديفيد روبيني العربية هي لهجة المغرب العربي وليست لهجة أهل المشرق. عزز ذلك من شكوك الفونج في دعوى الرجل من أنه من «أشراف مكة». في سنار قابل ديفيد وكيل الملك واسمه عبيدة (هكذا). زود الرجل ديفيد بخادم آخر وثلاثة من الإبل، ورافقه في رحلة إلي الشريف أبو كمال في سوبا عاصمة مملكة علوة التي كانت مسيحية قبل قيام سلطنة الفونج. عند وصول ديفيد لسوبا كانت المدينة أطلالا مخربة. حكي الرجل عن لقائه بأبي كمال فكتب في يومياته:

«قابلني أبو كمال وبادرني بالقول « كيف تأتي من الملك خالي الوفاض من الهدايا والعبيد؟ ستبقي أنت هنا، وسأسافر للملك وأطلب منه نيابة عنك هدية من العبيد ». وافقت على العرض ، بيد أنني رأيت في منامي تلك الليلة والدي الراحل يحذرني من أبي كمال ويأمرني بمفارقته وإلا سألقي حتفي دون ريب.» وهكذا فما أن أصبح الصبح حتي رحل ديفيد من سوبا دون انتظار أوبة مضيفه.

اتجه ديفيد روبيني من سوبا (والتي ذكر هيللسون أنها تقع علي بعد ١٦٥ ميلا شمال سنار) شمالا عبر مملكة الجعليين. وصل إلي «جبل التقي؟) «Ataqqi ذكر هيللسون أنه لم يستطع الإستعراف علي تلك البلدة) حيث قابل حاكمها واسمه عبد الوهاب. واصل ديفيد رحلته إلى دنقلا حيث اشتري لنفسه عبدا آخر. رافقه عبد الوهاب حتي طرف الصحراء وإلى أن وصل النيل حيث يقطن أعداء عمارة دنقس. رحب هؤلاء بديفيد واحتفوا به. آب عبد الوهاب لبلدته وترك ديفيد مع مستضيفيه الجدد من كبار رجال «الإسماعيلية» والذين وعدوه بإيصاله لمصر في أمان.

من ما يستوجب النظر فيما سطره ديفيد روبيني في يومياته أثناء إقامته مع مستضيفيه الجدد (من المصريين؟) أن وفدا من قبيلتين من «القبائل الإسرائيلية الضائعة» زاره وأهدى له زوجا من أشبال الأسود (يقول هيللسون أن ما يورده ديفيد

عن «القبائل الإسرائيلية الضائعة» إن هو إلا محض أساطير ذاعت في تلك الأيام). أخبر كبير رجال «الإسماعيلية» ديفيد أنه رتب له مرافقة قافلة تجارية مغادرة لمصر إذ أنه يري أنه من الخطورة بمكان أن يسافر لمصر في رفقة عبدين فقط. في ذات اليوم هرب خادمه الجديد فأبي ديفيد السفر لمصر دون عبده الآبق حتى في رفقة آمنة وسط قافلة كبيرة. طلب من كبير القوم البحث عن خادمه الهارب فعثر الرجل عليه وأعاده لسيده ولكنه ترجاه أن يعفو عنه ولا يؤذيه .كتب ديفيد أنه ما أن أعطاه الرجل ظهره حتى قيد العبد بسلاسل الحديد حول عنقه وقدميه!

في الرابع عشر من كسيليف (أكتوبر) عام ١٥٢٣م عبر ديفيد روبيني ورفاق رحلته الصحراء ووصل ريف مصر مع مرشد له يسمى شالوم. قضى ديفيد أياما في بيت مرشده إلى أن تم تجهيز مركب نهري له حمله إلى القاهرة.

تعليق المؤلف علي اليوميات:

في ما عدا ما سطره ديفيد روبيني عن زيارته لعمارة دنقس ومقابلته للبابا في روما، والتي يبدو أنها دقيقة إلي حد بعيد، فإن مخطوطة ديفيد تخلو من أي شيء مثير للاهتمام. تجدر الإشارة إلي أن عالم في القدس (هو أ .إشكولي) ذهب في مقال له عام ١٩٣٨م إلي أن كل ما سطره ديفيد روبيني إنما هو من نسج خياله ومنقول مما هو مكتوب حينها عن تلك المناطق. أضاف أيضا أن ما قيل أنه ديفيد روبيني سجله في يومياته إنما هى مخطوطة مزيفة تم وضعها لأسباب سياسية محضة. ذكر آخر أن أغراض ديفيد روبيني من رحلته تلك كانت سياسية وعسكرية منها شراء أسلحة وتدريب اليهود المنفيين من إسبانيا والبرتغال، وإرسالهم شرقا عبر القرن الإفريقي لمحاربة الأتراك. ذكر بعض المؤرخين أن ديفيد روبيني قابل الملك يوحنا الثالث في الحبشة وطلب منه تعبئة أحباش اليهود ومدهم بالأسلحة البرتغالية من أجل القتال في سبيل وطنهم وأرض أجدادهم التاريخية. عد بعض المؤرخين ذلك القول بأنه أحد «أحلام» ديفيد.

ثار جدل كثير وسط المؤرخين حول نهاية ديفيد روبيني. قيل :إن الرجل قد تم إعدامه حرقا بناء علي أوامر محكمة في إسبانيا في الثامن من سبتمبر ١٥٣٨م. كان الرجل نتاجا طبيعيا لعصره. كان مثالا لليهودي الذي كان يتوق لإعادة اليهود لأرض أجدادهم التاريخية وإنقاذهم. قد يفهم من أن ما قام به من ادعاءات وانتحال لشخصيات إنما هي «أحابيل» قصد منها تحقيق حلمه «المقدس». ولعله قصد من حكاية القبائل اليهودية العشرة الضائعة التي كان يروجها يهود إثيوبيا والذين تلف أصولهم غلالة كثيفة من الشكوك.

جون بيثريك: أول بريطاني يقيم بالسودان

جون أودال

تقديم: هذا مقال طويل (يقع في نحو ٢٧ صفحة) للمؤرخ البريطاني (المتخصص في شؤون السودان) جون أودال. نشر المقال في مجلة «دراسات السودان» (العدد ١٧ الصادر في عام ١٩٩٥م)، وهو يوثق لحياة الرحالة البريطاني جون بيثريك (١٨١٣م – ١٨٧٧م)، والذي يعد أول رجل بريطاني يقيم بصورة متصلة في السودان لمدة تزيد على سبعة عشر عاما. حاولت في هذا المقال القيام باختصار (أرجو ألا يكون مخلا) للمعلومات الهامة التي وردت في المقال عن نشاط ذلك الرحالة في الخرطوم وكردفان والجنوب. يصور الكاتب جون بيثريك كرجل شريف، ومكتشف حصيف، وتاجر أمين، كان مبلغ همه محاربة تجارة الرقيق في جنوب السودان، وهذه من الأمور التي يشتد فيها الخلاف بين المؤرخين، كل حسب ملته ومذهبه وأيديولوجيته وطرائق تفكيره ، والتاريخ «حمال أوجه» على كل حال!

وصل جون بيثريك للسودان لأول مرة في مارس من عام ١٨٤٧م، قادما من مسقط رأسه مقاطعة ويلز، وكان حينها في الثانية والثلاثين من عمره. كان الرجل قد التحق بخدمة الخديوي محمد علي قبل ذلك التاريخ بعامين كمهندس في مجال التنقيب عن المعادن في منطقتي سيناء ومصر العليا. لم يصادف نجاحا كبيرا في مهمته تلك، فنقل إلى منطقة كردفان للتنقيب عن الحديد. وخلا عامين قضاهما في عطلة طويلة في ويلز (بين يوليو ١٨٥٩م – نهايات ١٨٥٩م)، فقد ظل الرجل مقيما في السودان حتى مغادرته النهائية له في أكتوبر من عام ١٨٦٤م، أي أنه قضى سبعة عشر عاما ونيف مقيما بالبلاد في الفترة الممتدة بين عامي ١٨٤٧م و١٨٦٤م لم يكن الرجل بالطبع أول بريطاني يجيء للسودان، فقد سبقه عدد من الرحالة منهم جيمس بروس (١٧٧٢م) ووليام براون (١٧٩٣م – ١٧٩٦م) ولورد برود هو والميجور فليكي (١٨٢٩م) (ذكر المؤلف هنا أسماء رحالة آخرين. المترجم).، وباستثناء وليام براون (والذي ترجمنا عنه مقالا بعنوان «أول أوروبي يزور دارفور». المترجم) ليس من بين أولئك الرحالة من يمكن وصفه بالمقيم في البلاد. لا يمكن وصف ما قام به جون بيثرك (الأوروبي الشمالي) من إقامة طويلة واحتمال صبور لمشقات السفر وصعوبات العيش في سودان منتصف القرن التاسع عشر، إلا بأنه إنجاز ضخم، لا يدانيه سوى ذلك الذي

أنجزه بعض الرحالة الفرنسيين في تلك الفترة.

كردفان (١٨٤٧م – ١٨٥٤م): دخل جون بيثريك السودان عبر صحراء العتمور على ظهر جمل قادما من كورسكو (غمرت الآن ببحيرة ناصر)، ومر بآبار «مرات» ثم بأبي حمد عند المنحنى الشمالي للنيل تحت مدينة بربر. مكث في الخرطوم أسبوعا قبل أن يتحرك بمحاذاة الضفة اليسرى من النيل الأبيض إلى «تور الخضرا»، ثم يتجه شرقا عبر الصحراء إلى كردفان عبر «أبي قرض». قابل في بارا حكمدار الإقليم مصطفي باشا الجريدلي، والذي أحسن وفادته وساعده، خاصة خلال عامه الأول الذي قضاه في البحث عن مناجم للحديد. لازم جون بيثريك الفراش في صيف ١٨٤٨م مريضا بالملاريا في الخرطوم، وتصادف أن كان ذلك العام هو ذات العام الذي نقل فيه صديقه مصطفي باشا الجريدلي، واستبدل بحاكم مستبد هو موسى حمدي، ومرض فيه محمد علي باشا وحل محله إبراهيم باشا. واصل جون بيثريك عمله في التنقيب عن الحديد لعام آخر، وكانت تلك فرصة طيبة له ليواصل عمله وليدرس الحياة السودانية عن كثب، مستعينا في ذلك بصديق فرنسي الجنسية لقيه في كردفان اسمه جورج ثيبوت (G.Thibaut) كان يعمل قنصلا لفرنسا في السودان، وأيضاً تاجراً للصمغ العربي. حيث أن كان احتكار الحكومة لتلك التجارة، قد توقف في تلك السنوات، مما فتح الباب على مصراعيه للتجار الأوروبيين للمتاجرة في تلك السلعة الهامة وفي غيرها أيضا.

شجع هذا صاحبنا جون بيثريك لاقتحام هذا المجال، واستغل الرجل علاقاته المتميزة ببعض ذوي النفوذ في بريطانيا، فتم تعيينه قنصلا فخريا في السودان، وكانت مهمته الرئيسة هي الحفاظ على مصالح البريطانيين الموجودين في السودان، إضافة لعمله الشخصي كتاجر صمغ عربي. رجع جون بيثريك لكردفان في أكتوبر من عام ١٨٤٩م ليبدأ عمله كرجل أعمال في ظل وضع يؤثر سياسية الاحتكار (رغم إلغائها رسميا). زاد الأمر سوءا تعيين عبد اللطيف باشا حكمداراً للخرطوم، وكان (مع موسى حمدي) من المؤيدين للسياسة الهادفة لاحتكار الحكومة لتجارة الصمغ العربي. تم فصل موسى حمدي من الخدمة لقسوته المفرطة مع البقارة الحوازمة ، واستخدم البريطانيون نفوذهم السياسي والعسكري لفرض «حرية التجارة» ومنع احتكارها، وتم استدعاء عبد اللطيف باشا لمصر.

لا نعلم الكثير عن نشاط جون بيثريك في الفترة بين ١٨٥٢م – ١٨٥٣م غير أنه كتب للإنجليزي «ميري» قنصل بريطانيا في مصر عن رغبته في السفر جنوبا على النيل

الأبيض إلى منطقة « باريا» لشراء العاج، بيد أنه لم يفعل، ويبدو أنه مكث تلك الفترة في «الأبيض» ملازما للفراش بين حين وآخر من أثر الحمى. سجل في كتابه الذي ألفه إبان عطلته الطويلة في بريطانيا (١٨٦١م) والذي أسماه «مصر والسودان وإفريقيا الوسطى» أنه قضى في «الأبيض» خمسة أعوام عندما باتت تجارة الصمغ العربي حسب قوله «مشلولة بسبب منافسة الأهالي، وغدت غير مربحة»!

الخرطوم (١٨٥٤م – ١٨٥٦م): قبل هطول الأمطار في ١٨٥٤م غادر جون بيثريك جنوب السودان (منطقة السوباط) متجها للخرطوم لتولي مهام عمله كقنصل لبريطانيا في السودان. صادفت تلك الأيام أن تم عزل حكمدار الخرطوم علي باشا سري بدعوى أنه كان قد طلب رشوة مالية من شيخ في بربر، وتم حبسه في منزله، وتعيين علي باشا جركس مكانه. قدم تجار الخرطوم من العرب والأوربيين عريضة تطلب إطلاق سراح علي باشا سري، وإعادة تعيينه في منصبه، وطلبوا من جون بيثريك المساعدة في تقديم الطلب لقنصل مصر. استجاب الرجل لطلبهم، بل وعضد طلبهم بالإشادة بعلي باشا سري، والقول انه ممتعض من الطريقة التي عزل بها. استغل علي باشا سري ذلك التعاطف فأرسل للديوان السلطاني في مصر مكتوب جون بيثريك، وعليه ختم الحكمدار.

عندما تقرر إلقاء القبض على علي باشا سري تمهيدا لتقديمه للمحاكمة، لجأ إلى دار القنصل جون بيثريك ، والذي تهور بقبوله واستضافته، بل بتأجير بيت له دون أن يستشير رؤساءه في مصر، ودون معرفة من يساند علي باشا سري، ومن يقف مع الحكمدار الجديد علي باشا جركس. تطورت الأمور بسرعة، وسرعان ما وجد جون بيثريك بيته ذات ليلة محاطا بثلة من الجنود مطالبين بتسليم علي باشا سري، ففعل، ولم يلق أحدا بالا لغضبته من ما حدث، وعلى احتجاجه لإهانة العلم البريطاني. تلقى خطابا من القنصل في مصر يلومه فيه على تدخله بين الحكمدارين، وعلى حمايته لمن عزل منهما، وأمره ببناء علاقات طيبة مع المسؤولين المحليين كي يستطيع مواصلة عمله التجاري. بيد أن التجار قاطعوه، فلم يجد من يتعامل معه في تجارته.

لعق الرجل جراح الإساءة المذلة، وعاود تجارته في العاج، وقاوم قانوناً أصدره الحكمدار بفرض ضريبة تبلغ ١٠٪ على شحنات العاج المرسلة لمصر، وساند رئيس البعثة الطبية الحكومية في الخرطوم (د/ ألفريد بنسي) في سعيه لتحرير عبدتين سوداويين كانتا في منزل تاجر أوربي اتهمهما بالسرقة. سانده الحكمدار علي جركس في البدء ثم اشتكاه لمصر، فاستلم بعد حين خطابا ناريا من قنصل بريطانيا في مصر يلومه على تدخله فيما لا يعينه، ويطلب منه التزام جانب الحكمة، وعدم التدخل بين

أي أجنبي وعبد. سافر بعد ذلك جون بيثريك إلى الجنوب في ١٨٥٦/١/٥م مع وكيله التجاري في السوباط «حبشي»، ثم عاد مرة أخرى في ١٨ مايو من ذات العام للخرطوم، حيث وجد أن حاكما عاما جديدا قد تم تعيينه.

بحر الغزال (١٨٥٦م – ١٨٨٨م): يفخر جون بيثريك بأنه أول من استطاع من الأوربيين النفاذ إلى بحر الغزال، والإبحار في بحيرة «امبادي» ومشرع الرك (الرنك؟) وجزيرة «كيت» والأراضي التي تقع أمام واو« الحالية على نهر الجور، والوصول أخيرا في ١٨٥٨م للحدود مع بلاد الزاندي ونهر الكونغو. سبق بذلك الرحالة «برن روليت» وزوجته الفرنسية الشابة بأيام قليلة. زعم فيما بعد إن الأسواني على عموري كان قد سبق الأوروبيين الاثنين في الوصول لتك الأصقاع. بالدخول لتلك المناطق (الوعرة) فتح الباب على مصراعيه لاستكشاف بحر الغزال والعمل بالتجارة فيها مع سكانها من القبائل النيلية من دينكا ونوير وليو.

بيد أن ذلك الفتح قد عرض تلك القبائل أيضا لتجار لغزوات تجار الرقيق من الخرطوم. لم يكن جون بيثريك ولا برن روليت ولا غيرهم من الأوربيين من تلك الفئة بالطبع. بل كان دافع جون بيثريك للتجارة في العاج في تلك المناطق هو كسر احتكار الحكومة لتلك التجارة في بحر الجبل وقوندوكورو، ومقاومة تجارة الرقيق. رجع الرجل للخرطوم في يناير من عام ١٨٥٧م حاملا معه كمية ضخمة من سن الفيل، وكان «بروس» في الخرطوم مهتما جدا بسماع روايته عن تمدد تجارة الرقيق في تلك المناطق، وعن « «الزرايب» التي أقامها تجار الرقيق الخرطوميون، وعن تكتيكاتهم المسلحة في بحر الجبل، والتي لقيت مقاومة عنيفة من قبل سكان بحر الغزال.

قام جون بيثريك بجولة ثالثة في بحر الغزال في يناير ١٨٥٨م، حيث توغل هذه المرة جنوبا حتى «مندو» وأقام محطة قوامها ثلاثين رجلا قرب الحدود الجنوبية لأرض الزاندي. وبعد أن غاب عن بريطانيا مدة أربعة عشر عاما كان متشوقا (ومؤهلاً ماليا) للعودة لوطنه.

الخرطوم (١٨٥٦ – ١٨٥٩م): كانت مهمة جون بيثريك في الخرطوم عسيرة في تلك السنوات قبل أن يغادرها في مارس عام ١٨٥٩م. كان يرعى مصالح البريطانيين القليلين الموجودين في الخرطوم وهم في الغالب تجار بريطانيون من مالطا. كان جون بيثريك يقاوم محاولات الحكومة لاحتكار تجارة السلع، وفرض إتاوات باهظة عليها. أثنت عليه الحكومة البريطانية لجهوده في متابعة أمر رحالة بريطاني كان قد فقد في «وداي» (وداي الآن في تشاد. المترجم)، وطلبت منه كتابة تقرير عن إمكانية زراعة

القطن بين النيلين الأبيض والأزرق (مشروع الجزيرة فيما بعد). غادر جون بيثريك الخرطوم متوجها لبلاده في عطلة طويلة في مارس عام ١٨٥٩م ليقضي عامين فيها. خلفه في تجارته في الجنوب رجل قبطي اسمه خليل الشامسي إلياس ميكيل لطف الله (وكان أخا للحبشي الذي كان وكيل جون بيثريك في السوباط)، والذي سرعان ما انغمس في ممارسة تجارة الرقيق بين الدينكا بعد رحيل جون بيثريك.

إنجلترا (١٨٥٩م – ١٨٦١م): وصل جون بيثريك إلى إنجلترا في نهاية يوليو ١٨٥٩م. كان قد سعد بمقابلة الخديوي محمد سعيد قبل ذلك بشهر واحد ، حيث بدا أنه كان قد نجح في إقناعه بفتح طريق كورسكو - أبو حمد التجاري عبر صحراء العتمور، وكان ذلك الطريق قد قفل عشوائيا قبل ذلك بعام، ربما لإخفاء تحركات تجار الرقيق. قابل الرجل المسؤولين في هوايت هول (مركز الحكم في لندن. المترجم) وناشدهم تعيينه كقنصل، إذ أن أداءه لعمله كنائب للقنصل لم يكن بالسرعة المطلوبة، إذ كان يتعين عليه الانتظار لمدة سبعين يوما للحصول على موافقة القنصل البريطاني في مصر. تمت الموافقة على تعيينه قنصلا فخريا لبريطانيا في الخرطوم في مايو من عام ١٨٦٠م.

وصف وزير الخارجية البريطاني جون بيثريك بأن طباعه العربية المتوحشة تناسب «تلك المناطق» أكثر ما تناسب سانت جيمس كورت (لعلها هي منطقة قصر بكنجهام. المترجم). المترجم). دعته الجمعية الملكية الجغرافية لتقديم ورقة عن رحلاته، فعدل عن الرجوع للسودان في نوفمبر ١٨٥٩م كما كان قد قرر آنفا. قابل جون بيثريك الكابتن جون سبيك مكتشف بحيرة فيكتوريا، والذي كان قد أقنع الجمعية الملكية الجغرافية بتمويل رحلة أخرى لإثبات زعمه أن بحيرة فيكتوريا هي منبع النيل الأبيض، وطلب منه مشاركته في تلك الرحلة. تم الاتفاق على أن يبحر جون بيثريك من الشمال للجنوب على النيل، وأن يقوم الكابتن جون سبيك برحلة في الاتجاه المعاكس، على أن يلتقيا في مكان معين اتفقا عليه. جمعت تبرعات بلغت ألفا من الجنيهات الإسترلينية للقيام بتلك الرحلة. أبحر جون بيثريك من ليفربول إلى الإسكندرية في أبريل من عام ١٨٦١م، ولم يكن بمفرده، إذ أنه كان مشغولا بإصدار كتابه الوحيد « مصر والسودان ووسط أفريقيا» ، وبزواجه من كاثرين إيدلمان؛ التي كانت في الثلاثين، بينما كان هو في الثامنة والأربعين من العمر.

اتهم بعض البريطانيين (مثل رفيقه السابق مكتشف بحيرة فيكتوريا الكابتن جون سبيك) وبعض المصريين جون بيثريك في مرحلة لاحقة بالولوغ في ممارسة تجارة الرقيق في منطقة النيل الأبيض، وطفق ذلك الرفيق السابق يشيع بين النافذين في

لندن أن هنالك «مسؤولا حكوميا بريطانيا» (في السودان) يمارس تلك التجارة البشعة إلى أن آتت جهوده أكلها، فتم على إثر ذلك فصل جون بيثريك من وظيفته كقنصل لبريطانيا بالسودان في ٣١/ ١٠/ ١٨٦٣م ، وذلك مراعاة للصالح العام، وبزعم عدم وجود داع لتلك الوظيفة أصلا. تراكمت المصائب على جون بيثريك، فخسرت تجارته، وفقد وظيفته (التي لم يكن يتلقى عنها أجرا)، وشانت سمعته في الخرطوم وفي وطنه أيضا، وتدهورت صحته وصحة زوجته. لم يبق له إلا أن يبيع ما بقى له من متاع، وأن يغادر السودان نهائيا لبلاده.

وصل جون بيثريك وزوجه إلى القاهرة في نهاية نوفمبر من عام ١٨٦٤م، حيث علم أن الخديوي وجماعته يتهمونه علانية بممارسة تجارة الرقيق. ولتبرئة نفسه من تلك التهمة المشينة كلف جون بيثريك أحد المحامين برفع دعوى «رد شرف» ضد الحكومة المصرية، وذلك قبل وصوله للأراضي البريطانية في ٢٧ مايو ١٨٦٥م. عند وصوله إلى لندن بلغه أن أحد الذين اتهموه بتجارة الرقيق (واسمه موسى) مات على أثر إصابته بمرض التيفوس، والذي أدخله هو بنفسه للخرطوم عندما جلب للمدينة ٨٥٠ من الرقيق الهزيلين المصابين بذلك المرض المعدي.

شغل جون بيثريك نفسه في لندن بمحاولة تحسين صورته التي شوهها تصويره كتاجر رقيق، وبمحاولة الحصول على تعويضات مادية عن خسارته المادية الفادحة. أثمرت جهود الرجل أخيرا عن تعويض بلغ نحو ٥٠٠٠ جنيه إسترليني، وعن سحب الحكومة المصرية لاتهامها له بتجارة الرقيق.

ماتت زوجته كاثرين في عام ١٨٨٧م، ولحق بها هو بعد خمسة أعوام وهو في التاسعة والستين من العمر (لعل الصحيح مما سبق ذكره هو أنه مات عن الرابعة والستين من العمر. المترجم) .



كتاب «البروفة: إستراليون يحاربون في السودان (١٨٨٥م)»

ك.س. انجلس

تقديم: من أقوال الرئيس الأمريكي أبراهام لنكون المأثورة أنه قال إن أفضل صديق لك هو من يهديك كتابا. وقد فعلها صديقنا في الأسافير محمد عثمان إبراهيم فأهدانا من مهجره الأسترالي البعيد كتابا أستراليا عن أول فوج من الجنود من مستعمرة بريطانية يشارك – طواعية– في الحملة البريطانية التي سيرتها بريطانيا لاسترداد السودان من سلطان الحكم المهدوي. مؤلف الكتاب هو ك.س. إنجلس والذي يعمل أستاذا للتاريخ في الجامعة الوطنية الأسترالية. صدر الكتاب في عام ١٩٨٥م عن دار رجبي.

أبحرت في يوم الثالث من مارس عام ١٨٨٥م بواخر حربية من ميناء سيدني وعلي ظهرها سبعمائة جندي للالتحاق بالحملة البريطانية الهادفة لاسترداد السودان من قبضة حكم المهدية. كانت تلك بالتأكيد هي المرة الأولى لمستعمرة بريطانية أن يبلغ بحكومتها ومواطنيها الحماس «الوطني» مبلغا يجعلها ترسل بمتطوعين ليمخروا عباب البحار ويعبروا الفيافي والقفار للانضمام للحملة التي نظمت لاستعادة السودان من قبضة من سفحوا دم بطل الإمبراطورية التي لا تغرب شمسها، الجنرال تشارلس غوردون.

عد البعض تلك المشاركة الأسترالية بمثابة تعبير عن شعور فائق بالامتنان للبلد الأم (بريطانيا) ووقوفا معها في الملمات وعند المحن، وساندها كثير من «الوطنيين»، بينما عارضها بعض الليبراليين باعتبارها حملة جائرة ظالمة لا يسندها قانون وليس لأستراليا ناقة فيها ولا جمل.

يتضمن كتاب «البروفة» (ولقد فشلت – لجهلي– في معرفة كنه التسمية) سجلا بأقوال الجنود الذين شاركوا في تلك الحملة، وعن ظروف تكوينها، وعن ما أنجزته تجربة تلك الحملة، وعن آراء الساسة وأهل الكتابة والتصوير والتشكيل فيها. والجدير بالذكر أن الحملة تلك الهمت أحد هؤلاء التشكيلين المعاصرين (واسمه ليفينج استون هوبكنز) أن يبتدع شخصية كرتونية / غطية سماها «The little Boy at Manly» خلدها فن الرجل لتصبح من بعد ذلك رمزا للوطنية في مقاطعة «نيو ساوث ويلز»

الأسترالية، ومن بعد في كل أرجاء البلاد الأسترالية!

في فصله الأول والمعنون «الموت في الخرطوم» يحكي المؤلف كيف أن خبرا أليما في صبيحة السادس من نوفمبر ١٨٨٥م صدم مسامع ومشاعر سكان أستراليا مفاده أن الخرطوم قد سقطت في «براثن» محاربي متمرد «عربي» يدعونه «المهدي» وأن بطل الإمبراطورية البريطانية الجنرال «تشارلس غوردون» ربما يكون قد وقع في أسر تلك العصابة المتمردة. كعادة الأخبار السيئة، فلقد سرى الخبر سريعا من باخرة علي النيل بالتلغراف الكهربائي، ومن الإسكندرية عبر الأسلاك الأرضية وتلك المغمورة تحت الماء حتى الإمبراطورية الهندية ومنها إلي بينانج (في ماليزيا) ثم سنغافورا وبعدها باتافيا وداروِن وأدي ليد (في أستراليا).

نشرت الصحف الأسترالية الخبر في صباح اليوم الثاني (السبت السابع من فبراير) في كلمات حزينة مؤثرة. زاد الطين بلة ما تواتر من أنباء مثيرة للغيظ تفيد عن وصول حملة «الإنقاذ» للجنرال المحصور متأخرة. وتعقد الأمر أكثر حين حملت صحف اليوم التالي أنباء من القاهرة تفيد بأن الجنرال ما زال حيا يرزق (وينقذ)! وبعد يومين تأكدت أنباء مقتل بطل الإمبراطورية العظيم. حزن الأستراليون (حكومة وشعبا) لاستشهاد بطلهم المحبوب ومبطل تجارة الرقيق كما لم يحزنوا على أي فرد آخر في كامل الإمبراطورية، واعتملت في نفوسهم مشاعر الصدمة والغضب والرغبة في الانتقام.

سرد المؤلف بعد ذلك تاريخا موجزا لما هو معلوم بالضرورة عن مجمل نشاط غوردون منذ مجيئه الأول للسودان، وعودته تارة أخرى لذات البلد بناء على طلب خديوي مصر. سرد المؤلف وصفا موجزا لتوسع الاستعمار البريطاني في أفريقيا وآسيا ونفوذ شركاته، وعن ثورة عرابي في مصر. لا شك أن المؤلف قصد من وصفه الموجز لما سبق هو تثقيف القارئ الأسترالي (والغربي عامة) بالخلفية التاريخية والسياسية التي سبقت وصاحبت وأعقبت الحملة الأسترالية من أجل الانتقام للجنرال «المغدور»، وفي التعريف أيضا بغوردون وبمآثره وإنجازاته.

في الفصل الثاني، وعنوانه «عرض مثير» يقول المؤلف :إنه من غريب الصدف أن الأستراليين قد سمعوا بما حاق بغوردون في السودان بسرعة غير معتادة. فلك أن تعلم أن هؤلاء سمعوا بأن الفرنسيين قد بدؤوا ثورتهم في يوليو من عام ١٧٨٩م وانصرم عام كامل (أو ينقص قليلا) قبل أن يصل الخبر إلى سيدني. وبدأت الحرب بين بروسيا والنمسا في عام ١٨٦٦م وانتهت دون أن يسمع بها أحد من الناس في أستراليا، وهذا مما يدل على مدى أهمية نبأ غوردون بالنسبة للأستراليين، أو أن ربط

البلاد بإنجلترا بواسطة التلغراف في عام ١٨٧٢م قد أنهى عهد العزلة والبراءة فيها. كان مقتل غوردون دون ريب هو أسوأ نبأ تنقله خطوط ذلك التلغراف للأستراليين. شعر هؤلاء بالتقصير، بل بعقدة الذنب في تخليهم عن ذلك البطل المسيحي الأبيض ليواجه مصيره وحيدا أمام حراب وسيوف الدراويش الأوباش.

قام المهاجرون البريطانيون لأستراليا، الجدد منهم والقدامى، بالكتابة للمسؤولين وللصحف نعيا لغوردون ومطالبين حكومتهم لمد يد العون لحكومتهم ولجيشها في «تلك الأوقات الصعبة» وأن يحذوا حذو (الأخت) كندا، المستعمرة البريطانية السابقة في عونها للبلد الأم. اقترح أحدهم في رسالة نارية أن تجند استراليا جيشا قوامه ألف رجل وتضعهم في خدمة (وتحت إمرة) جلالة الملكة لمقاومة الحكم «المهدوي البربري» في السودان. تداعت المستعمرات (المقاطعات) الأسترالية كافة لتجنيد المتطوعين للذهاب للسودان، وتنافست في ذلك، بيد أن العبء الأكبر في تلك الحملة قد وقع (لأسباب لوجستية وغير ذلك) علي «نيو ساوث ويلز» وحدها. عبر الكثيرون من المقاطعات الأخرى عن عميق أسفهم وبالغ حسرتهم من حرمانهم من شرف المشاركة في تلك الحملة، وفي المقابل سعد حاكم وسكان مستعمرة «نيو ساوث ويلز» واسمه «دالي» بالظفر بالقبول من لندن، ووصف الحاكم قبول لندن عرضه بالمساعدة بأنه «ضربة حظ موفقة»، فلو تأخر قليلا في تقديم طلبه لنالت المستعمرات الأسترالية الأخرى ذلك «الشرف الرفيع»!

في فصله الثالث «الفرقة» يحكي المؤلف عن سيل الطلبات التي انهمرت علي مكتب «دالي» حاكم مستعمرة «نيو ساوث ويلز» للالتحاق بالحملة المتجهة للسودان، بل أن طلابا أستراليين يدرسون في أدنبرا (العاصمة الاسكتلندية) عرضوا الانضمام للحملة عندما وصولها بسلام لليابسة. وصل عدد أفراد الحملة إلى ٥٢٢ رجلا و٢٤ حصانا للضباط، مع فرقة مدفعية قوامها ٢١٢ رجلا و١٧٢ حصانا. وللتدليل على مقدار التضحية التي كان جيش مستعمرة «نيو ساوث ويلز» مستعدا لتقديمها، فلقد كانت الأعداد المذكورة تلك تمثل ثلث كامل جيش المستعمرة (وكامل عدده لا يتعدي ألفين من الرجال)! وتطاولت من بعد ذلك صفوف المتطوعين الراغبين في أخذ الثأر من من ظلمهم وقتل «غوردون»! أعلنت السلطات يوم إبحار أولئك الرجال يوم عطلة عامة، ووقف عدد هائل (قدر بخمسة ملايين نفس) في ميناء سيدني لوداع الحملة (يمكن رؤية صورة لتلك المسيرة خمس المليونية في هذا الرابط:

http://www.rl1908.com/Origin/suakin.htm

كانت وجهة الحملة والتي كان علي رأسها العقيد جون ريتشاردسون هي «سواكن» التي لم تقع في أيدي أتباع «المهدي». كان الزى العسكري الأنيق الذي كان يرتديه المتطوعون الأستراليون هو نفس الزى الذي يرتديه جنود الملكة. كان جندي المشاة يرتدي بذلة حمراء وبنطالا أزرقا ويعتمر قبعة بيضاء. وساد شك في مناسبة ذلك الزى لطقس السودان الحار، وكيف أن ألوانه الزاهية الفاقعة تسهل مهمة قناصة القوات المهدوية، واقترحوا أن يقتصر الزى علي اللون «الكاكي» الذي يستعمله الجيش البريطاني في مصر وغيرها من المستعمرات. استجاب الجيش البريطاني لذلك الاقتراح بإرسال ألف قطعة من الزى الكاكي لسواكن كي تكون في انتظار المتطوعين الأستراليين.

دفعت الحكومة لأولئك المتطوعين مرتبا لم يكن ينعم به الجنود العاديون في المناطق الأخرى. فلقد كان الجندي (النفر) العزب يتلقي خمسة شلنات في اليوم، ويزاد عليها شلنان للجندي المتزوج، وستة من البنسات علي كل طفل له. يجب ملاحظة أن الجندي البريطاني في مصر كان يقل راتبه عن شلن واحد في اليوم. لعل سبب تلك الزيادات في الرواتب هو حفز الجنود البريطانيين على الهجرة لأرض الميعاد الأسترالي.

عبر بعض المحافظين من قادة الجيش البريطاني- كدأبهم دوما- عن شكوكهم في كفاءة المتطوعين الأستراليين وعن قدراتهم القتالية، وطالبوا بأن تعطي للضباط البريطانيين فرصة قيادة تلك القوات أو علي الأقل إلحاق عدد من هؤلاء الضباط البريطانيين بتلك الحملة. كان رد «دالي» حاكم «نيو ساوث ويلز» مؤدبا وحاسما في ذات الوقت، إذ رفض بصورة دبلوماسية ذلك الاقتراح موضحا أنه يثق بقدرات ضباطه وجنوده.

أفرد المؤلف فصلا كاملا (لا يخلو من إملال) لقصة الفنان «ليفينج استون هوبكنز» مبتدع الشخصية الكرتونية / النمطية المسماة «The little Boy at Manly»، وكان ذلك هو عنوان الفصل. في الفصول التي تلت ذلك الفصل ملأ الكاتب مؤلفه بصور ورسومات ممتازة (مأخوذة من صحف تلك الأيام) عن الحملة ومراحل التحضير لها، و«اسكتشات» عديدة من داخل السفينة البحرية «أيبيريا»، وعن تدريبات الجند علي سطحها، وكذلك عن يوم الأحد فيها، وهو يوم الراحة والاستماع لخطب القسيسين المرافقين لجنودها (و هما يمثلان البروتستانت والكاثوليك). صرفت الذخائر للجنود وهم في عرض البحر عندما قربوا من ميناء عدن في ٢٦ مارس، حيث لم تبق السفينة

«أيبيريا» طويلا، إذ أمرت الحملة بمواصلة الإبحار لميناء سواكن بأسرع ما يمكن لشدة الحاجة لخدمات جنودها.

كانت تلك هي المرة الأولي التي تقع فيها عيون جنود «نيو ساوث ويلز» علي «الأهالي natives» (وهي كلمة ملقاة يطلقها المستعمرون علي أي شخص غيرهم من سكان المنطقة التي يغزونها، دون تحديد لمنطقة جغرافية أو عرق محدد). سرد المؤلف ما كتبه (ورسمه) بعض الجنود عن انطباعهم وهم يرون – للمرة الأولى- «الأهالي» بأشكالهم «الغريبة العجيبة»!

رست السفينة «أيبيريا» بسلام في ميناء سواكن في يوم الأحد الموافق ٢٩ مارس متقدمة بثلاثة أيام على ما وعد به «دالي» الحاكم. استقبلت السفينة وجنودها استقبل الفاتحين من قبل «العرب» وجنود من جنسيات عديدة وعزفت على شرف وصولهم الموسيقي العسكرية. نزل الجنود ببذلهم الحمراء (محل إعجاب الجميع) وأحذيتهم الضخمة ومضوا – بصعوبة- علي طريق رملي تحت حرارة شمس لاهبة إلى معسكرهم حيث انضموا لنحو اثنى عشر ألفا من الجنود البريطانيين والهنود يمثلون حامية سواكن.

بعد ذلك مضى المؤلف في سرد مطول لحياة الجنود الأستراليين في أول يوم لهم علي أرض السودان، وعن المناوشات العسكرية التي وقعت بين «الأعداء» بقيادة «عثمان دقنة» وحامية سواكن، وفي هذا يقول : إن الجنود الأستراليين كانوا سيكونون في عداد الموتى لو كانوا قد وصلوا لسواكن قبل أسبوعين من وصولهم، إذ أن «الأعداء» كانوا قد هاجموا «زريبة» كان أقامها الضابط مك نيل قبل أسبوعين، حين هوجموا على حين غرة وقضي عليهم. كان مقتل متطوعيها سيقع وقع الصاعقة على «سيدني»، ولكن الله سلم.

شارك الأستراليون في كثير من المعارك الصغيرة ضد الأعداء «الفيزي ويزي» وفي محاولة بناء خط سكة حديد من سواكن لبرر بمشاركة «الأهالي»، بيد أنهم لم يجدوا ما يملأ وقتهم تماما، وأصابهم بعض الإحباط من تلك «العطالة المقنعة»، والتي ازدادت سوءا مع ازدياد حرارة الجو والأوضاع غير الصحية التي كانوا يكابدونها. ولم تشارك فرقة المدفعية الأسترالية بقليل أو كثير في «المجهود الحربي» مما ضاعف الإحباط والشعور بعدم الفائدة، وظل الجنود يتناقلون الشائعات فيما بينهم عن قرب تحركهم لمحطة تالية قد تكون الهند...من يدري؟ وبالفعل تم سؤال الجنود عما إذا كان يرغبون في الخدمة العسكرية في الهند!

يحكي المؤلف في الفصل السابع عن عودة الجنود لديارهم في يوم مطير من أيام أغسطس، وهم في زى «كاكي» كئيب، في تناقض عجيب مع الزى الأحمر والأزرق والأبيض الزاهي الألوان الذي كان يرتديه الجنود عند مغادرتهم لميناء سيدني قبل شهور! قابل الحاكم وبعض المسؤولين الفرقة العائدة، وخطب قصيرة تليت على استحياء. لم يعلن يوم عودة الجنود عطلة رسمية (كما فعلوا حين أبحرت بهم السفينة صوب سواكن)، ومضوا وهم يتضورون جوعا في ذلك اليوم المطير (إذ لم يعطوا فطورا ذلك الصباح) في عرض عسكري بائس.

تعرضت الحملة بعد وصولها لنقد لاذع ومرير من الصحفيين ورسامي الكاراكتيرات، وتسأل الجميع عن الكلفة المادية الحقيقية لتلك الحملة، واتهموا الحكومة بإخفاء الحقائق بشأنها.

تعيد الحملة الأسترالية للسودان للأذهان ذكري حملات مشابهة في التاريخ البعيد والقريب علي حد سواء. ويبدو أن التعلم من دروس التاريخ مهارة يفتقدها السياسيون والعسكريون في أنحاء العالم كافة وعلي مر العصور، إذ غدا تكرار «الأخطاء التاريخية» هو ديدن العالم اليوم! وصدق الدوس هيكسلي حين قال: «إن سحر التاريخ ودروسه المبهمة الغامضة تتلخص في أنه ومن عصر إلى عصر فإن لا شيء يتغير، رغما عن أن كل شيء مختلف تماما».



كيف هزمت الإمبراطورية الإيطالية: معركة كرن ونستن تشرشل

تقديم: هذه ترجمة لشذرات مما جاء في كتاب (الحرب العالمية الثانية – التحالف العظيم) والصادر في ١٩٥٠م من دار نشر «هوتون ميفلين» لمؤلفه القائد البريطاني الشهير ونستن تشرشل (١٨٧٤م – ١٩٦٥م). وفي هذه الأجزاء (التي نترجمها بتصرف شديد) يتطرق المؤلف في أحد الفصول لقيام الإمبراطورية الإيطالية وتوسعها في أراضي الصومال والحبشة وإرتريا، ويتطرق للمعركة الشهيرة «كرن» والتي خلدها الغناء السوداني في أربعينيات القرن الماضي، رغم أن تشرشل لم يأت على ذكر الجنود السودانيين مطلقا في كتابه هذا!

عندما أعلن موسوليني الحرب على بريطانيا العظمى بمجرد سقوط فرنسا في عام ١٩٤٠م، بدت الإمبراطورية الإيطالية في شمال وشرق أفريقيا كأبهى ما تكون. لقد جاء انضمام الإمبراطورية الإيطالية لقائمة الدول القومية في أوربا القرن التاسع عشر متأخرا، إذ كانت إيطاليا ذات صناعة ضعيفة ، وبالتالي كانت العسكرية قوتها ضعيفة، بيد أن تزايد عدد سكانها دفعها دفعا للدخول في سباق الدول الأوربية نحو أفريقيا وهي تعاني ذلك الضعف الخطير. فتح قناة السويس في عام ١٨٦٩م عيون القادة الإيطاليين، وبصورة متزايدة، إلى التوسع في أفريقيا. وما أن انقضت ستة عشر عاما بعد ذلك التاريخ إلا وكانت مصوع قد احتلت، ومملكة إرتريا قد أنشئت رسميا كأراضي إيطالية محتلة. أنشأت إيطاليا – وعلى مهل- أيضا مستعمرة «أرض الصومال الإيطالية» والتي تمتد إلى المحيط الهندي. بين تلك المستعمرتين تقع مملكة إثيوبيا القديمة. مضت جيوش السينور كريسبي في مسيرة التسعينات الإمبريالية لاحتلال تلك الأراضي الشاسعة، وخلق مكان بارز لإيطاليا في زمرة القوى الأوربية العظمى. انتهى حلم السينور كريسبي بهزيمته المذلة في موقعة «عدوة» في عام ١٨٩٦م، عندما قضى جيش الأحباش قضاء مبرما على القوات الإيطالية الغازية، وتوقفت من بعد ذلك المغامرات الإيطالية في أفريقيا.

لم تبرح ذكرى ذلك الفصل التراجيدي ذاكرة الإيطاليين، فما أن هاجمت دول البلقان تركيا في عام ١٩١١م، عند بدايات إرهاصات الحرب العالمية الأولى، حتى أفزعت الحكومة

الإيطالية عالم تلك الأيام الوسنان وأصابته بصدمة هائلة بعبورها للبحر ودخول طرابلس والسيطرة عليها وعلى ما عدها من باقي مناطق ليبيا. ساهمت حاجة فرنسا وبريطانيا لكسب إيطاليا إلى جانبهما ضد العدو الأكبر ألمانيا، وهزيمة تركيا في حرب البلقان في تثبيت أقدام الإيطاليين على السواحل الليبية، وساهمت الانتصارات العسكرية المبكرة للإيطاليين في إحكام سيطرتهم على طرابلس وبرقة. شكل التمرد السنوسي تحديا مستمرا لاحتلال واستعمار الإيطاليين لتلك الصحارى العربية.

كانت تلك هي الحال عندما صعد موسوليني إلى سدة الحكم في إيطاليا في غمرة موجة مد عارم من الفاشية المعادية للبلشفية. شهدت السنوات التالية توسعا إيطاليا منتظما ومخططا له جعل منها قوة استعمارية في أفريقيا. وتحت القيادة العسكرية الصارمة للجنرال قرازياني على أراضي شمال أفريقيا تم سحق كل حركة تمرد بقسوة بالغة، بينما كانت أعداد المستوطنين الإيطاليين تتزايد، وتستصلح الأراضي الصحراوية، وتشيد القلاع والمطارات والطرق والسكة حديد على ساحل البحر الأبيض المتوسط. كان الرغبة الوطنية في الانتقام من الهزيمة المذلة في «عدوة» ومحو عارها هو ما يلوح وراء ذلك الإنفاق الضخم للثروات الإيطالية. غلبت عزيمة موسوليني وإصراره المعارضة الخجولة لحكومة بريطانيا للتوسع الإيطالي في «رابطة الأمم». ساهمت – كما سنرى – كيف أن ذلك التوسع الإيطالي في شمال أفريقيا، واحتلال الحبشة لعب دورا كبيرا في حدوث الحرب العالمية الثانية.

في يونيو من عام ١٩٤٠م، وعندما كانت الإمبراطورية البريطانية – من وجهة نظر الفاشست– آيلة للسقوط، وفرنسا على وشك الانبطاح، كانت الإمبراطورية الإيطالية تتوسع شرقا وغربا، فشملت ليبيا وإريتريا والحبشة وأرض الصومال، يغذيها المال الإيطالي المستقطع من الضرائب، ومستوطنين ايطاليين يزيد عددهم عن ربع مليون نسمة، يشقون ويكدحون (وينعمون ببحبوحة من العيش فيما بعد) تحت حماية نحو ٤٠٠ ألف من الجنود الإيطاليين والمحليين. قام الإيطاليون ببناء وتقوية موانيهم علي سواحل البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط. كان من الواضح للمخابرات البريطانية أنه لو قدر للإمبراطورية البريطانية أن تسقط (كما كان مؤملا بل مؤكدا عند موسوليني) فبلا ريب ستؤول للإمبراطورية الإيطالية كلها مستعمراتها في مصر وأرض الصومال البريطانية وشرق أفريقيا البريطانية، وستغدو إيطاليا دولة قوية الشوكة وذات ممتلكات واسعة لم تشهد مثلها تلك البلاد منذ عهد قيصر. بيد أن ذلك لم يكن مقدرا له أن يكون.

كانت النظرة البريطانية نحو التوسع الإيطالي في شرق أفريقيا حتى ديسمبر من عام ١٩٤٠م نظرة دفاعية محضة. ففي الثاني من ديسمبر من ذلك العام عقد الجنرال وافل

مؤتمرا صحفيا في القاهرة أوضح فيه السياسة البريطانية تجاه إيطاليا. لم يكن يتوقع أي دخول عميق للجنود الإيطاليين النظاميين لأراضي الحبشة، بيد أنه أصر على إجلاء تلك القوات التي احتلت كسلا والقلابات في السودان في الرابع من يوليو من عام ١٩٤٠م. وكان الجنرال وافل في البدء يؤمل أن تنقضي تلك المهمة اليسيرة سريعا حتى يتسنى له سحب الجزء الغالب من جنوده للمشاركة في العمليات الحربية في الشرق الأوسط، وأن يدع مهمة تصعيب وجود وبقاء الإيطاليين في الحبشة للحركات الوطنية المحلية، والتي كان سيرعاها ويدعمها بالمال والسلاح.

بدأت عملية طرد الإيطاليين من السودان في يناير ١٩٤١م تحت قيادة الجنرال بلات، والذي نجح في ذلك نجاحا كبيرا في بداية حملته. قاد الجنرال بلات الفرقة البريطانية –الهندية الخامسة، والتي دعمت في يناير بالفرقة البريطانية –الهندية الرابعة القادمة من الصحراء الغربية حيث كان لها دور بارز في انتصارات الشهر السابق. كانت الفرقتان تحت حماية غطاء جوي محكم. انسحبت فرقتان إيطاليتان من كسلا في التاسع عشر من يناير تحت ضغط التهديد بالهجوم وبسبب قصف جوي بريطاني عنيف، وسرعان ما تبع ذلك انسحاب سريع من القلابات، ومن السودان كله.

تتبعت القوات البريطانية فلول الجيش الإيطالي المنسحب من كسلا دون كبير اهتمام حتى بلغت موقعا جبليا حصينا في كرن. تحصنت فرقتان إيطاليتان في ذلك الموقع جيدا، وأبديا مقاومة عنيفة لجيشنا. فشلت كثير من محاولات الجنرال بيرت في فبراير في إجلاء الإيطاليين من موقعهم الحصين، فوطن نفسه – والحال هكذا- على أن الأمر سيستغرق وقتا حتى تكتمل الإجراءات الإدارية اللازمة قبل القيام بهجوم شامل كاسح. في ذلك الأثناء كان العمل على إثارة التمرد في الحبشة يسير على قدم وساق. وقع عبء إشعال ذلك التمرد على قوة صغيرة بقيادة العميد سانفورد (من الكتيبة السودانية) مع عدد مختار بعناية من الضباط والجنود البريطانيين (كان العقيد ونجت أحدهم)، ونال أفراد تلك الكتيبة أعلى الأوسمة والأنواط فيما بعد.

أصاب مجهود تلك الكتيبة نجاحا كبيرا شجع كثيرا من الوطنيين على عونهم في مهمتهم الصعبة. انتهى ذلك التمرد بدخول الإمبراطور هيلاسيلاسي مملكته (من منفاه ببري في السودان. المترجم) في العشرين من يناير، وتم أيضا تحرير جزء كبير من المنطقة الغربية في جوام (المترجم) من الأعداء. قبل يوم من ذلك التاريخ (في ١٩ يناير) أعدنا احتلال كسلا في السودان. وبعد يوم من ذلك التاريخ غزونا المستعمرة الإيطالية ارتريا، واستولينا بعد أيام قليلة من ذلك وعلى رئاسة السكة الحديدية فيها في بيسكا.

لجنة حدود السودان البريطانية – الفرنسية (١٩٢٢ – ١٩٢٣م)

باربرا ريس

تقديم: يقولون إن كل فتاة بأبيها معجبة. ومصداق ذلك في هذا المقال لباربرا ريس (والذي نترجمه هنا بتصرف شديد) عن التعاون (النادر الحدوث) بين بريطانيا وجارتها اللدود فرنسا في عملية ترسيم حدود السودان الغربية (أو قل تقسيم الكعكة بين الدولتين الاستعماريتين العريقتين) . فالكاتبة هي ابنة الرائد (الكابتن) اوستن شالسي جيمس (١٨٩٥م – ١٩٧٠م)، والذي لعب دورا مهما في عمل اللجنة البريطانية – الفرنسية المشتركة التي أنيط بها ترسيم حدودنا الغربية في عامي ١٩٢٢ – ١٩٢٣م. نشرت السيدة ريس مقالها في مجلة «دراسات السودان» البريطانية في عددها الثاني والأربعين والذي صدر في يوليو ٢٠١٠م.

يكتسب المقال بعض الأهمية في الظرف الحالي الذي يتحدث الناس فيه عن ترسيم الحدود بين دولة السودان (الشمالي) ودولة السودان (الجنوبي) وعن أهميته، وكأن الحدود بين السودان وجيرانه الآخرين قد تم ترسيمها بصورة نهائية! كذلك نلحظ اليسر والسهولة التي تمت بها عمليات الترسيم على أرض الواقع دون الحاجة لعشرات اللجان التي لا تجتمع إلا لتنفض، ولا غرو إذ أن بعض الأقاليم التي يعين لها الآن جيش جرار من الحكام والإداريين والموظفين كان يحكمها شخص أو شخصان، وبكفاءة مماثلة (على أقل تقدير)!

لم يحدث أن تعاونت بريطانيا مع فرنسا في أمر ما إلا في أخريات القرن التاسع عشر. عندما تقدم الدبلوماسي الفرنسي «فرديناند دى لسبس» بفكرة حفر قناة السويس، قرر رئيس وزراء بريطانيا آنذاك (بنجامين دزرائيلي) أن يساهم في المشروع أملا في جني ثماره المرتقبة والمتمثلة في تسهيل وتنمية التجارة البريطانية مع مستعمراتها في الشرق. كانت بريطانيا قد وجدت لها «موطئ قدم» في كل من مصر والسودان. وفي أعقاب الحرب الكبرى اتجهت أنظار وعقول الأوربيين إلى أفريقيا، ووجدت كل من فرنسا و«ممتلكاتها الأفريقية» المتمثلة في تشاد الفرنسية ويوبانجي شاري (الاسم السابق لـ جمهورية «أفريقيا الوسطى». المترجم) ، وبريطانيا و«ممتلكاتها الأفريقية» المتمثلة في «السودان الإنجليزي المصري» نفسيهما في حاجة عاجلة لترسيم

الحدود بين تلك الأقطار التي يحكمانها، فقامتا بتكوين لجنة مشتركة سميت باسم لجنة الحدود البريطانية – الفرنسية، وترأس الجانب الفرنسي فيها العقيد (الكولونيل) بولينير، بينما ترأس الجانب البريطاني الرائد (الكابتن) أوستن شالسي جيمس، كرئيس مناوب لتلك اللجنة. بدأت اللجنة عملها بمسح كامل للمنطقة.

كان الرائد جيمس قد التحق بخدمة شركة المساحة الهندسية الملكية عام ١٩١٧م؛ وقبيل انتهاء الحرب العالمية الأولي قاد «مجموعة المراقبة السادسة» ، بينما كان لقائد الجانب الفرنسي العقيد بولينير تأهيل مماثل في فرقة المساحة بسلاح المهندسين الفرنسي. قام الرائد. جيمس بتدوين مذكراته الشخصية (في جزئين) عن فترة عمله في تلك اللجنة المشتركة خلال عامي ١٩٢٢م و١٩٢٣م. حاولت هنا اقتطاف أجزاء معينة من تلك المذكرات تعطي فكرة معقولة عن خلفية نشاط تلك اللجنة من وجهة النظر البريطانية.

المذكرات الأولى:

تناولت المذكرات الأولى الجزء الخاص بترسيم الحدود بين السودان وتشاد. كانت دارفور على الجانب السوداني من الحدود؛ وكان هناك اتفاق سابق على أن يكون وادي هوار حدودها الشمالية، وذلك بناء على خط طول وعرض معلوم. شملت الرحلة الميدانية الأولى للجنة عبور نهر النيل والتوجه غربا. وصل الجانب الفرنسي إلى كرنكي (شمال شرق الجنينة بدارفور) يوم الثاني من يناير ١٩٢٢م، وبدؤوا العمل على الفور. قسم الرائد جيمس العمل بين ضباطه وجنوده، فتوجه هو إلى جهة الشمال، بينما أمر الشاويش برستو وآخر يسمي برايس بالتوجه جنوبا. ويبدو أنهم كانوا محل تقدير وحفاوة الأهالي في المناطق التي زاروها (فيما عدا قليل من الأماكن المعادية) ، فلقد ملأوا أمتعتهم بالمنتجات المحلية من بيض ولبن. كان الجانبان البريطاني والفرنسي أثناء تجوالهما يتبادلان الرسائل في ما بينهما بواسطة البريد (المنقول على ظهور الإبل أو الخيول فيما نحسب. المترجم) وفي حراسة مشددة من قبل رجال الشرطة. تبادل الجانبان أكثر من سبعين مراسلة بينهما في أثناء ذلك الطواف. تتطلب عمل أفراد اللجنة الصعود على الجبال أو القلاع، وحيث أن غالب أجزاء المنطقة كانت صحراء، إلا أن فقد كان ليلها كان باردا وعاصفا.

خلال ذلك الشهر توزع أفراد الجانبين على الخط المتفق عليه، وبحسب ما دونه الرائد جيمس في مذكراته كان هو الأوروبي الوحيد في تلك الأصقاع. لاحظ الرائد أن منطقة جبل بري «موبوءة» بالقرود التي كانت تملأ الفجوات بين صخور الجبال، مما

يدلل على أن تلك المنطقة لم تكن صحراء جرداء بالكامل، بل كانت مغطاة بطبقة (رقيقة) من العشب. لاحظ الرجل أيضا أن الجمال كانت هي وسيلة التنقل بالنسبة للفريقين، مما يشير على أن الصحراء كانت تغطي غالب المنطقة التي طاف عليها الفريقان.

كان السكان المحليون يعيشون في مستوطنات (دائمة أو مؤقتة)، ويحكمهم سلطان أو شيخ، وكانوا – على وجه العموم- متعاونين إلى درجة كبيرة، بل كانوا يقومون – دون مقابل فيما يبدو- بتنظيف المنطقة التي كان يعتزم الرائد جيمس أن يعسكر وينصب خيمته فيها، التي يضع بداخلها سريره وكرسي (قماش) وطاولة صغيرة. وقد جاء في مذكراته أنه أقام معسكره في منطقة (وادي) في منتصف الطريق إلى كلبوس (كما يبدو من الخريطة المصاحبة للمقال تقع كلبوس هذه الآن في الجانب التشادي من الحدود. المترجم)؛ وكان يعمل بلا انقطاع من الساعة السادسة حتى العاشرة صباحا، ثم يواصل الطواف على ظهر جمله حتى السادسة مساء. صادف أن التقى الرائد جيمس خلال أحد تلك الجولات بالسلطان، والذي وصفه فيما بعد أنه «جنتلمان رائع» ذلك لأن السلطان أصر على أن يرافق (هو وحاشيته) الرائد في رحلة عودته لخيمته. أكرم الرائد السلطان عند وصولهما للخيمة بكوب من الليمون وفنجان من القهوة. رد السلطان التحية بأفضل منها، إذ أغدق على الرائد بمأكولات وفيرة من الدجاج والبيض والطعام المحلي، وفوق ذلك كله منحه كبشا ضخما!

شكا الرائد جيمس من النقص الدائم في الماء، وكتب في مذكراته عن الإحساس المريع بالعطش الذي كان اعتراه ذات مرة بعد ست ساعات من الطواف. عثر رجاله أخيرا على ثلاثة من الآبار قرب قرية سندي (على الحدود السودانية التشادية تماما قرب وادي هوار). فرح الرائد وقال: «من قال : إن هذه البلاد ليس فيها ماء؟». ملأ الرائد – على سبيل التحسب- جميع مواعينه الفارغة بالماء، بيد أنه وجد مصدرا غنيا بالماء في منطقة أخرى هي أندور (تقع في تشاد حاليا)، وهي منطقة تكثر فيها طيور النعام.

في يوم ٢١ يونيو ١٩٢٢م وجد الرائد نفسه في هرور في منطقة ناس (Nas) الواقعة تحت السيطرة الفرنسية. وجب عليه في تلك المنطقة تسوية كثير من الصراعات المحلية دونما عون من أحد. لم يقبل السكان في «ناس» مد يد التعاون معه والعمل في خدمته، أو حتى بيع الأغنام له. نصحت السلطات الرائد جيمس بإجبار السكان على البيع، بيد أنه تحاشى تنفيذ الأمر لعلمه أنه في منطقة ليس له على الناس فيها سلطان،

فهي مستعمرة فرنسية.

تطلب عمل الرائد جيمس أن يتسلق الجبال ليلا ليستهدي بالنجوم، وكان يرافقه أحيانا زميله الفرنسي العقيد بولينير في جولاته مشيا بالأقدام على الرمال الناعمة. وصف الرائد بعض المناطق في سفوح هضبة جبل مرة بأنها أراض خضراء خصبة. في هذه المنطقة أخبره السكان المحليون بأنهم بريطانيون «هكذا في الأصل» ولإثبات صدقهم أهدوه بقرة ما أن تسلمها حتى لاذت بالفرار! مرت على الرائد أوقات عز فيها وجود الطعام، فكان الأرز (القليل) هو الطبق الوحيد. إن تصادف مرور أحد الأعياد الإسلامية وهو بين السكان المحليين، فإنه كان يهبهم ثورا يذبحونه ويطعمونه، بيد أنه لم يكن يسمح لجنوده المسلمين غير نصف يوم كعطلة دينية.

وصف النواحي الغربية من تلك المناطق، بأنها كئيبة جرداء قاحلة، لكنه عندما عاد من رحلته تلك كان له رأي آخر. كتب أنه رأي قرية «مليط» (الواقعة في خط طول ٢٦ شرقا وخط عرض ١٢شمالا)، وأشاد بجمالها وبنخيلها (سبق محمد سعيد العباسي الذي نظم: حياك مليط ...الخ. المترجم) ثم مر على «كتم» ، فوصفها بأنها بحق جنة من الأشجار الخضراء مخبوءة بين سلسة من الجبال العالية، وتطل على وادي مليء بأشجار النخل الباسقة؛ وكتب أن ما حول مدينة «النهود»، خلافا لما هو الحال في أكتوبر، تجد الخضرة تكسو الأرض والشجر. وجد الرائد في المناطق الأكثر مدنية استراحات جيدة. ففي استراحة مدينة الأبيض وجد غرفة نوم بأثاث أبيض اللون، وشاهد القطار لأول مرة بعد مرور تسعة شهور!

ما إن وصلوا إلى الخرطوم حتى تلقتهم عاصفة رملية أخرت موعد قيامهم بالعودة بالقطار والباخرة إلى القاهرة.

المذكرات الثانية:

بدأت عمليات المسح الأخرى في شهر أكتوبر التالي، ولكن هذه المرة في الجنوب والذي تختلف طبيعة جغرافيته بالكلية عن ما شاهده الرائد في رحلته العام السابق. كان عليهم ترسيم حدود السودان مع يوبانجي شاري (إفريقيا الوسطى). كانت مهمة اللجنة الرئيسة هي الاستعراف على الحدود التي تفصل الماء المتدفق على نهر النيل من ذلك المتدفق على نهر الكونغو. وصف الرائد جيمس «ديم الزبير» بأنه مكان مثمر فيه الموز والبرتقال والليمون والأناناس. كان موكب الرائد جيمس مكونا من خمس وسبعين عربة (مقطورة)؛ ومعهم رجل شرطة . حدث أن أصابه أحد بطلق ناري في رجله، وكان في حالة سيئة من الألم الممض. أصابت الحمى الرائد نفسه (هكذا تقول

الكاتبة. المترجم) في بداية الرحلة، بيد أنه تحامل على نفسه وواصل رحلته خلال الغابات، حيث لم ير إلا نوعا من القرود ذات أوجه زرقاء. استقبله ورفاقه في راجا سلطانها بجوقة من عازفي الأبواق. ساءت حالة الشرطي المصاب، ولم يكن هنالك من طبيب قريب، فتولى الرائد جيمس تطبيبه بإعطائه كمية كبيرة من عقار الكينيا بالفم مع قليل من اللبن (وكانت ستعطى بالحقن لو كان هنالك طبيب). سجل الرائد جيمس أنه انزعج كثيرا في تلك المنطقة الوفيرة المياه من وجود نوع من الحشرات الصغيرة بكميات سببت لهم كثيرا من الضيق، بيد أن ذلك لم يفت في عضده، إذ سجل بفخر شديد في مذكراته ما نصه: «لقد عثرت على نهر كوكا، ونتيجة لذلك فإني أشعر الآن بما يشعر به كل مستكشف ناجح».

في تلكم الأيام يبدو أن أحد رجال شرطة الرائد جيمس من الأفارقة كان قد تناول شيئا سبب له التسمم والجنون. تدخل الرائد جيمس وأخذ بندقية الشرطي المريض منه خوفا على حياته (عبء الرجل الأبيض! المترجم). يروي الرائد أنه كان يحمل دوما بندقيته كي يصطاد بها حين تلوح له الفرصة، فاصطاد وهو على صهوة جواده ما شاء له الله من الغزلان والإوز البري، وذات مرة سقط من ظهر الجواد فكسر أصبعيه! في تلك الأيام كان يرسم حدود السودان مع الكونغو الفرنسي، وسمى ذلك الجزء من السودان «بحر الغزال» قائلا: «لقد وجدت الفاصل الذي منه يتدفق خوران، أحدهما نحو الكونغو، والآخر نحو النيل... لقد اكتشفت مصدر خور يسير في اتجاه نهر دايفو في الكونغو الفرنسي. إن هذا يضع الحدود نحو خمسة عشر ميلا نحو الشرق».

في قرية إنقافورا (في «أفريقيا الوسطي» الآن) قابل الرائد جيمس الفرنسي ياسوم سيف، ومن ثم العقيد بولينير. تناول الرائد والعقيد طعام الإفطار سويا ثم بدأ العمل في تحديد المواقع، وفي القياسات والحسابات دون توقف حتى الساعة الثامنة مساء. تناولا طعام العشاء ثم عاودا العمل حتى ما بعد منتصف الليل بأكثر من ساعة. رغم ذلك استيقظ الرائد جيمس وواصل الحسابات والقياسات حتى - كما سجل في مذكراته -: «صار رأسي يلف ويدور كالحلزون»! في غمرة ذلك العمل المجهد أصابت الحمى العقيد الفرنسي فأقعدته، وصار لزاما على الرائد جيمس القيام بالعمل وحده. كتب الرائد أن ذلك العمل كان أكثر من طاقته، وأنه لا قبل له بكل ذلك العبء الضخم، وسب آلة القياسات (المنتجة من الشركة الشهيرة المسماة نوح). مر عليه عيد الميلاد (الكريسماس) وهو مستغرق في العمل، ولكن ما أن أقبل العام الميلادي الجديد حتى صرح الكابتن أنه لم يعده بمقدوره الاستمرار في تل المهمة، فالحمى قد هدته رغم

انتظامه في تناول الأسبرين والكوينين.

في تلك المنطقة رأي – وللمرة الأولي – الأفيال، وقاوم إغراء صيدها ببندقيته، إذ أنه كان قد اتخذ على نفسه عهدا بألا يقتل حيوانا قط، رغم أن الضباع كانت تهاجم معسكره قرب نهر كيمي، ويبدو أنها طمعت في حميره! في تلك المنطقة كان يضع رجلا في «السودان» وأخرى في «الكونغو الفرنسي».

في قرية بري (على نهر بري) صادف طبيبا سوريا، وكان هذا من حسن حظه، فلقد كان مصابا بنوبة أخرى من الحمى وكانت ذبابة التسي تسي قد فعلت فعلتها في أذنيه. عالجه الطبيب ونصحه بلبس سروال (بنطلون) طويل بدلا عن الرداء القصير الذي كان يلبسه، وأن يرتدي قميصا من قماش ثقيل نسبيا فوق «فنلة داخلية» من القطن. لم تنجح تلك الاحتياطات من إصابة الرائد بالدوستاريا والملاريا معا! أراه الطبيب السوري تحت المجهر الضوئي شرائح لطفيل «مرض النوم»، وكذلك عرض عليه بعض الحالات المتأخرة للمصابين بذلك المرض. أصابه الوهن لدرجة أنه لم يعد قادرا على المشي، وصار يحمل. سجل أن عملية «الحمل» هذه كانت كابوسا شديد الوطأة على نفسه. سجل في مذكراته أيضا أنه شاهد أعداداً كبيرة من النحل في تلك المنطقة، وكذلك شاهد «وحيد القرن» والذي وصفه بأنه «حيوان مخيف قبيح المنظر». في تلك الأيام تركه الطبيب السوري وهرع لقرية «راس ديلي» حيث كان العقيد الفرنسي يرقد طريح الفراش.

من الإيجابيات التي ذكرها الرائد جيمس في رحلته، أنه أينما كان يحل بجنوده، كان الأهالي يقيمون – على عجل- سوقا قريبا منهم. سجل في مذكراته: «اشتريت منهم لطباخنا ذات مرة ست دجاجات ودستة بيض وثلاثين كيلو من الدقيق، وكل ذلك نظير خمسة قروش وأربعة زجاجات فارغة! يا لها من صفقة رابحة»!

أخيرا تم إنجاز ترسيم الحدود، وبقي عليه رسم الخريطة النهائية. كان ذلك في مايو من عام ١٩٢٣م. كان عليه العودة شمالا عبر «موجا» وأراض تغمرها المياه حتى يصل إلي «يامبيو» ، حيث كان هناك مفتش للمركز قام بدعوة الإنجليز من مرافقيه لبيت «إنجليزي» صميم لحفل شاي، حيث ارتدى الجميع ملابس بيضاء اللون. في يوم الأحد دلفوا للكنيسة حيث غنوا جماعيا الكورال الشهير « إلى الأمام أيها الجنود المسيحيين» بلغة الزاندي. أعجب الرائد جيمس بالمغنين من الصبية السودانيين وسلوكهم المؤدب الرائع.

لم يتبق للرائد جيمس إلا ثمانية وعشرون يوما حتى يصل إلى «الرجاف» ثم

المركب. سافر ومعه العقيد الفرنسي إلى «مريدي» حيث لقي مفتش المركز، والذي سهل لهما طريق العودة إلى الخرطوم.

الخلاصة:

نجح الرائد البريطاني والعقيد الفرنسي في مهمتهما الخاصة بترسيم الحدود في مناطق واسعة من حدود السودان الغربية والجنوبية رغم غوائل المرض ومشاق الطريق. كانت تلك من المهمات القليلة التي نجح فيها البريطانيون والفرنسيون على التعاون المثمر بينهما.

بعد انقضاء خدمته في خدمة جيش حكومة السودان، يمم الرائد جيمس وجهه شطر سيلان (سيرلانكا حاليا. المترجم) للعمل في مصلحة المساحة فيها، وآب إلي موطنه عام ١٩٤٠م ، وعمل بالجيش البريطاني حتى تقاعده في عام ١٩٤٦م. رحل عن الدنيا عام ١٩٧٠م.



عرض كتاب: ثلاث إمبراطوريات على النيل

الجهاد الفيكتوري (١٨٦٩ – ١٨٨٩م)

دومنيك قرين

هذا كتاب آخر من الكتب الغربية التي ما انفكت تعيد اكتشاف العجلة، و«تبحث» في تاريخ مصر والسودان منذ إنشاء قناة السويس، إلى حادثة فشودة، و«استعادة» السودان على يد الجنرال كتشنر من الحكم المهدوي. صدر الكتاب من «المطبعة الحرة» بنيويورك عام ٢٠٠٧م، ويقع في ٣٢٨ صفحة. درس المؤلف «دومنيك قرين» الأدب الإنجليزي في جامعة أكسفورد ببريطانيا، وعمل بعد تخرجه كعازف للجيتار قبل أن يعاود الدراسة العليا في جامعة هارفارد (بالولايات المتحدة الأميركية) متخصصا في التاريخ والدين.

يحاول الكاتب في كتابه هذا العزف (ليس بالجيتار هذه المرة) علي أنغام سيئة الذكر «صراع الحضارات» وبأن «الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا». ويحاول جاهدا (في اعتساف أحيانا) على ذلك بالربط بين ما جرى في تلك السنوات السابقة من القرن التاسع عشر من صراع بين الإمبراطوريات الثلاث (الإمبراطورية البريطانية، والإمبراطورية العثمانية، و«إمبراطورية» مهدية السودان)، وبين ما يدور في عصرنا الحالي من صراع يستعمل فيه الدين (خاصة الإسلامي) كسلاح هام. يكرر الكاتب ما هو معلوم الآن بالضرورة عن أسباب استعمار بريطانيا لإفريقيا ؛ وهو يجملها في أسباب إستراتيجية لتأمين الموانئ والممرات البحرية المؤدية إلى الهند، وفي تحريرالرقيق، وفي الكشوفات الجغرافية وفي نشر المسيحية، وأضاف ساخرا: «ولتوفير العاج الذي تحوله بريطانيا إلى مفاتيح آلات البيانو في صوالين وقاعات القصور والنوادي الفخيمة...» .

يتكون الكتاب من مقدمة خصصها لبورسعيد وقناة السويس، باعتبار أن إنشاءها كان نقطة تحول كبير لإخراج مصر من الدائرة الأفريقية، وجعلها مركزا شرق أوسطي للتجارة العالمية، ولمآرب أخرى! . ضم الكتاب أحد عشر فصلا، أخذت عناوينها من أسماء الشخصيات الفاعلة في سرده التاريخي. شملت الفصول أسماء مثل: إسماعيل

و«حلمه» ١٨٦٩ – ١٨٧٣م (والمقصود هو خديوي مصر والسودان، والمولود في ١٨٣٠م والمتوفى في ١٨٩٥م، والذي حاول ضم الحبشة، وأقام قناة السويس، وأغرق بلاده في دوامة ديون هائلة في حلمه وسعيه غير الرشيد بتحديثها وإخراجها من ظلام أفريقيا المتخلفة وإلحاقها بضياء أوروبا المتقدمة)، وهنالك فصل ثان عمن أطلق عليه الكاتب اسم «المهندس- ١٨٧٣ – ١٩٧٩م» والمقصود به الجنرال المتدين شارلس جورج غوردون، والذي أتى الكاتب على سيرة حياته العامرة بالأحداث، وأتى بمقولة منسوبة إليه مفادها أنه (أي غوردون) على استعداد لأخذ العون الإلهي من أي مصدر أتى! وكانت مهمته في السودان تتلخص في حكم تلك البلاد المضطربة الأوضاع، الشاسعة الأطراف، التي ضربت الفوضى أطنابها فيها، وتخليصها من حكامها البرابرة، والقضاء على تجارة الرقيق.

أعقب ذلك فصل أسماه الكاتب «دبلوماسية الله»، خصصه للحديث عن جمال الدين الأفغاني وعن التأثير الكبير للدين في حياة «الأهالي» في الأراضي المستعمرة، الأمر الذي تجاهله الخديوي إسماعيل، وعجل بنهاية غير سعيدة له. ضرب الكاتب مثلا بحادث وقع في نهار رمضاني في عام ١٨٧٦م، واستدل به على عدم حساسية ذلك الخديوي للمشاعر الدينية الجياشة لدى محكوميه. في ذلك النهار هاجم مسلمون في شارع بالقاهرة رجلا إيطاليا كان يدخن سيجارة. أدى الحادث لأن يقوم الجيش بحصار مساجد المدينة حين سرت إشاعة بأن بعضا من «المتعصبين الدينيين» كانوا يحرضون المسلمين على الهجوم على الأوربيين بالمدينة. بل إن رجلا تركيا صوفيا قادم من مكة حمل علم النبي الأخضر وقاد مظاهرة في شوارع الإسكندرية داعيا الناس للانتفاضة وقتل «كفار مصر». تحدث المؤلف في هذا الفصل عن «التجديد الديني» الذي قاده الأفغاني ومحمد عبده، وعن أن دعوتهما (أو ثورتهما) كانت تفتقر إلى قوة فاعلة ضاربة (أو عضلات، كما اسماها) رغم أنهما كانا يخططان - كما زعم- لاغتيال الخديوي إسماعيل، فرعون زمانه. كان الجيش (وهو مصدر القوة في البلاد)، مثله مثل بقية البلاد يضم طبقتين لا ثالث لهما: كبار الضباط، وكانوا من الأتراك، وبقية أفراد الجيش، وكانوا من الفلاحين والعبيد السودانيين الذين لم يكن مسموحا لأحد منهم بتعدي رتبة العقيد بأية حال من الأحوال.

أتى بعد ذلك فصل مثير وهام عن «المخلص» ١٨٨١ – ١٨٨٢م (ويقصد به محمد أحمد المهدي)؛ وهنا يكرر المؤلف التاريخ المدرسي للمهدي (من وجهة النظر الغربية المعادية في الغالب)، وعن فساد الحكام الأتراك وجورهم الذي دعا الرجل للثورة. لا ينسى المؤلف أن يضيف بعض «البهارات» لكثير من حكاياته ورواياته بالقول أنه

وبينما كان عامة الشعب السوداني يقاسون جور السلطان المصري وعسفه، كان والد محمد بأحمد ينتفع بسياسات ذلك الحكم الظالم، إذ أن الأتراك كانوا في سعيهم المحموم لتوسيع تجارة العاج والرقيق كانوا في حاجة متزايدة للقوارب النهرية ولصناعها مثل والد محمد أحمد! . روى أن الرجل (وزوجته في شهور حملها الأخير وابنهما محمد أحمد في الخامسة من عمره) وقع عقدا مع حاكم الخرطوم لبناء عدد من القوارب في كرري (وكانت حينها منطقة مليئة بغابات الأشجار، وكانت هي – وللمفارقة- المنطقة التي سقط فيها حكم الدولة التي سيشيدها ولده محمد أحمد المهدي فيما بعد).

شد الوالد الرحال إلي كرري، بيد أنه توفي في الطريق، وتولى أخوه المهمة من بعده. تملك الحزن الولد الصغير فلجأ للتدين الشديد. ساءه ما كان يرى في الخرطوم من سكر وزنى وفساد؛ وكره ما لمسه من تواطئ رجال الدين مع الحكام الأتراك الفاسدين المفسدين. وجد في «الصوفية» ملاذا آمنا فتنقل بين شيوخ كثر، وانغمس في ذكر الطريقة السمانية. وما أن بلغ الثامنة والعشرين حتى نال «الإجازة» من شيخ «نور الدائم». وجد الرجل نفسه عاجزا عن كسب قوته، فكل المهن محاطة بالشبهات. فلقد بدأ تجارة الفحم وهجرها عندما علم أن الفحم يستخدم في صنع الخمور، وفشل في تجارة الحبوب لأن نفسه عافت أن يتاجر فيها والناس جياع، ورفض أن يأخذ راتبا من الحكومة الظالمة، ولم يقبل بالسفر إلى الأزهر، لأن الحكومة المصرية تتعاون مع المستعمر الكافر. كأن المؤلف يريد أن يقول أن الرجل دفع دفعا للثورة على النظام الحاكم بسبب انسداد سبل الرزق (الحلال) أمامه. وتأسيا بما فعل الرسول أوى الرجل إلى كهف في جزيرة نائية اسمها «أبا»، وانقطع للتعبد والتفكر في خطوته اللاحقة.

يردد المؤلف قصة حفل ختان نجل شيخ نور الدائم الذي أثار حفيظة محمد أحمد وغضبه، وعن عقاب الشيخ لذلك «الدنقلاوي الشقي الذي لا يخاف الله»، ثم انتقال محمد أحمد إلي شيخ منافس هو الشيخ القرشي شيخ الطريقة السمانية في النيل الأزرق، حيث تزوج ابنته وورث سلطته الدينية عقب وفاته. فكر محمد أحمد في الحج لبيت الله، بيد أنه عدل عن ذلك – بحسب رواية المؤلف- ليحج وسط أهله، فمضى في قوارب إخوانه في زيارات دعوية وحملات دعائية لكثير من مناطق السودان شمالها ووسطها وجنوبها (وأحيانا كما زعم المؤلف في رفقة شحنات العبيد). لا يكاد الكاتب يخفي تعصبه ضد محمد أحمد المهدي، فهو يركز في أكثر من موضع على الربط بين محمد أحمد المهدي وبين تجارة الرقيق، وكأنه يريد القول بأن المهدي (قبل وبعد أن صار حاكما) كان لا يعارضها، وهذا ما لا يحتاج لذكر أو لتأكيد، فتلك تجارة موجودة منذ قديم الزمان وفي مختلف البقاع، لم تبتدعها «المهدية» ولم تكن لتقاومها أو تمنعها

فهي مباحة شرعا (على الأقل في ذلك الزمان). يوحي المؤلف أيضا أن محمد أحمد المهدي كان شهوانيا محبا للدنيا (خلافا لما يدعي) إذ يذكر تعدد زوجاته وما ملكت إيمانه من عشرات السبايا (وهذا كان وما يزال مباحا في دينه) وعن استغراقه في الأكل الدسم بعد استيلائه على الخرطوم مما جعل وزنه يزيد بصورة ملحوظة!

جاءت عناوين بعض الفصول الأخرى مثيرة جدا، حيث تطرقت لأسماء كثيرة لعبت أدورا هامة ومتباينة (وضع بعضها في أدوار «البطل» ولفظ بالبقية إلي دور «الخائن» البغيض) مثل الجنرال كتشنر، وسير بارنج (اللورد كرومر فيما بعد)، والضابط المصري الثائر أحمد عرابي، والملكة فيكتوريا، وخليفة المهدي عبد الله التعايشي. ويرد اسم ونستون تشيرشل في آخر الكتاب وباختصار لا يناسب دور الرجل الضخم الكراديس. جاءت هذه الأسماء متفرقة في فصول أطلق عليها المؤلف عناوين مثيرة منها:

«جيوش الله» و«مصر للمصريين» و«بيضة جلاديستون» وغير ذلك. تعالج بعض هذه الفصول قصصاً وحكايات صغيرة يؤرخ بها الكاتب لتدهور الحكم العثماني التدريجي، ثم سقوطه الكبير، ويربط كل ذلك بالبروز التدريجي (وأحيانا الفجائي) لنجم الإمبراطورية البريطانية، وورثتها لمتلكات الإمبراطورية العثمانية في مصر والسودان تحت مسوغات اقتصادية وسياسية عديدة، وأيضا تحت دعاوي دينية وأخلاقية (وانتقامية أيضا، جزاءا وفاقا لقتل غوردون حبيب الشعب البريطاني)!

لا شك أن محاولة المؤلف لربط بين مجريات الأحداث في تلك السنوات البعيدة وبين الصراع الدائر حالياً بين الحكومات الغربية والجماعات الإسلامية التي تطمح لقيام نظم إسلامية، فيه كثير من التنطع والشطط والافتعال، وقد لا يخلو من «انتهازية تسويقية» تهدف لزيادة عدد قراء الكتاب، وبالتالي زيادة ما يجنيه الكاتب. فالحال في عالم اليوم غير الحال؛ حيث أن تداخلات السياسة الدولية، وعلاقات الاقتصاد، وبروز قوى عسكرية واقتصادية وسياسية جديدة قد أحدثت تغييرات كبيرة على الحال الذي كان سائداً في تلك السنوات البعيدة التي كانت فيها الإمبراطورية البريطانية (التي لم تكن تغرب عنها الشمس) تستأثر بالقوة والنفوذ والمال في العالم بأسره.

وإن كان ثمة صحة لمقارنات ومقاربات الكاتب بين صراعات الإمبراطورية البريطانية الفتية (حينها) والإمبراطورية العثمانية (الآفل نجمها)، مع الفكرة والدولة الإسلامية المهدية في السودان من جهة، وبين ما يحدث اليوم من صراع بين الدول

الغربية والجماعات الإسلامية التي تهدف لإنشاء نظم حكم إسلامية من جهة أخرى، فهي لا تعدو أن تكون مقاربة في الشكل والتصنيف، وبعض الحوادث المتشابهة العارضة، والأخطاء التاريخية المرتكبة من قبل الطرفين في العهدين. بيد أنه ما من مجال لمقارنة حقيقية وملموسة ومفيدة لما حدث في القرن التاسع عشر وما يحدث الآن. يجب القول أيضا أن «صراع الحضارات» أمر بغيض الآن لدى كثير من شعوب العالم. إن الحروب الإمبريالية التي قادتها الإمبراطورية البريطانية في مصر والسودان كانت تتم بتأييد ومباركة من الشعب البريطاني كحروب «نبيلة» و«عادلة» لها ما يبررها؛ ولم تكن هنالك إلا سوى أصوات خافتة لقلة من المثقفين اليساريين ضد تلك الغزوات. (يمكن الرجوع للمقال الذي ترجمناه حول مقتل غوردون وتأثير مذكراته على الثقافة الفيكتورية، والذي وردت فيه أدلة لكثير من ما نقول وذلك في أرشيف «الأحداث» أو في موقع سودانايل أو سودان راي).



أول من وطأت قدماه أرض دارفور من الأوربيين : د.ج. براون (١٧٩٣م)

ه. ر. جاك ديفيس

تقديم: تسجل القطعة المترجمة التالية طرفا من مقال عن زيارة السيد/ براون لسلطنة دارفور بين عامي ١٧٩٣ و١٧٩٦م، وهي تعد أول زيارة لأوربي لسلطنة دارفور. نشر المقال في مجلة «دراسات السودان» التي تصدر في بريطانيا (العدد ٣٤، يوليو ٢٠٠٦م).

The Past! The Past! The Past!

The Past—the dark unfathom'd retrospect!
The teeming gulf—the sleepers and the shadows!
The past—the infinite greatness of the past!
For what is the present after all but a growth out of the past?

»Passage to India» by Walt Whitman

ولد وليام جورج براون في العاصمة البريطانية في ٢٥/ ٥/ ١٧٦٨م لأب يعمل في تجارة النبيذ، وينحدر من أسرة عريقة أصلها من مقاطعة كمبريا. وشأنه شأن أبناء الأثرياء فقد تلقى وليام تعليما خاصا قبل أن يلتحق بكلية أوريل في جامعة أكسفورد العريقة حيث درس القانون وتخرج فيها عام ١٧٨٩م. لم ير الرجل فيما تلقاه من تعليم نفعا، لذا فقد أعلن لأسرته ذات يوم، ووالده على فراش الموت، أنه قرر أن يصبح رحالة يستكشف العالم. كان الرجل ينظر في ذلك إلى ما سبقه إليه بعض أبناء الأثرياء من أمثال كابتن كوك وجيمس بروس.

في عام ١٧٨٨م أسست الجمعية الأفريقية في بريطانيا بهدف استكشاف المزيد عن القارة التي لم يكن يعرف البيض الكثير عنها باستثناء سواحلها،ورغم أن براون لم يكن أحد أعضائها إلا أنه كان شديد التأثر بالسيد بانكس، والذي كان مسؤولا عن الشئون المالية لتلك الجمعية. سعى وليام براون لأن يلتقي بالسيد بانكس، وآخر يدعي بيوفوي قبل أن يشرع في رحلته الأولى إلى «مجاهل أفريقيا» في ١٧٩١م، ويبدو أنه لم يوفق في ذلك، لكنه تبادل معهما لاحقا الكثير من المراسلات المثمرة. ولعل عزم براون لاستكشاف أفريقيا كان مصدره حدوث بعض المتغيرات السياسية في العالم، إذ أنه كان حر الفكر، ليبراليا، وشديد الحماس للجمهورية، ومؤيد للثورة الفرنسية.

حط براون رحاله في الإسكندرية يوم ١٠/ ١/ ١٧٩٢م. صوب رحله بعد ذلك نحو واحة سيوا، والتي وصفها لاحقا وصفا مثيرا للاهتمام رغم أن وجوده هنالك كان مدعاة للشك والريبة، مما حرمه من رؤية كل ما كان يود رؤيته. وفي نهاية تلك السنة بدأ براون رحلته التي لطالما تاقت نفسه إلى القيام بها، وهي السفر إلى أثيوبيا عبر سنار. كان براون يدرك من معلوماته وخبرات الآخرين أن ليس بإمكانه الوصول لإثيوبيا عبر مصوع أو أي ميناء في البحر الأحمر، وساهم عدم الاستقرار في المناطق الواقعة على النيل جنوب أسوان في إحباط خططه للوصول إلي سنار. اكتشف براون أن القوافل التي كانت تسير دوريا من مصر إلى سنار قد توقفت منذ بعض الوقت، ولم تكن تلوح في الأفق أي بارقة أمل في معاودة تلك القوافل لسيرها في وقت قريب. لذا فلقد قفل براون راجعا للقاهرة ليتدبر في ما يمكن له أن يفعل... في أثناء ذلك خطر له أن يزور دارفور.

سمع بروان بأن هنالك قافلة ستسير عما قريب من مصر إلى دارفور عبر درب الأربعين، وعلم أيضا بأنه سيكون من السهل عليه الوصول إلى سنار عبر كردفان بعد أن يعبر النيل الأبيض، وستكون تلك فرصة ذهبية له لاستكشاف النيل الأبيض والذي كان يعتقد (خلافا لرأي بروس) أنه يأتي من المصدر الحقيقي للنيل. كان براون قد نوى أيضا – بعد أن يصل إلى سنار- أن يواصل رحلته شرقا إلى أثيوبيا. رغم أن الطريق الذي خطط له براون للوصول لإثيوبيا كان طويلا ومعقدا، إلا أنه كان يعتقد أن ذلك يوفر فرصا ممتازة لاستكشاف الكثير من «المجاهل». كذلك خطر له أيضا أن بمقدوره عند وصوله لدارفور أن يتجه غربا عبر «وداي» نحو النيجر، وأن يعود منها عبر الصحراء الكبرى إلى شمال أفريقيا. بناء على ذلك مضى يخطط ويستعد لتنفيذ حلمه القديم في السفر والاستكشاف.

سمع براون أن القافلة المتجهة صوب دارفور والتي وصلت إلى مصر في صيف عام ١٧٩٢م سوف تعود أدراجها بعد شهرين، إذ أن حمولتها من العبيد والبضائع المجلوبة لم تكن كبيرة جدا تلك المرة. وفي الواقع لم تغادر تلك القافلة مصر في طريقها إلى دارفور إلا في مارس ١٧٩٣م. ولملء وقته في انتظار بدء سير تلك القافلة سافر براون لزيارة مدينة السويس، وكتب لاحقا عن تسربات الزيت هناك، ثم سافر إلى سيناء في مارس لزيارة صومعة سانت كاثرين.

غادر براون القاهرة في الرابع من أبريل ١٧٩٣م، وبعد مرور نحو ثمانية أيام لحق بقافلة دارفور في أسيوط، حيث تحرك معها في ٢٥/ ٥/ ١٧٩٣م في رحلتها الطويلة لدارفور عبر «درب الأربعين» تحت شمس صيف لاهب. غني عن القول أن براون وجد الحر شديدا لدرجة لا تكاد تطاق، خلافا لرفاق رحلته الذين لم يكن يبدون أي

ضيق من ذلك الحر اللافح. كان وجود رجل أوربي لم يكن يحمل معه أي بضاعة مصدر عجب وتعجب من الجميع. كان رفقاء الرحلة يداومون سؤاله عن سبب تحمله مشاق وأهوال الصحراء البالغة الحرارة نحو دارفور دون تجارة قاصدة. كان يجلو غموض وجوده بين تجار تلك القافلة بأنه مبعوث للسلطان، وكان يعرف نفسه بأنه «رجل غريب» و«ضيف على السلطان». سلكت القافلة الطريق المعتاد، فعبرت «شب» و«سليما» و«بير المالحة» ودخلت أرض الفور عبر وادي مزروق. لم تخل مسيرة تلك القافلة من منغصات وعوائق، فلقد تاهت القافلة وضلت الطريق مرات عديدة.

وصف براون سليما بأنها «نقطة خضراء» بها أعذب ماء يمكن للمرء أن يجده على ذلك الطريق القفر. وجد براون أن درجة الحرارة في يوم ٢٣ يونيو ١٧٩٣م داخل خيمته قد تجاوزت ١١٦ درجة فهرنهايت (٤٨ درجة مئوية). لبثت القافلة في «سويني» أياما – كما هو معتاد مع كل زائر لدارفور– انتظارا لأن يسمح لها السلطان بمواصلة المسير. وفي هذا الموقع (سويني) كانت تتم معاينة البضاعة المجلوبة، وفحصها وتقييم المكوس والجمارك السلطانية عليها، إذ كان السلطان يحتكر وبصورة شاملة كل تجارة دارفور المغادرة لسلطنته، والداخلة إليها. وما أن فرغ رجال الجمارك من عملهم حتى سمح للقافلة بمواصلة السير إلى «كوبي»، المدينة التي يقيم فيها التجار الأجانب أثناء وجودهم في دارفور. وصل براون (مع قافلته) لكوبي يوم ٧/ ٨/ ١٧٩٣م. وإلى ذلك التاريخ فقد استغرقت رحلته ٤٧ يوما كانت مليئة بالأحداث من ضياع في تيه الصحراء، وحرارة لاهبة، وأعاصير رملية لافحة، ونقص في المياه والأمن، إذ أن المسافرين على درب الأربعين كانوا تحت رحمة القبائل التي كانوا يمرون عبر أراضيها، وكان مفروضا عليهم دفع إتاوات لقبائل العبابدة الكبابيش والزغاوة والذين كانوا يسيطرون على كل الآبار المبثوثة على الطريق.

يعتبر براون هو الأوربي الأول الذي وطئت قدماه أرض دارفور، والذي قام بتسجيل ما رآه وسمعه في رحلته في كتاب أسماه: «رحلات في أفريقيا ومصر وسوريا ١٧٩٢ – ١٧٩٨م». تم نشر الكتاب في ١٧٩٩م، ثم عمل براون على تنقيح وزيادة مادة كتابه وإضافة نحو ١٠٠ صفحة له، ونشره ثانية في ١٨٠٢م، في طبعة فيها مزيد من المعلومات عن رحلته لدارفور.

كانت القافلة مكونة من ١٠ -١٢ وحدة، بعضها مصري، وبعضها الآخر فوراوي، مع قليل من التجار من أنحاء مختلفة من الشرق الأوسط والمغرب. اكتشف لاحقا أن هنالك بعض الأقباط المسيحيين ضمن التجار المصريين، وقد منعهم السلطان بعد أن علم بأمرهم من دخول دارفور مجددا. نفقت في الطريق أعداد كبيرة من الإبل الخمسمائة التي بدأت الرحلة، وكان على التجار القيام بدفن بضائعهم التي كانت تحملها تلك الجمال التي نفقت

في الرمال على أمل أن يستردوها في ما يقبل من رحلات. لاحظ براون أنه كلما قربت القافلة من دارفور كلما ازدادت سعادة وبشر تجار الفور، بينما ازداد التجار المصريون غما وهما! كانت القافلة التي سافر معها براون أكبر من المعتاد، فلقد كان عدد الإبل فيها يبلغ نحو ٥٠٠، بينما كان العدد المعتاد لا يتجاوز ٢٠٠ في العادة.

حاول براون تقدير عدد سكان السلطنة بواسطة حساب حجم جيش السلطان، ومعدل فقدانه لرجاله. وبناء على ذلك فقد قدر عدد سكان السلطنة بمائتي ألف نسمة، ووجد أنهم ينقسمون لخمس مجموعات أكبرها الفور، والذين كانوا يحكمون كامل السلطنة، ثم يأتي بعدهم «العرب»، والذين كانوا ينقسمون إلى تجار وشيوخ دين (أتى معظمهم من شمال السودان والمناطق النيلية) من ناحية، ومن ناحية أخرى من «عرب رحل» من البقارة الذين يمتلكون قطعانا كبيرة من الماشية، ومن الكبابيش الذين يقطنون الجزء الشمالي من السلطنة ويرعون الإبل. وهنالك من أتوا من «وداي» والغرب، وفيهم التجار. كان عدد هؤلاء قليلا نسبة للاضطرابات الحادثة في كردفان مما أعاق الحركة شرقا ومنع الناس من التوجه لمكة لأداء فريضة الحج.

يقول الكاتب: إنه ما من أحد سوى شحاذ يحمل «قرعته» كان يمكنه السفر شرقا من الفاشر للحج. كان بقية السكان في السلطنة يتكونون من مجموعات سوداء من الأرقاء الذين أؤتي بهم من دار فرتيت ومناطق أخري في جنوب دارفور، وبلغة اليوم يمكن القول بأن هؤلاء يشملون الدينكا والزاندي وبعض القبائل الصغيرة في بحر الغزال وغرب الاستوائية. وكان براون يعتقد أن هؤلاء يشكلون نصف عدد سكان السلطنة. وجد براون أن سكان العاصمة السياسية الفشار والعاصمة التجارية كوبي كانوا خليطا من كل الأجناس والأعراق المذكورة، وسجل براون أن كوبي كان يسكنها كذلك تجار من طرابلس وتونس، إضافة لتجار من سنار والمحس والدناقلة وسنار وكردفان، وأن شمال دارفور كان يسكنها الزغاوة والبديات والبرتي.

كان الإحصاء السكاني الذي عمل في عام ١٩٥٥ – ١٩٥٦م هو الإحصاء الوحيد الذي سأل فيه الناس عن أصلهم العرقي، ووجد أن كل الأصول العرقية التي ذكرها براون كانت موجودة في دارفور. أثبت ذلك الإحصاء أن عدد سكان دارفور بلغ ١,٣ مليون نسمة، ربعهم من «العرب» (يمثل البقارة ٧٥٪ من هؤلاء). مثلت الجماعات العربية نحو ثلثي سكان الإقليم، وسجلوا تحت مسمى «غربيين» أو «غرابة»، وإذا استثنينا من هؤلاء المنتمين لقبائل غرب أفريقيا فإنه يبدو أن القبائل غير العربية في دارفور يصل عددهم لثلاث أرباع المليون نسمة (أعلى قليلا من ٦٠٪ من سكان الإقليم). بلغ عدد سكان الفور ٣٠٠٠٠٠ نسمة، أغلبهم يقطنون منطقة جبل مرة، وإلى الغرب والجنوب الغربي منها. تم

تسجيل ٢٠٪ من السكان على أنهم رحل. بيد أن هذا التقدير كان ممعنا في التواضع نسبة للمعايير المستعملة في تحديد وتعريف من هم «الرحل».

حل براون في دارفور في وقت احتدم فيه الصراع على حكم السلطنة، ولكن بحلول عام ١٧٩٣م كان الأمر قد دان للسلطان عبد الرحمن الراشد (لعل الصحيح هو الرشيد...المترجم)، والذي تولى الحكم من ١٧٨٧ إلى ١٨٠٣م. كان السلطان (وحاشيته وحرسه) في حالة تجوال دائم لتفتيش ومراقبة تحركات ونشاط أفراد رعيته، ومع تحركه يتحرك موضع العاصمة. كان الأمر قد استتب لتوه لصالح السلطان عبد الرحمن، والذي اتخذ الفاشر (في موضعها الحالي) عاصمة ثابتة له، بيد أن براون لم يشر في خرائطه لموقع الفاشر، والطريق الذي سلكه جنوبا من كوبي خلا من أي إشارة للفاشر، رغم أنه سجل وصفا دقيقا للفاشر وللنشاط الذي كان يدور في البلاط السلطاني فيها. شمل كتاب براون المذكور خريطة مفصلة لدار السلطان البيضاوية الشكل، والتي تمتد كما قدر نحوا من ألف وثلاثمائة قدم (٤٢٠ مترًا) من الشمال إلى الجنوب، وألف قدم (٣٣٠ مترًا) من الشرق إلى الغرب، واحتلت المساكن المخصصة للحريم فيها ٤٠٪ من المساحة.

قدر براون أيضا أن دولة دارفور تمتد إلى نحو ٣٠٠ ميل (٤٨٠ كلم) من الشمال إلى الجنوب، و٢٠٠ ميل (٣٢٠ كلم) من الشرق إلى الغرب. وكانت متاعب السلطان خارج هذه الحدود لا تحدها حدود، وكان في حالة استنفار دائم لجنده لحفظ الأمن والاستقرار. كانت متاعبه على أشدها مع كردفان، وهي ذلك الجزء من البلاد الذي كان موقعا للتنازع العنيف بين حكام دارفور وحكام سنار من قديم. سجل براون أن سلطان دارفور نجح في بسط سيطرته على أجزاء من كردفان (وبخاصة غرب كردفان) بين عامي ١٧٩٤ و١٧٩٥م.

لم يحظ براون بشرف مقابلة السلطان، ولم يلق من جراء محاولة مقابلته إلا العنت والإحباط، ولم يك هذا الأمر مستغربا بالنظر إلى شكوك السلطان القوية في رجل أجنبي أبيض ظهر «فجأة» في بلاده، ولم يكن تاجرا، ولا يعرف نفسه إلا بأنه «رجل غريب» يعد نفسه «ضيفا» على السلطان! ولما لم يكن براون تاجرا جالبا لبضاعة، فلم يتأت للسلطان أن يفرض عليه مكوسا أو جمارك (عادة ما تصل إلى ١٠٪ من قيمة البضاعة). لم يكن من السهل على براون تعليل ظهوره في دارفور بدافع الاستكشاف أو السياحة وإشباع غريزة الفضول وحب الاستطلاع، ومعرفة أحوال بلاد بعيدة، فكل ذلك مما كان عسيرا على السلطان وجماعته استيعابه.

كان الاستنتاج البسيط يقرر أنه إذا كان الرجل ليس بتاجر، ولا معلم دين، فلابد

أن يكون جاسوسا، ربما لصالح حكام مصر! ولما بلغت حيرة السلطان في أمر براون غايتها، أمر بوضع الرجل تحت الإقامة المنزلية الجبرية لمعظم الوقت. وقع براون – كما هو متوقع– فريسة لأدواء شتى شملت الدوسنتاريا وأنواعا عديدة من الحميات. كان براون قد اتخذ له في القاهرة خادما اسمه علي حماد، رشحه له بعضهم على أنه خير رفيق للسفر إلى دارفور، بيد أن العلاقة الشخصية ساءت جدا بين الرجلين قبيل سفر براون مع القافلة من أسيوط، وتشاجرا شجارا عنيفا رفع فيه براون سلاحه الناري في وجه خادمه وهدد بقتله. يبدو أن الخادم قد أسرها في نفسه، فانتقم لنفسه من مخدمه وغريمه بأن وشى به عند سلطان دارفور مشيعا بأن جاسوسا أيضا في طريقه إليه. تعرض براون أيضا لمحاولة تسميم وطعن بحربة أصابته في يده، ولم يجد بروان من تفسير لذلك سوى اتهام خادمه السابق علي حماد.

أراد براون أن يصحب أحد حملات جلب الرقيق التي كانت تشن من دارفور جنوبا، بيد أنه حرم من ذلك، ويبدو أن السلطات الدارفورية لم تكن ترغب في الكشف لأجنبي مشكوك في دوافعه عن «منابع» تلك التجارة المربحة. ورفض كذلك طلبه بالسماح له شرقا خوفا من أن يلوذ بالفرار، ويفلت من قبضة السلطان، أو أن يدلي لحكام سنار بمعلومات مفيدة عن السلطنة وأحوالها. وأخيرا سمح له بمرافقة حملة سيرها السلطان لمهاجمة كردفان، ولكن من حسن حظ براون أن أحدهم اسر له – قبل ساعات من بدء الحملة– بأن السماح له بمرافقة الحملة إنما هي حيلة للتخلص منه بقتله. ومجددا أشار براون على أن علي حماد – دون ريب– هو من أوحى للسلطان بذلك التدبير المميت. خطر ببال براون أن يرحل غربا، بيد أنه صرف النظر عن ذلك نسبة لتوتر العلاقة بين سلطنة دارفور وبرقو (منطقة تقع حاليا بين بنين والنيجر. المترجم)، وللكراهية التي يكنها السكان هنالك للمسيحيين، ولابد أنهم قاتليه إن وطأ أرضهم.

تعد الظروف التي أطلق فيها سراح براون لغزا غامضا. لقد ظل الرجل يطالب بإطلاق سراحه ويلح في الطلب دون جدوى. في أثناء وجوده في «ضيافة» سلطان دارفور غادرت دارفور قافلتان إلى مصر، ويبدو أن هنالك من هدد السلطان بإيقاف تلك القوافل إن لم يسمح لبراون بمرافقة القافلة التالية لمصر، ويبدو أيضا أن براون كان قد أشاع أنه أرسل خطابات عديدة للمسؤولين في مصر، وذلك في غفلة من رقيبه السلطاني، بثها شكواه من سوء حاله، ومطالبا بالتدخل السريع لإطلاق سراحه. اعترف براون لاحقا بأنه يجهل سبب إطلاق سراحه، ويقول إن السلطان قد يكون سأم من وجوده بينهم، وأراد التخلص من وجوده المزعج. ومهما يكن من أمر فقد غادر براون كوني في مارس من عام ١٧٩٦م، ووصل إلى أسيوط بعد نحو أربعة

شهور وهو في غاية النصب والإنهاك، ولم يكن ذلك بالمستغرب من رجل أبيض كتب عليه أن يقطع درب الأربعين مرتين في شهور الصيف القائظ.

أعطى براون صورة قاتمة عن القافلة التي تسافر إلى مصر، وذكر أنها عادة ما تكون مؤلفة من نحو ألفين من الإبل وألفٍ من العبيد (ذكر المؤلف سابقا أن القافلة عادة ما تتكون من ٢٠٠ من الإبل. المترجم). وعندما تنفق الجمال أو تتهاوى من الإرهاق، فإنها تذبح وتؤكل، وإذا مرض عبد أو أصابه الإعياء فإنه يترك على جانب الطريق، بيد أنه كان من مصلحة التجار أن لا يحدث هذا، إذ أن الإبل والعبيد كانا من أهم السلع المصدرة لمصر. كانت ميزة البضاعتين (الإبل والعبيد) الكبرى هي أن بمقدورهما السير بنفسيهما دون عون من أحد ليسوقهما! وكان من ضمن البضائع الأخرى المجلوبة لمصر العاج وريش النعام والصمغ والفلفل الحلو وأجزاء من وحيد القرن (مثل القرن والسن والجلد الذي تصنع منه سياط ممتازة) ونحاس مستخرج من «حفرة النحاس» والتي كانت تبعد مسيرة ٢٣ يوما أو نحوها من كوبي. شملت البضائع المجلوبة من مصر المنسوجات والملابس الإسلامية والأبسطة والأحذية الجلدية (خاصة الحمراء اللون) والحرير والأواني النحاسية والصابون وأوراق الكتابة والقهوة والمرايا وأدوات التجميل وأسلحة متنوعة تشمل السيوف والبنادق النارية ودروع الخيل. كان السلطان يحاول أيضا الحصول على مدافع لاستخدامها في قتال جيش سنار.

وبالإضافة إلى وصف براون الدقيق لمختلف جوانب الحياة في دارفور (كأول أوربي يطأ أرض دارفور). فلقد تطرق إلى لتفصيل كثير من من أنواع النباتات والحيوانات والأمراض والعادات المحلية في تلك السلطنة. بل أن الرجل قد كان لديه أثناء سنينه في دارفور شبلي أسد صغيرين. كتب أيضا عن وباء الجدري الذي احتاج تلك المناطق وأتى على نصف سكان دارفور وكردفان في عام ١٧٩٥م. ورغم القيود الصعبة التي كانت مفروضة على تحركاته، فلقد نجح براون في أن يعطي الكثير من المعلومات عن النيل وعن طرق التجارة. لقد كان قد سمع عن الأنهار والمستنقعات الواقعة جنوب دارفور، وكان براون يفترض أن تلك هي منبع النيل الأبيض (أو النيل الحقيقي كما أطلق عليه).

أشار براون في خريطته لجبال في جنوب دارفور أطلق عليها اسم «جبال القمر». ووصف جبل مرة بأنه جبل كبريتي، في إشارة إلى طبيعته الكبريتية، وذكر أنه نسبة لارتفاع ذلك الجبل واعتدال الطقس فيه، فإن سكانه يزرعون القمح. كان الطريق التجاري الرئيس بين شرق الفاشر وسنار يمر عبر النيل الأبيض، ووصف براون كثبان الرمل الكثيرة التي يجب على المرء قطعها قبل الوصول للأبيض، وذكر أن نقطة عبور النيل الأبيض هي «حلة

الليس»، والتي كانت تتحكم فيها قبيلة الشلك. وقد تأكد ذلك لاحقا من ما كتبه دي بلفوندز وغيره في عشرينات القرن التاسع عشر. أشار في خريطته أيضا إلى ملتقى النيلين عند أمدرمان، وأعطى في ملاحق كتابه وصفا دقيقا لأسماء المدن والقرى التي تمر عليها الطرق والأنهار، بيد أن محاولته تقدير المسافات بين البلدان على أساس المدة التي يقطعها المسافر على ظهور الحيوانات كانت أقل نجاحا. ورغم ذلك، فإن المرء لا يملك إلا أن يعجب بدقة براون في تجميع وتوثيق المعلومات رغم تقييد حركته في الفاشر وكوبي، ولا يفوقه في ذلك إلا التونسي في منتصف القرن التاسع عشر، والذي لم يكابد ما كابده براون، ولم تقيد حركته في السلطنة مثلما فعل ببراون.

كان منتظرا من براون بعد ثلاثة أعوام من الشقاء في دارفور أن يستكين للراحة والدعة، ولكنه عوضا عن ذلك، وبعد انقضاء أقل من ستة أشهر على عودته من دارفور بدأ في الترحال مجددا فبدأ جولة أخذته إلى الشرق الأوسط شملت القدس ولبنان وسوريا وتركيا، حيث زار القسطنطينية. عاد براون لداره في لندن في ١٥/ ٩/ ١٧٩٨م.

خصص براون لدارفور سبعة فصول من فصول كتابه السبعة والعشرين، وذيل كتابة بسبعة ملاحق كان نصفها مخصص لدارفور. لم يحظ كتابه حين ظهوره في طبعته الأولى باستحسان القراء نسبة للأسلوب الذي كتب به براون مؤلفه، ولقلة التفاصيل الإنسانية المذكورة في الكتاب. لقد عزا براون ذلك لضياع معظم ما سطره عند فقدانه لمتاعه الذي شحنه لبريطانيا من الإسكندرية قبل بدء سفره لفلسطين. لم يكن الكتاب سهل القراءة بالقطع، إذ كان على القارئ أن يغوص في خضم كثير من المعلومات ليظفر بما يطلبه. رغم تلك الهنات والمآخذ فقد تمت ترجمة الكتاب إلى اللغتين الفرنسية والألمانية في وقت وجيز عقب صدوره.

كتب أحدهم في عام ١٩٠٥م في مطبوعة ملكية أن سفر براون لا يحتوي على كثير من المعلومات المفيدة، وإن ما به من معلومات قد تخطاها الزمن، وهذا في نظري حكم جائر، إذ أن كثير مما سطره الرجل ظل صحيحا رغم تعاقب السنين والعقود.

آب براون للشرق الأوسط مجددا وشوهد في تركيا بين عامي ١٨٠٠و١٨٠٢م، ثم اختفى من الساحة من بعد ذلك حتى عام ١٨١٢م، حين بدأ في زيارة ترتاري (أرض منغوليا) عبر بلاد فارس. يبدو أن براون لقي حتفه غدرا في نهاية صيف ١٨١٣م بين مدينتي تبريز وطهران، وقيل: إن ما تبقى من عظام الرجل قد نقلت إلى تبريز، حيث وريت ثرى إحدى الكنائس هنالك.



أبو جميزة: ساحرٌ ثائر يتحدَّى الخليفة

من كتاب: «العقيدة المهدوية والتقاليد السودانية ١٨٧٠–١٩٣٠م»

ليدفين كابتيجينز

تقديم: عملت السيدة ليدفين كابتيجينز الهولندية الجنسية في قسم التاريخ بجامعة الخرطوم في أواخر سبعينيات القرن الماضي، والكتاب الذي نحاول هنا ترجمة صفحات منه هو نتاج بحث أجرته ابتداء من شتاء ١٩٧٨م في منطقة المساليت بدارفور. قصة ثورة (أو تمرد) أبي جميزة التي ترويها هذه السطور تستحق اهتماماً أكبر من قبل الباحثين والساسة والحكام والمحكومين ومن أهل الدراما والأدب أيضا!

ما أصدق شو (Shaw) حين كتب:

We learn from history that we learn nothing from history (المترجم)

حركة «أبو جميزة» سبتمبر ١٨٨٨ – فبراير ١٨٨٩م:

قام «أبو جميزة» بحركة مناوئة للمهدية في دارفور عبأت في أسابيع قليلة كل غرب دارفور ضد دولة المهدية. ففي خلال شهرين تكبد الأنصار ثلاث هزائم على يد جيوش الغرب، وهددت الحركة وجود الإدارة المهدية في دارفور تهديداً فعلياً وعرضها لخطر عظيم، لذا فإن حركة «أبو جميزة» تعد مرحلة محددة في العلاقة بين دولة المهدية وغرب دارفور ساد فيها عنف دموي، بيد أنها في ذات الوقت مرحلة وصلت فيها الصراعات والأزمات بين أقاليم دارفور المختلفة إلى ذراها. ولعل هذا البعد قد تم إغفاله من قبل كثير من المؤرخين رغم أن فهم هذا البعد ضروري لفهم حركة «أبو جميزة» ذاتها.

إن معرفة أحداث الفترة التي سبقت ظهور «أبو جميزة» كمحارب ضد المهدية وأسباب «ثورته/ تمرده» وما تلى ذلك من أحداث تعطي فكرة عن أحوال أقاليم دارفور في تلك الأوقات التي اتسمت بالتغييرات السريعة المتلاحقة، والتي أظهر «النظام القديم» خلالها قدرته على التغيير كما أوضح أيضاً عن محدودية إمكاناته لإنجاز ذلك التغيير.

برهن النجاح الابتدائي لتلك الثورة على أهمية الاعتماد على الولاءات التقليدية

والتحالفات القبلية في تعبئة المناصرين وعن كيفية التعاون والتغلب على العداوات والمخاوف والعقبات التقليدية. بينما أبان فشل تلك الثورة – من ضمن ما أبان – على أن الصراعات والحزازات وفقدان الثقة كانت أكبر وأعمق وأبقى من أن تخفى أو تُحتوَى أو تهدأ.

أعقب فشل الثورة/ التمرد هجوم قوي (لكنه قصير الأجل) من قبل أنصار المهدية في الغرب، ألحق دماراً شاملاً بالبلاد والعباد وكان سوف يؤدي لقيام تحالف جديد في كافة أقاليم الغرب لولا أن كارثة طبيعية (داء الكوليرا) في عام ١٨٩٠م قد أتت على معظم أفراد الجيش الغازي. كان من نتائج التغيرات التي حدثت في تخوم الغرب هو ظهور سلطنة المسلايت وتوحيدها وتقويتها مما خلق موازين جديدة للقوى في المنطقة.

أحداث الثورة/ التمرد:

الباحث موسى المبارك هو أفضل من وصف أحداث تلك الثورة/ التمرد، بيد أني أعيب عليه عدم التفاته إلى أن جهاز المخابرات – حتى في الأنظمة الدينية (الثيوقراطية) قد يعطي معلومات مضللة أو خاطئة.

يمكن تلخيص ما جرى من أحداث بالقول أن جبهة الغرب قد انتصرت في أغلب معاركها ضد جيش خليفة المهدي بيد أنها خسرت الحرب. كانت أولى المعارك التي انتصرت فيها جبهة الغرب هي معركة تاما. وفي هذه المعركة والتي جرت في التاسع من سبتمبر ١٨٨٨م باغت فرسان جبهة الغرب الأنصار وألحقوا بهم هزيمة كبيرة، وقتلوا منهم ٢٤ كان من بينهم قائدهم حامد مجبور. وصلت إمدادات الأنصار بقيادة عبد القادر ود دليل والعطا أصول متأخرة فلم تجد نفعا. انسحب الأنصار من دار تاما عقب الهزيمة إلى أبو قريان (في منطقة دار إيرنجا) وهي منطقة تتوسط المسافة من دار مساليت ودار قمر ودار تاما ودار بني حسين وتمتاز بوفرة الحبوب فيها. تجمع الأنصار في تلك البقعة وانضمت إليهم فرقة القائد الخاتم موسى وعناصر من السكان المحليين الذين اتخذوا من المنطقة حول معسكر الأنصار سكنا لهم، وبذا تمايز الصديق من العدو!

في أكتوبر ١٨٨٨م هاجم «أبو جميزة» معسكر الأنصار في وقت كان فيه معظم الجنود قد غادروا معسكرهم للاشتراك في هجوم على الثوار/ المتمردين وكانوا قد سلكوا طريقاً غير الذي سلكه «أبو جميزة»، ولعل ذلك من محاسن الصدف لأبي جميزة أو لعلها كانت إحدى إنجازاته الإستراتيجية. قضى «أبو جميزة» على من بقيَ في المعسكر وأضرم فيه النار. وكان لهذا الانتصار نتائج شديدة الأهمية. فلقد غنم «أبو جميزة» عدداً كبيراً من الأسلحة النارية و١١ صندوقاً من الذخائر وفوق هذا وذاك

غنم صيتاً ذائعاً وشهرة طبقت الآفاق. إلى ذلك التاريخ كان معظم مناصريه من التاما (وهم من ناصرو حركته ابتداءً ولكن معظمهم فارقها بعد الخسائر الفادحة التي تلقاها في المعركة الأولى) ومن المساليت. وكان الحاكم عند انتصاره في معركة أبو قريان قد كتب للخليفة ما يفيد بأن أتباع «أبو جميزة» يتألفون بالكامل من المساليت أبناء إسماعيل عبد النبي، وأن ابنه أبكر، قد انضم أيضاً لهذا «الدجال الأفاك»، وأن ما من قبيلة رضيت بالانضمام له سوى المساليت.

عقب معركة أبو قريان بدأت «الجبهة الغربية» في التكوين وما أن حل شهر نوفمبر من عام ١٨٨٨م حتى التأم تحت راية «أبو جميزة» أفراد من قبائل الفور (يقودهم سلطانهم الرديف أبو الخيرات) والتاما والأسنجور والجبل والزغاوة والبديات والترجم وبني حسين وبني هلبة والبرقو (الوداي) والداجو وغالب المساليت، مما أعطى التمرد/ الثورة شكل الحركة الجماهيرية. بدأ عثمان جانو عامل خليفة المهدي في الفاشر يستشعر الخطر القادم، فأرسل لعماله في سائر أنحاء الإقليم يطلب المدد من الرجال والسلاح والعتاد. بدا مصمماً على إبادة مناطق المسليات وقتل زعيمهم «الدجال الأفاك». وكتب للخليفة ما يفيد: «بعون الله سنجعل من الغرب قاعاً صفصفاً لا يرعى فيه غير النعام». عين محمد بشارة كقائد لجيش الأنصار الذي عهد إليه بالقضاء على أبي جميزة. اتجه ذلك القائد من كبكابية يوم ٢٦/ ١٠/ ١٨٨٨م ووجهته الغرب على رأس جيش قوامه ١٦٢٥٣ من الرجال.

وعبر مناطق كلكل وتنيت قبل أن يصل إلى «أم دخن» والتي أقام فيها معسكره، وهي قريبة من درجيل عاصمة أبكر سلطان المساليت ومن حرازة أبديل مقر قيادة «أبو جميزة». نجحت جبهة الغرب بقيادة «أبو جميزة» في الانتصار على ذلك الجيش العرمرم في ١١/ ١١/ ١٨٨٨م. وبلغ من جزع الأنصار من أخبار ذلك الانتصار أن حامية الأنصار في كبكابية فرت للفاشر حتى قبل وصول الناجين من جيش محمد بشارة إليها. تجب الإشارة هنا إلى أن عثمان جانوا لم يفقد توازنه عند سماعه لهزيمة رجاله فأمر بتركيز كافة جيشه في الفاشر وبقي فيها كسباً للوقت وانتظاراً للمدد من الرجال والعتاد، وبدأ يغازل جبهة الغرب المحاربة بينما مضى يقيم يومياً في غرب المدينة استعراضات لجيشه ليوهم أعداءه بوصول إمدادات من الرجال والعتاد من خليفة المهدي، وليرفع من روح جنوده المعنوية.

أصيب «أبو جميزة» بداء الجدري وما أن مات حتى بدأت الانشقاقات تجد طريقها في جبهة الغرب، وفي تلك الأثناء وصلت لعثمان جانو تعزيزات ضخمة من الجند والعتاد، وانسحب جنود الفور الذين كانوا قد انضموا لأبي جميزة من الذين كانوا يتواجدون في

المنطقة بين كبكابية والفاشر عائدين إلى ديارهم بعد أن ملوا الانتظار. بدأت جبهة الغرب في الهجوم على الفاشر في ٢٢/ ٢/ ١٨٨٩م وبلغ تعداد جيش المهدية يومها ٣٦٤١٩ رجلا يحمل ٧٦٥٦ رجلاً منهم السلاح الناري، وكان لهم من الخيل ٣٥٩١. في تلك الموقعة التي جرت خارج مدينة الفاشر هزمت جبهة الغرب وتم القضاء عليها.

من هو «أبو جميزة»؟:

أجمعت جميع المصادر الشفهية والمكتوبة على أن «أبو جميزة» كان العامل الرئيس في توحيد ثورة/ تمرد جبهة الغرب. استغرقت عملية معرفة من هو قائد جبهة الغرب زمناً ليس بالقصير من عثمان جانو. وكان عثمان يشير لذلك القائد (الذي كان يجهله) في خطاباته بـ«الشخص المضل» أو «المخذول»، ومضى يصفه بتلك الأوصاف حتى بعد أن نجحت مخابراته في كشف عن شخصية قائد الثورة/ التمرد. ظل اسم ذلك القائد وأصوله العرقية لغزاً كبيرا، وزعم أنه من القرعان. ولكن سرعان ما تناقل الناس أوصاف الرجل، فهو شاب غير ملتحي وأسود اللون مربوع القامة، وخلافا لمعظم أهل الغرب فلقد كان مجيداً للغة العربية. كان مثل الدنباري – ساحر الجراد locust charmer يرتدى خمس أو ست خواتم من الفضة والنحاس في أصابع يديه اليمنى. كان يعش «حياة أنصارية» إذ كان مداوماً على قراءة الراتب وعلى إمامة الناس في الصلاة، وكان أتباعه من الجهلاء يعتقدون أن قائدهم قد أتى من شجرة جميزة، وعرف في أوساط المخابرات المصرية في القاهرة باسم «أبو جميزة» رغم عدم وجود مثل هذا الاسم في وثائق المهدية في ذلك الوقت. يعرف الرجل في غرب دارفور باسم «أبو جميزة» وأيضاً باسم محمد زين (وهو اسمه الحقيقي).

عاش محمد زين قبل ذيوع صيته وسط المهارية وهم من الرحل في منطقة شمال غرب دارفور حيث عرف بينهم كفقيه ديني يمارس كتابة التمائم والحجبات للنساء والأطفال. وعندما هاجم الأنصار المهارية كان ساعتها يجلس فوق عنقريبه ينثر الرماد على فرسان الأنصار، وبعد هزيمتهم اتجه صوب دار تاما حيث عاش في الصحراء. ثم هاجم الأنصار دار تاما وطردوا سلطانهم فلجأ الرجل إلى أمراء تاما وأعلن أنه ابن السنوسي وأنه أرسل مع الريح، وأن الوقت قد حان لإعلان مهمته وهي القتال ضد الأنصار، ووعدهم بالنصر إن هم قاتلوا معه. وأعقب إعلانه القيام ببعض العروض «السحرية». قيل إن الرجل كتب كتاباً للخليفة يذكر فيه أنه بالنسبة لخليفة المهدي كعثمان بن عفان من النبي ﷺ وكتب كتابين للخليفة ولعامله في الفاشر عثمان جانو يقول فيهما أنه يتبع رسالة المهدي ويدين بالولاء للخليفة، ويدعي أنه كالخليفة عثمان بن عفان، ويشبه ما جرى بينه وبين أنصار المهدي بما جرى بين صحابة الرسول ﷺ،

ودعا عثمان جانو للتخلي له عن إدارة دارفور حقنا للدماء. لا بد أن خطاباته تلك قد كتبت قبل موته بوقت قصير.

إن كانت حكومة المهدية تعلم بعض الأشياء عن «أبو جميزة» فإن المخابرات المصرية بقيادة ونجت لم تك تعلم شيئاً عنه سوى أنه «شيخ المساليت» الذي نفى أباه إلى أم درمان فغضب وأقسم على الانتقام. ولمح ونجت بأنهم كانوا سعداء بالقلق الذي يسببه ذلك «السنوسي» كما كان يسميه لحكومة الخليفة، بل إنهم كانوا يأملون في أن يطيح الرجل بحكم المهدية.

يقول الشايب دوم سرية وهو أحد من يزعمون أنه من أحفاد الرجل، أن «أبو جميزة» ينحدر من قبيلة الحوازمة في كردفان والتي منها هاجر جده الكبير لدار تاما حيث عمل كفقيه تجمع حوله طلاب العلم والمريدين، فمنحه السلطان أرضاً واسعة في منطقة وادي تسمى جلمي وزوجه امرأة من تلك الأنحاء أنجب منها ولداً أسماه وادي (لأنه ولد في وادي).

كان محمد زين يحيى آدم محمد أحمد..... وادي هو أحد حفدة وادي، وولد في وارا في دار إيرنقا ودرس القرآن هنالك، ثم انتقل منها إلى جميزة الحمراء في دار تاما، وفيها أعلن أنه قائد المجاهدين ضد حكومة المهدية.

لم يثبت لأحد من المحققين أن «أبو جميزة» قد ادعى أنه النبي عيسى أو أنه مهدي جديد أو أنه أتى لتجديد الدين. يقول الرجل : إنه حارب الأنصار ليس لأنهم أنصار بل لأنهم – حسب رأيه – لم يكونوا أنصاراً حقيقيين ولم يكونوا خير ممثلين للمهدية. كان يحاربهم لأنهم لم يكونوا يخافون الله وكانوا يعتدون على حقوق الغير وعلى ممتلكاتهم. كانوا يدخلون بيوت الناس من غير استئذان ويأخذون عنوة ما يعجبهم ويعدون أنفسهم أعلى مرتبة وأرفع شأناً من المساليت ولم يكونوا يعبؤون بسلطانهم ولا يحترمونه. كانوا يشددون النكير على النساء المسكينات اللواتي كن يصنعن المريسة (والمهدية تجرم صنعها) ويحطمون (وبعنف وقسوة شديدين) أدوات صنعها وشربها. وكما كتب أحدهم «إن المساليت لم يقاتلوا هجام ويتخلصوا من نير المستعمر المصري التركي ليسومهم هؤلاء ذات العذاب......».

من أغاني المساليت الشهيرة «كبوا كلوا» وأسميت هكذا لأن الأنصار ما أن يشتم الواحد منهم روائح المريسة والخمور الأخرى حتى يهاجم المكان ويأمر بدلق كل وعاء في المكان.



السلطان علي دينار والسنوسية : تحالف إسلامي (١٩٠٦- ١٩١٠م)

جاي سبولدينق وليدوين كباتجينز

صدر كتاب السلطان علي دينار والسنوسية: تحالف إسلامي (١٩٠٦- ١٩١٠م) بقلم د. جاي سبولدينق أستاذ التاريخ في جامعة كين بنيو جرسي الأميركية، ود. ليدوين كباتجينز أستاذة التاريخ في جامعة ويزيلي الأميركية عن دار نشر جامعة نورثويستنر في عام ١٩٩٤. والكاتبان من المهتمين بالتاريخ السوداني، فلقد تخصصت د/ كباتجينز في تاريخ سلطنة المساليت ودرست في قسم التاريخ بجامعة الخرطوم في أعوام ١٩٧٧ – ١٩٨١م، بينما تخصص د. سبولدينق في التاريخ السوداني خاصة المملكة السنارية وترأس جمعية الدراسات السودانية في أمريكا في منتصف ثمانينات القرن الماضي. والكتاب يحوي ثلاثين رسالة متبادلة بين السلطان علي دينار وزعماء السنوسية، وترجمتها للغة الإنجليزية مع سطور قليلة من التعليق المقتضب.

أهدي المؤلفان الكتاب (باحترام كما قالا) إلى السلطان علي دينار وأحمد الشريف السنوسي.

والأخير بحسب تعريف موسوعة ويكيبيديا له هو شيخ عالم وداعية ومجاهد ليبي ينتهي نسبه – كما أوردت الموسوعة- إلي علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي. انشغل الرجل بالجهاد في معارك عديدة ضد الغزاة الفرنسيين والإنجليز والإيطاليين في مصر وليبيا والسودان، وساهم في نشر الدعوة الإسلامية وتعاليم الدين الحنيف في عموم أفريقيا، وهو صاحب كتاب (السراج الوهاج في رحلة السيد المهدي من الجغبوب إلى التاج) الذي دوّن فيه الرحلات الدعوية التي رافق فيها عمه السيد محمد المهدي السنوسي، وتزعم الحركة السنوسية منذ عام ١٩٠٢م حتى عام ١٩١٦م. عقب ذلك تم نفيه إلي تركيا والسعودية حيث توفي بالمدينة المنورة في عام ١٩٣٣م .

أما السلطان علي دينار فلقد ولد في قرية شوية بدارفور عام ١٢٧٢هـ، ولا يعلم الكثير عن طفولته وشبابه الباكر غير مساندته لعمه «أبو الخيرات» في التمرد الذي قاده «أبو جميزة» ضد الخليفة عبد الله التعايشي، وهروبه مع عمه بعد انتهاء التمرد. وبحسب ما جاء به أوفاهي عن تاريخ المنطقة وحكامها فإن أمير المهدية في الأبيض طلب منه المثول بين يديه وتقديم فروض الولاء والطاعة فلم يفعل، غير إنه آثر أخيرا

أن يبدي الخضوع للمهدية فبايع الخليفة التعايشي وظل في أمدرمان حتى معركة كرري، حيث أشيع أنه انسل مع ثلة من أتباعه قبيل المعركة قاصدا الفاشر عاصمة دارفور. هنالك وجد أميرا يحكمها أسمه «أبو كودة». أقنع علي دينار أبا كودة بالتنازل له عن أمارة دارفور ففعل بعد تمنع! لم يعارض المستعمرون البريطانيون في تولي علي دينار لسلطنة دارفور وظلوا – فيما يبدو – على الحياد حتى عام ١٩١٦م حيث استولوا على دارفور وضموها للسودان وقتلوا السلطان علي دينار عقابا له –كما قالوا– على تأييده للخلافة العثمانية.

كانت علاقة علي دينار سلطان دارفور مع الحركة السنوسية في ليبيا ذات التوجه الديني والإصلاحي علاقة توجس وحذر، وكان يؤثر السلامة وعدم الدخول معها في مواجهة مباشرة مع تحاشي أن تتمدد في دارفور مع الاستفادة – في ذات الوقت– من الحركة في تزويده بالبنادق والأسلحة الحديثة.

ظل السلطان علي دينار يحاول كسب ود السنوسي ويغرقه بالهدايا والعطايا وتشهد علي ذلك وثيقة أوردها المؤلفان. رصدت الهدايا التي بعث بها السلطان للسنوسي، وشملت ما قد نعده اليوم أشياء بسيطة القيمة ليست من النوع الذي يتبادله الملوك والحكام و«الأكابر» بيد أن لذلك الزمن وتلك المنطقة الفقيرة نسبيا معاييرها المختلفة عن عالم اليوم. خاطب علي دينار السنوسي بعبارات متخمة بالمدح والثناء (كما هي العادة يومئذ) بالقول: « سيدنا وأستاذنا السيد محمد المهدي ابن السيد علي السنوسي الشريف الحسني الخطابي رضي الله» وبعث له بقائمة طويلة من الهدايا شملت ضمن أشياء أخري: طاقات دبلان وتيل أبيض ومناديل حمر لزوم وضع القداحة عليهم وفرك حرير أزرق وبروش وعنقريب لولب ولحاف قطن وناموسية وحمار ريفاوي أبيض وواحد بقل (هكذا، ولعل المقصود «بغل») مكادي بسرجه وجوز مخدات قطن بأكياس عليهم تنتنة لأطرافهم وثلاثمائة ريال جيدي جيد.

شملت الوثائق التي وردت في الكتاب رسالة من السنوسي لعلي دينار يشكره فيها علي الهدايا، ونورد هنا جزءا من الوثيقة (كما كتبت دون تعديل):

«من العبد الضعيف عبد ربه محمد عابد الشريف إلى الملك المعظم السلطان المفخم سلطاننا السلطان/ علي دينار أبقاه الله تعالي متسنما غوارب المجد متنسما نسائم المدح والحمد آمين.....لقد تسلمت ١٠٠ ريال مجيدي عين والأشياء بموجب الكشف من سمن وعسل وجلد وغير ذلك فوالله أنا عاجز عن مكافاتكم وكلها جاءت فوق العادة انسررنا غايت ما يكون بها ووصلت جمعيها سالمة لله الحمد...وعرفونا بما

يلزمكم المحل محلكم والله يجمعنا بكم عاجلا وإن شاء الله نحرضوا التجار ونكاتبوهم يأتوا بالسلاح يقصدون بلدتكم البهية صانها رب البرية...وإن تيسرت جلود سبع ونمر تامة بمخابثها وما فيها شيء غائب منها الله يزيدكم في وسعكم وأيضا نصيب من الطيب نريدوه للدواء وان هو متعسر فلا حرج المحل واحد الله يبارك فيكم....».
وجاء في الرسالة أيضا طلب وساطة لأحدهم لبيع السلاح في دارفور : « ... وها هو سفرناه (الأخ) الشيخ عبد القادر الأزرق يأتيك إن شاء الله تجتمعون به وأوصيناه ... وعنده بعض مصالح أوصيناه يقضيها من طرفكم الأبهى وسلاح يبيعه هناك...» وان شاء الله نحرضوا التجار نكاتبوهم ياتوا بالسلاح يقصدون بلدتكم البهية».

قد تعد لغة الخطابات المتبادلة بين السنوسي وعلي دينار بمقاييس اليوم العملية ركيكة ومحشوة بالمحسنات البديعية والتأدب الزائد والتقعر الفج، فالسنوسي يخاطب علي دينار بالقول: « إلى الحضرة الفخيمة والسلطنة العظيمة العلم الشهير الجليل الكبير ذي الهمة العالية والعزيمة الماضية والسطوة الكاملة والرأفة الشاملة السلطان الكامل صاحب الحكم العادل ذي القول الوافي ومحل اللطف الكامل الشافي محبنا الأوحد سلطاننا السلطان علي دينار أعلى الله صيته في جميع الأقطار بحرمة نبيه المختار... وبعد إهداء تحيات تباري نسمات الصبا بلطفها وتزدري نشر خمائل الربي بعرفها خاصا بكم ...» ثم بعد كل هذه المقدمة الطويلة المادحة يأتي على موضوع الخطاب وهو تأكيد وصول الخطاب السابق وأن سبب تأخير الرد هو أن وصول حامل رسالة علي دينار قد صادف عيد الفطر في الكفرة فآثر السنوسي إكرام حامل الرسالة وإبقاءه في حضرته أيام العيد السعيد!

وفي رسالة أخري يبالغ السنوسي في الثناء على علي دينار فيبدأ رسالته بالقول: « حضرة صفوة الأكارم الأماجد الجامع ما تفرق من مكارم المحامد غرة جبين الشرف الاجلي وقرة عين المجد بدر العالمين الذي أضاءت به نواحيها ومنار المئاثر الى اهتدى به ساريها الملك الجليل القدر والمقدار سلالة السلاطين الأكرمين مولانا السلطان علي دينار....» وبقية الرسالة فيها مزيد من الثناء المفرط وما يمكن تصنيفه بمفاهيم اليوم من «ملق» رخيص عادة ما يأتي بعده طلب خدمة ما! ولم تقتصر الرسائل التي حواها الكتاب علي ما سطره أحمد الشريف السنوسي، بل كتب بعض أقربائه خطابات شخصية لعلي دينار كان اغلبها خطابات ودية ولا تتعلق بالسياسة أو تجارة السلاح، فلقد كتب من وصف نفسه ب «الضياء بالضو القدسي علي ابن السيد الشريف السنوسي» في عام ١٣٣٣ هجرية خطابا يطفح بمدح مفرط من شاكلة « إلى من امتطي من ذرا المجد أعلاها واقتصي من وافر الطيبات أغلاها عمدة الأجلة الأذكياء الفظلا

ونخبة الأعزة الأذكياء النبلا حبنا الأصفى ومحبنا الأوفى ذي المكانة والاعتبار مولانا السلطان علي دينار...».

لقد شاب التحالف بين علي دينار والسنوسي الكثير من العثرات رغم اتفاقهما المبدئي على مقاومة الزحف الفرنسي علي مناطق في دارفور (وليبيا كذلك). فلقد كان علي دينار منزعجا من الحملات التي كان تشنها قبائل الرحل السنوسيون على مناطق تقع تحت نفوذه. بل لقد أمر علي دينار بالهجوم على « الدور» التي كان يحكمها صالح أبو كريم. جاء في هذا الشأن خطاب التقريع الذي بعث به على دينار لصالح أبو كريم السنوسي فكتب يقول ما نصه:

«من العبد الضعيف الحقير الذليل المعترف بذنبه والتقصير الراجي عفو ربه القدير سلطان سلاطين العالم وناشر لواء العدل بين من حارب وسالم أمير المؤمنين وسلطان المسلمين ...علي دينار... إلى صالح أبو كريم هداه مولاه...واعلموا أن الأمور الحادثة منك من الفساد والمغايرو وعدم وقوفكم علي منهاج أولاد السنوسي/ هذا لا يحتاج حتى وان الناس يخبروني به فأنتم خالفتم الله والرسول وخالفتم أولاد السنوسي في سيركم وأفعالكم واني لا أرضاكم ما دمتم بهذه الصفة ولا نرضي إقامتكم في حدودنا ولا خير في جواركم ، فقوموا من بلادنا وابعدوا في بلدا غيره تعيشكم لأني لا نرضي الفتن والشواشر ، و لا ظلمتك إن كان توجهت من بلادنا خير لك وإن لم تقم وتتوجه فقد ظلمت نفسك والسلام. سنة ١٣٣٨هجرية».

وقد يلحظ متشكك أن عبارات الثناء المفرط والتبجيل الزائد (ولا أقول الكذب والملق) قد لا تكون منسجمة تماما مع تعاليم الدين الإسلامي الذي يقدم السنوسي نفسه كأحد دعاته ومجاهديه. ويبدو أن للسياسة أحكامها وللبرجماتية ضروراتها. بيد أن مراجعة سريعة للأناشيد (القديمة) التي تباري فيها شعرائنا في مدح «أب عاج أخوي» قبل نحو عقدين من الزمان تفيدنا بأننا لم نحرز كبير تقدم في مجال الحد من مدح ذوي الشوكة من الحكام، فما ظنك بمن قال مخاطبا «الرئيس القائد»: يا سيد الأخيار انحنا بلاك ما بنختار...وجبت الموية للعطشان وجبت اللقمة للجيعان...»! وبما أن حمي درجات الماجستير والدكتوراه في بلادنا قد وصلت حد الهذيان فهل من ضير من أن اقترح أن يقوم باحث/ ة مجتهد/ ة بتقديم أطروحة في «دراسة مقارنة في مدح الحكام في السودان في حقبه السياسية المتعاقبة»، ولن يعدم الباحث/ ة مادة غزيرة يسود بها الصحائف الكثيرة ويحلل دوافع قائليها في سبل كسب العيش المختلفة في البلاد!

أختم بما أعده أغرب وأعجب ما قرأته من ألفاظ المدح والثناء في تلك الرسائل المتبادلة وهو ما خطه من يسمي نفسه «المتضيء بالضوء القدسي محمد ابن السيد الشريف السنوسي» في عام ١٣٢٠هجرية مخاطبا السلطان علي دينار: «إلى ملجأ الإسلام ومضى الظلام علم الهدي ونجم للاهتدى تاج الجمال وإكليل الكمال العلم المشهور والسيد المنصور من جمع درر الفصاحة أغلاها ومن غرر البلاغة أبهجها وأعلاها من جزيل الفضل أرفعه وأرقاه... حيث استحسنه الله وارتضاه ذو المعارف الفياضة والعوارف الفضفاضة الصادق في مرضات رب العالمين... العارف بالله وحوائج المسلمين الملاذ العظم الرؤوف الرحم حوطة الإسلام وحمايته وخديم الدين المحمدي وكفايته مولانا وأبانا وقرة أعيننا ملجؤنا حيث لا ملجا ومنعتنا إذ لا منجى من نرغب في رؤيته ونطلب الله تعالي قوة دولته السلطان المعظم مولانا المفخم ظل الله في أرضه المعتصم بالله ووالدنا...ذلك الأسد المختار» ...إلخ إلخ إلخ!!!



من ذكريات الإداري البريطاني «ويلفرد ثيتقر» في السودان

تقديم: ولد الرحالة والمستكشف الإنجليزي السير ويلفرد ثيتقر في أرض الحبشة عام ١٩١٩م لأب قسيس، وقضى فيها معظم سنوات طفولته الباكرة. تلقى تعليمه في إيتون وأكسفورد بإنجلترا. شهد تنصيب الإمبراطور هيلاسلاسي (بدعوة شخصية من الإمبراطور) عام ١٩٣٠م، وكان حينها ما يزال طالباً. جاب أرض الحبشة مستكشفاً لنهر الأواش وعاش مع أفراد قبيلة الدناقيل الرحل. التحق بخدمة حكومة السودان في عام ١٩٣٥م حيث عمل لخمسة أعوام في دارفور، وفي منطقة السدود في أعالي النيل. كما عمل أثناء الحرب العالمية الثانية في خدمة «قوات تحرير الحبشة»، وفي «عمليات خاصة» في منطقة الشرق الأوسط. بدأ في الأربعينات رحلاته في صحراء شبه الجزيرة العربية، وكان من أوائل الذين قطعوا «الربع الخالي» مشياً على الأقدام، وكان صديقاً للبدو. في عام ١٩٦٠م هاجر إلى كينيا التي اتخذها موطناً. حارب مع أنصار الملكية في اليمن (١٩٦٦ – ١٩٦٧م). عرف بكرهيته للحياة المدنية الحضرية وطرائق عيشها ووسائلها العصرية، وتفضيله العيش وسط المجتمعات البدوية والقبائل التي تعد «بدائية».. وقد عاش وسط قبيلة الماساي الكينية حتى وفاته في أغسطس ٢٠٠٣م.

السطور التالية تعرض لبعض ما جاء في كتابه المعنون: Desert, Marsh and Mountain والذي نشرته دار «Motivate Publishing».

بعد انقضاء فترة خدمتي في الحبشة عدت إلى إنجلترا ، وانضممت لخدمة حكومة السودان عام ١٩٣٥م. وبما أنني كنت قد قضيت نصف عمري في أفريقيا، فقد كنت أشعر براحة عميقة عندما أكون في أديس أبابا، تلك البلدة التي عشقت زحامها وروائح أسواقها وجلبة وفوضى شوارعها الضيِّقة الصاخبة، بل وأصوات ضباعها في الليل. افتقدتُ كل ذلك في الخرطوم، وأصابتني خيبة أمل عظيمة وأنا أرى شرطي المرور فيها ينظم حركة السيارات التي كانت تتهادى على شوارع نظيفة ومستقيمة، ويلتزم فيها الموظفون بساعات دوام رسمي، وترى فيها السعاة يجوبون المكاتب بالبريد الصادر والوارد، وكبار الموظفين يقيمون حفلات العشاء والكوكتيل!

لحسن الحظ لم يطل بقائي في تلك المدينة (العصريَّة) فلقد نُقِلت إلى كتم في شمال دارفور تحت إمرة المفتش قاي مور. قبل رحيلي لكتم حذرني بعض المشفقين من ذلك

الرجل، وحدثوني عن طبعه المفرِط في الغرابة، إذ لم يكن الرجل يضعُ حساباً للزمن أو المكان، فكان يتناول طعامه في المكتب، ويكثر من السفر والتجوال. غير أن هذا النمط كان يناسبني تماما.

تعدُّ منطقة شمال دارفور (ومساحتها تفوق الخمسين ألف ميل) من أكبر المناطق في السودان. تحدُّها شمالاً الصحراء الليبية، وتجاورها غرباً الصحراء الفرنسية. غالب سكان المنطقة خليط من قبائل عربية وزنجية وبربرية؛ بعضهم من الرحل؛ وهم جميعاً يثيرون اهتمامي وإعجابي، ولقد اتخذت منهم أصدقاء عديدين. كان «قاي مور» هو الرجل الإنجليزي الوحيد معي في تلك المنطقة. ما أن انقضى نصف عام على قدومي لكتم حتى سافر مور في إجازة طويلة وتركني وحيداً في دفَّة القيادة. حمدتُ الله كثيرا على عدم توفر وسيلة اتصال لاسلكي بالفاشر عاصمة المديرية! كان البريد يأتينا من هناك مرة واحدة في الأسبوع بواسطة رجل يقطع كامل المسافة عدواً. كانت لدينا سيارتان: لوري وعربة نقل صغيرة، بيد أن غالب تنقلاتي – والتي كانت تستغرق معظم وقتي – كانت على ظهور الجمال.

كان «قاي مور» رجلاً بديناً قصيراً، له وجه شديد الاحمرار وعيون شديدة الزرقة، وكان كثير الثرثرة. يستيقظ الرجل مبكراً مع بزوغ الفجر، لكنه لا يغشى مكتبه إلا عند العاشرة أو نحوها حيث يظل يعمل فيه بلا انقطاع حتى مغيب الشمس. كان يتناول وجبته الوحيدة في أي وقت بين العاشرة صباحاً ومنتصف الليل! يندر أن نكون في كتم سوياً؛ بيد أنه في الأوقات النادرة التي نكون فيها معاً – حيث كنا أحياناً نتناول طعامنا سويا في بيته – يظل يثرثر حتى مطلع الفجر. كان قاي مور إنساناً بحق، شديد التفهُّم والإخلاص لمن يقوم على خدمتهم، وشديد الإيمان بأن التحوُّل السريع ضرره أكبر من نفعه. سبق للرجل العمل في الصحراء العراقية خلال الحرب العالمية الأولى، وأفادته تجربة العيش مع بدو الصحراء، وساهمت في تشكيل نظرته المختلفة عن نظرة غيره من مفتشي المراكز الآخرين في السودان. لشدَّ ما كانت تشدني قصصه التي كان يرويها لي عن فترته تلك في الصحراء العراقية.

تعلمت من «مور» أن أسافر خفيفاً دون كثير متاع، وأن أعتبر من يسافرون معي من الرجال الذين يقومون على خدمتي على أنهم «رفقاء سفر» أكثر من كونهم مجرد «خدَم». ما أن حللت بكتم حتى أخذني «مور» في رحلة طويلة كنا نقطع فيها الساعات الطوال ولا نتناول أثناءها طعاما إلا عند المغيب. لم أكُ قد امتطيت جملاً من قبل في حياتي إلى أن أتيت لكتم. كان الأمر بالنسبة لي مسألة تحدٍ، فتعلمت ركوب الجمال في وقت قصير. كان معظم مفتشي المراكز في السودان يأخذون بعادة مفتشي

المراكز في الهند - يأخذون معهم لمثل تلك الرحلات البعيدة عدتهم من الخيام والأسِرَّة والمقاعد وصناديق الطعام وأدوات المائدة. وكانت كل تلك الأثقال تُحمَل على ظهور قافلة من جمال النقل مع حاشية كبيرة من الخدم. لم يكن ذلك – لحسن الحظ – من طبع مفتشي مورا! فلقد كنا ننام على الرمال وتحت النجوم! وكنا نتناول الطعام مع رفقاء السفر باليد اليمنى من صحن واحد كما هي عادة القوم هنا. لم يكن هذا الضرب من السلوك مألوفاً عند موظفي حكومة السودان.

سرعان ما اتخذت لي جملاً – مما ورثته عن موور – أتنقل به. كان ذلك الجمل مشهوراً بقوة التحمُّل والصبر الشديد. سرتُ به ذات مرة نحواً من مائة وخمسة عشر ميلاً في ثلاث وعشرين ساعة، وقطعتُ به المسافة من جبل الميدوب إلى أم درمان في تسعة أيام، وهي مسافة تساوي قرابة الخمسمائة ميل (في خط مستقيم)، قطعناها في ما يقارب الستمائة ميل!

جبت على ظهر ذلك الجمل الصحراء الليبية لشهر كامل، ووصلت إلى آبار وادي النطرون، مصدر المياه الوحيد في تلك الصحراء البلقع. كان ذلك بالنسبة لي عالماً جديداً. ظللنا نتقدم ساعة بعد ساعة، ويوماً بعد يوم ولا يتغير شيء في ما يمتدُّ أمامنا من منظر! ظلت الصورة في الأفق أمامنا – حيث تلتقي الصحراء بالسماء – ثابتة لا تتغير. ما من صوت يسمع في المكان عدا صفير الرياح الحارة الجافة، وما من شيء فيه سوى الرمال النظيفة في عالم شديد البعد عن دنيا الناس.

كنت أقضي جلَّ أوقات فراغي في الصيد، حيث ظللت أصطاد المارية (الأوركس) وغزلان المها في الصحراء الليبية، وأطارد الضأن البرِّي في سفوح جبال الميدوب البركانية. كنت أصوِّبُ نيران بندقيتي نحو كل أسد ألقاه في المنطقة. كان الأسد يعدُّ في تلك الأيام عند أهل السودان حيواناً مؤذياً ضاراً يفتكُ بقطعان بهائم الرعاة في شمال دارفور. وفي معيَّة رفيقي في السفر الشاب الزغاوي إدريس، كنا نقتفي آثار الأسود لساعات طوال فوق التلال الصخرية والسهول الحصباء. بينما كنا في ذات مرة على ظهري فرسينا – إدريس وأنا – نتتبع آثار أحد الأسود مع أفراد من قبيلة بني حسين (وهي فرع من البقارة، رعاة البقر العرب الذين كونوا غالب جيش الخليفة، وحاربوا بشجاعة منقطعة النظير في أم درمان مؤملين أن تكون سيوفهم وحرابهم صنواً لمدافع وآليات جيش كتشنر).

لوَّح أفراد تلك القبيلة بحرابهم وأطلقوا صيحات عالية في تحدٍ لأسد أحاطوا به وحاصروه في مكان ضيق. في مثل تلك الحالات كانوا عادة ما يترجلون عن ظهور

خيولهم لملاقاة الأسد وجهاً لوجه، والهجوم عليه بالحراب. لم تكن لديهم مجن (درقات) يحمون بها أنفسهم، وكان عادة ما يقتل أحدهم في مثل تلك المواجهات، وتنهش لحوم الكثيرين منهم قبل القضاء على ملك «الغابة والصحراء ». لم أجد في نفسي الشجاعة كي أقدِم على مثل ذلك العمل؛ فما أن ألمح جزءاً من جسم الأسد مختبئاً خلف شجيرات حتى أقفز على ظهر حصاني وأسرع نحو مخبأ الأسد وألقم جسده رصاصات متتالية من فوهة بندقيتي. قتلت نحواً من ثلاثين أسداً خلال الأربع والعشرين شهراً التي قضيتها في شمال دارفور.

كنت استعد لعطلتي السنوية عام ١٩٣٧م عندما سمعت بأني سوف أنقل لمدينة واد مدني في منطقة الجزيرة بالنيل الأزرق حيث يزرع القطن، وضقت أيما ضيق بذلك المصير الذي كان من المحتم أنه ينتظرني. بيد أنني لحسن الحظ أفلحت في إقناع السكرتير الإداري أقس جيلان بأن يقبل استقالتي من الخدمة الدائمة لحكومة السودان، على أن انضم لتلك الخدمة بعقد مؤقت يضمن لي أن أعمل فقط في مناطق الشدة «المتوحشة»، وكان ذلك غاية مرامي. بعد العودة من عطلتي - والتي قضيت جزءا منها في المغرب- بلغت بأنه قد تم تعييني في منطقة غرب النوير في أعالي النيل. كان ذلك المركز يقع في قلب منطقة السدود. لم تكن الحكومة قد بسطت كامل سيطرتها الإدارية علي تلك المنطقة إلا في عام ١٩٢٥م. (وكما هو) معلوم فأن النوير قد قتلوا أول مدير بريطاني لذلك المركز، واستغرق الأمر بعض الوقت حتى تم – بعد معارك ضارية وطاحنة- إخضاع أفراد تلك القبيلة للحكم البريطاني.

لم يكن هناك وجود حتى لشرطة حكومية نظامية في تلك المنطقة، وكان الأمن يحفظ بواسطة «شرطة قبلية» يحمل أفرادها الحراب عوضا عن البنادق، وهم - شأنهم شأن سائر أفراد القبيلة - حفاة عراة، لا يختلفون عنهم إلا بشارة صغيرة كانوا يربطونها علي أذرعهم.

كان يدير ذلك المركز مستر مدبيرن ماكسويل، وهو رجل هادئ ممراح، كان سعيدا بالعيش وسط مواطنيه) العراة الحفاة في مملكة واسعة من القصب والماء. كان الرجل يدير المركز من باخرة صغيرة راسية علي النيل أسماها «كرري»، مربوط علي جانب منها قارب صغير كنا نستخدمه للمرور علي المناطق الفرعية الواقعة على النيل في المنطقة. كانت تحيط بالمكان من الجهات الأربع مستنقعات يصعب اختراقها، حيث تغطيها أعشاب النيل (البردي) التي يماثل ارتفاع بعضها ارتفاع باخرتنا «كرري» ذاتها. تكثر في تلك المستنقعات التماسيح وأفراس النهر، ولا تخلو تلك المستنقعات من الأبقار الوحشية وطائر اللقلق (أبو السعن).عند هبوط مستوي المياه كنا نرى الأفيال

كذلك. في جولاتنا الكثيرة علي نقاط مركزنا كنا نترك الباخرة راسية علي الشاطئ ونطوف - مع مرافقينا- لأسابيع عديدة عبر السهول الخضراء في مناطق تجمع البهائم، والتي ترعى فيها أيضا الآلاف من الأبقار الوحشية. لم تكن هناك أي مبان أو طرق، بل لم يكن هناك من أثر يرى. كنا نجوب المنطقة إلى أن تلوح لنا «كرري» مرة أخرى من مكان ما. لم تكن الحكومة تطالبنا بشيء سوى كتابة رسالة واحدة لحاكم أعالي النيل في ملكال مرة كل شهر لننبئه بأننا بخير.

كنا نحتفظ ببعض الملفات لاستعمالنا الشخصي، إذ لم نكن نحفل بالأعمال المكتبية كغيرنا من مديري المراكز. كنا ندير ذلك المركز بأبسط ما يمكن أن يكون عليه «الظل الإداري»، وكان مبلغ همنا وشغلنا الشاغل هو ردع النوير (وهم قوم مولعون بالقتال) ومنعهم من الإغارة على جيرانهم الدينكا.

النوير قوم جميلون. يمشون عراة كما ولدتهم أمهاتهم، إلا أن المرأة المتزوجة عندهم تربط (رحطا) حول وسطها. يتميز رجال النوير بالطول الفارع والأجسام الرفيعة المتناسقة والتقاطيع الصغيرة. يطيل الرجال من شعر رؤوسهم ويصبغونه ببول البقر ليكسبه لونا ذهبيا. يمتلك الواحد منهم عددا كبيرا من الماشية، وحول مقدار ما يملكه من أبقار تدور حياته كلها، فأبقاره هي التي ترمز لمكانته الاجتماعية وتجعله معروفاً عند الناس. وفي العادة يسمى الرجل على اسم ثوره.

إنهم أناس شديدو الاعتداد بالكرامة؛ لا يسرق الواحد منهم ولا يكذب، ولهم أعراف وتقاليد صارمة جدا، أجدها عادة ما تصاحب العري، وتضمحل مع اختفائه! إنهم قوم ودودون وعلى استعداد دوما لمد يد العون والمساعدة لمن يحتاجها. لقد أسروا بسمو أخلاقهم كل من عمل معهم من البريطانيين.

كنت أقوم بصيد الحيوانات لتوفير اللحم لعمالي، وقتلت أسودا كثيرة واصطدت الأفيال وأفراس النهر كرياضة. والنوير مولعون بلحم فرس النهر وشحمه، ويترصدون لقتله في الجزر الصغيرة المنتشرة علي النيل. ولقد ازددت حظوة ورفعة مكانة عندهم عندما قمت ذات مرة - منفردا- بقتل فرس النهر بحربة عندما هاجمنا ونحن على ظهر الباخرة. كانت تلك هي المرة الأولى والأخيرة التي أقتل فيها ذلك الحيوان. إن ذكر هذا المسلسل الطويل من الصيد الجائر للحيوانات الوحشية قد يثير الامتعاض اليوم، بيد أنه من الضروري وضع الاعتبار للظرف التاريخي والمكان الجغرافي الذي تمت فيه هذه الأعمال.

لقد كانت تلك المنطقة من أفريقيا تعج بعدد هائل من الحيوانات الوحشية، وكان

من الممكن أن ترى في اليوم الواحد الآلاف الأفيال (هكذا كما ورد في النص. المترجم). كان الهدف الغالب من وراء قتلي للحيوانات هو الحصول على اللحم؛ ولم يكن عدد ما قتلته منها ليفوق ما كان سيقضي عليه أسد أو أسدان في نفس المدة الزمنية. لقد بذلت ما بوسعي وأنا في كينيا كرئيس فخري لجمعية الحفاظ على الحيوانات الوحشية، حماية تلك الحيوانات من الصيد الجائر. بيد أنه من النفاق أن أقول إني نادم علي صيدي في تلك الأيام الذهبية الخالية. لم يكن بجانبي صياد أبيض وأنا أطارد أسدا جريحا وسط الأعشاب الكثيفة، أو أواجه فيلا غاضبا، وكم من المرات رجعت لمعسكري منهك الجسد خالي الوفاض من أي صيد. لم تكن لمغامرات صيدي أدنى شبه برحلات صيادي «السفاري» التي رأيتها لاحقا في شرق أفريقيا، تلك التي تنظم بواسطة مكاتب مهنية متخصصة، وتوفر للصيادين فيها السيارات الحديثة المريحة واللواري ووسائل الاتصال الحديثة، بل والثلاجات أيضا!

عندما كنت في دارفور سمعت الزغاوة يتحدثون عن جبال عظيمة هي جبال تبيستي في أقصى الغرب حيث يعيش التيبو. كان ناختقال قد أخفق في الوصول لتلك المنطقة عام ١٨٦٩م، بيد أن بعض الضباط الفرنسيين نجحوا في ذلك لاحقا. حاولت الوصول إلي تلك المنطقة النائية في صيف عام ١٩٣٨م مع مرافقي إدريس وفي معية رجل مسن من البداي يحسن لغة التيبو، إذ كان قد عاش بينهم صغيرا. بعد مسيرة عشرات الساعات لاحت لنا من على البعد كسحابة عالية فوق نهاية الصحراء قمة فوهة جبل تيبيستي البركانية (المعروفة بإيمي كوسي). صعدنا قمة الجبل بصعوبة بالغة، بيد أننا بلغنا القمة أخيرا ووقفنا علي بعد ١١٠٠٠ قدم فوق سطح البحر. في طريق عودتنا للسودان مررنا بثلاث بحيرات عجيبة في منطقة كوانانج، إحداها حمراء، والثانية زرقاء بينما كانت الثالثة خضراء. بوصولنا لكتم كنا قد قطعنا ما يزيد عن الألفي ميل في فترة لم تزد عن ثلاثة أشهر.



لا جديد تحت شمس السودان

القارئ لمذكرات السير جميس روبرتسون آخر سكرتير إداري لحكومة السودان (الإنجليزي المصري) والمعنونة «**السودان من الحكم البريطاني المباشر إلى فجر الاستقلال**» سوف يلحظ الكثير مما يؤكد مقولة أنه حقا ما من جديد في هذا البلد الواسع المضياف (وفي رواية المتلاف). وهنا أجلب (دون تعليق) بعض الفقرات التي ذكرتني وأنا أقرؤها (مترجمة بقلم د/ مصطفي عابدين الخانجي) بما دار (منذ عقود) ولا زال يدور في بلادنا ، ولا أظن أن من نحت المقولة الشهيرة :« التاريخ يعيد نفسه» كان يؤمل تصديق مقولته بمثل ما حدث ويحدث الآن.

١. أبيي:

«في إحدى المرات وأنا في المجلد أخطرت بأنه كان هناك قتال بين فرعين من فروع الدينكا في أبيي. وعند وصولي للشفخانة الصغيرة هنالك وجدت أنها تشبه محطة لاستقبال الحوادث. كان هنالك سبعة أو ثمانية من القتلى ، بعد أيام قليلة جمعنا رئيس القبيلة وكبير القوم وقمنا بإجراء صلح تم بموجبه دفع تعويضات من الماشية لتغطية الخسائر ومعاقبة الجانب الذي كان قد تسبب في الهجوم... بعدها عادت الأمور إلى مجاريها».

«كان كوال أروب زعيم الدينكا يعيش في منطقة عازلة بين العرب وكثافة كبيرة من الدينكا من ناحية الجنوب. كانت لديه عادة دبلوماسية في تغيير ملابسه. عندما يأتي للمجلد في الشمال كان يرتدي لباسا أبيضا فضفاضا وعلى رأسه عمامة شيخ عربي، وعندما يذهب جنوبا كان يرتدي البنطلون والقميص وربطة العنق كزعيم جنوبي، وفي منطقته كان يرتدي ملابس الدينكا المعتادة، وهي لا شيء غير بعض السكسك».

٢. صراع القبائل:

«كان لمركز النهود حدود مشتركة مع عشرة مراكز أخرى، وكان لأهالي ذلك المركز نزاعات مع جيرانهم. لقد طالب ناظر الرزيقات في جنوب دارفور مفتش مركزه أن يقوم بحرق أحدى قبيلة الحمر بدعوى أنها كانت مكمنا للصوص، ولقد تجدد نظام قديم يعود إلى أربعين عاما مضت عندما قتل الرزيقات زعيم الحمر شيخ محمد الشيخ في (مافورة). كان النوبة من مركز كادوقلي يقومون بمهاجمة المسيرية،

وكان النوير غرب ينون شمال حدودهم في أرض الدينكا تجوك. كان الدينكا ملوال يسرقون ماشية الحمر وهكذا!!»

٣. أرض الجبايات:

«كان إسهام السودانيين في الإدارة من أبرز الملامح في كردفان... كان المأمور يوسف سعد رجلا أسود قويا حازما من أهالي وادي مدني... كان يؤدي الأعمال التي تتطلب الذهاب إلى الخارج بكفاءة....كان يطارد المشايخ لتوريد الضرائب في أوقاتها وكان رده على أي أعذار هو قوله: « أنا عاوز فلوس بس!!»

٤. مشكلة الماء:

«وخلافا لأغلب المراكز التي كنت قد عملت فيها، كانت المشكلة الرئيسية في كردفان هي ندرة الماء رغم المجهودات الكبيرة التي بذلت لإيجاد موارد جديدة منها... كان النصف الشمالي من مركز النهود من أقل الأماكن ماء...»

٥. السيدان الجليلان:

«لقد شجعت الحكومة السيد عبد الرحمن المهدي الذي كنت قابلته لأول مرة في الكاملين عام ١٠٢٤م أن يروي الأراضي التي كان يملكها في الجزيرة أبا...وعلى الرغم من أن عونه كان مفيدا للحكومة أثناء الحرب العالمية الأولى، فلقد وجد بعد ذلك أنه إذا أغرى لتوجيه طاقاته للزراعة وإنتاج القطن فمن الممكن أن يكون أقل اهتماما بتنمية نفوذه الديني والسياسي في أنحاء البلاد، الشيء الذي تشعر الحكومة نحوه بقلق شديد... وعندما ذهب السيد عبد الرحمن عميقا في السياسة فيما بعد وكنت سكرتيرا إداريا كان السيد علي الميرغني دائما يتهمني بأنني قمت ببناء قوة السيد عبد الرحمن ونفوذه بإعطائه كثيرا من الأراضي لإنتاج القطن... بالطبع كان السيد عبد الرحمن أكثر عملا من السيد علي الميرغني....»

٦. وسائل السفر:

«كان القطار بطيئا وساخنا للغاية، تنعدم فيه وسائل الراحة ... وفي المركب النهري كانت الكبينات نظيفة وكان الخدم السودانيون يبدون في أدب جم، بيد أني شعرت ببعض الانقباض عندما ذهبت للحمام ووجدت الماء متعكرا وقد تغير لونه بفعل الطمي النيلي... كانت هنالك عشر محطات بلا أسماء تحمل الأرقام من واحد إلى عشرة...كان العمال في هذه المحطات يعتمدون في حياتهم على القطارات التي تمر بهم يقضون شهورا من العزلة.»

٧. احتجاجات شعبية على قيام خزان:

«كانت الحكومة المصرية تعتزم تشييد خزان في جبل الأولياء لتنظيم انسياب المياه إلى مصر. لقد قامت الحكومة بتكوين لجنة لفحص حقوق أهالي النيل الأبيض... كان الأهالي غير متعاونين، ففي كثير من الحالات كانوا يتجمعون في مجموعات ليتم تسجيل الأراضي باسم واحد منهم بغرض الاقتصاد في دفع رسوم التسجيل.... لقد أستغرق تشييد الخزان وقتا أكبر مما قدر له أولا، كما مضت عشر سنوات قبل أن يبدأ التشييد الفعلي للخزان...»

٨. مشكلة الجنوب:

«كان جنوب السودان من أصعب المشاكل التي كنت أعالجها عندما كنت سكرتيرا إداريا. لقد أدى الفشل في إيجاد حل سريع لتلك المشكلة إلي الحرب الأهلية في عام ١٩٥٥م، والتي استمرت من وقت لآخر في المراكز الجنوبية حتى يناير ١٩٧٢م. كتب الكثير عن الجنوب، ولا أود أن أعود إلي كل الخلفية مرة أخرى، لكن يجب أن يجب أن أعطي ملخصا مختصرا جدا عنها.

بعد عام ١٨٢٠م قام الغزاة من الأتراك والمصريين، بالتوغل بعيدا في الجنوب، واستطاعوا بقوة النار التغلب علي الشلك والنوير والدينكا الذين كانوا يقاومون في الماضي الغزاة القادمين من الخرطوم بدون مشقة. كانت النتيجة أنه في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر- ما عدا فترات قصيرة في زمان السير صامويل بيكر والجنرال غوردون – أصبحت المديريات الجنوبية في حالة مستمرة من القلق تجاه حكومة الخرطوم....كان التمويل محدودا ويأتي من الشمال... وكان يبدو أنه من غير المحتمل أن يقوم الجنوب – في المستقبل القريب- بدفع نصيبه من الاستثمارات التي تقام لتطويره.... كانت المواصلات فقيرة والمراكز الإدارية مترامية الأطراف بحيث تصعب السيطرة عليها...

إن المشاكل في الجنوب تكمن في السياسات الخاطئة التي أنشئت لتلك المنطقة... قامت الحكومة بوضع قانون المناطق المقفولة في محاولة لكسب ثقة الجنوبيين... كان لزاما على التجار الشماليين الحصول على تصاريح خاصة للعمل بالتجارة في الجنوب وذلك بغرض تحديد عددهم ومنع الجلابة من التجوال في المراكز الجنوبية... كان من المؤمل أن يتطور الجنوبيون خلف هذه الحواجز حتى يستطيعوا الوقوف على أقدامهم ويقابلوا الشماليين على قدم المساواة...»

وهنالك مزيد ....

قصة إنشاء ميناء بورتسودان

كولن رالستون باتريسون

تقديم: في هذا المقال الذي نشر في المجلة البريطانية «دراسات السودان» (العدد ٣٩ الصادر في يناير ٢٠٠٩م) قام المؤلف البريطاني كولن رالستون باتريسون بالتوثيق لإنجاز قام به عمه المهندس رالتسون كينيدي في مجال تخطيط وتنفيذ ميناء بورتسودان بعد سنوات قليلة من الفتح البريطاني المصري للسودان. والجدير بالذكر أن المؤلف كولن رالستون باتريسون كان يعمل وإلي حين تقاعده في ٢٠٠٢م بروفسيرا للطب في جامعة دندي الاسكوتلندية، ولكنه في هذا المقال يكتب كمؤرخ محترف مدعما بحثه بالصور والأشكال التوضيحية والمراجع.

والسطور التالية محاولة لتلخيص موجز لبعض ما كتب ذلك الطبيب عن إنجازات عمه المهندس

قبل عقود! يشير الكاتب إلى ما أنجزه كيندي في مجال الإنشاءات في بورتسودان وما جلبه ذلك النجاح عليه من تآمر رؤسائه وزملائه الحساد، وذلك أمر مشهود ومعلوم، فهنالك دوما كما قال طه حسين «من لا يعملوا ويؤذي نفوسهم أن يعمل الناس».

استعاد الجيش البريطاني المصري بقيادة الجنرال هورايتو كتشنر السودان من قوات المهدية في عام ١٨٩٨، وغدا كتشنر بذلك الإنجاز بطلا قوميا. كان الرجل يختار معاونيه بعناية فائقة وكتب إليهم ذات مرة تعميما طمئنهم فيه علي أنه يثق في أنهم سيؤدون المهام التي ألقيت علي عواتقهم بكامل الإخلاص والتفاني والسرعة المطلوبة، وأنه لن يتواني عن عزل كل من يفشل في أداء مهمته، وأنه لن يتدخل كثيرا في طريق أدائهم لعملهم إن أفلح في الوصول للهدف المنشود بصورة مشرقة وسريعة وفوق هذا وذاك بأقل التكاليف.

لابد من تسجيل حقيقة أن أعدادا صغيرة نسبيا من الإداريين والضباط البريطانيين قد نجحت في انجاز كثير من الأعمال في زمن قصير جدا، لعل أبرز هذه الإنجازات هو إنشاء ميناء بورتسودان علي ساحل البحر الأحمر. وسيسجل التاريخ أن ذلك الإنجاز كان وسيظل من أكبر إنجازات وثروات السودان، بيد أنه سيسجل أيضا أن عملية

إنشاء ذلك الميناء قد صاحبتها كثير من المشاكل والخلافات الشخصية بين العاملين في ذلك المشروع الضخم. وفي هذه الورقة سنحاول استكشاف بعض الجوانب غير المعلومة عن خلفيات بعض القرارات التي تركت أثرا على الميناء حتى يومنا هذا.

كانت أولويات الجنرال كتشنر تحتم عليه أن يولي أمر إعادة بناء مدينة الخرطوم معظم اهتمامه، خاصة إعادة بناء قصر الحاكم العام حتى ينزع أي شك في قلوب السودانيين من أن الحكم الجديد قد أتي ليبقي. عين كتشنر أول مهندس في خدمة حكومة السودان وهو الملازم جورج جورنجي (والذي منح لقب سير فيما أقبل من سنوات). استدعاه كتشنر ببرقية بالغة الاختصار والصرامة جاء في نصها الآتي: « احضر فورا للخرطوم لبدء الأعمار. لدينا ٢٠٠٠٠ جنيه. ابدأ بالقصر». وما أن بدأ شهر يناير من عام ١٨٩٩م حتى كان ٢٠٠٠٠ من الرجال يجدون في صنع الطوب، وبعد مرور شهر واحد رصفت كل الطرق وغرست ٧٠٠٠ شجرة.

في أغسطس من عام ١٨٩٩م انضم لفريق المهندسين الملازم ماكدوقال راليستون كينيدي وهو الحائز علي ميدالية لإشرافه علي مشروع هندسي في كانيدا بجزيرة كريت. كان ذلك المهندس لصيقا بكتشنر في مجال الإنشاءات. في ذات مرة كلفه كتشنر بالتخطيط لعمل مبني ما فقام الملازم الليل كله لإنجاز الخرائط وعرضها في الصباح الباكر علي كتشنر للحصول علي موافقته. نظر إليها كتشنر للحظات ثم فتح أحد أدراج مكتبه وأخرج منها خرائط لا بد أنه قضي في عملها الساعات الطوال ورمي بها للملازم قائلا: «هذه هي فكرتي»!

وفي ديسمبر من عام ١٨٩٩م حل كينيدي محل جورج جورينجي والذي انتقل للعمل تحت إمرة الجنرال كتشنر في حملاته في جنوب أفريقيا. عين كينيدي كمدير للأشغال العامة في أبريل من عام ١٩٠٤م ومضي في عملية الإنشاء والتعمير بوتيرة لا تعرف الكلل. تم بناء القصر علي نفس قواعد القصر القديم الذي عاش فيه غوردون باشا، وبعد بناءه سكن فيه كتشنر لوقت وجيز في خريف ١٨٩٩م. افتتحت مكاتب الحكومة في عام ١٩٠١م. ومنذ ذلك التاريخ بدأت الحكم الثنائي تحت إمرة سير ريجلابد وينجت (والذي خلف كتشنر) في التفكير في إقامة خط سكة حديدي من النيل عند أتبرا إلى سواكن علي ساحل البحر الأحمر. ظلت سواكن مدينة عتيقة تحتضن ميناءا هاما لتصدير الصمغ العربي ومنفذا بحريا للحجاج المتجهين نحو مكة. كان من المأمول أن يسهم وصول خط السكة حديد إلى سواكن في تسهيل عمليات تصدير محاصيل نقدية جديدة مثل القطن.

كلف كينيدي في عام ١٩٠٣م بمراجعة أمر إقامة الخط الحديدي وأن يكتب تقريرا عن مدي تقدم سير العمل فيه، فركب البحر الأحمر علي سفينة كانت تقل الحجاج من السويس وسمع من قبطان السفينة خلال الرحلة كلاما كثيرا عن المشاكل التي سيواجهها في سواكن. أخبر ذلك القبطان كينيدي بأمر هام جدا ستكون له آثار هامة على اقتصاد البلاد، إذ اخبره بوجود مرسي أفضل من سواكن ولا يبعد أكثر من خمسة وثلاثين ميلا (٥٦ كيلو) شمال مكان يسمي «شيخ برغوث» (يسميه الهدندوة حتي اليوم حسب ما أنبئنا به صديق خبير «برؤوت». المترجم) تيمنا باسم شيخ صالح دفن هناك وله قبة تزار، وأراه ذلك المرسي فوجد فيه كينيدي مكانا منسبا جدا لميناء جديد يبز سواكن. كانت سواكن جزيرة ذات فتحة ترتبط مع البحر بواسطة قناة ملتوية ضيقة. كانت تلك الفتحة من الضيق بحيث لا تسع دخول سفينة حمولتها تزيد علي ٥٥٠٠ طن، ولا تتسع تلك الفتحة لأكثر من خمسة أو ستة سفن في آن معا، بل لا يمكن لتلك السفن من أن تدور حول نفسها في ذلك الممر المائي الضيق. وشهد كينيدي مثالا على ذلك بنفسه عندما رأى إحدى البواخر على اليابسة تحاول الالتفاف ودخول الماء.

وبالإضافة إلى نقائص سواكن كميناء، فلقد لاحظ كينيدي أن سواكن كمدينة تعاني من قصور عظيم. كانت سواكن جزيرة ضيقة تعج بالمساجد العتيقة. كانت الأراضي المحيطة بتلك الجزيرة (عدا منطقة واحدة كان يعمل فيها مهندسو السكة حديد) تعج بفرائس (quarries) تحتاج إلى أن تملأ. وباختصار، توصل كينيدي إلى أنه من الصعوبة إنشاء ميناء حديث في سواكن دون بذل أموال طائلة لا قبل للحكومة وقتها بها. وعلي النقيض من ذلك فإن الفتحة في «شيخ برغُوث» كانت أوسع وأعمق وأفسح تتيح للسفن المناورة والدوران في كل الاتجاهات. كانت المنطقة حول ذلك الميناء المقترح مهجورة مقفرة لا يسكنها أحد مما يجعل استملاك الأرض لإنشاء الميناء والمدينة زهيد التكاليف.

لم يكن كينيدي هو أول من أشار إلى مشاكل مدينة سواكن. فلقد كتب الملازم مهندس شيبندل (وكان يتجول في سواكن هو وزميل له يدعي واطسون في انتظار تجهيز قافلة جمال تأخذهما عبر الصحراء) متسائلا عن الحكمة من اختيار سواكن كميناء في المقام الأول، إذ أن مدخل الميناء مغطي بالشعب المرجانية لدرجة تمنع السفن من الدخول ليلا للميناء. كان ذلك الرجل (وربما آخرين كذلك) علي علم بوجود مرسي آخر أكثر ملائمة من سواكن يقع شمالا.

تلقي كينيدي في عام ١٩٠٤م أمرا من السير وينجت ببحث إمكانية تعديل وتوسيع

القناة المؤدية لميناء سواكن. بحث كيندي الأمر وكتب في تقريره أنه حتى إن أمكن تنفيذ ما طلبه وينجت فإن ذلك سيهلك مالا لبدا، وستظل عيوب الميناء الأخرى كما هي. فصل كيندي في تقريره المرسل في أبريل من عام ١٩٠٤م كل عيوب ميناء سواكن والفوائد المرتجاة من إنشاء ميناء جديد في «شيخ برغوث». أكد كيندي في تقريره أنه وتنفيذا للأوامر الصادرة إليه فلقد قام بوضع خطط إعادة بناء وتعمير ميناء ومدينة سواكن والمباني الحكومية فيها، بيد أنه يقترح التروي وعدم التسرع بصرف أموال طائلة في ذلك المشروع قبل أن تدرس لجنة مختصة أمر «شيخ برغوث».

لم يتسرع السير وينجت في البت في الأمر وظل حائرا يقلب الأمر من كل النواحي. كانت يعتقد – مخطئا– أن البحرية الملكية تؤثر سواكن على ما سواها، وكان محرجا بعض الشيء أمام تجار سواكن والذي قطع لهم وعدا بضمان رفاهيتهم ونمو تجارتهم وازدهارها عند وصول خط السكة حديد إلى منتهاها في مدينتهم، وكان الجميع منذ عام ١٩٠١م يتنبؤون لسواكن بمستقبل واعد وبأن تنمو تجارتها وتربو. كذلك كان السير وينجت يخشى من تغيير خططه بعد أن قطع العمل في مد خط السكة حديد شوطا مقدرا.

ظل كيندي يلح علي السير وينجت بأن يكون لجنة تشمل خبراء من البحرية الملكية كي تعاين الموقعين (سواكن و«شيخ برغوث») بيد أن الأخير ظل أسيرا لتردده وشكه مما دعا كيندي – بعد أن عيل صبره– إلى تخطيه والكتابة مباشرة إلى رئيس وينجت في مصر اللورد كرومر. على إثر ذلك كونت لجنة لبحث أمر الميناء كما اقترح كيندي، ولكن وينجت أسرها في نفسه ولم يغفر لكيندي فعلته المخالفة للعرف العسكري المتبع، وسادت بينهما أجواء من العداء والكره وظلال من التوجس والريبة. كونت اللجنة التي تدارست أمر الميناء الجديد من ثلاثة مهندسين وقبطان في البحرية الملكية وقدمت تقريرها في أكتوبر ١٩٠٤م ، والذي أتي مفضلا «شيخ برغوث» علي سواكن كميناء جديد مقترح. أضاف التقرير أيضا أن تحويل نهاية خط السكة حديد من سواكن للمدينة الجديدة لن يؤخر إكمال مد خط السكة حديد إلى النيل، فلسوف يكتمل بناء الخط الحديدي في خلال ثلاثة أو أربعة أعوام، بينما يمكن أن ينتهي العمل في إنشاء الميناء الجديد في خلال عام ونصف تقريبا.

رحب كيندي بالتقرير بيد أنه تحفظ على ما أوصت به اللجنة من أن يكون مساحة المدينة المقترحة تعادل خمسة مرات ونصف مساحة حدائق القصر في الخرطوم. كان كيندي يعتقد أن مساحة المدينة المقترحة ينبغي ألا تقل عن أربعة أمثال ما أوصت به

اللجنة. كان الرجل يتحسب لإمكانية التوسع المستقبلي في المدينة المقترحة، وكان يصر علي أن المباني لا بد أن تكون على بعد لا يقل عن ١٤٠ ياردة من رصيف الميناء الجديد. تم أخذ ملاحظات كينيدي في الاعتبار عند وضع الخطط النهائية للميناء الجديد، والتي قام كينيدي نفسه بعملها في خلال أسبوعين اثنين. كان كينيدي مهموما أيضا بتأمين مصادر مياه شرب للمدينة، وفكر في حفر آبار ترتبط بأنفاق تصب في وحدة تجميع للمياه يمكن توزيع المياه منها. كان الرجل يدرك أن مياه الآبار في سواكن و«شيخ برغوث» ستكون في الغالب مالحة، لذا فلقد نصح بحفر الآبار بأعماق بعيدة أو حفرها في مناطق بعيدة عن البحر.

بدأ العمل الفعلي في تشييد ميناء بورتسودان في يناير ١٩٠٥م تحت إشراف مهندسي البحرية الملكية ورعاية مباشرة ولصيقة من كينيدي بصفته مدير الأشغال العامة. وفي مايو من ذات العام افتتح الميناء، ولم ينصرم العام حتى تزايد عدد سكان المدينة فبلغ ٤٣٠٠ نسمة منهم أناس من مصر وأثيوبيا واليونان وإيطاليا وسوريا وإيران إضافة لعدد كبير من السودانيين. أطلق على الميناء اسم «بورتسودان» بعد أن رفض وينجت وكرومر أن يسمي الميناء بورت وينجت أو بورت كرومر تيمنا بهما.

وباشر الميناء العمل منذ ١٩٠٦م رغم أنه لم يتم افتتاحه رسميا حتى اليوم الأول من أبريل عام ١٩٠٩م حين قدم خديوي مصر عباس حلمى الثاني لبورتسودان على ظهر يخته الرسمي حيث استقبل بإحدى وعشرين طلقة، وأقيم حفل رسمي على شرفه خاطبه وينجت وكينيدي.

أقيمت عدد من المباني بالميناء والمدينة منها مبني من الحجر للجمارك ومكتب للبريد ومدرسة ومستشفى ومسجد خشبي وكنيسة يونانية وإرسالية للرومان الكاثوليك ومدرسة لهم. وفي ديسمبر من عام ١٩٠٦م تم إنشاء «نادي بورتسودان الرياضي» وتم وضع حجر الأساس لحديقة عامة في المدينة في عام ١٩٠٨م.

كانت شهور الصيف في بورتسودان شهور عذاب متصل بالنسبة للأوربيين والسودانيين على حد سواء، إذ أصيب كثير من الأوربيين بحمى الدينجيو (dengue fever) لذا اقترح كينيدي إقامة مصيف علي مرتفعات البحر الأحمر في منطقة «أركويت» على ارتفاع يبلغ أربعة آلاف قدم. تتوفر فيه ملاعب تنس وميادين غولف.

لم تجلب إنجازات كينيدي له سوى حسد رؤسائه في المجلس العام للحكومة وزملائه على حد سواء ، دبر له حساده مجلس محاسبة برئاسة سير هامبري براون بدعوي أن كينيدي قد أوغل في الصرف البذخي على إنشاء الميناء، وأن ما خصص من

أموال للصرف علي الأعمال العسكرية قد حولها كيندي للإنشاءات المدنية.

لحسن حظ كيندي فلقد كان حريصا على الاحتفاظ بكل الوثائق الدالة على أوجه الصرف والتفويض الممنوح لكل مشروع، فلم تجد لجنة التحري أساسا لإدانته بما نسب إليه فبرأت ساحته. بيد أن ذلك لم يرض كارهيه، فلقد جاء في وثائق حكومة السودان خطاب من لي استاك (وكان حينها مديرا للمخابرات العسكرية السودانية) مرسل إلى السير وينجت يأسف فيه على تبرئة كيندي، وجاء في الخطاب: « إن التقرير باختصار يبرئ كيندي كمهندس، بيد أنه يلومه على ضعف مقدرته على اتخاذ القرارات المناسبة وعدم قدرته على التوافق والتعامل الحكيم مع المصالح الحكومية الأخرى، وهي عيوب في شخصيته يدركها الكل». لم ييأس حساده من محاولة إيذائه، فعمدوا إلى اقتراح يهدف إلى إعادة تنظيم مصلحة الأشغال العامة بحيث يمكن إلغاء وظيفة كيندي بالكلية، بيد أن تلك المحاولات باءت بالفشل الذريع وبقي كيندي بعدها في وظيفته لمدة تسعة سنوات أخرى.

كانت هنالك مشكلة دائمة الحدوث في بورتسودان ، ألا وهي العطش في المدينة والميناء على حد سواء. وكما توقع كيندي فلقد كانت مياه الآبار في بورتسودان غير مستساغة للأوربيين، مما استلزم جلب الماء من آبار وخزانات تبعد عن المدينة بما لا يقل عن خمسة أميال في خور موج، وكانت تنقل للمدينة في ناقلات سكة حديد. حاول الناس أيضا حفر آبار شديدة العمق أملا في أن يكون ماء هذه الآبار أقل ملوحة من غيرها، بيد أن الذي حدث هو العكس تماما. وفي وقت مبكر في عام ١٩٠٥م كان المهندس المقيم في بورتسودان النقيب هنري كيلي يستكشف في مصادر المياه في التلال القريبة من المدينة حين اكتشف جدول ماء (اسمه خور أربعات). كان بمقدور ذلك الخور أن يوفر الماء العذب لمدينة بورتسودان بل ويكفي حاجة مشروع زراعي. كان كيندي يصر على أن بورتسودان تحتاج يوميا ما لا يقل ألفي طن من المياه العذبة يوميا، بيد أن خططه لإنشاء خزان أو سد مع بناء خط للأنابيب لمستودع كبير قوبلت بالرفض بسبب ارتفاع التكلفة.

وفي١٩١١م قدم كيندي خطة أخرى أقل كلفة من سابقتها فقوبلت بالرفض مجددا. من المفارقات العجيبة أن تقديرات كيندي لاحتياجات المدينة من المياه عدت صحيحة ودقيقة وعمل باقتراحاته بعد سنين من تقديمها، وبالتحديد في عام ١٩٢١م، أي بعد مغادرته البلاد إلى مصر، كتب المهندس هربرت عن أسفه لإهمال وتجاهل مقترحات كيندي من أجل حل مشكلة المياه في بورتسودان، وتحسر على عدم

تنفيذها في وقتها، إذ أن كل الحلول المؤقتة والجزئية التي قامت بها الحكومة قد كلفت في الواقع أكثر مما كانت ستكلفه مشروعات كيندي المقترحة.

وبين عامي ١٩١٦ و١٩٢٠م ساءت العلاقات بين كيندي وأعضاء الإدارة الحكومية أكثر فأكثر. من أشهر الخلافات التي دخل فيها كانت بينه وبين سير ميردوخ ماكديونالد مستشار وزارة الأشغال العامة المصرية، وكان الأخير يعترض على قيام خزان سنار على النيل الأزرق بدعوى أن قيام هذا السد سيضر بمصر.

ووقف إلى جانب كيندي في هذا الخلاف وليام وليكوكس وهو المهندس الذي بني سد أسوان الأول. ولد هذا الخلاف قضايا قانونية اتهم فيها كيندي بالتشهير الجنائي وإشانة السمعة، فهجر كيندي مصر وآب إلى بلاده. مات كيندي في عام ١٩٢٦م عن عمر لم يتجاوز الواحد والخمسين عاماً. يا ترى لم كانت رحلة كيندي المهنية عاصفة بذلك الشكل وهو الذي كان محط إعجاب واحترام كل من عمل معه. كان متوافقا جدا مع كتشنر بيد أن وينجت لم يكن يستلطفه، وكان اختيار كيندي لموقع «الشيخ برغوث» (بورتسودان) كميناء للبلاد هي القشة التي قصمت ظهر البعير، ودقت آخر مسمار في نعش العلاقة بينهما.

في عام ١٩٥٠م طلبت ابنة كيندي مَن مؤرخ مشهور هو مايكيل بارينجتون أن يكتب سيرة أبيها الذاتية، أملا في إنصاف الرجل وإعادة حقه الأدبي. طلب المؤرخ منها السماح له بالتفتيش في الغرفة العلوية (المخزن) بمنزل كيندي بيد أنه لم يجد كثيرا من الوثائق الهامة التي تمكنه من تسطير كتاب كامل، بيد أنه نقل ما عثر عليه من وثائق لأرشيف السودان في جامعة ديرام البريطانية حيث بقيت هنالك (واستفاد منها كاتبنا الطبيب في هذا المقال. المترجم).

كان ذلك المؤرخ يؤكد أن كيندي قد ظلم ظلما بينا وصار دوره في بناء مدينة وميناء بورتسودان نسيا منسيا، بل إن إنجازات كيندي قد نسبت زورا وبهتانا إلى سير وينجت!



جوانب من الحياة الاجتماعية (الخاصة) للإداريين البريطانيين بالسودان

فرانسيس دينق وم. دالي

تقديم: هذه ترجمات لإشارات متناثرة عن بعض «المسكوت عنه» من بعض جوانب الحياة الاجتماعية (الخاصة) للإداريين البريطانيين بالسودان، جاءت في كتاب لفرانسيس دينق السوداني الجنوبي وم. دالي (البريطاني) عنوانه «قيود/ روابط من حرير» : العامل الإنساني في الإدارة البريطانية للسودان

Bonds of Silk: The human factor in the British administration of the Sudan

من إصدارات دار نشر جامعة ميتشيجن الأميركية في عام ١٩٨٩م. يرصد الكتاب آراء عدد من البريطانيين والسودانيين من الذين عملوا كإداريين في الفترة الاستعمارية حول العلاقات الإنسانية بين الشعبين. وقد سبق لنا ترجمة جزء من الكتاب عند الحديث عن «قصة دواؤد عبد اللطيف مع الإنجليز» و«قصة بابو نمر والإنجليز».

حكى السيد كينيث هندرسون (١٩٠٣م – ؟) حاكم دارفور في الفترة بين ١٩٤٩م – ١٩٥٣م عن السياسة الباكرة للحكومة التي كانت تهدف لعدم تشجيع صغار الإداريين البريطانيين على الزواج أو إحضار زوجاتهم للسودان، وضرب مثلا بنفسه حين قضى تسعة أعوام عزبا قبل أن يتزوج وهو في عامه الأخير بالنهود. في سنوات الاستعمار الأولى كان الزواج غير مسموح به بتاتا للموظفين البريطانيين، إلى أن أصدر بيلي باشا (الذي قضي في خدمة الإدارة البريطانية ٢٤ عاما، وكان حاكما لكسلا في عام ١٩٢٦م) قرارا اعتباطيا بألا يحضر أحد من الإداريين امرأته – إن كان متزوجا – إلا لشهرين فقط في العام! كان التبرير الرسمي هو أن الزوجة تشكل مصدر إزعاج للموظف يصرفه عن أداء عمله...كان الإداري البريطاني يقول دوما: «إن كان لابد من امرأة، فلتتخذ لك واحدة من ...(وذكر قبيلة بعينها) تعينك على تحسين لغتك العربية، بيد أن ذلك لن يؤدي إلا لتعقيد موقف مفتش المركز بسبب «الجانب المظلم»» قصد الرجل بـ «الجانب المظلم» هو تعقيد وضع مفتش المنطقة كحاكم يتوقع منه الحيدة في الإدارة!

ظلت علاقة الموظفين البريطانيين بالنساء المحليات محدودة ونادرة جدا لأسباب

عديدة معقدة تتعلق بطبيعة الوظيفة أو لأسباب اجتماعية وثقافية أخرى. خلق «تبتل» الإداري البريطاني وبعده عن النساء فهما مشوشا عند معظم الذين وجدوا صعوبة في فهم وتقبل أن يظل رجل في عمر وسلطة مفتش المركز عزبا! ضرب أندرسون مثالا آخرا بنفسه حين قال: إن رجال قبيلة «....» قد شغلوا أنفسهم بأمر بقائه عزبا، فطلبوه لقاءه ودعوه لشرب فنجان من القهوة ذات يوم خريفي جميل وسط أرض خضراء منبسطة وأنعام ترعى في سكينة. تحدثوا في شؤون كثيرة،ثم ساد صمت قطعه «الشيخ» وهو يمسح على لحيته الطويلة بسؤاله لي إن كان بالإمكان أن يسألني عن أمر لا يخلو من خصوصية. أعطيته الإذن فقال لي ما يفيد بأنهم يتساءلون عن ما إن كان ينبغي على الزواج الآن، إذ أنه ليس من اللائق أن يظل رجل في مثل سني وقدري دون زواج... وعرضوا علي في نهاية المطاف الزواج من إحدى فتياتهم (بعد دفع مهرها من البقر)، وحين أغادرهم أو عندما أرغب في الزواج من فتاة من بنات جلدتي فيمكنني أن أطلق بنتهم، وسيعيدون لي أبقاري التي دفعتها كمهر. رددت عليهم بالسؤال عن مصير ثمرة ذلك الزواج (الأطفال)، فرد الشيخ في بساطة بأنهم سيكونون أطفالا رائعين وسيعملون كمترجمين...

شرحت لهم إنني إن تزوجت من قبيلتهم فقد أظلم قبيلة كذا وكذا (سمى القبائل المجاورة)، وسيصعب على أن أكون محايدا في أمور كثيرة تهم أهالي المنطقة بقبائلهم المختلفة. بدا لي أنهم اقتنعوا بمنطقي؛ ولكنهم قالوا بعد قليل من التفكير: «ولماذا لا تتزوج إذن بفتاة من «بنات البحر؟»». رددت عليهم بالقول بأنه ما من فتاة محترمة منهن ستقبل بي. لم يقتنعوا بذلك فقالوا...«حسنا...نستطيع تدبير ذلك لك». لحسم الأمر قلت لهم في نهاية اللقاء إن ديني لا يسمح بما عرضوه علي. كان ذلك عسيرا على التصديق بعض الشيء، إذ أن بعض زملائي كانوا يمارسون ما حرمته على نفسي. أكد أندرسون أن إقامة علاقة (عابرة) مع امرأة محلية من شأنها أن تنهي مستقبل الإداري البريطاني، وضرب لذلك بمثال لإداري بريطاني شاب في إحدى الأقاليم النائية أقام علاقة من نوع ما مع فتاة تبين أنها قريبة لأحد العمد. أثار ذلك العمدة كثيرا من المشاكل والتضييق بل والتهديد للإداري الشاب، مما عجل برحيله من وظيفته ومن البلاد بأسرها.

تدخلت زوجة هندرسون (التي حضرت لقاءنا مع بعلها) وأدلت برأيها بالقول أن قرار منع الزواج أو إحضار الزوجة كان أمرا حكيما لمن كان في مناطق نائية كدارفور مثلا، التي يصعب الوصول إليها أو الخروج منها، وفي حالات مرض الزوجة والأطفال سيكون الأمر حرجا جدا، خاصة في ذلك الزمان حين كانت الطرق رديئة،

والطيران معدوما. كان من رأي جوان بيل (الذي عمل إداريا في الأبيض وكسلا ثم نائبا للسكرتير الإداري في نهاية الخمسينيات) أن قرار منع الزوجات أو استقدامهن للسودان كان قرار صائبا، فالموظف البريطاني الشاب كان بحاجة إلى كل الوقت للعمل، وإلى أن يظل حرا ليسافر ويقطع الفيافي متى دعت الحاجة ودونما سابق إنذار. لا ريب أن وجود زوجة وعيال سيعيق عمل الإداري لحد كبير.

كانت الإدارة البريطانية تمنع منعا باتا زواج ضباط قوة دفاع السودان، وتطلب ممن يرغب فيهم بالزواج التقدم باستقالته (رغم علمي أن كبار الضباط بالخرطوم كانوا يصطحبون زوجاتهم). أشار بيل إلى الأمر يتعلق أيضا بالزوجة، وبرغبتها في ركوب المصاعب وتحمل المشاق والتعرف على ريف البلاد وأهلها، وربما تعلم شيء من اللغة العربية. كان هنالك بعض الزوجات البريطانيات من التشكيليات اللواتي ملأن أوقات فراغهن بالحديث مع، والتعرف (العابر بلا شك) على نساء القرى، وبرسومات الطبيعة والناس في الأماكن التي زرنها (بعد أخذ الإذن من عمدة أو شيخ المنطقة). كان من رأي لورنس بوخانان (المفتش البريطاني الذي عمل في غالب مناطق السودان) أن قرار منع الإداريين البريطانيين من الزواج أو اصطحاب أو استقدام الزوجات للسودان كان مطبقا بصرامة قبل عام ١٩٢٤م، بيد أن الأمر صار أكثر سهولة من بعد ذلك.

توالى قدوم الزوجات البريطانيات للسودان حتى في الأماكن النائية والقاسية والمعزولة مثل دارفور. وقبل ذلك – كما يزعم بوخانان– كان هنالك عدد قليل جدا من الإداريين ممن اتخذ له خليلة أو أكثر من النساء المحليات (اللواتي كان يحتفظ بهن في الخفاء بالطبع) وأثمرت بعض تلك العلاقات أحيانا أطفالا «هجين»، بينما كانت الغالبية العظمى من الإداريين تلتزم جانب التبتل والامتناع عن العلاقات مع معشر النساء (حتى ظن بهم بعض السودانيين الظنون). لا شك أن العزلة والتبتل والبعد عن النساء دعا كثير من السودانيين لافتراض أن المثلية (الشذوذ الجنسي) واسعة الانتشار في أوساط الموظفين البريطانيين، وأنها من الممارسات الوافدة التي أتت للسودان مع قدوم المستعمر للبلاد. ينكر البريطانيون الرسميون ذلك ويقولون :إن اختيار موظفين للعمل في البلاد المستعمرة لا يتم إلا بعد تدقيق وفحص ودراسة، وأنه يستحيل أن يعين في خدمة المستعمرات شخص مثلي (شاذ جنسيا) معلوم الشذوذ، خاصة في تلك الأيام التي كان الشذوذ فيها مستهجنا ومحتقرا ومرفوضا في بريطانيا. ويجب أن نتذكر أن المثلية كانت ترتبط في المخيلة البريطانية بنوع من التخنث واللين، وهذا مما يتناقض مع ما كان مطلوبا من الموظف البريطاني في مناطق الشدة في بلد كالسودان.

رغم كل هذا فقد سرت كثير من الإشاعات عن علاقات مثلية بين البريطانيين مع بني جلدتهم وبين قليل من السودانيين. لم تثبت أي من هذه الإشاعات على أرض الواقع، وظلت مجرد «إشاعات غامضة» ليس لها ما يسندها من وقائع ودلائل. حكى هندرسون عن ما سمعه من زوجة أحد الإداريين عن مفتش بريطاني زعم أنه مثلي ويحتفظ في داره بصبي سوداني. تبين فيما بعد أن الأمر لم يعدو أن يكون مجرد كيد وتنافس «غير شريف» بين زوج تلك المرأة وذلك الإداري الذي زعم منافسوه أنه كان واقعا تحت تهديد والدة ذلك الصبي المزعوم! أكد هيندرسون أن البريطانيين كانوا متبتلين وليسوا مثليين. يعترف بعضهم (مثل السير دوقلاس بيوبولد) بأنهم كانوا يفضلون صحبة الرجال على رفقة النساء، بل وكانوا يرهبون الجنس الآخر! قال هندرسون ساخرا« لقد كان وجه نيوبولد يشع بالسعادة وتبرق عيناه إن أخبرته أن زوجتي ستسافر، فيسأل في حبور: «ومتى ستغادر؟ يوم الاثنين...حسنا... إذن تعال يوم الثلاثاء للعشاء». كان يحب صحبة الشباب من الرجال، وكثيرا ما كان يستضيفهم في داره لعدة شهور، فهم بحسب قوله «يثيرونه». لم يكن شاذا البتة، بل كان يحب صحبة الرجال، ويفضلها على رفقة النساء. كان كثير من البريطانيين مثله. لم يسلم (مع نيوبولد) حتى قريفث – مؤسس بخت الرضا- وكثبرت سكوت من تهمة ممارسة الشذوذ الجنسي، ولكني لا أصدق تلك الاتهامات، فهي لا تشبه صفات أولئك الرجال ثاقبي الفكر.»

كان زواج السودانيين من البريطانيات أمرا نادر الحدوث وقليل النجاح ومستهجنا أيضا عند االبريطانيين (والسودانيين أيضا)، بذريعة اختلاف الثقافات والعادات والدين. ذكرٍ عدد ممن استطلعت آراءهم من الإداريين البريطانيين أن تلك الزيجات المختلطة نادراً ما تستمر، وعادة ما تنتهي في سنوات قليلة. ضرب نيوبولد مثلا بالمبتعث السوداني الذي يتزوج من بريطانية في بلد دراسته، ثم يعود بها للسودان بعد إنتهاء بعثته. ستجابهها بلا ريب عوائق كثيرة وصعوبات جمة في الاستقرار والتأقلم على تقاليد وعادات المجتمع السوداني المسلم المحافظ، وعلى التعامل مع عائلتها الجديدة، وبخاصة مع والدة زوجها! حكى جون فيليبس مفتش المركز بمدينة واد مدني عن قصة نية السيد مكي أفندي عباس (نائب محافظ مشروع الجزيرة) للزواج في عام ١٩٥١م من بريطانية هي الدكتورة إليمر ديفيدسون. اجتمع مجلس إدارة مشروع الجزيرة لمناقشة الأمر، وسأل أحد «المحافظين البيض» السيد رابي رئيس المجلس عن السياسة الرسمية في أمر الزواج المختلط. رد السيد رابي في حدة أن السياسة الرسمية لمشروع الجزيرة بخصوص هذا الأمر (والأمور الأخرى) هي أن

ينشغل المجلس بشأنه، وشأنه وحده فقط!

كان الشباب البريطانيون يحذرون قبل الالتحاق بوظائفهم الإدارية في السودان من أنهم مقبلون على فترة شديدة القسوة والشدة والوحدة في حياتهم، وكانوا يتعهدون بالمحافظة على «السلوك الأخلاقي القويم» أثناء عملهم، خاصة مع السكان المحليين. في المقابل تعهدت الحكومة بمنحهم عطلة سنوية طويلة (تصل لربع عام)، وتم الالتزام بذلك خلا أثناء سنوات الحربين الأولى والثانية. ساهمت تلك العطلة الطويلة في كبح جماح السلوك الجنسي عند أولئك الشباب، وذلك بحسب قول موريس ليش (والذي عمل مفتشا لمراكز عديدة مثل كسلا والخرطوم والدويم).

لم يسمع الناس عن علاقات حب (حقيقي) بين إداريين بريطانيين ونساء سودانيات، خاصة في شمال السودان المسلم الذي لا يقبل بزوج غير مسلم، وحيث كانت النساء شديدات التحفظ والتمسك بالعادات والتقاليد المذكورة وتحت رقابة مشددة من أهاليهن، بعكس جنوب البلاد، حيث يمكن للبريطاني أن يتخذ له زوجة من فتيات الجنوب (من غير المسلمات)، وحيث يمكن للبيمباشي أن يحتفظ لنفسه بفتاة جنوبية يمكنه من خلالها (على الأقل) الحصول على معلومات استخبارية عن أحوال السوق!

كان من رأي جون فيليبس (آخر مفتش مركز في الدويم، ثم سفير لاحق لبريطانيا في الخرطوم وعدن) أن حياة الزوجة البريطانية في السودان كانت أكثر صعوبة من حياة زوجها، خاصة في الأماكن البعيدة، إذ أنه كان للزوج عمله الذي يقضي فيه سحابة يومه، بينما تبقى الزوجة في المنزل تحت ظروف مناخية لا تشجع على أي نشاط يذكر. ساهمت بعض الزوجات في أعمال أزواجهن، وفي التعرف على الحياة والنساء في مناطقهن، وتعلم بعضهن اللغة العربية أو اللهجة المحلية.

كان دور الزوجة البريطانية - بحسب قول جان بييرجرينلو (الذي انشأ أول مدرسة للتصميم بالسودان عام ١٩٤٦م، والذي غادر السودان قبل سن المعاش لتبدل قناعته بالاستعمار، ولأسباب دينية)- في مساعدة بعلها الإداري واضحا عندما يعمل ذلك الإداري في الريف، حيث تتحمل مشاق الرحلات الطويلة وتعمل مع النساء السودانيات في الحقول والمدارس والمستشفيات. يصعب وجود مثل ذلك العمل في المدن مثل الخرطوم وبورتسودان وملكال، لذا تبقى زوجات البريطانيين في إسار دائرة ضيقة من بنات وأبناء جنسهن في الحفلات والكنائس وما إلى ذلك.



كيف كان البريطانيون يختارون الأطباء للعمل في السودان

سايمون ملان

تقديم: في مقال متخصص بالغ التعقيد نشر في المجلة البريطانية «الدراسات السودانية» عدد ٢٩ في عام ٢٠٠٢م قام سايمون مولان بعمل تحليل اجتماعي لمعايير تعيين الأطباء البريطانيين في السودان بين عامي ١٨٩٩م و١٩٣٨م. وفي السطور التالية اقتطف أجزاء مختصرة جدا من ذلك المقال المتخصص تحكي قصصا لا تخلو من بعض طرافة عن كيفية تعيين الأطباء البريطانيين في أصقاع السودان البعيدة، وتدعو للتأمل والمقارنة مع ما يحدث اليوم من لجان معاينة وما أنتم به أدرى.

لا توجد الكثير من الوثائق التاريخية عن عملية اختيار وتعيين أطباء في مجال الخدمات الطبية في السودان أبان الحقبة الاستعمارية. ويعتمد المؤرخون على روايات ومذكرات ثلاثة من الذين عملوا في ذلك المجال آنذاك. ورغم أن هذه المذكرات وما ورد فيها قد لا تمثل تمثيلا كاملا وصادقا مجمل عملية اختيار الأطباء آنذاك إلا أنها توفر مدخلا مهما لفهم تلك العملية وتعطي تفاصيل عملية هامة عن الأعداد التي تم اختيارها. فمن بين ثلاثة وسبعين طبيبا تم تعيين ثلاثة وأربعين في السنوات السبعة الأولي من بدؤهم لحياتهم العملية (وتم حساب ذلك من تاريخ تخرج هؤلاء)، بينما تم تعيين ستة أطباء من الذين تعدت خبرتهم سبعة سنوات بعد التخرج، بينما لم تتوفر معلومات عن بقية الأطباء الأربعة وعشرين الآخرين.

ألف دكتور ليونارد باوسفيليد والذي تم تعيينه في ١٩١١م عندما كان في الخامسة والثلاثين من العمر (أي في منتصف عمره المهني) كتابا بعنوان« دكتور السودان» صدر في عام ١٩٥٨م. تجلت في ذلك الكتاب كثير من صفات المؤلف غير المألوفة، فالرجل متزوج من ابنة عمه (وهو أمر مستهجن في الغرب) ومتخرج في جامعة كمبردج واشتهر بالعمل متطوعا بالعمل في مستشفي في لندن يعالج الفقراء من المرضي ثم انضم إلى «السلاح الطبي الملكي» في عام ١٩٠٤م، ومنها انضم إلى «الخدمات الطبية السودانية» كطبيب عسكري، حيث انتدب للعمل في الجيش المصري في عام ١٩٠٦م، وخدم في السودان في مديرية كسلا وفي الخرطوم. آب الرجل لمدة قصيرة لبلاده في عام ١٩١٠م، وعاد بعد عامين للسودان للعمل في خدمة حكومة السودان كمفتش

للصحة، وتدرج في سلم الترقيات حتى غدا كبير مفتشي الصحة في عام ١٩٢٠م، وظل في ذلك المنصب حتى تقاعده في عام ١٩٣٥م.

من الأطباء الآخرين الذين قاموا بتسجيل مذكراتهم عن الخدمات الطبية السودانية هو دكتور ه. س. أسكوير. خدم أسكوير في السودان بين عامي ١٩٠٨ و١٩٣٠م. وعمل من بعد ذلك كممثل لحكومة السودان في لندن بين عامي ١٩٣٠ و١٩٣٨م، ثم كبير أخصائي حكومة السودان في لندن بين عامي ١٩٣٨ و١٩٥١م. نشر الرجل في عام ١٩٥٨م كتابا جامعا عنوانه «الخدمات الطبية في السودان: تجربة في طب المجتمع» يعد مرجعا لا غنى عنه لمن أراد معرفة موثقة لتاريخ الخدمات الطبية في السودان، رغم ما اعترى الكتاب من كثير هنات ونقائص لا تقلل من أهمية الكتاب.

أشار سكوير في اختصار لقصة تعيينه في «خدمات السودان الطبية» وهي قصة تحمل الكثير من الإشارات الدالة على عدد من الروابط الاجتماعية والمؤسسية التي كانت جزءا من عملية التعيين في تلك المؤسسة. كتب الرجل ما ترجمته الآتي: « تم تعييني عندما شغرت وظيفة كان يشغلها نيدوول بعد تقاعده في عام ١٩٠٨م. لقد أثار السودان اهتمامي عن طريق أصدقاء دراستي في أكسفورد، وناقشت مع صديقي د/ أكيلاند إمكانية أن أسافر لذلك البلد وأجرب العمل فيه. كنت أعمل نائبا في مستشفي سانت توماس ونلت زمالة الكلية الملكية في عام ١٩٠٧م، وبعد عام من ذلك التاريخ وصلت للخرطوم وبدأت عملي كطبيب لفترة تجاوزت ثلاثة وأربعين عاما». نستشف من رواية د/ أسكوير نوعا من «عدم الرسمية» في التقديم وارتباط التعيين في الوظيفة بأركان ثلاثة: د/ أكيلاند وأكسفورد ومستشفي سانت توماس.

تشابه مذكرات د/ أسكوير مذكرات طبيب آخر هو ألكسندر كروك شانك والتي نشرها بعنوان « Itchy Feet » في أنهما معا يشيران إلى دور د/ أكيلاند في عملية التعيين. عمل د/ ألكسندر كروك شانك في الخدمات الطبية السودانية بين عامي ١٩٢٤ و١٩٤٨م قبل أن يتحول للعمل في كينيا. بدأت خدمة الرجل عندما كان الرجل في الثالثة وعشرين من العمر عندما قرأ إعلانا في صحيفة صندي تايمز للعمل في السودان، فقدم طلبه للتعيين. نودي الكسندر كروك شانك لإجراء معاينة مع دكتور أكيلاند. أظهرت قصته في هذه المعاينة تساهلا و«عدم رسمية» شديدين من جانب د/ أكيلاند. جاء في مذكرات الرجل ما يلي: « شعرت ببعض الحرج وأنا أرتدي ملابس مفرطة الأناقة وأنا في طريقي لمنزل د/ أكيلاند في أحد أحياء لندن الراقية (Bryanston Square)، وكنت في أشد حالات القلق لما ستسفر عنه تلك

المقابلة. طرقت الباب ففتحت لي فتاة أنيقة بادرتني بالقول أن الدكتور أكيلاند مريض قليلا بيد أنه طلب أن تصعد إليه في غرفة نومه. صعدت لرؤية الرجل العجوز ووجدته طريح الفراش وهو في ملابس النوم. أشار في وهن إلى سماعته الملقاة بعيدا وطلب مني إحضارها وأن أقترب منه. بعد لحظات قليلة من الاستماع لضربات قلبي وتنفسي وجدته يقول « ممتاز... ممتاز... تبقت لك سنوات كثيرة في هذه الحياة! والآن أخبرني: هل تمارس أي نوع من الرياضة؟ أجبته وأنا في أشد حالات الاندهاش: «نعم، أنني أمارس الرجبي وبولو الماء». ختم المقابلة بقوله: « ممتاز...ممتاز. هلا ذهبت لمعملي الصغير في الطابق الأرضي لفحص بولك؟!» يذكر الكسندر أنه مازح موظف الاستقبال في ذلك المعمل وتبادل معه «حديث وديا» أسفر عن إعفائه من فحص البول! صعد الكسندر مرة أخري لدكتور أكيلإند وهو في فراشه وأخبره أنه لم يجد شيئا غريبا في بوله يدل على أي مرض! رد د/ أكيلاند بالقول: « ممتاز... ممتاز... سنتصل بك في غد قريب».

كتب الكسندر عن تلك المقابلة في مذكراته ما يلي: « عندما بدأت في سؤال د/ أكيلاند عن مهامي المستقبلية وظروف المعيشة في السودان وعن الراتب، أجابني في عفوية بأن لا ألقي بالا ولا أهتم لكل ذلك فسوف أكتشف بنفسي كل ذلك عندما أستلم عملي فعلا! افترضت من رده لي بأني قد قبلت فعلا للعمل في خدمة حكومة السودان، ولكني أيضا أحسست أن الرجل لم تكن لديه معلومات حديثة عن البلد الذي سأعمل فيه!! أثبتت لي مقبل الأيام أنني كنت مصيبا في كل ما جال بخاطري. رغم تحفظاتي على تلك المقابلة وعدم حصولي على معلومات أكيدة عن الوظيفة والبلد الذي سأذهب إليه فلقد قبلت بالوظيفة دون تردد، إذ كنت موقنا أنني خلقت لتلك الوظيفة».

ما يمكن ملاحظته أن روايتي الطبيبين في أمر تعيينهما دارت حول د/ أكيلاند رغم البعد الزمني الفاصل بين تاريخ تعيينهما (والذي بلغ ستة عشر عاما)، وليس ذلك بالأمر المستغرب فلقد عمل د/ أكيلاند كمستشار طبي لحكومة السودان في لندن بين عامي ١٩١١ و١٩٣٠م. ولا يعرف بالضبط ما هو الدور الحقيقي لذلك الرجل ولشخصيته في عملية اختيار وتعيين الأطباء البريطانيين في خدمة حكومة السودان. ولمعرفة ذلك ينبغي الغوص في التاريخ الشخصي والمهني للرجل، فلقد تلقي ذلك الرجل تعليمه في أرقي المدارس في إنجلترا وألمانيا وعمل اختصاصيا في مستشفي سانت توماس، وكان واسع الصلات، ممتد النفوذ مع جهات عديدة، وترأس كثير من اللجان والمجالس الاستشارية وعمل كممتحن في كثير من الجامعات. دعته وزارة

الخارجية للذهاب لمصر في عام ١٨٨٣م عند تفشي وباء الكوليرا بها، وعمل ضابطا كبيرا بالسلاح الطبي في الجيش المصري. تعرف خلال تلك الفترة على ونجت باشا وصارا صديقين حميمين. عمل ونجت على تعيين د/ أكيلاند في خدمة حكومة السودان وتولاه برعاية خاصة وجعل كل أمور التعيينات في الخدمات الطبية السودانية لا تتم إلا عن طريقه وبموافقته. من بعد ذلك تولى د/ أكيلاند مهمة اختيار المتقدمين للعمل في السودان من البريطانيين، وعلاج المرضي من الموظفين البريطانيين العاملين في السودان عندما يصابون بمرض أثناء وجودهم في بريطانيا في موسم العطلات السنوية، أو الموظفين البريطانيين الذين يستعصى علاجهم في السودان فيبعث بهم لبلادهم الأم.



رسالة عبد الفتاح المغربي إلى محرر جريدة «سودان استار» (١٩٤٩م)

تقديم: كان عبد الفتاح المغربي محاضرا أولا للرياضيات في كلية غوردون (التي تطورت فيما بعد لكلية جامعية) عندما كتب هذه الرسالة المطولة في الأول من أكتوبر ١٩٤٩م. عين عبد الفتاح في عام ١٩٥١م كعضو المعارضة الوحيد في الجمعية التشريعية التي كانت تبحث في أمر دستور البلاد، وعمل في هذا المنصب لمدة ثمانية عشر شهرا. في نهاية عام ١٩٥٥م تم تعيينه عضوا في الهيئة الاستشارية العليا، ثم عضوا في مجلس السيادة عقب إعلان السودان في الأول من يناير ١٩٥٦. نشرت هذه الرسالة في مجلة «دراسات السودان» التي صدرت في بريطانيا في مارس ١٩٩٩م.

يا سيدي:

ظهرت في الآونة الخيرة عدد من المقالات عن السودان بقلم الكتابة الآنسة مارجيري برهام من أكسفورد. أرجو منكم التكرم بنشر الملاحظات التالية تعليقا على احد مقالاتها التي نشرتها في المجلة الأميركية «الشؤون الخارجية» (العدد ٢٧، ٦٦٥ – ٦٦٧، يوليو ١٩٤٧م) وعنونتها: «السودان: ميلاد أمة».

لقد زارت الآنسة برهام السودان في مرات عديدة بصفة شبة رسمية حينا، وكسائحة حينا آخر، والتقت خلال زياراتها المتعددة مع عدد من مسؤولي الحكومة ورجال الأحزاب السودانية. أخذت تلك الاتصالات شكل زيارات رتبتها سلفا الجهات الرسمية وبعض كبار المسؤولين السودانيين الذين طلب منها مقابلتهم، وكانوا رجالا من النوع الذي يشغل الوظيفة المناسبة في الوقت المناسب، ومستعد دوما لكيل الثناء وتدبيج المدح لأي نظام قائم- وهذا النوع من المسؤولين موجود في كل البلاد الواقعة تحت سيطرة الحكم الأجنبي، ولا ريب أن الآنسة برهام – شأنها شأن كل الخبراء- تعرف هؤلاء جيدا.

لقد أصابت الصدمة كثيرًا من متعلمي السودان فيما قرؤوه للآنسة برهام في الصحافة البريطانية والأميركية عن ما رأته في السودان، وكانوا يعدونها من الأكاديميات الثقاة الباحثات بصدق عن الحقيقة. بيد أن مقالاتها لم تترك عند هؤلاء المتعلمين سوى الشعور بأنها قد وقعت تحت تأثير آلة الدعاية الماهرة الماكرة الخادمة للسياسة البريطانية في السودان، ولم تك تكتب بدافع النزاهة والتجرد والموضوعية

المأمولة من مؤرخ معاصر.

إن الروح السائدة في مقالها المعنون: «السودان: ميلاد أمة » لا يتضمن نقـدا هادفـا أو نصيحة مخلصة لتغيير الطرق الاستعمارية «الجلاديستونية» القديمـة، ولا يحـوي أي خططا معقولة يمكن للإدارة البريطانية المعاصرة اتباعها لمواجهة التغييرات المتاليـة في شؤون عالم اليوم الاستعماري. بل على العكس تماما، مضت الكاتبة القـديرة في كيـل الثناء على الوضع الحالي، وتدبيج المديح لمن تجري في عروقهم الدماء الزرقـاء الـذين يحكمون قوما سودا. لم تبذل الكاتبة أي جهد لسبر غور مشاعر السـودانيين الحقيقيـة، ولم تضع في حسـبانها أن السـودان سيكون لـه يومـا مـا صـوتا مسـموعا في المحافـل العالمية... حينها سينفضح للعالم كله أمر أولئك «الزرق» ووسـائلهم المبذولـة لتعطيـل حصول السودانيين على حقهم في تقرير المصير.

جاءت المقدمة التاريخية والجغرافية التي دبجتها الكاتبة مبرأة – على وجـه العمـوم- من الأخطاء، بيد أنها حاولت رسم صورة معينة لمصـر والسـودان في منتصـف القـرن التاسع عشر، وقاستها وحاكمتها بمعايير اليـوم، إذ أنهـا شـنت هجومـا كاسـحا علـى العبودية وتجارة الرقيق واختصرت كل تـاريخ محمـد علـي باشـا بـالقول أنـه «أحـرز انتصارا رخيصا على إمارات السودان المتفرقة». لكنها تناست أن «القومية» في الماضي لم تكن شديدة البروز في الشرق، فلقد كانت هي والإسلام مفهومين متطابقين. لم تكن هنالك – كما هو الحال اليوم- جوازات سفر تعيق انتقال النـاس عـبر الحـدود، ومـر على مصر زمن كان يحكمها فيه زنجي دون احتجاج من أحد.

وفرت تجارة الرقيق عذرا مناسبا لقوى الإمبرياليـة للتوسـع في بلـدان الشـرق، ولم يكن هؤلاء الإمبرياليون يستفظعون تجارة الرقيق فعلا كمـا حاولـت الكاتبـة أن تقنـع قرائها. كان سباق القوى الإمبريالية المحموم لتقاسم أفريقيـا في القـرن الماضـي أفضـل بقليل (فقط) من تجارة الرقيق. سيطر ممثلو الشـعوب الأوربيـة وهـم يحملـون أعلامًـا مختلفة ويرتدون بزات متباينة ويقدمون للشـعوب المقهـورة أوراق معاهـدات جـاهزة للتوقيع، على أراض شاسعة، وعلى الآلف الرجـال السـود الأشـداء الـذين أجـبروا قسرا على الدخول في سلك الجندية ومحاربة أهلهم السود والسيطرة علـى مزيـد مـن الأراضي. وستظل حادثة فشودة خير دليل على ما أقـول. كـان أمـر الاسـتيلاء علـى الأراضي بهذه الطريقة أمرا يسيرا لدرجة أن كثيرا مـن الـدول وسـاكنيها قـد وهبـت لأفراد بعينهم مثل ليدرتز وليبورد وسيسيل رودز.

في القرن الثامن عشر قامت قوة أوربية واحدة منفردة بتصـدير مـا يفـوق الخمسـة

مليون عبد للخدمة الإلزامية في خارج أوطانهم. بل كانت بريطانيا العظمى نفسها هي المتاجر الأول بالرقيق في العالم. ولم تتوقف عمليا حتى عام ١٨٥٠م عمليات إغارة الأوربيين على القبائل المسكينة التي لا حول لها ولا قوة. ويجب القول بأنه من الحقائق التاريخية أن مصر وغيرها من الدول العربية كانت تسمح بتجارة الرقيق، بيد أن الدول الأوربية كانت تتولى أيضا عمليات شحن الرقيق البغيضة من شواطئ أفريقيا.

لم يكن منشأ اهتمام بريطانيا بالسودان هو العطف أو الإحسان أو الإيثار، بل كان ببساطة شديدة هو النتاج الطبيعي للمنافسة بين الدول الأوربية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على إنشاء إمبراطوريات ضخمة. ليس هنالك ما يدعو للفخر أو الخجل من هذا التاريخ. لقد عمل الجميع وفق قانون الصراع على الوجود، وقانون البقاء للأصلح، وانطبقت هذه القوانين على جميع الدول في الماضي كما هو الحال إلى يوم الناس هذا. كان لحملة نابليون سيئة الذكر على مصر في عام ١٧٩٨م، واكتشاف المسئولون البريطانيون لمنابع النيل بتكليف من الحكومة المصرية وغيرها أثرا ضخما على تغذية اهتمام بريطانيا بالسودان، إذ أن بريطانيا طمعت في نيل حصة الأسد من حوض النيل، وبذلت الحكومات البريطانية المتتابعة جهدها في سبيل ضم بلدان هذا الحوض الضخم لممتلكاتها.

كانت مصر في عام ١٨٣٠م إمبراطورية واسعة تمتد من أعالي النيل حتى حلب وأدنة (في تركيا)، وكان لها جيش عظيم وقوات بحرية ممتازة، وكان في مقدورها اكتساح القسطنطينية لولا التدخل المشترك لبريطانيا وروسيا وفرنسا. بيد أن الذين خلفوا محمد علي باشا في حكم مصر لم يكونوا على قدر وافر من الفطنة أو الشجاعة، وبذا فلقد سمحوا للبريطانيين والفرنسيين بالتسلل والتدخل والتأثير على مجريات أمور وشؤون مصر الداخلية، واتخذ ذلك التدخل والتأثير شكل «سيطرة ثنائية» على الخزينة المصرية ومواردها.

وكما أشارت الآنسة برهام كانت معاهدة عام ١٨٩٨م التي أعقبت موقعة أمدرمان في الواقع معاهدة بين كرومر وكتشنر أكثر منها معاهدة بين بريطانيا ومصر، رغم أن لورد كرومر كان هو من وقع إنابة عن الحكومة المصرية. ومنذ ذلك التاريخ ظلت بريطانيا هي الحاكم الفعلي للسودان، واقتصر دور مصر في حكم السودان على علمها الذي يرفرف من على سارية القصر، وعلى بضعة موظفين صغار كانت الحاجة لخدماتهم ماسة لإدارة شؤون البلاد.

اتخذ البريطانيون من الحادث المؤسف الذي قتل فيه السير لي إستاك في عام

١٩٢٤م في أحد شوارع القاهرة ذريعة للطرد الفوري والشامل لكل ضباط وجنود الجيش المصري من السودان، وبرحيلهم فقدت مصر كل ما تبقى لها من نفوذ في البلاد. توقف مؤقتا كذلك مد حركة «وحدة وادي النيل، وتم إغلاق المدرسة الحربية في الخرطوم إلى أجل غير مسمى، وأدى الضباط السودانيون بالجيش المصري قسم الولاء لحاكم عام السودان البريطاني الجنسية. ورغم كل هذا، فلم يبلغ عداء البريطانيين لمصر إلى حد إنزال علمها من على سارية القصر الجمهوري، إذ أن ذلك كان سيكون متناقضا مع ما كانت تدعيه بريطانيا بعد الحرب العالمية الثانية من أنها داعية «العدالة» في العالم وزعيمتها الأولى.

لذا سمحت بريطانيا لمصر بأن يظل علمها يرفرف جنباً إلى جنب مع العلم البريطاني في كل المباني الحكومية في سائر أرجاء البلاد. بيد أن كل ما فرضته حكومة السودان على مصر بعد التمرد العسكري في عام ١٩٢٤م من الطرد والمنع والحجر والتقييد، أتي بغير ما تشتهي بريطانيا، إذ أن تلك الإجراءات لم تفعل سوى إذكاء نار المشاعر الوطنية عند السودانيين، وتقوية رغبتهم في الاتحاد مع مصر. لم يكن ذلك وقفاً على طبقة المتعلمين السودانيين، بل شمل أيضا الصناع والمزارعين والتجار في كل أنحاء البلاد.

تبلورت لدى السودانيين آراء سياسية محددة على اختلاف مستويات تعليمهم. فلقد كان أكثرهم من الأميين، وقليل منهم متعلمين، بيد أن الجميع كان على قدر كبير من الوعي والحس السليم. بلغت نسبة الأمية وسطهم أكثر من ٩٩٪، وكان لديهم طبيب واحد لكل ٧٠٠٠٠ فرد. كانوا يكرهون أن يروا (استعمل المؤلف في الأصل تعبير «يحقدون على». المترجم) المسؤولين البريطانيين وهم ينعمون بمرتبات وامتيازات ضخمة، وسلطة مطلقة، ومنازل فخيمة على شاطئ النيل. تزايدت وتعالت بعد ذلك دعوات السودانيين للحكم الذاتي أو الوحدة مع مصر. كان قيام مؤتمر الخريجين العام هو القوة الدافعة وراء كل ذلك. لا جدال أن ذلك المؤتمر يحق له أن يفخر بأنه هو من أيقظ الشعور الوطني في السودان، وأحدث ثورة تعليمية بإنشاء عدد من المدارس الأهلية.

أقامت حكومة الاستعمار- بعد خطوات مترددة وتحت ضغوط عديدة من السودانيين ومطالبات مستمرة لتقاسم السلطة- مجلساً استشارياً، وجمعية تشريعية ومجلساً تنفيذياً. دلت مناقشات السودانيين المتعلمين ووسائلهم السلمية وسلوكهم تجاه المستعمر على أنهم كسبوا الكثير تحت الرعاية البريطانية. كان ما يطمحون إليه فعلاً

هو الحصول على حق الحكم الذاتي، بيد أن معرفتهم بتاريخ الإمبريالية البريطانية ألجأتهم إلى مصر ليكون السودان تحت التاج الملكي المصري بجيش واحد وسياسيات أجنبية متماثلة. كانت تلك فرصة ذهبية لبريطانيا لتثبت حسن نيتها وإخلاصها للسودانيين وذلك بالقيام بخطوات حقيقية لتدريبهم في إدارة شؤون حكمهم الذاتي. بيد أن الحاكم العام البريطاني لم يشأ حسداً من عند نفسه أن يسلم سلطته الرفيعة ذات الهيبة والمكانة إلى المواطنين الذين كانوا – حتى الآن- أذلة تحت سلطته، فعمد إلى تقوية موقفه أكثر فأكثر بخلقه لوظائف اسمية وفخرية منحها لبعض السودانيين من خاملي الذكر الصاغرين له من الذين أدمنوا – وعلى وجوههم ابتسامة عريضة- الموافقة والتأمين على كل ما يعن له، مع أنه يعلم تماماً أنهم عاطلون عن التأهيل والموهبة والكفاءة، ولم يؤتوا من العلم أو الوطنية شيئاً.

تم تعيين بعض هؤلاء النكرات على عجل مريب ورفعوا لمناصب إدارية عليا تهيئة لهم لتسنم وظائف أعلى في مستقبل قريب. لا يمكن وصف هؤلاء الذين اختارهم المستعمر سوى بالعقم (الفكري) والرجعية، فمعظمهم ليس له من التأهيل ما يجعلهم يتبوؤون المناصب الرفيعة التي منحت لهم، ولا القدرة على المبادرة ومسايرة تقدم الزمن والتطور الذي حدث لمواطنيهم. كان مبلغ همهم هو تسنم المناصب الرفيعة حتى يقوموا – صاغرين – بتنفيذ سياسية سادتهم البريطانيين، وفي مقابل ذلك يقوموا باستغلال مناصبهم لمنفعتهم المادية الشخصية البحتة. على الرغم من أن الآنسة برهام قد ذكرت أنها على معرفة وصلة بمثل هذا الصنف من كبار الموظفين السودانيين، فإننا نكاد نجزم بأنه، وبالنظر إلى قصر المدة التي قضتها الآنسة في السودان، فإن معرفتها بمثل أولئك النفر (غير الكريم) بل بكل السودانيين لا بد أنها معرفة سطحية عابرة.

إن هنالك حداً للتكتم والسرية التي ينبغي للموظف الحكومي أن يلتزم بها. وقد تخدش كرامة هذا الموظف العام إن تم الكشف عن شخصيته عند ذكر بعض المعلومات والحقائق التي تبرع ذلك الموظف بتقديمها. لقد تصرفت الآنسة برهام بكثير من عدم اللياقة إذ كشفت فيما كتبت عن شخصيات الذين زودوها بالمعلومات، ولم تراعى أن المصالح العليا للبلاد مقدمة على علاقات الصداقة الشخصية. ولن أزيد على هذا بمزيد من التصريح، فهذا خارج عن سياق هذه الرسالة. بيد أن هنالك نقطة هامة لا ينبغي للآنسة برهام أو السلطات المحلية إغفالها، وهي أمر يؤكد على التجانس العنصري الذي يميز سكان وادي النيل. إن حوالي سبعين في المائة من الوزراء ووكلاء الوزارات (رغم ما بذل من جهد في سبيل اختيارهم من مختلف درجات السواد)

تجري في عروقهم دماء مصرية. إن رئيس الجمعية، والوزير دون أعباء، قد أتيا من بلد ظل طوال التاريخ (حتى في زمن المهدية) يتبع لمصر. بل إن أقاربهم مازالوا يصوتون في انتخابات البرلمان المصري. وهنالك وكلاء وزارات الاقتصاد والتجارة والمواصلات والعدل والأشغال العامة والري كلهم أبناء أو أحفاد لمصريين خلصاء. زد على هذا أن أبناء وزير الصحة تجري في عروقهم دماء مصرية لا تقل نسبتها عن خمسة وسبعين في المائة، وأن أخوة نائب رئيس الجمعية مصريو الجنسية ويقيمون بمصر بصورة دائمة.

جرت في المجلس الاستشاري مداولات ومناقشات كثيرة حول دستور الجمعية، وكانت الآنسة برهام حاضرة وشاهدة على تلك المناقشات. اقترح أحد من ذكرنا أعلاه قبول المقترح كما قدم دون زيادة أو نقصان، وكان من الممكن أن يمرر المقترح بالإجماع لولا تدخل رئيس المجلس البريطاني بنفسه مع واحد أو اثنين من السودانيين الذين وقفا ضد المقترح بشجاعة، وهزم المقترح بأغلبية ضئيلة. وحتى بعد المداولات وبعض التعديلات على الدستور (التي أجازها المجلس الاستشاري بصورة عامة على أن تخضع لمزيد من النقاش والتعديل) فإنها قد قوبلت بمعارضة ومقاطعة من قبل غالبية الطبقة المستنيرة في البلاد، تساندنهم في ذلك طائفة الختمية التي تزعم أن أتباعها يمثلون غالبية سكان السودان. ولزم زعيم الختمية بحكمة معهودة الصمت حيال هذا الأمر، بينما ساندها حزب الأمة والصحف التي تتحدث بلسانه. وما أن انقضت شهور قليلة حتى بانت عيوب ونواقص الدستور كآلية لحكم البلاد، مما دعا المستعمر لإعادة النظر في أمر تعديله بصورة جذرية. ولن أقوم هنا بتعداد تلك العيوب والنواقص، بيد أني أنصح الآنسة برهام بالنظر في أرشيف مداولات مكتب العلاقات الخارجية السودانية. ويكفي هنا أن نذكر أن أغلبية أعضاء الجمعية لا يحسنون معرفة جغرافية بلادهم، بينما كان الواحد منهم ينال مرتبين منفصلين من أموال دافع الضرائب ، وهو بذلك يدين بالولاء لجهتين منفصلتين لا يجوز الجمع بينهما؛ فالجمعية التشريعية التي تنعقد فقط لشهور قليلة في كامل العام ليس بمقدورها أن تسن أي تشريعات، والوزراء ووكلاء وزارتهم من السودانيين يعينون من قبل رؤساء المصالح البريطانيين الذين بمقدورهم استبعاد العناصر الوطنية القوية، ومن وراء أولئك يقف الحاكم العام البريطاني الذي يملك كامل السلطات.

كان الوزراء ووكلاء الوزارات السودانيون يلوذون بالصمت العميق، أو ينسلون خلسة من قاعة المجلس ويذهبون إلى الكافتيريا واحداً بعد آخر عندما تبدأ مناقشة الموضوعات الهامة مثل الاقتصاد أو الحريات الفردية أو رأس المال الأجنبي، ويبقى نائبا رئيس المجلس اللذان يفترض أن يمثلا جناحي المعارضة) بدون «جمهور مستمع»

خلا قلة من الذين لا يكادون يفقهون قولا، وبالطبع تكون نتيجة المداولات مضمونة سلفاً.

لكن دعنا نكون عمليين وندقق النظر في حالنا كسودانيين. إننا كسودانيين بكل الألوان والسحنات نعلم تمام العلم أن مصيرنا ومستقبلنا مرتبط تماماً بالإمبراطورية البريطانية وأنه ليس لمصر القوة اللازمة لتفرض حلاً عادلاً لقضية السودان، وأن مجلس الأمن ما هو إلا مجموعة من أفراد عصابة قامت بطرد مليوني من العرب غير المسلحين، وقادتهم إلى الردى والبؤس خارج ديارهم وأراضيهم التي ظلوا يفلحونها منذ ألفين من السنين. ويعلم السودانيون أن التحول إلى الشيوعية لا يتماشى مع مبادئ العقيدة الإسلامية، وأنه ليس بوسعهم أن يظلوا قاعدين دون فعل شيء، فذلك أمر مثير للملل كما أنه عديم الجدوى! إننا شعب فقير جاهل نفتقر إلى التسليح، ونعلم أن السيوف التي استخدمها آباؤنا في الماضي لن تجدي فتيلاً في عصر الذرة والسرعة التي تفوق سرعة الصوت.

إن بلادنا كغيرها من البلاد الصغيرة واقعة تحت ضغوط هائلة لتتبع آثار أحدى القوى العظمى ذات الأيدلوجيات البشعة. بيد أن طريقنا واحد. نعلم أنه لا قبل لنا بطرد البريطانيين بالقوة، ولا نرغب في ذلك في الوقت الحالي. لو قدر للسودانيين أن يجتمعوا على قول واحد، وطالبوا بخروج البريطانيين من البلاد، لوضعوهم في وضع لا يحسدون عليه. بيد أن البريطانيين كانوا أحرص الناس على ألا يحدث ذلك أبداً. لقد كسبنا من حكم البريطانيين خيراً كثيراً، فنحن الآن ننعم بصحة وتعليم ورفاه وأمن وهدوء أكثر مما عرفه آباؤنا بما لا يقاس. نحن ننعم بعقول أنظف وبيوت أنظف، ومطالبتنا الآن بحريتنا هي مما يحسب للبريطانيين. لكن لابد من القول أن وتيرة تقدمنا في مسيرة التطور والتحضر التي يقودها البريطانيون لا تسير بالسرعة التي نطمح إليها، وإن ثمار التقدم التي جنيناها حتى الآن هي أقل مما نستطيع مضغه وبلعه.



أيامي في الجريف (١٩٣٧م): قصص ترويها فيليبا مغربي

تقديم: أتت البريطانية فيليبا مغربي للسودان في عام ١٩٣٣م لتعمل كممرضة في مصلحة «الخدمات الطبية السودانية»، وقابلت بعد ذلك بزمن قصير رجلا سودانيا يعمل مدرسا في كلية غوردون التذكارية هو عبد الفتاح المغربي وتزوجته في عام ١٩٣٧م. والسطور التالية تلخيص موجز لبعض ما كتبته تلك السيدة البريطانية في مجلة «دراسات السودان» في عام ١٩٩٨م العدد رقم ٢٢، حول أيامهما الأولي وهما يبنيان «عشة صغيرة» في الجريف، وكانت يومئذ خارج مدينة الخرطوم. والجدير بالذكر أن عبد الفتاح المغربي عمل عضوا بأول مجلس سيادة في منتصف الخمسينيات، وكان يشيع بين الناس أنه سيصبح ذات يوم ملكا على السودان، ولما عين – مع أربعة آخرين- عضوا في مجلس السيادة سخر منه عبد الله رجب صاحب «الصراحة» قائلا أن المغربي قد أفلح أخيرا في أن يصبح «خمس ملك» للسودان!

قد يجد القارئ في خواطر هذه «الخواجية» بعضا من «مزايا» الاقتران بأوربية عملية تشارك إيجابيا، بل تقود عملية بناء بيت الزوجية مصدقة لمقولة «عبء المرأة البيضاء»، وبعض فائدة في رصد الأوضاع العامة في العاصمة وما حولها من القرى في فترة نهايات الثلاثينيات من القرن المنصرم، على الأقل من باب المقارنة العابرة ليس إلا، ومن باب ما كانت تسميه الإذاعة المرئية الليبية «كيف كنا وكيف أصبحنا»!

أخذ هذا المقال من مخطوطة مذكرات السيدة فيليبا مغربي عن سنواتها الواحد وخمسين التي قضتها بالسودان (١٩٣٣ – ١٩٨٤م) وهي محفوظة في أرشيف جامعة ديراهم (ديرام) البريطانية.

كان بيتنا الصغير متين البناء وسهل الإدارة ولا يبعد كثيرا عن كلية غوردون، لا عيب فيه سوى أنه كان يقع في وسط المدينة، وكان حلمنا العيش في خارجها. وفتح عبد الفتاح عينيه وأذنيه جيدا وهو يبحث عن أرض أو منزل للبيع. وجاءته الأخبار أخيرا بأن هنالك منزلين معروضين للبيع ، كان أحدهما جيد البناء يقع على ضفاف النيل الأزرق، بيد أنه كان أكثر بعدا مما كنا نود. وكان الآخر يقع على ضفاف النيل الأزرق أيضا، ولكنه كان ردئ البناء بل أقرب إلى «الخرابة» ، بيد أنه كان على بعد لا يتجاوز خمسة كيلومترات عن الخرطوم. بني تلك الدار من قبل قاضي بريطاني اسمه بيوكوك وزرع حولها أثناء الحرب العالمية الأولي حديقة ذات بهجة. كان ذلك القاضي يتنقل بين داره تلك ووسط الخرطوم في عربة تجرها الكلاب (dog cart).

بعد بلوغه سن المعاش هجر السيد بيوكوك داره الوريفة دون أن يبيعها ودون أن يوكل من يقوم عليها ويرعاها، ولم يهتم بالرد على من كاتبوه بخصوص داره المهجورة. كان موقع البيت المهجور ممتازا وكانت له مزايا عديدة رغم أن سقوفه كانت قد انهارت في أماكن عديدة، وسرقت معظم أبوابه واستحالت أرضيته ترابا وغبارا. لم يخلف القاضي بيوكوك أحدا في سكنى تلك الدار سوى المعز والسحالي والدجاج وطيور أخر، ويبست أو ماتت أشجار وأزهار تلك الدار المهجورة عدا نخلتين قاومتا بإصرار عجيب الجفاف والزمن. بلغت مساحة الأرض الزراعية الملحقة بالبيت خمسة عشر فدانا. رغم كل العمل الضخم والجهد الخارق الذي كان يلزم لترميم تلك الدار المهجورة فلقد أعجبنا ذلك الموقع وشعرنا بأن مقدورنا شراء الدار إن رغبنا. قمت بتصوير أسوأ الأجزاء في الدار وأرسلنا الصور مع خطاب إلى القاضي بيوكوك بينا له فيه الحالة المزرية التي وصل إليها بيته السابق والذي حرصنا على إخباره بأنه لا يزال يعرف بين الأهالي ببيت بيوكوك، وأننا نرغب في شرائه وإعادته سيرته الأولى. بلغ العجب منا كل مبلغ ونحن نقرأ ردا غير متوقع منه يفيد بترحيبه بالبيع وبتحديده لخمسين جنيها كسعر للبيت. خيل إلينا أنه قد نسى أن يضع صفرا ثانيا بجنب صفر الخمسين، ولكن ولما لم نكن في عداد الأغنياء فلقد سارعنا بإرسال تلغراف بالخمسين جنيها للقاضي السابق، وبذا صار «بيت بيوكوك» ملكا خالصا لنا!

قر قرارنا على زيارة منزلنا الجديد المهدم المخرب في عطلة الصيف وأن نقيم هنالك «معسكرا صيفيا». كان منزلنا يقع في قرية «جريف الحاجة؟»، وصرنا نطلق اسم «الجريف» على منزلنا الجديد. عقدنا اتفاقا مع نجارين وبنائين من أجل إعادة بناء وتأهيل «الجريف»، واستأجرنا ثلاثة رجال من القرية للقيام بمهمة زراعة الحديقة الخراب.

كانت شهور صيف ذلك العام مفرطة الحرارة، بيد أن ذلك لم يثننا عن تنظيف التراب المتراكم على أرضيات البيت، وكم كنا سعداء عندما أزلنا طبقات التراب والغبار لنجد أن كل الأرضيات مغطاة بالبلاط. استمر «الحظ» في الوقوف بجانبنا عندما أخبرنا ذات يوم مفتش المركز في الخرطوم بحري السيد/ جيك سيمر أن اللص الذي كان قد سرق النوافذ الزجاجية (ومعها الشيش) مقبوض عندهم منذ سنوات، وأن المسروقات في حرز أمين في المديرية وأن بإمكاننا استردادها حين نريد. كان لبيتنا الجديد نصف درزينة (٦) من الغرف تحيط بها فرندات (شرفات) وحوشين في الشرق والجنوب. وكانت مقدمة البيت في الجنوب من الطوب الأحمر، وبذا كانت مهيأة لتلقي ضربات الرياح والأمطار (حين تأتي)، بينما كانت بقية المنزل مبنية من الزبالة (خليط من رمل وكلس وروث بهائم). عندما يجف ذلك الخليط يتماسك ويقوى ويتصلب متحديا عوامل الطبيعة، رغم أن له رائحة غير طيبة عند صنعه!

تعلمت في أثناء عملية البناء كثيرا من المهارات المفيدة في وضع «عجينة الزبالة» حول النوافذ، وفي رص إلبلاط وتثبيته وغير ذلك.

أما الحديقة فأمرها كان عجبا! كانت الحكومة تبيع الأراضي على شاطئ النيل بنظام القطعة أو الشريط، والشريط لا يتعدى كيلومترًا واحدًا، وذلك لتوزيع أكبر قدر من الفرص للناس للاستفادة من النيل في الزراعة، وذلك يستدعي تحويل الأرض إلى ما يشبه «الأحواض»، ويقفل كل حوض ويفتح حسب حاجة الري من الجدول الرئيس الذي يغذي كل «الأحواض» على طول الكيلومترات. تتطلب تجهيز تلك الأحواض عملا مضنيا لثلاثة من المزارعين، بينما بدأ فتاح (لعله «اسم الدلع» لعبد الفتاح المغربي. المترجم). في البحث عن مكينة ضخ للمياه (طلمبة/ طرمبة). عثر بعد جهد على طلمبة من ماركة بيتر وأنابيب أربع بوصات. كان تركيب الطرمبة في موضعها المقرر عملا مرهقا، خاصة وأنه كان من اللازم تحريك الطرمبة مرتين في العام على الأقل بسبب الفيضان، غالبا في أبريل وسبتمبر. وكانت هندسة وضع الطرمبة أمرا معقدا ودقيقا لم يكن لفرد غير فتاح أن يجيده!

ولما تم تأمين أمر الري، بدأنا زراعة تلك المساحة الضخمة، فزرعنا أشجار البرتقال والموز والجوافة والليمون والنخل ومحاصيل كثيرة منها الذرة والدخن والذرة الشامية والبرسيم. كانت النتائج مشجعة بل ومذهلة إن تذكرنا أن تلك الأرض ظلت يبابا منذ عقدين أو أكثر من الزمان. اشتعلت أرضنا خضرة وجمالا ونضرة... بيد أن لكل شيء إذا ما تم نقصان، فلقد تناهت إلى سمعي ذات صباح رطب رتيب أصوات ضرب وصراخ وصياح. لقد هجم الجراد... غطت أسرابه السماء، وخرج الناس يدقون الطبول والصفائح ويهزون حجارة صغيرة ويقذفون أسراب الجراد بالرمل أملا في أن يمنع كل ذلك الجراد من الهبوط فيهلك الزرع. ومع مرور الوقت تزايدت أسراب الجراد بكثافة عالية مكونة سحبا ثقالا. كنت أشم للجراد رائحة لزجة حلوة، بينما تعالت ضربات الصفائح وصرخات المزارعين في كل الاتجاهات، ولكن سرعان ما تبين لهؤلاء أن كل ما كانوا يفعلونه لطرد أسراب الجراد إنما هو جهد ضائع عديم الجدوى. أتي الجراد في نهار ذلك اليوم وليله على كل ما هو أخضر في تلك المزارع، ولما أشرق صباح اليوم التالي بدا المشهد مرعبا...سيقان الذرة عارية تماما وفروع الأشجار اختفت في بطون الجراد الجائع. كان منظر الخراب باعثا على اليأس والقنوط. بيد أن كل شيء لم يمت، فلم تمر بضعة أسابيع حتي بدأ الوضع في التحسن شيئا فشيئا، وبدأت الخضرة في معاودة الظهور.

حول طباخنا الدنقلاوي كارثة الجراد لفائدة «تذوقية»، إذ كلف الرجل ثلاثة من أبنائه

بجمع الجراد الميت وقليه. وعلمنا فيما بعد أن الجراد المقلي طبق طيب عند الدناقلة. قدم لنا الرجل بعضا مما طبخ فرفضنا في أدب، إذ أن الجراد ليس من طعام أهلنا!

لما صار بيتنا الجديد في الجريف صالحا للسكنى بدأنا في نقل أثاثنا وكامل متاعنا من مسكننا في الخرطوم. لم تكن هنالك وسائل للراحة في بيتنا الجديد، إذ لم يكن ثمة ماء أو كهرباء مما أجبرنا على اللجوء لوسائل بدائية للعيش. اتفقنا مع رجل ليجلب لنا الماء من النيل مباشرة في «خرج» جلدي على ظهر حمار. كان يصب الماء في «أزيار» فخارية ضخمة موضوعة على حوامل حديدية، حيث تقوم تيارات الهواء الباردة بالمرور عبر فتحات الأزيار فتبرد الماء بداخلها، وكنا نضع قلل صغيرة مغطاة بالشاش تحت تلك الأزيار لنجمع نقاط الماء الصافية التي تتساقط من الأزيار(يستعمل الماء المتساقط من الأزيار والمسمى «النقاط» عادة في عمل الشاي والقهوة. المترجم). كان ذلك مصدر ماء شربنا في الجريف لمدة اثني عشرة عاما لم نعاني فيها من أي مرض معدي معوي. وكان المبرد (الثلاجة) في ~~ذلك البيت عبارة عن كيس (جوال/ شوال) كنا~~ نضعه تحت الزير ونخبئ فيه الخضر والفاكهة فتبرد وتحتفظ بكثير من نضارتها. وعوضا عن المصابيح الكهربائية كنا نستعمل فوانيس الجاز ثم صرنا نستعمل من بعد ذلك «رتاين» تضيء ما حولنا. أما الطبخ فكان يتم على الفحم الحجري، وكان ذلك أمرا شديد الكفاءة بيد أنه كان يفتقر للنظافة إذ يثير الرماد في كل ناحية، واستعملنا «طباخا» متحركا يسهل تحريكه، وكلفت أحد الحدادين بعمل فرن حديدي لوضعه فوق ذلك «الطباخ» كنت استخدمه في صنع الكيك.

وكان «فتاح» يجوس خلال مخازن الخردة وورش الحديد فعثر صدفة على برميل حديدي ضخم فاشتراه وعلقه على حائط الحمام وثبت فيه خرطوما ودشا، وبذا صار لدينا حمام عصري يخرج منه الماء المستعمل في الاستحمام عبر فتحة صغيرة في الحائط إلى الزهور المزروعة في الحديقة فيسقيها. وكان ذلك حلا عمليا مفيدا، فلقد لاحظنا أن الذين يضعون خزان الماء على سطح الدار كان عليهم ملئه بعد الظهيرة (و ليس قبل ذلك) حتى يتمكنوا من أخذ حمام ما بعد قيلولة الظهيرة، وإن لم يفعلوا فلسوف تشوي جلودهم مياه الخزان التي تقارب حرارتها درجة الغليان. أما بالنسبة للمرحاض فلقد حفرنا حفرة عمقها أربعة أمتار في الحديقة سورناها بالطين، ومع صندوق رملي نجحنا في الحصول على مرحاض يخلو من كريه الروائح!

كلفنا نجارا ماهرا في أم درمان اسمه بشير بصنع أثاث منزلنا، فأبدع في صنع قطع بديعة من الخزانات والكراسي وطاولة المكتب من أخشاب المهوقني والتيك والبامبو نالت إعجابنا وإعجاب ضيوفنا كذلك. وظللنا في حالة بحث دائم عن قطع صغيرة من هنا وهناك نجمل بها دارنا الجديدة.

كنا بحاجة ماسة لوسيلة ما لحمل أثقالنا من مكان لآخر وللحصول على مواد غذائية في بيتنا البعيد عن مركز العمران فابتعنا حمارا حبشيا قويا كنا ننقل على ظهره ما نبتاعه من دكان القرية الصغير وما نحتاجه لإعمار حديقة منزلنا، وكنا نجلب السماد الطبيعي (روث البهائم) والرمل وغير ذلك على «قفتين» نضعهما في توازن دقيق على ظهر ذلك الحيوان الصبور. وللحصول على اللبن اشترينا ثلاث نعجات دارفورية الأصل تقارب في الطول الأغنام الإنجليزية وليس على جلدها الصوف المعتاد، وإنما كان يميزها شعر يشابه شعر البقر. كانت كل واحدة منها تمدنا بلبن وفير من ضرع بالغ الضخامة. أهداني شيخ البنا (وكان زميلا لفتاح في كلية غوردون) بقرة بيضاء حامل من مزرعته في الجزيرة وذلك كهدية عرسي. وضعت البقرة حملها بعد حين، وتبرع أحد المزارعين معنا بحلبها. كانت عادة السودانيين عند حلب البقرة أن يحضر لها عجلها الرضيع، وأن يترك ليلقم حلمة ضرع أمه حتى تدر اللبن الوفير ثم سرعان ما يبعد العجل وتحلب البقرة دون كبير اعتبار لاحتجاج البقرة الحلوب أو عجلها المحروم. عند غياب ذلك الحلاب الماهر كنت أتولي عملية الحلب، بيد أنني أقر بأنها كانت عملية في غاية البطء والعسر.

ومع مرور الأيام تضاعفت أعداد ما نمتلكه من حيوانات مزرعية من أرانب ودواجن، انضم إليها بعد شهور عدد من القطط والكلاب وقرد أسميناه «بخيت»! أقمنا «زريبة» صغيرة خارج الدار تضم مجموعتنا الحيوانية وأحطناها بشجر ظليل، واتخذ السيد «بخيت» من تلك الأشجار بيتا له. قيدنا قردنا السعيد بحزام حول وسطه مربوط بقيد حديدي طويل وكان القرد يتقافز بين الأشجار في مرح دون أن يحس – فيما نظن- بسلسلة قيده الحديدي الطويل. كان بخيت شخصا ودودا مراحا (سمت الكاتبة قردها «شخصا» فلا تحسبن أني أخطأت في الترجمة. المترجم) وكان يطوف معي حول الحديقة وهو جالس على كتفي، وكان شديد الكلف بقضم سنفات «تمر هندي» الحديقة. كان بخيت شخصا مسالما عندما يعامل برقة وحنان، بيد أنه ينقلب لشخص شرس غضوب شديد العدوانية إن أغاظه أحد أو أساء معاملته. اكتشفنا أن بخيت يمكن أن يلعب دور الحارس الأمين، فكنا نضعه أمام باب الدار لطرد كل غريب ومتطفل أو لص محتمل.

تزايدت أعداد ثروتنا الحيوانية فوضعت لنا بقرة شيخ البنا البيضاء (واسمها ورا) عجلا سمينا آخر، ثم ولدت عجلتها الأولى، وهكذا مضي الحال...بيد أن الحظ في تنمية تلك الثروة لم يكن دوما حليفنا، فلقد جلبت للمزرعة جوزين من الديك الرومي (الحبشي)، وبدا أنهما كانا على أحسن حال حتى وجدتهما ذات صباح نافقين. كان من رأي الأهالي أن سبب النفوق هو عضة ثعبان أو عقرب. أصبت بإحباط شديد ولم أكرر المحاولة تارة أخرى.

كانت العقارب تملأ المكان. وذات مرة رأيت عقربا على أرضية الشرفة فأسرعت لأدوس عليها بقدمي، وفي عجلة حمقاء نسيت أنني لم أكن أرتدي غير صندل يكشف عن أغلب قدمي فإذا بالعقرب وفي سرعة لم أكن أتوقعها تلسعني من بين فتحات الصندل. أحسست بلسعتها وكأنها لسعة ثعبان، وشعرت بسريان السم في قدمي وساقي. قضيت بعد ذلك ساعات طويلة من الألم الممض، ثم بدأت بعد ذلك شدة الألم في الزوال ببطء شديد. معروف أن لسم العقارب أكثر من ترياق، وأنه قلما يقتل ضحيته، إلا أنه عادة ما يقتل صغار الأطفال أو البالغين عندما تلسعهم العقارب في مواضع في أجسامهم قريبة من القلب. وفي أثناء الحرب الأخيرة سمعت عن جنديين ماتا بسبب الصدمة على إثر لسعتي عقربين كانتا مختبئتين في قمصانهما.

من المخاطر العظيمة التي كنا نواجهها في مسكننا بالجريف هو مرض داء الكلب (السعر) والذي كان متوطنا في البلاد. كنت أنا وفتاح قد تعرضنا مرتين للعض من كلاب ضالة، وكان العلاج مؤلما ومرعبا وطويلا، إذ يستلزم العلاج حقن كمية كبيرة من المصل المضاد في البطن ولأيام عديدة قد تبلغ أربعة عشر يوما. بيد أن ذلك العلاج المؤلم يعتبر «نزهة لطيفة» مقارنة بالخطر المحتمل إن لم يتم العلاج وكان الكلب العاض مصابا فعلا بالمرض. يعتبر داء الكلب من الأمراض القاتلة المرعبة خاصة في مراحله الأخيرة حين يتشنج المصاب وتصاب عضلاته التنفسية بالشلل التام... يا لها من ميتة مرعبة وغير سوية تجعل ذلك العلاج المؤلم الطويل محتملا بل وضروريا. بيد أن قتل الكلب العاض وفصل رأسه وبعثه لمعمل «إستاك» لفحص دماغه هو القول الفصل في تحديد إن كان الكلب مصابا فعلا بالداء اللعين. فإن ثبت أن الكلب مصاب فلا بد من إكمال الحقن لأسبوعين، وإن كان الكلب سليما فيمكن إيقاف العلاج وبذا ينجو المصاب المحظوظ من الم الحقن الأليم.

قمنا بزراعة مساحة كبيرة بالبرسيم، وهو محصول بقلي مفيد للتربة (إذ يمدها بالنيتروجين) وهو سريع النمو ومربح جدا ماليا إذ أنه يباع كغذاء للحيوانات المزرعية والمنزلية. بيد أننا علمنا أن أول إنتاج منه يجب عدم تناوله وهو غض أخضر من قبل الحيوانات المجترة إذ أنه يصيبها بانتفاخ غازي قد يودي بحياتها، ولكنه آمن جدا إن جفف تحت أشعة الشمس الحارة. كنا ننتج من البرسيم ما يفيض عن حاجة بهائمنا فتوليت مهمة تسويق وبيع ذلك الفائض الغذائي الضخم. صنعت في المنزل ميزانا بدائيا لوزن البرسيم قبل بيعه، وكان أول الزبائن خمسة سماسرة يأتوننا على ظهور حميرهم ويشترون نحو قنطار (١٠٠ كيلو) من البرسيم يوميا يذهبون به للبيع في أسواق الخرطوم. وبعد سنوات اشترينا سيارة موريس مكشوفة قديمة تسع راكبين فقط كنت أحمل عليها تلالا من البرسيم أبيعه في الخرطوم، والتي كانت تبعد نحوا من خمسة أميال. لم يكن الطريق المعبد من الخرطوم يزيد

عن نصف ميل طولا، يبدأ بعده طريق ترابي يشق الصحراء للجريف ويمتد لأكثر من ثلاثة أميال. كانت سيارتي تلهث وتئن وتزن وتتأوه وهي تقطع تلك المسافة وأنا أقودها في قلق متمنية سلامة الوصول دون أن تسخن السيارة العتيقة وتتوقف بي حيث لا أريد. وفي ذات مرة كنت في طريق عودتي من السوق بعد غروب الشمس، وإذا بوقوع ما كنت أخشاه... توقفت السيارة في منتصف الطريق، ولم أحر ما أفعل!

خرجت من سيارتي وجلة قلقة وبدأت أمعن النظر في أحشائها على أمل أن اكتشف سر عطلها دون جدوى. أتاني الفرج من حيث لا أدري فرأيت من على البعد لوري ينهب الطريق نهبا، وعند مروره بقرب عربتي المعطوبة توقف سائق اللوري دون طلب مني وسألني في أدب إن كنت أود المساعدة. لم أشعر بأي خوف إذ أن الأمن والأمان في ذلك الزمان كان هو الديدن السائد.تقدم السائق لفحص ماكينة سيارتي وسرعان ما أسفر فحصه السريع عن تشخيص مفاده أن المبرد قد سرب ماء التبريد. لقد عرف التشخيص وجاء الآن دور العلاج في ذلك المكان المقفر. صرح السائق بعد لحظات تفكير عاجلة أن العلاج السريع والمؤقت هو أن أكسر بيضة في المبرد الفاغر فاه. يبدو أن الفكرة هي أن تتجمد البيضة في المبرد الشديد الحرارة فتسد موضع التسريب (و لو مؤقتا). بالقطع لم أكن أحمل بيضة في تلك اللحظة، بيد أن الحظ أبى إلا أن يقف بجانبي في تلك الليلة المشهودة، فذلك اللوري لم يكن محملا بالخضر والفاكهة فقط وإنما بالبيض أيضا! كان ذلك.مثالا صغيرا لخص طبيعة الشعب السوداني الطيب. كنت امرأة عاجزة في قفر بعيد مظلم، وكانت الغريزة الأولي عند أولئك الرجال هي العون والمساعدة المبرئة من الغرض.

كانت والدة زوجي تقيم في أمدرمان مع بناتها، وكانت تؤمن بأننا أقدمنا على خطوة مجنونة باتخاذنا الجريف مكانا لسكنانا، ولا تنقطع عن العجب والتعجب من الذي يؤثر السكنى في منزل مهجور وسط رمال الصحراء (كما كانت تقول) على «أم درمان»، رغم أن منزلنا الجديد في الجريف كان يقع على شاطئ النيل الأزرق! كان بعلي يدرك أنه من الواجب عليه أن يرعي أمه، فجهد في إقناعها بالسكنى معنا، فبنى لها بيتا صغيرا مستقلا في الحديقة كان على مرمي حجر من بيتنا. كانت في بداية أيامها معنا لا تكف عن الشكوى والتذمر، بيد أنها سرعان ما تأقلمت على بيتها الجديد الذي وفر لها الحسنين معا: الاستقلالية مع عدم البعد عن ابنها الحبيب. وسرعان ما طابت لها صحبة أفراد عائلة شيخ الحلة، والذين كانوا لا ينقطعون عن زيارتها بانتظام. ومع مرور الأيام طاب لها المقام فطلبت منا أن نثبت على سقف غرفتها أربع صفائح بنزين فارغة كي تستخدمها بيوتا للحمام الذي كانت تهوى تربيته. زادتها هواية تربية الحمام ارتباطا بالمكان، خاصة مع تكاثر أعداد الحمام، فغدت هوايتها شديدة الفائدة والمتعة في آن معا. كنا نقصد دارتها عند

السادسة والنصف صباحا لنرتشف ألذ قهوة يمكنك أن تحلم بها. القهوة السودانية عندي هي واحدة من أفضل أنواع القهوة في العالم، وهي تصنع من أجود أنواع البن الحبشي. يحمص البن على طبق خشبي فيعبق المكان برائحة غاية في الجمال، ويمرر الطبق على الضيوف كي «يتكرفوا» تلك الرائحة العبقة، وتلك من طقوس العرب.

كان عملية صنع القهوة مناسبة يومية للنساء كي يتجمعن ويتسامرن في صخب وهن يثرثرن ويتبادلن القصص الطوال. يتم بعد ذلك دق البن المحمص بمدق حديدي في مدقة (فندق/ فندك) من الخشب، وتضاف له خلطة من التوابل الخاصة ثم يسخن الخليط تارة أخرى ويغلى في ماء يوضع على «شرغرغ» (وهي مقلاة حديدية ذات يد طويلة وأنف مستدق). تترك القهوة تغلي لثلاثة مرات على الأقل قبل أن تصب في «الجبنة»، وهي وعاء فخاري مستدير له عنق طويل يسد بمصفى من ليف النخلة. تسكب القهوة المصفاة في كؤوس صغيرة مستديرة ليس لها مقابض، وتوضع «الجبنة»على حلقة من الخرز المطرز. لم أذق في حياتي قهوة في مثل حلاوة القهوة السودانية.

مضت وتيرة الحياة في بيتنا الجديد في سعادة ودعة. كانت أم زوجي (وكنا ندعوها «الحاجة» احتراما لها بما أنها أدت فريضة الحج) تأخذ مظلتها الكبيرة البيضاء وتذهب في زيارتها اليومية لمنزل شيخ الحلة. وسرى بين الناس نبأ أن لي معرفة طبية فتقاطر الناس على دارنا يطلبون مني رؤية مرضاهم. صار عملي اليومي الراتب هو رؤية مرضى القرية في منازلهم. كان السل والملاريا هما المرضين الأكثر شيوعا في تلك الأيام، ومنحتني الحكومة كمية معقولة من الأدوية الأساسية لأداوي عشرات المرضي الذين لم يكن لتتوفر لهم سبل العلاج الحديث. وجدت الناس في غاية الود والتراحم رغما عن ما كانوا يكابدونه من شظف العيش وضيق الرزق وهموم الحياة. رأيت كل صنوف الأمراض وعاينت مختلف المشاكل الصحية، فهنالك الذين ولودوا بإعاقات جسدية وعقلية مرعبة، والمشوهين بسبب أمراض خلقية. لم يزر أي طبيب أحدا من هؤلاء التعساء أبدا. وتولدت لدي قناعة مفادها أن حياة أولئك الناس كانت ستتغير لو أن الله قيض لهم على الأقل ممرضة دائمة الإقامة معهم في القرية إذ أن كثير من الحالات لم تكن لتصل إلى ما وصلت إليه إن اكتشفت باكرا أو لقيت بعض الاهتمام الطبي الأولي.

وتحضرني هنا قصة فتي في حوالي العشرين من عمره يعمل سماكا ويعيش مع أمه التي مات عنها بعلها منذ سنين. كان ذلك السماك بالغ النحافة ودائم السعال والشكوى من حمى تزوره بالليل. أول ما رأيته حسبته سيقضي نحبه بعد ساعات من شدة ما كان به، بيد أني رأيت ألا أفقد الأمل فوصفت له دواء لسعاله الدائم وأعطيته دواء آخر للملاريا، وقدمت لوالدته بعض النصائح الطبية والصحية الأولية. مر على يوم لقائي بصاحب

ذلك الجسد المنحول نحوا من ثمانية أشهر حين أتاني طباخنا يعلن عن مقدم امرأة وابنها من القرية. وكم تعجبت إذ رأيت أمامي المرأة وابنها وقد أتيا راجلين من القرية البعيدة وهما في غاية الفرح والسرور وقد امتلأ جسد الفتي وصار ممشوق القوام على وجهه الصبوح نضرة العافية. لا بد أنه كان يعاني من ملاريا مزمنة نجح دوائي في اقتلاعها من جذورها. سرت سعادتهما إلي، وشعرت بنشوة غامرة من توفيقي في أن أساعد ذلك الفتى المريض في أن يتعافي ويعود لعمله.

الحالة الثانية التي لا أزال أذكرها هي حالة في عائلة شيخ الحلة. كان كل المواليد في تلك العائلة يولدون بتشوهات خلقية ويموتون بعد أيام قليلة من مولدهم. كانت الشابة نفيسة زوجة الشيخ في غاية الإحباط وهي تفقد مواليدها الواحد تلو الآخر دونما علة ظاهرة. وفي أحد زياراتي لدارهم أسرت لي بأنها حملت مجددا، وأن أحدهم أوصاها بأن تضع حول عنقها سلسلة فيها صندوق صغير مخبوء فيه عقرب نافقة وذلك للحفاظ على ما في بطنها من التشوه أو الموت! تابعت مراحل حملها إلى أن اكتمل فوضعت في نهايته مولودا تبدو عليه علامات الصحة. كانت نفيسة في غاية الحبور والسعادة وقد وضعت مولودا سليما هذه المرة.

بيد أنه لم يكد يمر يوم وبعض يوم حتى بعثت لي برسول لينبئني بأن المولود (واسمه سيد) لم يخرج ما في أحشائه من ميكومنيم (الميوكونيم meconium هو المادة الخضراء اللزجة التي تشبه القطران والتي تغطي بطانة الجنين في رحم أمه وهي أول براز يخرج من شرج المولود. المترجم) عقب مولده. أسرعت بالذهاب لمنزل نفيسة النفساء، وحرصت على أن أخذ معي قسطرة بلاستكية رفيعة. عند فحص المولود تبين لي أنه يعاني من انسداد شرجي، قمت وبكثير من العناية والصبر بعلاجه بواسطة تلك القسطرة الرفيعة التي أدخلت عن طريقها حقنة شرجية صغيرة. كانت النتيجة دراماتيكية ومذهلة، ولم يشكو المولود بعدها من شيء. ومرت الأيام وكبر المولود إلى أن صار شابا صحيحا وتزوج وصار أبا لعدد من الأطفال. وبعد مرور ثلاثين عاما على يوم استدعائي لمعالجة شرج ذلك المولود احتجنا لكهربائي كي يصلح لنا شيئا ما في المنزل. أقبل الكهربائي وكان شابا قوي البنيان، وبينما كان يعمل كنت أتجاذب معه أطراف الحديث فعلمت منه أنه ابن لنفيسة التي كنت أتولي رعايتها قبل ثلاثة عقود، وأن اسمه «سيد»... لم تطاوعني نفسي بالطبع لأقول له أنني رأيته مولودا حديثا وعمره يوم أو بعض يوم وكيف كانت حالته حين لقيته ذلك اليوم!

وهنالك قصة أخرى... هي قصة الرجل الأربعيني الذي استدعيت على عجل

لأداويه. كان عندما وصلت داره يئن ويتلوى من ألم حاد ممض في أحشائه وكان يتقيأ أيضا. رأيته قابعا في ركن من أركان غرفته المظلمة في بيته الصغير. أدركت على الفور أن الرجل ربما يكون قد أصيب بالتهاب حاد في الزائدة الدودية مما يستلزم نقله دون إبطاء لمستشفي الخرطوم لإجراء جراحة عاجلة. أسرعت بالعودة لمنزلنا لأحضر السيارة لنقله على عجل للخرطوم، وقدت بسرعة جنونية لأصل به قبل أن يحدث ما لا تحمد عقباه. عند باب المستشفي رأيت بعضا من التمرجية (الممرضين) الذين كانوا يعملون معي فيما سبق من سنين، فطلبت منهم الإسراع بإحضار سيارة إسعاف لنضع عليها المريض وندخله لقسم الحوادث. لمست من بعضهم نبرة احتجاج وطنطنة تفيد بأن على أن أدخله في عربة أجرة (تاكسي) إن أردت! وبما أنني لست ممن يقبل بكلمة «لا» كإجابة فلقد أصررت على أن يسرعوا بجلب سيارة الإسعاف للرجل المسكين ففعلوا، وحسنا فعلوا فلو أننا تأخرنا بضع دقائق- كما ذكر لنا الطبيب لاحقا- لانفجرت زائدة الرجل الملتهبة. تم إجراء العملية وتمت بسلام ونجا الرجل من موت شبه محقق.

مرت السنون كلمح البصر وتعافت حديقتنا ومزرعتنا مما أصابها من هجوم الجراد. واستبدلنا الذرة الشامية بالفول السوداني إذ أنه ينمو أفقيا على الأرض وهو شديد الفائدة للتربة إذ يغذيها بالنيتروجين. بيد أن صدمتنا كانت عظيمة عندما أتي وقت الحصاد لنكتشف أن المحصول قد تضرر كثيرا من النمل الأبيض (الأرضة) الذي انتشر في مساحات واسعة من الأرض. كان النمل الأبيض قد استوطن وأضر بالأرض الزراعية ضررا عظيما، بيد أن الضرر قد انتقل للمباني أيضا. حاولنا إنقاذ ما يمكن إنقاذه من المحصول، وأفلحنا في الحصول – بعد مشقة عظيمة- على نحو ثلاثين جوالا فقط من الفول، وكان ذلك يكفي بالكاد لتغطية بعضا من الخسائر التي تكبدناها. أما ما يحدثه النمل الأبيض في كل ما هو خشبي في المنزل من أثاث وأبواب وحوائط فأمره عجب. بل أن حتى أواني الصيني لم تسلم من شرور شره ذلك النمل. كنا نضطر لغمس أثاثنا الخشبي في زيت التربنتين حماية له من ذلك النمل الأبيض الأكول (لزيت التربنتين رائحة قوية غير مستحبة. المترجم).

ومع نمو أشجار مزرعتنا وتضاعف أعداد حيواناتها فلقد صارت دارنا والمزرعة الملحقة به أكثر جذبا لأصدقائنا في الزيارة وقبلة لهم خاصة بعد أن بدأت الحرب العالمية الثانية. فلقد كانت هنالك قيود أمنية في مدينة الخرطوم بسبب الحرب جعلت الكثيرين من الأصدقاء يفضلون قضاء أوقات خالية من القيود في بيتنا الريفي البهيج ويصرفون ساعات من نهارهم في صيد الأسماك حيث يستمتعون بالصيد ومن بعد بوجبات شهية من سمك البلطي. كان بعضهم يصطاد بالصنارة والدود، بينما كان البعض الآخر أكثر طموحا

ومهارة ويفضل الشبكة الدائرية. كان أحد عمالنا واسمه الجاك مجيدا لصيد السمك عن طريق الشبكة، بيد أنه وعن طريق الخطأ افلح ذات مرة في رمي نفسه مع الشبكة عند رميه إياها في وسط النهر! وعوضا عن السمك نجح الجاك ذات مرة في اصطياد تمساح صغير لم نجد بدا من وضعه في حوض السباحة الذي أقمناه في المنزل. دخل التمساح في إضراب عن الطعام احتجاجا على ما حاق به، ولم ندر ما نفعل به فأهديناه لحديقة الحيوان. كانت مزرعتنا مرتعا لكثير من الحيوانات البرية مثل الثعالب والذئاب والأرانب البرية، والتي كانت كلابنا تسابقها دون أن تفلح في اصطيادها.

بيد أن كلابنا الماهرة في الصيد الليلي كانت تنجح دوما في اصطياد أو على الأقل طرد القطط البرية وغيرها من الحيوانات الوحشية التي تتحرك في الظلام. بيد أن مصيبتنا الكبرى كانت في ثعبان الكوبرا وهو حيوان زاحف يبصق سمه الزعاف على وجه ضحيته فتصيب العين أو الأنف أو الفم، وربما تكون النتيجة هي الموت المحقق. وهذا ما قد كاد يحدث لكلب لنا بصق على عينيه ثعبان كوبرا ضخم اتخذ من مزرعتنا بيتا له. نجحنا في إرجاع البصر تدريجيا لذلك الكلب المسكين بعد شهور من العلاج المتصل الصبور.

كانت «الحاجة» والدة زوجي في غاية السعادة وهي تري مملكة الحمام فوق سقف بيتها تنمو وتزداد. بيد أن أعداد تلك الطيور أخذت في التناقص تدريجيا مما أزعج الحاجة ودفعها لاتهام قطي الأثير (واسمه داؤد) بالاعتداء على حمامها وسرقة صغاره من زغب الحواصل. لم أشك أبدا أن داؤد أشرف من ذلك بكثير ولا يمكن أن يدنس كرامته بمثل تلك الفعلة. وذات يوم وبينا كنت أتناول القهوة مع نسيبتي العزيزة في وجود طباخنا هارون (وهو رجل ضخم من العرب البقارة) لاحظنا ظهور رأس ثعبان ضخم من حفرة في أحد الحيطان وهو يتجه نحو أقفاص الحمام. في لمح البصر تناول هارون سكينا ضخما كانت على الطاولة، وما أن أظهر الثعبان رأسه مرة ثانية حتى رماه هارون بمهارة فائقة فأصابه في مقتل ثم حز رأسه وجر باقي جسمه خارج مخبئه. استلينا الثعبان من مخبئه فوجدنا أن طوله لا يقل عن مترين ونصف. ظهرت براءة هارون قطي من تلك التهمة المنكرة، وبدأت أعداد الحمام في الزيادة من جديد. من المخاطر العظيمة التي عشنا وتعايشنا معها هي وجود ستة من التماسيح كانت تتشمس يوميا في جزيرة صغيرة أمامنا. كنا نستمتع بالسباحة في مياه النهر الحلوة ولكن ليس قبل أن نحصي عدد التماسيح المنبطحة على رمال الجزيرة المقابلة. لقد كان وجود واحد أو أكثر من تمساح في الماء كفيل بجعلك تنسحب لليابسة بأعجل ما تيسر!



قصة داؤد عبد اللطيف مع البريطانيين

تقديم: السطور التالية عرض مختصر لأحاديث متفرقة أدلي بها داؤد عبد اللطيف (المولود حسب ما يظن عام ١٩١٤م في وادي حلفا) عن خواطره عن الفترة التي عرف فيها البريطانيين كطالب في كلية غوردون وككاتب حسابات صغير ثم إداري كبير تحت رئاسة موظفين بريطانيين. وردت تلك الأحاديث مفرقة في كتاب إنجليزي ممتع عن العلاقات «الإنسانية» بين البريطانيين والسودانيين عنوانه «روابط من حرير» من تأليف سوداني هو فرانسيس دينق وبريطاني هو م. دبليو. دالي. صدر الكتاب عن دار نشر جامعة ميتشيجن بالولايات المتحدة في عام ١٩٨٩.

لم تكن علاقة داؤد عبد اللطيف مع مدرسيه البريطانيين جيدة، وكان يعد مدرس اللغة الإنجليزية وآدابها رجلا مستبدا شديد الغرور لا ينقطع عن إصدار الأوامر وفرض جرعات زائدة وغير مقبولة من النظام و«الضبط والربط». كان هنالك أمر آخر جعل داؤد يزداد كراهة وسخطا على الإنجليز، ألا وهو اطلاعه على الكتب والمنشورات اليسارية التي كانت تسلق المستعمر بألسنة حداد ونقد عنيف وتأثره البالغ بها. وقع داؤد تحت تأثير بائع كتب إغريقي كان يزوده بتلك الكتب والمنشورات ومنها بينها كتب كارل ماركس. وازداد داؤد حنقا وكرها على الاستعمار عندما احتلت ايطاليا الحبشة في عام ١٩٣٦م إلى الحد الذي دعاه فيه إلى البدء في تعلم اللغة الإيطالية أملا في أن «يساعد الطليان على دخول السودان». كان يؤمل أن يأتي الطليان للسودان ويحاربون البريطانيين ويطردونهم من السودان! بالطبع لم يكن المعلم الإنجليزي يدرك ما كان يداوم على قراءته طالبه، إذ لم يتطرق داؤد إلى الأمر بتاتا، ويحتفظ به في طي الكتمان، وكان كل ما يهم الأستاذ البريطاني هو تحسين الطالب للغته الإنجليزية. لم يفت على داؤد أن لغته الإنجليزية كانت تزداد تحسنا مع قراءته المستمرة للكتب اليسارية.

تنامت عند الطالب داؤد مشاعر الكره والعداء للبريطانيين، بيد أنها لم تمنعه من القول بأن الأساتذة البريطانيين لم يكونوا قاسين نحوه، بل إن بعضهم (خاصة واحدا أو اثنين) كانوا شديدي التعاطف معه لذكائه الحاد وتفوقه على أقرانه في الفصل... والأساتذة - كالعهد بهم- يحبون الطالب المتفوق. لم يشفع لداؤد تفوقه في الدراسة عندما دخل مع بقية طلاب الكلية في إضراب عام ١٩٣١م، فقامت الإدارة بفصله من الكلية إذ أن تحقيقات الشرطة قد دلت على أنه كان من المحرضين على ذلك الإضراب.

وأخيرا عندما عين داؤد في أول وظيفة حكومية له أرسلوه إلى «مناطق شدة» نائية لتأديبه رغما عن (أو بسبب) تعبيره عن رغبته في البقاء في الخرطوم.

قضي داؤد السبعة سنوات التالية في العمل ككاتب حسابات في الدامر ووادي حلفا. ورغم أن ذلك لم يكن واضحا له في ذلك الوقت إلا أن روح الاستقلال عنده هي التي كانت تميزه عن أقرانه ومعاصريه وكشفت له عن مقدرات قيادية كامنة فيه نالت إعجاب الجميع بما فيهم أعداؤه.

لم يخف على رئيس داؤد الإنجليزي في وادي حلفا المفتش ت.ج. كارليتس أن داؤد لا يشابه بقية الموظفين السودانيين. ففي ذات يوم صرخ المفتش كارليتس غاضبا في وجه محاسب سوداني عجوز وسب أباه. ران الصمت الرهيب على كل من كان في المكتب ولم ينبت أحد ببنت شفه، إلا داؤد والذي تقدم نحو المفتش الإنجليزي الغاضب وخاطبه قائلا: « بحسب تقاليد هذه البلاد وعادات أهلها، بل حسب عادات كل البشر في هذه الدنيا فإن ما فعلته للتو يعد خطأ كبيرا». باتت الدهشة البالغة على وجه المفتش البريطاني من جرأة «ولد صغير» في اسكيل جي ينتصب أمامه ويخبره بأن ما قام به خطأ عظيم! قام المفتش البريطاني وعلى الفور بالاعتذار علنا أمام الموظفين للموظف السوداني العجوز، وشكر داؤد وأوصاه بألا يتردد في التصريح بأي انتقاد يراه ملائما.

من أطرف ما ذكره داؤد عن علاقته الإنسانية بالبريطانيين هو ما رواه عن نجاح فتاة حسناء لندنية عرفها في تغيير نظرته إلى الشعب البريطاني، وكيف أن ذلك الشعب هو في الواقع شعب رقيق وودود وحساس تجاه الآخرين، خلافا للنظرة السائدة التي ظلت تحملها عنهم الشعوب المستعمرة (ومنها أهل السودان) من أنهم شعب بارد الإحساس ومتعجرف متغطرس. وحكى داؤد أيضا عن تجربة لا تخلو من طرافة عندما بعث لفترة تدريبية بعيد سنوات الحرب العالمية الثانية عندما كان ضمن وفد من طلاب جامعة بريستول ذهبوا لقصر سيدة محسنة شديدة الثراء كانت دائمة التبرع بالملايين للجامعة، وكانوا يأملون في أن تقوم تلك السيدة بالتبرع مجددا للجامعة. رحبت بهم تلك السيدة المحسنة وقدمت لهم القهوة. وبعدما شربوها سألتهم السيدة في ود ظاهر – بطريقتها الأرستقراطية المألوفة– إن كانت القهوة قد أعجبتهم. هنا انبرى لها بالرد صاحبنا داؤد بالصراحة النوبية (المعتادة) وقال بصوت عال: أكانت تلك قهوة؟! مشيرا من طرف خفي لرداءة نوع القهوة المقدمة (فلقد كان الجميع بما فيهم الأثرياء قد تأثروا سلبا بالحرب وسنينها الطويلة المجدبة).

أيضا حكى الرجل عن رحلته للبحث عن مسكن مناسب في مدينة بريستول فذكر

أنه قرأ إعلانا لسيدة عن رغبتها في تأجير غرفة في منزلها. فذهب داؤد إليها مؤملا الظفر بالغرفة. طرق الباب وما أن فتحت له السيدة حتى كاد يغمي عليها من الدهشة والخوف فلم تكن عين تلك السيدة قد وقعت على رجل أسود بلحمه وشحمه. بعد هنيهة استعادت السيدة وعيها وحسها المتمدن فردت عليه في هدوء (مصطنع) بعدما علمت بمطلبه أنها لم تكن تتوقع أن تؤجر غرفتها لرجل (هكذا) بل لأنثى. لم ييأس داؤد فمضي يجرر معها الحديث وقال ضمن ما قال: « نحن في بلادنا ما أن يأتينا أحد من الناس زائرا حتى ندخله للدار ونقدم له القهوة، فلم لا تفعلون ذلك هنا؟». ردت عليه في برود انجليزي مألوف: « نحن في بلادنا لا نفعل ذلك، ولكن لنفعل ذلك هذه المرة» ودعته للدخول وتناول القهوة. طفق داؤد يحدثها في مختلف الشؤون وعرض عليها في إلحاح أن تقبل به مؤجرا لمدة عشرة أيام فقط يقضيها في بريستول، ومن بعد سيسافر إلى لندن، فإن رضيت به مؤجرا عاد لبريستول تارة أخري وإلا عثر على غرفة أخري. يبدو أنه قد «أكل عقلها» كما يقال بفصيح ومعسول الكلام فأشادت بمقدراته التفاوضية ومقدرته على الإقناع ورضيت به مؤجرا، بل طلبت منه أن يترك متاعه في الغرفة عند سفره للندن وأن يعود إليها ويقضي فيها بقية أيامه في برستول.

كما ذكرنا من قبل فقد تصدى داؤد عبد اللطيف وهو بعد «ولد صغير» في اسكيل جي للمفتش البريطاني ت.ج. كارليتس والذي قام وهو في ثورة غضب عارم بسبب والد موظف سوداني عجوز يعمل تحته. تصدي له داؤد في شجاعة وذكره بأن ما قام به خطأ عظيم. صدع البريطاني لتنبيه «الولد الصغير» ، بل واعتذر للموظف العجوز، وأشاد بداؤد وأوصاه بألا يتواني عن التصريح بما كل ما يراه من عوج. بعد مرور عام ونصف على ذلك الحادث عرض المفتش البريطاني كارليتس على داؤد أن يلحقه بدورة «مساعدي المآمير». رفض داؤد العرض قائلا للمفتش ما معناه : «إنني إذا قبلت هذا العرض فإنني سأكون بمثابة «المخبر» للإنجليز وهذا ما لا أرضاه لنفسي». بعد ذلك حاول المفتش كارليتس تدبير منحة دراسية لداؤد لدراسة زراعة النخيل في البرازيل بعد أن علم أن ذلك كان أحد أحلامه منذ الصغر، بيد أن «أزمة ميونخ» عرقلت سفر السودانيين للخارج. رضخ داؤد من بعد ذلك للأمر الواقع فتقدم للالتحاق بدورة «مساعدي المآمير» بيد أن لجنة المعاينة رفضت قبوله بذريعة قصر قامته، رغم اعترافها بأنه كان أفضل المتقدمين عقلا وثقافة وتأهيلا! شكا داؤد لرئيسه المفتش الإنجليزي من الظلم الذي حاق به وعلق ساخرا على رفض اللجنة له بأن تلك اللجنة ربما تكون قد ظنت أنها موكلة باختيار حمالين وليس موظفين في سلك الإدارة! نصحه رئيسه بكتابة خطاب احتجاج وتظلم للمسؤولين ففعل، وقام رئيسه

كارليتس برفع الشكوى إلى السكرتير الإداري نيوبولد، والذي تبنى الشكوى شخصيا وأوصي كتابة بقبول داؤد في العام التالي دون إجراء معاينة.

خلص داؤد بعد أن عمل في سلك الإدارة لما يقرب من ثلاثة عقود إلى أن بعض كبار رجال الخدمة المدنية كانوا يدركون شغفه بالسياسة ويقدرون مقدراته العقلية والذهنية. أشار الرجل أن السكرتير الإداري نيوبولد على وجه الخصوص كان يتخير الأذكياء من صغار الإداريين السودانيين ويحرص على مكاتبتهم وهم في أقاليمهم البعيدة ويسأل عن أحوالهم وأحوال الأقاليم التي يديرونها وأحوال سكانها.

كان نيوبولد يسهل على داؤد (وأمثاله) أمر الدخول عليه في المكتب وفي المنزل أيضا، فلقد كان يدعوه ومن يصطفي من الموظفين لداره ويقيم لهم حفلات شاي أسبوعية، ويتيح لهم الإطلاع على مكتبته الغنية وانتقاء ما يستهويهم من نفيس الكتب على سبيل الاستلاف، ويناقشهم في أمور الدولة والإدارة. لخص داؤد الأمر بقوله: « كان نيوبولد يعطينا الإحساس بأننا أناس مهمون»، ولعل في إشارة داؤد إلى أن السكرتير الإداري «كان يعطيهم الإحساس» اعتراف ضمني بأنه (والموظفين السودانيين) كانوا شديدي الإدراك لمن كانت له السلطة الحقيقة في إدارة البلاد حقيقة و«يعرفون قدرهم» إن صحت العبارة.

كانت لداؤد آراء لا تخلو من جرأة فيما يتعلق بسياسية الحكم البريطاني فيما يتعلق بالدين، فهو يري مثلا أن سياسة فصل الشمال عن الجنوب نبعت أساسا من سياسة ونظرة الدولة العامة نحو الدين، فمع قدوم لورد كتشنر نحو السودان زحف المبشرون نحو جنوب السودان على عجل لنيل قصب السبق للحصول على موطئ قدم لا يتيح للإسلام بابا ينفذ منه. كان داؤد رغم ذلك يؤمن بأن الصراع الحقيقي لم يكن بين المسلمين والمسيحيين بقدر ما كان بين الكاثوليك والبروتستانت. كان الاعتقاد السائد هو أن «الإسلام للشمال والمسيحية للجنوب»، وهذا ما ظل عليه الوضع سائدا. لم يكن معروفا لدي الكثيرين أنه كان هنالك صراع خفي وود مفقود بين الإداريين والمبشرين المسيحيين. كان كثير من المبشرين المسيحيين (خاصة الكاثوليك) يكرهون الإداريين البريطانيين البروتستانت، بل ويفضلون التعامل مع الإداريين السودانيين، وضرب داؤد (أول محافظ لمديرية أعالي النيل) لذلك مثلا بمعاملته لقسيس كاثوليكي كان له من المحبين.

كان الإداريون البريطانيون دائمي الشكوى من المبشرين المسيحيين وكانوا يتمنعون عليهم في منح الأراضي لتشييد المستشفيات. يعتقد داؤد اعتقادا جازما أن كل ما كان يهم الانجليز هو منع المسلمين من الدعوة لدينهم في الجنوب، ليس لسبب ديني بحت

وإنما لتقليل فرص تعقيد الأوضاع بأكثر مما صارت عليه بسبب التبشير المسيحي. وبعبارة أكثر وضوحا كانوا – حسب رأي داؤد- لا يودون لدين جديد آخر أن ينتشر فيزيد الأوضاع التي خلفها التبشير المسيحي في الجنوب سوءا. فسر داؤد كذلك قصر الحكومة للتجارة في الجنوب على التجار الأغاريق ومنع التجار من شمال السودان بأن التجار الشماليين كانوا يدمنون غش زبائنهم الجنوبيين بأكثر مما يفعل الأغاريق! وحسب رأي داؤد فإن الحكومة لم تكن تمنع ذهاب الشماليين للجنوب كموظفين بل تمنعهم من الذهاب هنالك كتجار. [لعل القارئ يوافقني على أن بعض هذه الآراء «القطعية» لا تخلو من خفة وجزافية وبعض سذاجة، ولكن قد نجد العذر للرجل في أن تلك «الآراء» قد قيلت في محاورات في زمن مختلف وتحت ظرف قد لا نتبين كنهه. (المترجم).

لاحظ داؤد عبد اللطيف أن بعض (بل جل) البريطانيين كانوا مولعين بالإبل وحياة البداوة والترحال وكانوا يمجون المدن وأهلها ولا يطيقون العيش فيها، وكان يري أن أغلب مفتشي الثلاثينات والأربعينات كانوا أكثر ارتياحا للتعامل مع الشيوخ والسلاطين من التعامل مع المتعلمين السودانيين (ولا عجب، فالمرء على حب الثناء والتكريم مجبول!).

من أغرب ملاحظات داؤد أن البريطانيين كانوا يعتقدون أن «الرجل السوداني» إن وجد المال فإنه لا بد أن يطلب الشرب، لذا فلقد حاول أن يثبت خطل تلك «النظرية البريطانية» فأصر – هو وقلة من أصحابه- على اجتناب الخمور مخالفة لعادة أغلب متعلمي السودان آنذاك. من المفارقات التي لم يفت على داؤد ذكرها أن غالب الموظفين البريطانيين كانوا في الشرب من المسرفين، وعلى السكر من المداومين. كان كل فرد منهم تقريبا يختم يومه بكأس أو كأسين من الويسكي، وظلت زجاجة الويسكي والروايات الأدبية صفة ملازمة لمفتش المديرية حيثما حل، فمع مغيب شمس كل يوم توضع على الطاولة في حديقة «البيت الوسيع» زجاجة ويسكي عذراء وكتاب لرواية إنجليزية عتيقة.

من أجمل ما وصف به داؤد عبد اللطيف البريطانيين أنه لم يعرفهم حقيقة كبشر إلا عند عيشه معهم في بلادهم. يصف داؤد المفتش البريطاني العامل في السودان بأنه مجرد «حيوان سياسي» وليس بشرا سويا، يكره ويحب، يغضب ويفرح، يخاصم ويصالح. كل ذلك وجده داؤد في صحبة «ماجد» في مدينة الضباب، وتلك قصة أخري يلفها «الضباب»!



الناظر بابو نمر : نحن والإنجليز

تقديم: السطور التالية عرض مختصر لخواطر متفرقة أدلى بها الناظر بابو نمر (ناظر المسيرية) عن الفترة التي عرف فيها البريطانيين في مختلف الحقب وفي داخل وخارج السودان. وردت تلك الأحاديث مفرقة في كتاب إنجليزي ممتع عن العلاقات «الإنسانية» بين البريطانيين والسودانيين عنوانه «روابط من حرير» من تحرير سوداني هو فرانسيس دينق وبريطاني هو م. دبليو. دالي. صدر الكتاب عن دار نشر جامعة ميتشيجن بالولايات المتحدة في عام ١٩٨٩م.

اسمي الحقيقي هو عثمان، و«بابو» هذه لقب أطلق علي وأنا طفل صغير. أسماني والدي عثمان تيمنا باسم عمي عثمان جلة. نشأت تحت رعاية جدي الذي رباني صغيرا وكنت لا أكاد أفارقه. كان يرفع عقيرته بالنداء يا «عثمان». وعندما يستجيب عمي عثمان للنداء بنعم، كان جدي يصيح فيه: « ليس أنت»... أقصد عثمان «البابو»... وكلمة البابو في لغتنا السودانية تعني الطفل الصغير. من هنا بدأ اسم «بابو» في الانتشار إلى أن غطي على «عثمان» اسمي الحقيقي. أما عن عمري، فأحسب أنني قد ولدت عام ١٩١٠م في مدينة الفولة بمديرية كردفان، وظللت أعمل ناظرا لقبيلة المسيرية حتى أتت «ثورة مايو» في عام ١٩٦٩ فحلت «الإدارة الأهلية» فعدت مواطنا عاديا أعمل بالزراعة.

كان لنا قبل ظهور المهدية زعيم أسمه علي مسار يمت لي بصلة قرابة إذ كان عما لجدي علي جلة، واستوعبت المهدية بعد انتصارها القيادات القبلية القديمة وتبعها كل أفراد الشعب. بعد أن دانت للمهدية السيطرة على الأمور وهدأت الأحوال آب كل فرد لمنطقته، وبدأ الناس في البحث عن زعماء محليين لهم. ولم تختلف منطقتنا عن غيرها في ذلك التوجه فجد الناس في البحث عن زعيم لهم من القبيلة يخدم قضاياهم العامة والخاصة فلم يجدوا غير علي جلة وهو من العجايرة (فرع القبيلة التي كانت بيدها القيادة). لم ينقض وقت طويل حتى اختار «الفلايتة» زعيمهم وآثروا الانفصال عن «العجايرة» رغما أنهما معا ينتميان إلى «الحمر». ظل علي جلة زعيما على العجايرة إلى أن بلغ من الكبر عتيا فتنازل عن زعامة القبيلة إلى ابنه نمر والدي.

صار والدي ناظرا للقبيلة في ١٩١٨م وظل كذلك إلى حين وفاته الثالث عشر من

يناير من عام ١٩٢٤م. لم يعمر في عام ١٩٢٤م غير ثلاثة عشر يوما، وكان عمري حينها ثلاثة عشر عاما لا تزيد. ذاع خبر موت زعيم القبيلة في أوساط الناس فتنادوا للتجمع في أبيي لاختيار خليفة لهز ترأس ذلك التجمع الزعيم كول كبير دينكا نجوك والحاج عبد الجبار زعيم الفلايتة. أجمع الأجايرة على اختيار ابن الزعيم الراحل... ابن نمر والذي هو أنا. ليس صحيحا ما يقوله الناس من أن زعامة القبيلة تورث. صحيح أن أبناء نظار القبيلة هم أكثر الناس قبولا كزعماء محتملين، بيد أن أحدا لم يفرض على الناس أبدا!

كان أول عهد بابو نمر بالبريطانيين – وهو بعد طفل غرير- عندما كان الناس يطلقون عليهم «الأتراك الجدد»، ولا غرو فلقد عرفوا عنهم صرامة شديدة فاقت صرامة الأتراك الذين حكموهم قبل المهدية، بيد أنهم كانوا أقل ميلا للعنف من سلفهم من «الأتراك القدامى». وبحكم أن بابو نمر كان «ابن الناظر» فلقد كانت صلته واحتكاكه المباشر بالبريطانيين أكثر من غيره فشهد بأنه وجدهم كما قال «أناسا معقولين وطيبين». لم تبارح بابو ذكري أول لقاء له مع مفتش المركز المستر كرافورد وهو لما يبلغ الثانية عشر من العمر وهو في صحبة جدته. مد الصبي بابو يده لمصافحة المستر كرافورد فذهلت الجدة العجوز... كيف لذلك الصبي أن يتجاوز «حدود الأدب» ويهز يد المفتش المهاب... «ماذا تفعل؟ لم لا تخفض كتفيك تحية لأبيك؟» صرخت فيه في وجل مذعورا! جاء رد المفتش البريطاني حاسما ومطمئنا للصبي الجريء: «لا... لا... الرجل يصافح الرجل باليد وليس بالكتف». ومنذ تلك اللحظة شعر بابو نمر بأنه ند للبريطاني لا يزيد عنه ولا ينقص. فيما أقبل من أيام وبعد أن تولي النظارة ظل بابو نمر شديد الإيمان بأن الإداريين البريطانيين يحترمونه ويقدرون ما يقوله لهم لأنه لا يكذب عليهم، بل يواجههم بالحقيقة مهما تكن النتائج.

كان يحبهم ويحترمهم فلقد كانوا يمثلون له (وربما لكثيرين غيره) ليس مجرد «مستعمرين» بل «موجهين» أيضا، ويقومون بذلك التوجيه باحترام ، فلقد كانوا يغلون أيادي مستعمريهم بخيوط الحرير وليس بسلاسل الحديد، ولولا أنهم كانوا مستعمرين وإمبرياليين لما لخطر لنا حتى مجرد مسائلتهم، بيد أن المرء لا يقبل بأن يستعمر دون أن يبدي على الأقل تحفظا. وعلى وجه العموم كان بابو يرى أن البريطانيين شعب متفوق (أعلى رتبة) من غيره من الشعوب... ونالوا ذلك التفوق وعلو المكانة ليس بسبب أصلهم العرقي وإنما بسلطتهم المكتسبة. وظل بابو مؤمنا بأن البريطانيين لم يمارسوا العنف أبدا في محاولة إثبات تفوقهم بل فعلوا ذلك برقة وأدب

عظيمين. لم يحتاجوا ليصرخوا في وجهك قائلين: «نحن أصحاب السلطة في هذه البلاد»، بل كنت تحس وتوقن بذلك من تلقاء نفسك! من مزاياهم عنده أنهم لم يكن يفرقون بين الناس، وهذا في باب في الإنصاف كان بابو نمر يقدره. لذا فلقد شعر بابو بالحزن عندما رحل الإنجليز، ليس حبا في الاستعمار ولكنه - كما قال- «حزن يصيبك عندما تفارق صديقا عزيزا». رغم كل ذلك فلقد كان الرجل مدركا أن البريطانيين كانوا أمناء مع أنفسهم وهم يحكمون من أجل فائدة إمبراطوريتهم ليس إلا، فقال: إنهم لو كانوا يحكمون من أجله فربما خلص إلى أنهم غير أمناء.

من حكم بابو نمر المشهورة هو ما قاله في تفسيره لدخوله - وآخرين من جماعة السيد عبد الرحمن - للمجلس الاستشاري، وكان كثيرون (اغلبهم من المتعلمين الاتحاديين / الأشقاء) قد رفضوا دخوله، أنه لا ينكر أنهم كانوا مع البريطانيين طالما أيدوا مبدأ السيد عبد الرحمن في ترك «السودان للسودانيين»، وضرب مثلا طريفا لتوضيح فكرته. قال إن كان أحدهم قد استدان منك مائة جنيه، ولما حان موعد السداد قال لك المدين أنه لا يستطيع أن يرجع لك المائة كاملة بل سيرجع لك عشرة جنيهات فقط. أترفض العرض وتقول له إما المائة كاملة أو لا شيء!؟ أم من الأفضل أن تقبل بالعشرة تثبيتا لحقك في الدين وللاستفادة من العشرة التي أعطاك إياها ومن ثم مواصلة المطالبة برد بقية الدين... وهو في ذلك ينظر في المثل العربي الذي يقول «ما لا يدرك كله لا يترك جله».

لا يخفي بابو نمر سخريته من ألقاب التبجيل التي يضفيها العامة عليه وعلى أمثاله من النظار ووجهاء القوم، فيقول أنه لولا السيدين على الميرغني والسيد عبد الرحمن المهدي لما عرف الناس للسياسة طريقا، فلقد أتي على سكان الريف زمن ما عرفوا فيها غير السيدين، ومن بعد جاء سيد بابو وسيد إبراهيم وسيد بوث ديو وسيد إستنانلي لاوس وسيد من لا أدري! وتكاثر «الأسياد» من الذين تعلقت قلوبهم بالألقاب، ولكن يبقي أنه ما من سيد سوي «السيد عبد الرحمن والسيد على»! ويسخر بحسه الفاكهي المحبب من جهل مواطنيه البسطاء بالسياسة فيقول أن بعض هؤلاء عندما سمعوا بأنه (والناظر إبراهيم موسي) ذاهبان للندن لحضور تتويج ملكة بريطانيا أشاعوا أنهما سيذهبان لتضفير شعر الملكة، فرد عليهم ضاحكا بأنه شرف عظيم أن يسمح له بمس شعر الملكة!

تجلت كذلك قدرته على الردود الدبلوماسية عندما قابل في حفل تتويج الملكة بلندن في عام ١٩٥٣م بعضا من موظفي الخدمة المدنية الأوائل مثل مستر لامبين

حاكم دارفور ومستر ديفيز مفتش مركز بكردفان وغيرهما، وكانوا غاضبين من رجال الحركة الوطنية السودانية الذين كانوا يطالبون بالاستقلال التام لبلادهم. سألوه في استنكار: «تقولون أنكم لا تودون بقاءنا.ألم نخدمكم جيدا؟ ألم نقم بعمل جيد؟»... هنا أبدي بابو نمر عبقرية «دبلوماسية القبيلة» فرد بهدوء قائلا: « أشهد بالله أنكم أديتم عملا ممتازا، ولن ننسى لكم ما فعلتموه. في عام ١٨٩٩م قال المصريون أن السودان ملكهم، بيد أنكم رفضتم ذلك وقلتم دعونا ننهض بالسودان معا كطفلنا العزيز، وسنتركه عندما يكبر ويشب عن الطوق. كرر جيراننا أن السودان ملكهم فأعدتم الرفض ودعوتم للشراكة في تنشئة ذلك الطفل العزيز، وحافظتم علينا حتى كبرنا. والآن نطالب بذات ما كنتم تطالبون به منذ سنين، ألا وهو تركنا لنحكم أنفسنا.» وفي ذلك يقول في بساطة: «إن قبضت على طائر، ومن بعد ذلك وجد فرصة لينفلت منك، أفلا يفعل ويطير؟. هذا ما بالضبط فعلناه، فلقد جبلنا على حب الاستقلال والحرية».

كانت لبابو نمر آراء حسنة في المرأة البريطانية فهو قد رآها في الأرياف والبوادي وفي حظائر الماشية تتحدث مع النساء المحليات (حديث امرأة لامرأة)... لا تعد نفسها امرأة غريبة أو متعالية على نساء الريف». بيد أنه في «الأمور الخاصة» بين الرجل والمرأة فإن بابو نمر كان يرى أن المرأة البريطانية بلا ريب كاملة «الأنوثة» وتتصرف على هذا الأساس، بيد أن نظرة الرجل السوداني للمرأة البريطانية تختلف عن نظرته للمرأة السودانية، فما بينهما مختلف جدا! وهو يزعم أن المرأة البريطانية تدرك ذلك الاختلاف، وتدرك أن الرجل السوداني لا يعجب إلا بالسودانية، فهما من مزاج وطينة واحدة.

تلك كانت شذرات متفرقة من أحاديث أدلى بها الرجل الحكيم الساخر لجاره الدينكاوي وللمؤرخ البريطاني، وكلاهما به من المعجبين...



تمدين النساء: من بعض «إنجازات» الاستعمار البريطاني في السودان

تأليف: جانيس بودي

هذا عرض مختصر لكتاب انجليزي عنوانه « تمدين النساء: جهود بريطانيا في السودان في عهد الاستعمار (Civilizing Women: British Crusades in Colonial Sudan) صدر في عام عن ٢٠٠٧م من دار نشر جامعة بريستون من تأليف البروفيسور جانيس بودي رئيسة قسم علم الأجناس في جامعة تورنتو الكندية. يوثق الكتاب لحملات المستعمر البريطاني لإشاعة التعليم ومحاربة بعض الممارسات كالزار والعادات الضارة التي كانت تمارس على النساء كالختان، وعن تصادم كثير من هذه الممارسات بالموروث الاجتماعي والديني ليس فقط في السودان، بل أيضا عند قبائل ليست مسلمة ولا مسيحية في بلدان مجاورة ككينيا في عام ١٩٢٤م.

تحاول المؤلفة الكندية في هذا الكتاب التوثيقي أن تقدم تحليلا دقيقا لطموح البريطانيين الإمبريالي وسياستهم ومواقفهم حيال قضايا الجندر والتطور التاريخي لعلاقة السودانيين بالبريطانيين والتي امتدت آثارها حتى يوم الناس هذا.

بدأت المؤلفة كتابها بمعجم صغير لتفسير الكلمات السودانية التي وردت في الكتاب فشرحت للناس مثلا ما هو العنقريب بقولها أنه سرير «وطني» (أو قل بلدي) مستطيل الشكل يصنع من حبال تنسج حول قوائم أربع، وشرحت كلمة «الجلابة» بأنهم التجار العرب المسلمين وعزت التسمية إلى «الجلابيب» التي يرتديها هؤلاء وذكرت بعض ما تلبسه النساء مثل القرمصيص والرحط. كذلك خصصت قائمة بالأسماء التي وردت كثيرا في الكتاب، وأبرز تلك الأسماء هي بابكر بدري وسيد على الميرغني وسيد عبد الرحمن المهدي ومحمود محمد طه وبعض أعمدة الحكم الاستعماري مثل هيربرت كيتشنر ودوقلاس نيوبولد وهارولد ماكمايكل وغيرهم. وكذلك رصدت المؤلفة قائمة بالأحداث التاريخية الواردة بالكتاب منذ دخول الأتراك للسودان في ١٨٢٠م إلى عام ١٩٥٦م حين نال السودان استقلاله. وبما أن الشيء بالشيء يذكر، وللتدليل على أن أمر «ختان الإناث» أمر قديم جديد ومتجدد فلقد بمزيد من العجب والتعجب في صحيفة «الرأي العام» بتاريخ ١٠ نوفمبر ٢٠٠٨م عن ذلك العريس المغترب الذي أرسلت له عروسه في مهجره، فإذا به يعيدها لذويها

وعلى الفور بعد أن «اكتشف» أنها ليست مختونة مخيرا أهلها بين الطلاق أو الختان!

وفي نفس العدد نقرأ عن شكاية رجل من منطقة الحصاحيصا (غرب رفاعة) لزوجته وإيداعها الحبس بسبب مغافلته وختن صغيرته وهي تعلم أنه يعارض ذلك!وما جاء في تصريح لمسؤول من الفاشر يفيد بأن من لا يختن ابنته فإنه يصبح أهلا للسبة والمذمة وقد يشتم بذلك، وحينها لن يستطيع مجالسة الرجال!

أخير لفت نظري في كتابات هذه «العالمة» جانيس بودي خلطها لكثير من المفاهيم، ففي الكتاب المذكور تفسر صاحبتنا («الخبيرة» بالشأن السوداني) الكلمة البذيئة «.........» بأنها مأخوذة من لحم «الشرموط» (المعروض على الناس)! وأخبرني من أثق بعلمه بأن ذات الكاتبة خلطت بين «إلخمرة» ذلك العطر السوداني المعروف و«الحمرة» وطفقت تتحدث عن أثرِ اللونَ الأحمر في التراث السوداني! فتأمل «هملة» التراث السوداني عند هؤلاء.

لا تذكر نساء السودان إلا ويذكر الخفاض بأسمائه وأنواعه ودرجات قسوته المختلفة. وكتاب «تمدين النساء» يخصص لهذا الأمر الجلل عديد الصفحات ويشير إليها بعبارة «قطع الأجزاء الجنسية الأنثوية Female Genital Cutting» وليس «تشويه/ التمثيل بالأجزاء الجنسية الأنثوية Female Genital Mutilation»، وقد يكون اختيار الكاتبة للتعبير الأول قد نشأ من محاولتها التزام «الحياد» حيل تلك الممارسة واحترام رأي المنافحين عن تلك الممارسة وعدم مسايرة الكثرة الذين لا يرون فيها سوى عادة بربرية متوحشة متخلفة. قصرت الكاتبة دراستها للخفاض على هذه الممارسة في شمال السودان بين عامي ١٩٢٠م و١٩٤٦م، وحاولت دراسة أسباب تدخل (أو عدم تدخل) البريطانيين في ممارسة السودانيين لعاداتهم الموروثة رغم أن هذه الممارسات لم تكن لتضير وجودهم في البلاد ولا تؤثر على الأمن والاستقرار، رغم دعاوي المنادين بتحمل «عبء الرجل الأبيض» في إخراج الشعوب (السوداء) من وهدة التخلف إلى رحابة التقدم وتصوير أن أحد مقاصد المستعمر من استعماره للشعوب السوداء هو محاربة تلك العادة الضارة وأمثالها مثل الرق وغيره. بيد أن لنساء السودان (على الأقل آنذاك) رأي آخر من تلك العادة في أنها موروث «ثقافي» محلي يسيء فهمه المستعمر الغربي صاحب الثقافة المختلفة.

يبدو أن الكاتبة تميل بعض الميل لقبول الخفاض (حتى أشد أنواعه قسوة) كطقس

شعبي «تطهيري»/ «روحاني»! وتذكر ما لم أستطع فهمه من أن الخفاض «واحة لاستمرار التوالد محروسة بنسيجها الندبي (scar tissue) الخاص وللحماية ضد الرجال المحليين! يا للتخريف المريع. تخيل لو أن تلك الكاتبة البيضاء المنافحة عن الخفاض (فيما فهمنا من كتابتها الملتوية) وقعت في قبضة قابلة حاقدة ذات موسى حادة النصل هل سترى ستسود الصحائف بمثل ذلك الهراء؟ وهنا تذكرت قصة الأوربية المسكينة التي أوقعها كيوبيد وسهمه في حب سوداني أتي بها للبلاد، وحبلت منه وعند ميلاد الطفل تآمرت عليها المؤسسة المهيمنة (كبار أهل الزوج) فتم تخديرها وختنت، وأفاقت فوجدت ما ساءها، وكان ذلك آخر عهدها بالبلاد وأهلها!

تختلف كاتبتنا عن ما سواها من الأوربيات اللواتي نفترض أنهن أقل منها علما ودراية. ففي احدي الصفحات تورد كاتبتنا أن زوجة موظف بريطاني قالت ما نصه: « يصعب جدا على أي أوربي أن يتخيل كيف لامرأة عربية أن تضع أطفالا! إن عملية الختان البربرية (سواء أن كانت فرعونية تزيل كامل الأعضاء الجنسية أو تزيل البظر فقط) تجعل من العملية الجنسية هما مؤلما...خاصة وأن هذه العملية تتم بواسطة أشخاص يعوزهم التدريب ويستعملون الآلات ملوثة. لقد فشلت كل جهود زوجة الحاكم العام (ليدي هيدليستون) عقب الحرب العالمية الثانية وقيام مدرسة تدريب القابلات في تغيير آراء العامة عن الختان. إن تصميم المرأة العربية على تحمل تلك المعاملة المتخلفة وعلى نقل هذه العادة جيلا بعد جيل لهو أمر يبعث على الصدمة.» لا توافق الكاتبة على تلك المسلمات بل تشكك في بعض المسلمات الطبية المتعلقة بالخفاض مثل النزف المفضي للموت والخمج (و هي الترجمة الصحيحة لكلمة infection) والتسمم الدموي والآثار العصبية والنفسية مما أفاض في ذكره ومنذ قديم البريطانية جيرترد وولف (أول مديرة لمدرسة القابلات والتي عاشت ردحا من حياتها في مصر) وتعزو كاتبتنا تلك الآثار الضارة ليس للعملية في حد ذاتها بل إلى الظروف التي تجرى فيها مثل تلك العمليات! ولعل ذلك ليس مستغربا من أولئك الثلة من البيض الأكاديميين خاصة من الدارسين لعلم الأجناس من الذين يعتمدون في أكل عيشهم على بقاء الغريب ودوام المختلف عن «مألوف» تراثهم ونظم حياتهم، وينظرون إلى تلك الشعوب «الأجنبية» كما ينظر عالم الأحياء لحيوانات تجاربه! ولا أعمم بالطبع.

تقر الكاتبة بأن الاستعمار البريطاني حاول محاربة هذه العادة بفرض قوانين

صارمة وبتخفيف الآثار الضارة المحتملة من الختان بتدريب القابلات على النظم الصحية والوقائية باستعمال أدوات معقمة وألا ينهكن. بيد أن ذلك لم يفلح (إلى الأقل حتى حين الحرب العالمية الثانية) في إنهاء تلك الممارسة المتأصلة في سائر أرجاء السودان الشمالي. ويبدو أن خوف المستعمر من مصادمة ما يعدونه «عادات إسلامية» وإثارة القلاقل وتعكير صفو الأمن عند تفعيل القوانين التي تجرم الخفاض الفرعوني كان أشد من رغبتهم في محاربة تلك العادة الضارة، وهذا مؤشر على تركيبة سلم أولوياتهم! ومن أمثلة ذلك ما حدث في رفاعة من صدام قاده الأستاذ المرحوم محمود محمد طه ضد البريطانيين، وعن مصادمات وقعت في كينيا في ١٩٢٩-١٩٣٠م عندما حاولت الكنيسة الأسكتلندية أن تثني السكان المحليين عن الخفاض وقتل في تلك الأحداث خلق كثير، وتقول بعض المصادر أن البريطانيين لم يكن ليصدروا القوانين المحرمة والمجرمة للختان لولا ضغوط مارسها الدكتور د. ر. ماكدونلاد في عام ١٩٣٦م حين خاطب الجمعية الطبية البريطانية بما يحدث من جراء تلك الممارسة. وحتى بعد تلك الضغوط، فليس من المؤكد أن المستعمر البريطاني كان يهتم بمحاربة تلك العادة إلا بالقدر الذي لا يؤثر على «أمن» البلاد وشيوع «الهدوء والسكينة»!

من عجب فإن الكاتبة حين تناقش أمر الخفاض فإنها تتناوله من كل الزوايا عدا زاوية الرجل السوداني الشمالي، وهو في رأي البعض «صاحب المصلحة الحقيقة» في الأمر، وبيده – في الغالب – الحل والعقد وهو الآمر الناهي في الأسرة. فعند غالب الرجال يعد الخفاض أحد «ضمانات عذرية العروس» و«شرف العائلة»، والأخير رفيع ينبغي أن تراق بين جوانبه الدم!

أنشأت الحكومة الاستعمارية في العشرينات من القرن الماضي مدرسة للقابلات تقوم بتدريبهن على أداء مهامهن بمهنية وحرفية معقولة. وقامت على إدارة تلك المدرسة امرأة بريطانية اسمها مابيل وولف والتحقت بها بعد سنوات قليلة أختها قيرترود. كان من أهداف تلك المدرسة توعية القابلات (ومن ثم المجتمع) بأضرار الختان الفرعوني. بيد أن الحكومة لم تتوسع في الخدمات والمهام الملقاة على عاتق القابلات، ولا في منحهن الرواتب المجزية ولا الوضع المهني المناسب، ولم تشجع كثيرا جهود التوعية الموجهة ضد ذلك الضرب من الختان. كل تلك العوامل مجتمعة أدت بلا ريب إلى فشل «الحملة الحكومية» المناهضة للختان. أصدر المجلس الاستشاري لشمال السودان عام ١٩٤٧م قانونا يجرم القيام بعملية الختان الفرعوني. كانت

القابلات ضحية ذلك القانون، إذ كان من المتوقع منهن الالتزام بذلك القانون الذي يتحدي الحس العام للقابلات وزبائنهن أيضا، بيد أنهن لم يكن لأسباب مادية واقتصادية بحتة بقادرات على التقيد بذلك القانون.

تم بالفعل اعتقال بعض القابلات لقيامهن بعمليات ختان «غير قانونية». وفي الخرطوم ماتت طفلة صغيرة نتيجة الخفاض فتمت محاكمة القابلة وسجنت لمدة أربعة شهور، ولم تثر تلك المحاكمة أي تأثير من قبل الرأي العام مخل بالأمن والنظام. وفي أواخر عام ١٩٤٦م تمت محاكمة قابلة في كردفان لختنها فرعونيا إحدى بنات النوبة. وفيما عدا ذلك لم تعقد محاكمات كثيرة لمن يخالف القانون الذي يجرم الخفاض الفرعوني. ترى أنا بيزيلي (مفتشة تعليم البنات في الخرطوم بين عامي ١٩٣٩ و١٩٤٦م) أن أغلب الرجال والنساء لم يعيروا ذلك القانون أي اهتمام، الأمر الذي أثار استغراب ودهشة من كان تحتها من المدرسين. حدث بعد ذلك أمر جلل دعا الحكومة لإعادة النظر في ذلك القانون بصورة جدية.

تم القبض على قابلة في رفاعة في عام ١٩٤٦م ومحاكمتها بتهمة إجراء عملية ختان غير قانوني (أجري ذلك الختان على طفلة هي الآن ممثلة مجيدة مشهورة. المترجم).

أثار الأمر محمود محمد طه قائد الحزب الجمهوري الذي كان يطالب بالاستقلال الفوري للسودان والذي عد الحكم الصادر ضد القابلة ظالما. عقب صلاة الجمعة في يوم ٢٠ من شهر سبتمبر خطب محمود محمد طه في المصلين مستثيرا حماستهم وتقدمهم في مظاهرة صاخبة قامت باقتحام مركز الشرطة الذي كانت تحتجز فيه تلك القابلة. قام بعد ساعات من ذلك الاقتحام أخاها (وكان للمفارقة رجل شرطة) بإعادتها إلى أيدي السلطات حيث تم «تهريبها» ليلا إلى الحصاحيصا غربا، ومنها نقلت إلى واد مدني.

في صباح اليوم التالي أعاد محمود محمد طه الكرة فقاد مظاهرة هاجمت مساعد مدير المركز ومفتش المركز وحكمدار شرطة المركز وحصبوا المركز بالحجارة فتكسرت نوافذ وتحطم أثاث وتهشمت سيارة مدير المركز. تم عقب ذلك إطلاق سراح القابلة وتم تحويل أوراق القضية للخرطوم. تفرق المتظاهرون وعمل «دهاقنة» القانون على «تمييع» القضية فتم شطبها لعدم كفاية الأدلة.

ما أن أشرق صباح اليوم التالي حتى وصلت إلى رفاعة قوة مسلحة من قوات

دفاع السودان وهي في كامل الاستعداد لمجابهة أي مظهر للعصيان أو الشغب عند القبض على زعيم الثورة محمود محمد طه. وبالفعل قامت ثلة من المتظاهرين بمهاجمة مركز شرطة المدينة وحينها تم إطلاق الرصاص الحي على الأرض أمام المهاجمين فجرح ثلاثة منهم. تمت محاكمة محمود محمد طه وحكم عليه بالسجن في واد مدني. دخل الرجل في فترة سجنه تلك في صوم عن الطعام عده البعض «تمرينا دينيا». ورد في تقارير المخابرات البريطانية أن الصحف السودانية التي تصدر باللغة العربية نشرت مقالات تهاجم بعنف محاكمة محمود محمد طه ثم سرعان ما خفت حدة تلك الانتقادات فغدت همهمات خجولة تنادي بالتزام الحكمة وعدم التدخل في عادات أهل البلاد.

عبر السكرتير الإداري في خطاب سري له لحكام المديريات عن دهشته لما حدث في رفاعة والحصاحيصا، وشدد على أن ما حدث مؤشر على ما يمكن أن يتوقع عمله من قبل قلة من المتعصبين عندما يجدون تربة خصبة لبث دعاويهم وأناسا غير مسئولين ليقوموا باستثارتهم وتأليبهم على السلطات مثلما تفعل بعض الصحف الدعائية المحلية. أضاف السكرتير الإداري:

« لعله من سوء الحظ أن يقطن محمود محمد طاهر (هكذا) القائد المتشدد للحزب الجمهوري والمعارض العنيد للقانون الذي يجرم ختان الإناث في ذات المدينة التي جرت فيها أول محاكمة لقابلة خالفت ذلك القانون».

لم تزد حادثة رفاعة الأحوال المتوترة في البلاد إلا تعقيدا، فلقد كانت الطموحات الوطنية في أوساط السودانيين في قمة توهجها. ففي ديسمبر من عام ١٩٤٥م طالبت مصر بالقيام بمراجعة شاملة لمجمل علاقتها مع بريطانيا خاصة فيما يتعلق بالاحتلال البريطاني ووضع ومصير السودان. شهدت بدايات عام ١٩٤٦م مفاوضات بين دولتي الحكم الثنائي في لندن حول تلك الموضوعات، بينما استعرت محليا المنافسة بين السيد عبد الرحمن المهدي (حزب الأمة) والذي كان يطالب (تكتيكيا أو بصورة دائمة) باستقلال السودان، والسيد على الميرغني (حزب الأشقاء) والذي كان ينادي بوحدة وادي النيل تحت راية الإسلام. لا شك أن المستعمر كان في الماضي هو المستفيد الأوحد من ذلك الصراع بين السيدين وحزبيهما، بيد أن التخوف من أن ينتهي ذلك الصراع بحوادث مثل التي جرت في عام ١٩٢٤م كان تخوفا حقيقيا.وفي مارس من عام ١٩٤٦م انتشرت في كثير من المدن السودانية مظاهرات ضد الحكم

الاستعماري مما أجبر السلطات على إصدار أمر يمنع التجمعات والتظاهرات.

وفي يونيو من ذات العام أصدرت محكمة حكمها على محمود محمد طه بالسجن لفترة وجيزة لإصداره بيانا «تهيجيا» حمل فيه بشدة على الحكم الاستعماري. كان المؤتمر والصحف الوطنية في تلك الأيام تصفه ب «الشهيد السياسي»،وتزايد (بسبب معاداته للاستعمار) عدد الملتحقين بعضوية الحزب الجمهوري.

ذاعت شائعات في سبتمبر من ذلك العام بأن هنالك مشروع اتفاق بين البريطانيين والمصريين لن يكون في مصلحة وحدة وادي النيل. نظم على أثر ذلك مؤتمر الخريجين (وغالبية أعضائه من الأشقاء) حملة لإرسال برقيات الاحتجاج للسلطات. في ذات اليوم الذي خطب فيه محمود محمد طه في جموع المصلين بمسجد رفاعة، نشرت صحيفة الاتحاديين (صوت السودان) بيان مناشدة لجماهير الشعب السوداني جاء فيه أن السلطات تلاحظ أن هنالك تحريضا على التمرد على سلطتها، وأن هنالك نذر ثورة قادمة. تزامن كل ذلك مع اعتقال السلطات لبعض القابلات لقيامهن بإجراء عمليات الختان الفرعوني، وهو أمر كان يعده الناس تحد واضح لسلامة النسيج الاجتماعي والثقافي والسياسي لبلد مسلم كالسودان. قيل أن مؤتمر الخريجين بدأ في تدبير حملات تعبوية ضد اعتقال القابلات بموجب ذلك القانون الذي يجرم الختان الفرعوني. غدت أجساد النساء المختونات فرعونيا – كما لم يحدث من قبل أبدا – رمزا لهوية قومية سودانية في طور الإنشاء، رغم الشكوك التي كانت تحيط بتلك الممارسة وبرغم الاختلافات السياسية بين النخب المتعلمة. صار الختان الفرعوني رمزا يفرق جسديا بين شمالي السودان وغيرهم من السودانيين الجنوبيين والبريطانيين والمصريين، وغدت تلك الممارسة «نقطة تحشيد» لوحدة «هاربة» لشمالي السودانيين.

مما يجب تذكره أيضا أن أحداث رفاعة تلك حدثت في أعقاب حادث خطير أبان الوجه الإسلامي لهذا «الوطن المرتقب». قام الأب ترنجهام في أبريل من عام ١٩٤٦م بتعميد فتاة سودانية لم يتعد عمرها الثانية والعشرين عاما كانت الجمعية التبشيرية الكنسية (CMS) في أم درمان قد تبنتها منذ أن كانت في السابعة من عمرها. كان الأمر مخالفا للإجراءات المتفق عليها والقاضية بالحصول على استشارة مسبقة من قاضي شرعي. كانت والدة الفتاة قد عهدت للجمعية التبشيرية الكنسية بتولي أمر بنتها منذ سنوات طويلة. وما أن سمعت والدة الفتاة بتنصير بنتها حتى هرولت لسوق أم درمان وهي تصيح بأعلى صوتها بأن ابنتها قد تم اختطافها وتنصيرها بالقوة. تنادي

الناس في غضب تأثرا بما سمعوه وزحفوا نحو مبني الجمعية التبشيرية الكنسية ومركز الشرطة (حيث وضعت الفتاة في حماية الشرطة).

وفي اليوم الثاني جمعت والدة الفتاة جمهرة من الجماهير الغاضبة سارت في مظاهرة صاخبة نحو منزل مدير المديرية وأحاطوا به ولم يتفرقوا بسلام إلا بعد أن وصلت قوة مسلحة من رجال الشرطة. قامت السلطات باحتواء الموقف بإصدار بيان من مكتب السكرتير الإداري يهاجم الخطوة التي أقدمت عليها الجمعية التبشيرية الكنسية ويصفها بأنها خطوة غير موفقة وتفتقر للكياسة وتسببت في إحراج عظيم للحكومة مع القضاء الشرعي ولكل من له علاقة بالموضوع. تلقي الحاكم العام برقية شديدة اللهجة من علماء الأزهر تحتج على ما قامت به الجمعية التبشيرية الكنسية. كذلك أثار هذه القضية أئمة المساجد وعلماء الدين في أم درمان. تزامنت كل هذه الأحداث مع ما وقع في رفاعة من احتجاج قاده محمود محمد طه. وغدت قضية ختان النساء الشماليات (أمهات المستقبل للسودانيين المسلمين) مدخلا ومعلما لتناول القضايا الوطنية عند جماهير الشعب.



مقدمة سير جيمس روبرتسون لكتاب وصاية عظيمة

(A Great Trusteeship)

تقديم: عمل السياسي والإداري البريطاني الشهير السير جيمس ويلسون روبرتسون (١٨٩٩ – ١٩٨٣م) في وظائف إدارية عديدة في عهد الحكم الثنائي بين عامي ١٩٢٢ – ١٩٥٣م في النيل الأبيض والنيل الأزرق وأرض الفونج وكردفان، وكان آخر تلك الوظائف هي وظيفة السكرتير الإداري بين عامي١٩٤٥ و١٩٥٣م. عمل الرجل من بعد ذلك كآخر حاكم عام لنيجيريا بين عامي ١٩٥٥ و١٩٦٠م. كتب السير روبرتسون مقدمة قصيرة لكتاب المهندس المعماري السوداني محمد النجومي، المعنون **وصاية عظيمة A Great Trusteeship** (والذي نصحني عدد من خبراء الترجمة الفضلاء بترجمتها ب «وصاية فاضلة» و«وصاية وريفة» أو ببساطة « الحكم الإداري العظيم») ،والصادر باللغة الإنجليزية في لندن عن دار نشر كارفيل عام ١٩٥٧م، وهو كتاب يتناول (بالمدح) سيرة الاستعمار البريطاني في السودان ويعرف برموز حكمه ويشيد بإنجازاتهم.

يحترم المترجم خيارات المؤلف بيد أنه لا يتفق معه في كثير مما ذهب إليه من مدح أعمى للمستعمر البريطاني دون مجرد الإشارة إلى الجانب الآخر للعملة (مثل آلاف الأرواح التي أزهقها، والثروات التي نهبها من بلادنا وغير ذلك من المثالب الخطيرة)، ولا علم للمترجم بنوازع الكاتب التي دعته للاعتذار في هذا الكتاب للاستعمار عن فعائله (ربما تصديقا لما ذكره ابن خلدون عن «الغالب والمغلوب»). غاية القول هنا هي أن المؤلف كان متحيزا لحكم البريطانيين، ولم يتحر الحيدة ولا الموضوعية في تناول الموضوع، مما يجعل الكتاب يبدو وكأنه نشرة دعائية لوزارة المستعمرات البريطانية في الأربعينات. ينبغي أيضا التأكيد على أن هنالك كثيرًا من السودانيين يرون ما يرى السيد/ النجومي... وللناس فيما يعشقون مذاهب!

كتب رجل هندي في صحيفة التايمز قبل فترة قصيرة قائلا إنه يعتقد أنه من الواجب الآن على من عاشوا وترعرعوا، وإلى وقت قريب، تحت رعاية الحكم البريطاني أن يظهروا تقديرهم للطريقة التي أوصلت بها بريطانيا دولهم إلى حالتها الواعدة الراهنة.

ضرب الرجل في مقاله عن الدول التي حكمها البريطانيون مثلا بالسودان، واستشهد بما قاله حديثا رئيس وزراء السودان (لعله يقصد السيد/ إسماعيل الأزهري. المترجم) من أن الاستعمار قد جثم على صدر السودان لسبعة وخمسين عاما، طغى خلالها وتجبر وتكبر على سكانه، ودمر خصائص البلاد، وأشاع فيها الكراهية والفرقة بين سكانها، وفرق ليسود وليطيل أمد حكمه. تساءل الكاتب الهندي مشككا في صحة ما ذكره رئيس وزراء السودان، وكتب ما نصه: «هكذا يتحدث قائد شعبه وملهمه الذي يدين بكل شيء تقريبا لبريطانيا، فدونك الازدهار المضطرد، والذي أنجز عن طريق إقامة مشروعات مدروسة وتنمية سديدة، وحفظ دقيق للنظام والأمن، وخدمات إنسانية عمت الجميع. لقد أنشأ البريطانيون خدمة مدنية وإدارة ممتازة، وعملوا على وحدة البلاد. ولتحقيق الحكم الذاتي، فلقد أعطى البريطانيون من تلقاء أنفسهم كل العون والإرشاد اللازم الذي بدونه لم يكن هنالك من مصير غير الفشل والخطر».

وبالنسبة للبريطانيين الذين عملوا في خدمة حكومة السودان لسنوات طويلة، ولهم فيه ذكريات سعيدة وصداقات مخلصة لعدد من أبنائه، فإن ما يذكره السياسيون (السودانيون) من أقوال تطفح بالمرارة والغل والإساءة، لا يقوم على أساس، ولا يصمد أمام حقائق الأشياء، ولا يعقل أن يصدق عن السودان الذي نعرفه. لهذا السبب فإن كتاب السيد/ محمد النجومي يجد مني كل ترحيب.

عمل السيد النجومي كمهندس معماري، وقضى السنوات السبع أو الثمان الأخيرة (منذ ١٩٥٧م. المترجم) في نيجيريا. استثمر الرجل وقت فراغه في كتابة ما يحس به عن مآثر الحكم البريطاني في السودان، وما قدمه البريطانيون لذلك البلد من أجل تنميته وتقدمه. تختلف آراء السيد النجومي بالكلية عن الرأي السابق ذكره لرئيس وزراء السودان، وفي ظني (وأملي أيضا) أن ما قال به السيد النجومي هو ما يؤمن به كافة شعب السودان عن حكامه السابقين.

لقد كان الهدف الأول للبريطانيين الذين خدموا في السودان هو بناء دولة عصرية في بلد كان عندما ذهبوا إليه (هكذا؟ المترجم) يفتقر إلى كل أساسيات إقامة الدولة، عدا وجود سكان يتميزون بالفحولة والشجاعة. لم تكن هنالك وسائل اتصالات ولا مدارس ولا مستشفيات، ولا مصالح أو أقسام للتربية والتعليم أو الصحة أو الزراعة أو الري. لم يكن هنالك غير وسائل عتيقة للري (بالشادوف)، وليس هنالك من أمن أو أمان أو قانون أو نظام. وما أن أرسيت دعائم الدولة، وأقيمت دواوين الإدارة على أساس متين، حتى بدأت وبالتدريج عملية تدريب السودانيين لإدارة شؤون

بلادهم وحكمها. وعند قرب انتهاء حكمهم، كان الهدف الأساس للبريطانيين هو تهيئة السودانيين لنيل الحكم الذاتي وأخذ مشورتهم في مستقبلهم، وعدم ضمهم – دون أخذ رأيهم– لنظام أجنبي. لقد اعترفت شعوب العالم بالسودان دولة حرة كاملة الاستقلال وذات سيادة غير منقوصة، بنظام ديمقراطي وحكومة جمهورية، وهذا وحده يقف شاهداً حيا على إنجاز البريطانيين والسودانيين أيضا والتقدم الذي أحرز منذ عام ١٨٩٨م.

يصف كتاب السيد النجومي كيفية حدوث كل هذا، وعن الأدوار التي لعبها البعض في تلك الدراما. لا شك عندي إن كل من يقرأ الكتاب سيحمد للكاتب شجاعته في التصريح بما يؤمن به غالب الشعب السوداني (دون توثيق)، إذ إن قليلاً من الناس فقط هم من يجدون في أنفسهم الجرأة للقول بما قال به السيد النجومي. يتمنى الكل لجمهورية السودان كل خير وتقدم وازدهار في المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وبالنسبة لنا– نحن الذين عملنا في السودان– نجد كل السعادة في رؤية نجاحات الدولة التي أقمناها.



المملكة المتحدة والسودان: «خير الأعداء»

بقلم: أ. دبليو. ميلير

تقديم: السطور التالية هي ترجمة لمقال لأستاذ للفلسفة في جامعة الخرطوم تم نشره ضمن أوراق أخرى قدمت لمؤتمر « العلاقات السودانية البريطانية» ونشرت هذه الأوراق في كتاب أشرف على تحريره أ.د. يوسف فضل ود.عوض الكرسني، وهو من ثمرات مطابع دار النشر بجامعة الخرطوم عام ٢٠٠٢م.

كانت عملية إعادة بناء السودان عقب انصرام فترة المهدية جهدا مشتركا بين البريطانيين والسودانيين. وصف باتريك دآرسي البروفيسور الفخري في جامعة كوينز بلفاست البريطانيين والسودانيين بأنهم «أفضل الأعداء». سمحت علاقة الاحترام المتبادل بين الشعبين لها بتأسيس شراكة استمر تقدمها حتى انتهت بقيام حكومة مستقلة في عام ١٩٥٦م، وكانت إحدى معامل تلك الشراكة موضوع كتاب بروفسير دارسي: «مختبر على النيل: تاريخ معامل ويلكم لبحوث المناطق المدارية» والكتاب من منشورات مطابع المنتجات الصيدلانية (نيويورك ولندن وأكسفورد).

قد يحوي عنوان الكتاب بأنه كتاب تقني أو علمي صرف لا يهم أحدا خلا القارئ المتخصص. بيد أن القارئ سرعان ما سيكتشف بطلان ذلك الإيحاء. إن الكتاب كنز مليء بمعلومات قيمة عن الخرطوم والسودان في ذلك الزمان.

كانت في الخرطوم آنئذ سبع مصانع للمياه الغازية تنتج مختلف أنواع المشروبات الغازية في قوارير (قناني/ قنان) منها الليمونادة والبرتقال والزنجبيل، وكانت كل قارورة من قوارير تلك المشروبات تغلق بفلينة (cork). شاع بين الناس حينها حب تلك المشروبات ونشط صغار الصبية في جمع الفلين الذي يرميه الشاربون على الأرض وبيعه لمصانع المشروبات كي تعيد استخدامه. كان الدكتور أندرو بالفور (المدير العام لمختبرات ويلكم في كلية غوردون التذكارية ويشغل في ذات الوقت منصب مسئول الصحة) يؤمن بأن ممارسة إعادة استعمال الفلين لقفل قوارير المشروبات عمل مخالف لأصول الصحة العامة وقواعد النظافة، واستصدر قانونا يمنع المصانع من شراء الفلين المستعمل والذي يجمعه الصبية من أرضيات المقاهي، وفرض غرامات مالية ضخمة على كل مصنع يخالف ذلك.

لم تقتصر قوانين الصحة العامة تلك على مصانع المشروبات وحدها. ساق القدر سلاطين باشا (دعنا هنا نذكر الرجل باسمه ولقبه الكامل: السير رودولف بارون فون سلاطين باشا، المفتش العام للسودان) لمخالفة تلك القوانين. اصدر الدكتور أندرو بالفور في سياق حربه على البعوض أمرا إداريا (صدر باللغتين العربية والإنجليزية) يقضي بأن يقوم السكان بإفراغ الجرار (الأزيار) الفخارية من الماء تماما وتنظيفها جيدا مرتين كل أسبوع، وفرضت غرامات مالية ضخمة على ما كل من لا يتقيد بتلك الأمور الإدارية. ولضمان تنفيذ تلك القواعد الصحية بث الدكتور بالفور العيون ومستشفى الصحة الذين كانوا يباغتون السكان بحثا عن مخالف. ذات يوم كشفت إحدى تلك الحملات المباغتة أن أحد جرار سلاطين باشا قد غدا مرتعا لتوالد البعوض، ووضح أن سلاطين باشا لم يكن يفرغ جرته مائه وينظفها كما ينبغي! غضب الباشا وأرغى وأزبد لإدانته بالجرم المشهود ولتغريمه مالا كثيرا! ربما كان سبب غضبه هو ما ستعكسه تلك الإدانة عليه أكثر من فكرة أن صاحب سلطان وسطوة كمفتش عام السودان يجب أن يعفى من الالتزام بالقانون. وعلى كل حال، لم تنقض أيام قليلة حتى تم (بطريقة دبلوماسية غامضة!) «اكتشاف» بؤرة بعوض في جرة من جرار الدكتور بلفور نفسه! لم يتوان الدكتور — وهو أول من حرص على ذلك القانون في الأساس – عن دفع الغرامة الضخمة المفروضة عليه، ولعل ذلك مما شفي صدر صديقه اللدود سلاطين باشا، و«فش غبينته» وأعاد له بعضا من هيبة نهشها البعوض! يا لها من قصة إنسانية!!

حكى الكاتب عن قصة إنسانية أخرى عن هنري ويلكم (والذي أنعم عليه فيما بعد بلقب سير فصار سير هنري ويلكم) وهو أمريكي من أصل إنجليزي واسع الثراء من استثمارات صناعية ناجحة. تبرع الرجل بمائة جنية ذهبية لصالح إنشاء كلية غوردون التذكارية (والتي غدت فيما أقبل من سنوات جامعة الخرطوم). وفي زيارة لاحقة للسودان شاهد هنري ويلكم ما فعلته الملاريا بسكان جزيرة صغيرة قرب شلال السبلوقة من ويلات وكرب. قال الرحل حينها :«لا يمكن لواحد من الناس أن يري تلك الهياكل العظمية من الرجال والنساء والأطفال دون أن تتحرك في أعماق دواخله نزعات فعل شيء ما يخفف من بؤس أحوال هؤلاء الناس الفقراء الذين هدهم المرض». قام هنري ويلكم بتحرير خطاب في ٢٨ من سبتمبر عام ١٩٠١م تعهد فيه بتوفير كل ما هو مطلوب لبناء وتجهيز مختبر في كلية غوردون التذكارية (والتي كانت حينها قيد الإنشاء). كان من أغراض تلك المختبرات تعليم وتدريب أبناء السودانيين في المواد التقنية والقيام بأبحاث علمية في مجالات طب المناطق الحارة واختبار سلامة المياه والغذاء والكشف عن المعادن التي قد تكون ذات فائدة لنمو البلاد وتطورها. ومن المثير للانتباه أن الرجل قد ذكر أيضا «التحقيقات الجنائية»

للكشف عن غموض حالات التسمم التي كانت شائعة حينذاك.

تم قبول عرض هنري ويلكم وتم إنشاء «مختبرات ويلكم» لأبحاث المناطق الحارة، وتم تعيين الدكتور الأسكتلندي أندرو بالفور ابن التسعة وعشرين ربيعا كأول مدير لهذه المختبرات.

كاد حريق شب في يوم ١١ مايو عام ١٩٠٨م عند الساعة الواحدة صباحا أن يأتي على كامل المختبرات لولا تدخل الجيش المصري والبريطاني مما أدي لمنع حدوث كارثة رهيبة. عجزت إدارة الكلية السيطرة على الحريق فاستنجدت على عجل بسلطات الجيش التي سرعان ما أوفدت الجنود المصريين والأيرلنديين (والذين كانوا حينها من ضمن القوات البريطانية العاملة في السودان) فنجحوا في إخماد ألسنة اللهب وإنقاذ المبني من التدمير الكامل. وظل سر ذلكم الحريق وأسبابه مجهولة رغم الكثير من التحقيقات (أشار النص الأصلي للمقال لصورة المبني المحترق وصورة للمبني الحالي، ولكننا لم نعثر لهما على أثر، ولعلهما سقطتا سهوا، وذكر المؤلف أن موقع المبني كان هو مبني قسم الفيزياء الحالي في جامعة الخرطوم... المترجم).

قام هنري ويلكم في عام ١٩٠٧م بتقديم العون المالي اللازم لبناء وتأثيث مختبر عائم يطوف بباخرة على مختلف النيل الأبيض والأزرق لأخذ العينات وتقصي الأمراض ومداواة المرضي من البشر والحيوانات معا. مات في تلك الرحلات المائية عدد من العاملين في المختبر العائم بسبب أمراض لم يكن من الميسور اكتشافها وعلاجها آنذاك.

مما يزيد من إمتاع كتاب بروفسير باترك دارسي أنه اشتمل على صور قديمة ورسومات لعدد من أبناء وبنات السودان وللمباني في ذلك الزمان. إن هذا الكتاب يستحق أن يجد له مكانا له على أرفف مكتبات المجلس البريطاني وجامعات السودان. إنه ليس كتابا للمهتمين بطب المناطق الحارة فقط، بل هو كتاب يهم كل من له أدني اهتمام بالسودان وشؤونه.

تحولت مختبرات ويلكم في عام ١٩٢٧م إلى معامل إستاك قرب مستشفى الخرطوم العمومي. وفي عام ١٩٣٥م تفاقمت النفقات فنقلت قسم الأبحاث إلى المجلس الطبي والذي كانت تموله حكومة السودان. ذكر أن آخر من شاهد «المختبر العائم» رآه في عام ١٩٨٨م في حالة يرثى لها من التفكك والاهتراء بالقرب من ملكال!

آب صناع أحداث تلك الأيام البعيدة (ومن بينهم أولئك الصبية الذين كانوا يجمعون الفلين) لباطن الأرض وصاروا جميعا (مسلمين ومسيحيين) ذرات غبار،بيد أن بروفسير دارسي قد أفلح في رواية قصصهم وتخليد ذكراهم. صدق من قال: إنهم «أفضل الأعداء»!

تاريخ طوابع البريد في السودان

جاك ديفيدز

تقديم: كاتب هذا المقال الصغير، والمنشور في المجلة البريطانية «دراسات سودانية» في فبراير من عام ١٩٨٧م ، هو د/ جاك ديفيدز، وهو (أو كان) يعمل في قسم الجغرافيا بجامعة سوانزي في ويلز، وعمل رئيسا لجمعية الطوابع السودانية. عمل المؤلف كأستاذ للجغرافيا بكلية الآداب بجامعة الخرطوم في نهايات الخمسينات وبداية الستينات.

تم في عام ١٨٦٧م افتتاح مكتب للبريد في سواكن. ورغم أن بداية عهد المكاتبات الرسمية في السودان قد سبقت ذلك التاريخ، إلا أن ذلك العام يمثل التاريخ الرسمي لبدء خدمة منظمة للبريد في السودان. تم عقب ذلك العام فتح عدد من مكاتب البريد المصرية والتي كانت تستخدم الطوابع المصرية. افتتح في عام ١٨٧٣م واحد من تلك المكاتب في الخرطوم، وكان الخطاب المرسل من القاهرة للخرطوم يصل حينها في نحو ٣٠ إلى ٥٠ يوما.

تقلصت خدمات البريد في السودان من عام ١٨٨٢م بسبب احتلال قوات المهدي للبلاد، ولم تنج من ذلك الاحتلال إلا سواكن ووادي حلفا. خلا السودان إبان حكم المهدية من أي خدمات بريدية منظمة*، والطوابع التي ذكر أنها طبعت في عهد المهدية وكتب عليها بالفرنسية «المهدي. طوابع السودان Mahdi, Pastes du Souden» إنما هي طوابع مزيفة.

ومع استعادة السودان بواسطة الجيش البريطاني المصري بدأت الخدمات البريدية في العودة التدريجية للبلاد، ففتح مكتب للبريد في الخرطوم في العاشر من سبتمبر عام ١٩٩٨م (المقصود طبعا ١٨٩٨م. المترجم)، واستخدمت فيه نفس الطوابع البريدية (المصرية) التي كانت تستخدم في السابق، وكان عليها صور للأهرامات وأبو الهول ومكتوب عليها «السودان» بالعربية و Soudanبالفرنسية. شهد ذات العام (١٨٩٨م) ولأول مرة إصدار أول طوابع «سودانية» خاصة بمصلحة البريد السوداني، وعليها صورة الجمل الشهيرة. صمم تلك الطابعة البريطاني إدوارد ستانتون، وظلت تلك

الطابعة تستخدم دوما في البريد السوداني منذ ذلك الحين، وفي الوقت الحالي يظهر تصميم تلك الطابعة على الجنيه السوداني. في ما بين عام ١٩٤١م و١٩٤٩م تم إيقاف العمل مؤقتا بهذه الطابعة عند إثارة موضوع «النخيل». تم في عامي ١٩٥١م و١٩١٩٦٢م الإصدار السادس والسابع لطوابع سودانية تصور بعضا من مشاهد الحياة السودانية.

كان لأول رمز بارز (watermark) استعمل في الطوابع السودانية شكل رباعي (Quatrefoil)، وسرعان ما تم تغييره في عام ١٩٠٢م إلى «نجمة وهلال» إذ إن ذلك الشكل الرباعي يشابه لحد ما رمز «الصليب»، وهو أمر قد يثير بعض الحساسية عند المسلمين في شمال السودان. شكل رباعي (Quatrefoil)، وسرعان ما تم تغييره في عام ١٩٠٢م إلى «نجمة وهلال» إذ أن ذلك الشكل الرباعي يشابه لحد ما رمز «الصليب»، وهو أمر قد يثير بعض الحساسية عند المسلمين في شمال السودان. تم استبعاد «النجمة والهلال» تارة أخرى في عام ١٩٢٧م لأنها تشابه الرموز المصرية، واستعيض عنها بحرفي SG (وهي ترمز لحكومة السودان). ومنذ عام ١٩٦٢م ظلت حكومة السودان تستعمل رموزا بارزة أخرى تمثل عادة «حكومة السودان».

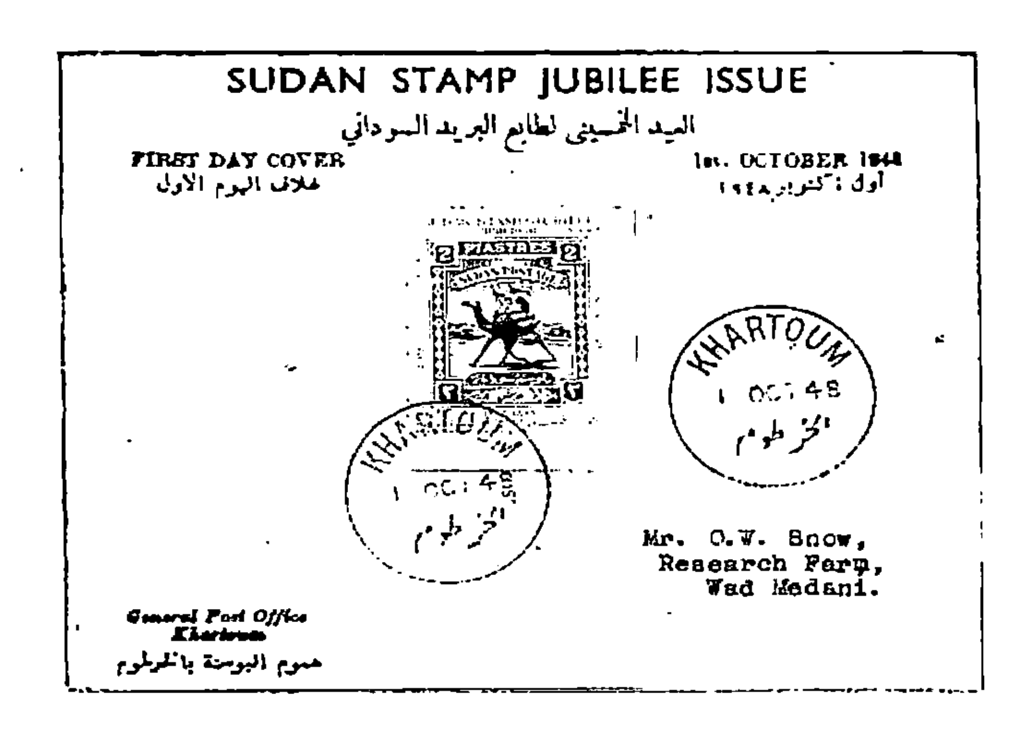
ظهرت قبل استقلال السودان في عام ١٩٥٦م أربعة طوابع تذكارية فقط هي طابعة تخلد ذكري غوردون (عام ١٩٣٥م)، والعيد الخمسيني لطابع البريد السوداني (عام ١٩٤٨م) (انظر الصورة) وطابعين آخرين يمثلان تقدم السودان لنيل استقلاله. ولكن منذ الاستقلال في عام ١٩٥٦م (وخاصة بعد عام ١٩٧٠م) تغيرت السياسة ولم تعد مصلحة البريد تصدر مثل تلك الطوابع التذكارية كثيرا. لهذا لم يعجب المرء كثيرا مثلا من عدم إصدار طابعة تذكارية تخلد الذكرى المئوية لسقوط الخرطوم في عام ١٩٨٥م.

كغيره من الدول، قام السودان بعدد من التجارب في إصدار طوابع البريد الجوي، فقام بإصدار سلسلتين من الطوابع البالغة الجمال في عامي ١٩٣١م و١٩٥٠م، بيد أنها سحبت في نهاية عام ١٩٦٣م بذريعة عدم الضرورة. أصدرت بعد ذلك عدد من الطوابع الأخرى مكتوب عليها «رسمي» .«خدمات الجيش» وغير ذلك.

يوجد في السودان كثير مما يلفت نظر المهتم (والدارس) لعلم الطوابع وتاريخها (philately) غير تلك الطوابع المتقدمة الذكر. من ذلك أنه في أخريات أعوام القرن التاسع عشر وخلال الحرب العالمية الثانية استعملت طوابع بريطانية وأخرى هندية في السودان. كذلك مما يجدر بالدارسين الاهتمام به هي خطوط سير البريد، ومكاتب

البريد المتحركة في/ مع القطارات والبواخر، وأثناء المعارك الحربية، والسنسرة «الرقابة» التي خضع لها البريد خلال الحربين العالمتين الأولى والثانية، وأدوات «الشطب cancellers » المختلفة التي كانت تستعمل في مختلف مكاتب البريد وغير ذلك كثير.

*: ليس صحيحا تماما أن السودان في عهد المهدية لم يعرف البريد، فقد كان للخليفة التعايشي نوع من الخدمة البريدية المنظمة/ المنتظمة





السودان العربي

سير دوجلاس نيوبولد

تقديم: هذه ترجمة مختصرة لمحاضرة ألقاها في المركز العربي بالقدس السير دوجلاس نيوبولد السكرتير الإداري للسودان في أكتوبر من عام ١٩٤٤م. نشرت هذه المحاضرة ضمن كتاب صدر للمؤلف ك دي دي هيندرسون (حاكم دارفور) عام ١٩٥٢م عن حياة ورسائل سير دوجلاس نيوبولد بعنوان: The Making of Modern Sudan

بدأ السير دوجلاس نيوبولد (١٨٩٤م- ١٩٤٥م) عمله في خدمة حكومة السودان عام ١٩٢٠م في دار الكبابيش، وشغل منصب حاكم كردفان بين عامي ١٩٣٢ – ١٩٣٨م، ثم منصب السكرتير الإداري بين عامي ١٩٣٩ – ١٩٤٥م.

قد يقول قائل: إن مضمون تلك المحاضرة القديمة قد عفا عليه الزمن باعتبار أن«عروبة» السودان قد تم حسم أمرها بانفصال الجنوب، ولكن ذلك عندي من سخيف القول، إذ أن أمر هوية هذا البلد وكنه مكوناته العرقية وانتماءاته القبلية هو «كعب أخيل» أو «نقطة الضعف» التي مازال الناس – حكاما ومعارضة وأغلبية حائرة «ممحونة»- حولها يتخاصمون. رغم هذا لا تخلو المحاضرة – في نظري الضعيف- من عدم تماسك وتبسيط شنيع، بل وسذاجة في بعض المواطن، وعنصرية بائنة وتعميم كاسح وأخطاء جسيمة في بعضها الآخر.

عنوان هذه المحاضرة هو «السودان العربي». وأقصد بذلك مديريات السودان الست الشمالية، والتي تبلغ مساحتها ٧٠٠ ألف ميل مربع، وهي بذلك تفوق مساحة سوريا وفلسطين والعراق ومصر والأردن (شرق وغرب الضفة) مجتمعة، وبعدد سكان مكون من العرب وأشباه العرب يبلغ أربعة ملايين نسمة (يبلغ عدد السكان في كل من سوريا والعراق ٣,٥ مليون نسمة). يحتاج المرء لقدر كبير من الجرأة ليتحدث عن السودان «العربي» في القدس، إذ ربما يقول قائل: أليست هذا مفارقة مضحكة وتناقضا عجيبا؟ كيف لنا أن نعد السودانيين عربا؟ وكلمة «السودان» نفسها جمع لكلمة «أسود»، وكثير من الناس في بريطانيا والعالم العربي لا يزالون تحت وهم أن أراضي السودان يقطنها فقط الزنوج. يا ليتني أحضرت معي بضعة أفراد من قوة

الهجانة (السودانيين) من صحراء ليبيا الجنوبية لتروهم!

في بداية الحكم الثنائي للسودان كان أفراد القسم السياسي بالحكومة والذي أشرف بترؤسه يعينون من الرياضيين في (جامعتي) أكسفورد وكمبردج،ورغم أنهم كانوا من الرياضيين إلا أن العقل لم يكن يعوزهم! كان الراحل هـ. أ. فيشر يشير إلى السودان بالقول إنه «ذلك البلد الذي يسكنه السود ويحكمه الزرق» . في واقع الأمر لا يمكن الحكم على عروبة شخص ما بلونه، إذ أن ألوان سكان السودان تتدرج مما يكاد يكون لونا أبيضا خالصا إلى لون حالك السواد. ليس كل عرب السودان بالتأكيد من السود، إن اللون السائد بينهم هو اللون البني بدرجاته المختلفة. إن بعضهم فاتح اللون كالبربر، بينما بعضهم الآخر شديد السواد. معلوم أن الدماء التي تجري في عروق السودانيين الشماليين هي خليط من دماء أفريقية ودماء حامية «من حام» من الشمال والغرب والشرق، ومن الجنوب أيضا. ورغم ما يقوله علماء الأجناس فسكان شمال السودان يعدون أنفسهم – وبحماس وتأكيد شديد- عربا خلصا. وعلى هنا من باب رد الجميل الذي أدين لهم به أن أحمل لكم في مركزكم العربي وجهة نظرهم تلك والأدلة عليها، وأنا بذلك فخور.

لعلكم أرشدتم لقراءة العديد من الكتب عن العرب، ومن حسن الحظ أن أمر العروبة والعرب وتاريخهم كان محط انتباه عدد من البريطانيين من الرحالة والمستكشفين وعلماء الآثار والجنود والضباط والسياسيين فكتبوا عن كثير مما شاهدوه ودرسوه. ولأضرب بعض الأمثلة لهؤلاء الدارسين...منهم بيرتون ودوتي وبال قريف وبلنت وكين وبيركرهاردت وفيلبي ورتشارد كوك واستارك وبري وبروفسورنيكيلسون وجيب؛ وبالطبع يجب ألاّ ننسى المدير الحالي لمركزكم؟ العقيد توماس. إن كتابات هؤلاء الذين ذكرت (والقائمة أطول بالقطع مما ذكرت).تتركز حول سوريا والعراق ومصر وشمال وشرق أفريقيا. ليس من بين أي من كتابات من ذكرت (أو غيرهم)، وحتى كتابات القليل منهم ممن أغفل ذكر السودان، ما يمكن لحاكم أو مسؤول في شمال السودان أن يجده غير ذي نفع له أو علاقة. فحالة العربي في كل مكان (مثل كثير من القبائل الرحل أو ممن ينحدرون من قبائل رحل) متشابهة. إنه يحمل لغته وعاداته ودينه (مثل نعله) وملابسه وعدة رحله معه أينما تحط به عصا الترحال...في الواحة وفي الصحراء ودلتا النهر وحتى في الجبال أسواق المدن التي يرتادها. لقد نجا من ويلات التقسيم والحروب (سواء انتصر فيها أو هزم) ونجا أيضا من تأثيرات الحكم الأجنبي ومن الخلافات (المذهبية) الحادة في دينه. لقد جعلت منه روح الإقدام والتطلع المتأصلة عنده، والأصل البدوي، وفقر المولد ، رجلا شجاعا

غير هياب، يكثر من الترحال بأقل المتاع. اقرأ لابن بطوطة، أمير الرحالة المسلمين، والذي قطع خمسة وسبعين ألفا من الأميال بالقوارب والأقدام، وزار كل من مومبسا ودلهي وبكين و(دلتا) الفولجا وتامباكتو، وزار أيضا شمال شرق السودان. إن ابن بطوطة بالمناسبة ينحدر من التنجر (قبيلة اللواته) قرب بشمال أفريقيا.

كتب ريتشارد كوك في كتابه المعنون «مكانة العرب في السودان» - والذي ينبغي لكل دارس أن يوليه عنايته- ما نصه:

«ليس هنالك ما يماثل قطعة كبيرة من هذه البسيطة يسكنها قوم (مثل العرب) ذوو لغة مشتركة وعادات واحدة ، وحكموا من قبل قوى الغرب... ولكن رغم كل شيء...رغم الانقسامات وسيطرة الغربيين والحضارة الغربية تمضي الحياة عندهم كما كانت منذ عقود طويلة...نفس الحياة...نفس الآمال والصلوات والنظرة للمستقبل، والخيال الذي جعل من فاس نسخة من مكة. إن وحدة «الإسلام العربي» تثير العجب والإعجاب...لقد استمرت رغم الفساد وقلة حيلة وعدم كفاءة الحكام وهجوم القوى الصليبية والأسبان، وسوء إدارة الأتراك العثمانيين. بيد أنه ينبغي علينا الانتظار لمعرفة إن كانت تلك الوحدة ستنجو من طموحات أوروبا المعاصرة؟.»

لقد قضيت الثماني سنوات الأولي لي في السودان أجوب سهول وصحاري شمال السودان. قطعت أكثر من عشرة آلاف ميل على ظهور الجمال في الصحراء الواقعة جنوب ليبيا، وفي وديان وتلال البحر الأحمر. كنت أصطحب معي في رحلاتي الطويلة الأب سالم (صاحب اللحية البيضاء) وسليم وسليمان، وهم على ظهور جمالهم المحملة بالزاد والقدور. قد يرى الناس إن العربي قد فقد «عبقريته» وهويته وسط ركام الحرب واللواري والدبابات التي انتهكت عذرية الصحاري، والقوات الأوربية التي سيطرت على البلاد. أرد بالقول بأن هذا ليس صحيحا. لقد رأيت في الخرطوم إبان الحرب (العالمية الثانية) شيوخا للسنوسية طردوا من العلمين، وحجاجا نيجيريين من إمارات كانو وكاتسينا، ووزيراً عراقيا مسافرا لواشنطون، وصبيانا من عدن وحضرموت يدرسون في كلية غوردون التذكارية، وشاهدت قبل شهرين صبياً زنجبارياً اسمه يحي له وجه عربي كامل السمات، يدرس في جامعة ماكريري في يوغندا، وقابلت قبل أيام على بيه الجرباوي مساعد مدير التعليم في برقة. لقد أتاحت لي إقامتي لربع قرن في شمال السودان محتكا مع العرب في المدن والأرياف والبوادي أن أتحدث مع كل من ذكرت من الزوار والعابرين وكأني أعرفهم منذ زمن طويل رغم ضعفي البائن في اللغة العربية. كنت كلما سافرت لسوريا أو مصر أو فلسطين أو

الأردن أو إرتريا أو تجولت في البتراء في رفقة شرطي عربي، أو أتحدث مع الرعاة في تلال الجليل، أو الحدادين في دمشق، أو «الأبالة» في مصوع قرب البحر الأحمر، أو مع اليمانيين (اليمنيين) في بورتسودان، أو مزارعي النخيل في الكفرة، أحس إحساسا غريبا بأني كنت في ذلك المكان من قبل! قد يكون للعرب تركيب «فسيفسائي» معقد مكون من قطع كثيرة متباينة الألوان، بيد أن هنالك خطوطا مشتركة تجمعهم...تماما كقطعة سجاد واحدة.

سأعود مجددا للحديث عن السودان. هل تأذنون لي في أن أعطيكم بعض الحقائق؟ وأخشى أن يصيبكم ذلك ببعض الملل. إن السودان الشمالي يسكنه في الغالب عرب مسلمون يبلغ تعدداهم أربعه ملايين نسمة. تغطي الصحراء شماله وشماله الغربي (مجاورا للصحراء الليبية). قمت في سنوات ١٩٢٣م و١٩٢٧م و١٩٣٠م بثلاث رحلات بجملين وسيارة في تلك المناطق. وكدنا نتوه في رحلتنا عام ١٩٢٧م ونحن نبحث عن واحة مفقودة وهي «واحة الزرزورة»، فعبرنا لمنطقة منبسطة ليس فيها من أثر، ومجهولة تماما لمرشدنا العربي، وفشلت بوصلتنا في تحديد مكاننا أو إرشادنا.

توجد في السودان ثلاث صحارى هي الصحراء الليبية وصحراء النوبة (أصغر من الأولي ولكنها ما تزال تنتظر الاستكشاف) وصحراء العيتباي (وتنطق الأيتباي بالهمزة أيضا، وهي صحراء بلاد البشاريين بشمال شرق السودانيين في المثلث المحصور بين الحدود السودانية المصرية من جهة مثلث حلايب ووادي العلاقي الممتد من ديار البجة متوغلا داخل الأراضي المصرية قريبا من أسوان. المترجم). تسكن في الصحراء جنوب ليبيا (بين خطي عرض ٦٠ و٢٠ درجة) القبيلة الشهيرة الكبابيش (والتي أتى اسمها من كلمة كبش ومعناها خروف)، وهي تمت بصلة إلى «أولاد على» في الصحراء الغربية بمصر، وتنحدر من «أولاد عقبة» والذين أتوا من الجزيرة العربية لمصر ومنها لطرابلس.

كذلك توجد في تلك المنطقة قبيلة الهواوير (الهوارة) وأصلهم من قبيلة البربر والتي قاتلت العرب ثم اختلطت بهم في القرن السابع والقرون التالية. هنالك أيضا قبيلة «الزغاوة»، وهي خليط من القبيلة الحامية (توبو) والزنوج، وقبيلة «الزيادية» (وهم أكثر نقاء عربيا) و«الميدوب» في شمال دارفور، وجميعهم يذهبون في رحلة «نشوق» أو رحلة الشتاء، حيث لا تشرب الإبل لمدة نصف عام، ويعيش الراعي على لبن أبله ولحم ما يصطاده من الحيوانات الوحشية. لكل قبيلة من القبائل التي ذكرنا شيخ

يسمونه «ناظر القبيلة». من أشهر أولئك النظار هو السير علي التوم، ويعرف عند مواطنيه بلقب «الشيخ»، وكان صديقا لونجت ولكتشنر. هنالك أيضا العمد، وهم يساعدون الشيخ في إدارة شؤون القبيلة. قام مايكمايكل في سفره الموسوم «قبائل وسط وشمال كردفان» وج. أز.ريد في مقاله المعنون :« السودان الإنجليزي المصري من الداخل» بوصف دقيق لكل هذه القبائل وأفخاذها وأتباعها وأصولها، وحتى أنواع «الوسم» الذي تضعه على إبلها، وهذه من المعلومات الهامة التي لا يستغني عنها أي سياسي أو إداري يعمل في تلك الأصقاع.

تقع جنوب تلك المناطق منطقة أكثر استقرارا وأغزر مطرا تزرع وتنمو في «قيزانها» بعض الأعشاب والأشجار والنباتات مثل الدخن والسمسم والفول السوداني والشمام، وتربي فيها قطعان صغيرة من الماشية وقليل من الإبل، وكثير من المعز والأغنام. عاشت في هذه المنطقة قبائل كانت دائمة الارتحال في بداية أمرها، ثم بدأت مؤخرا في الاستقرار. لا تعد القبائل الدارفورية هنالك (مثل المساليت والبرتي والفور والبرقد) عربية بأي صورة من الصور، فأصولهم من التوبو والبربر وغرب أفريقيا، ولديهم لغاتهم الخاصة. بيد أن هنالك أيضا قبيلة عربية هي قبيلة البقارة الكبرى وتشمل المسيرية والرزيقات والحوازمة. تنتشر هذه القبائل حتى وداي وحدود أفريقيا الاستوائية الفرنسية ومديريات دارفور وكردفان في السودان. السكان هنالك سود البشرة لقربهم من مراكز تجميع الرقيق (ياله من سبب؟! المترجم)، وهم أشد شكيمة وأكثر حبا للحياة والمرح من العرب الخلص، ولنسائهم هامش أكبر من الحرية. تجد في لغتهم العربية كلمات لا تخلو من غرابة مثل «كو» بمعني لا، و«وي» بمعنى نعم، و«درمد» بنعني صيد الزراف. هؤلاء البقارة يجيدون صيد الأفيال والزراف والأسود وهم على ظهور خيلهم مزودين بحراب ذات نصل عريض.

تسكن أواسط كردفان قبائل الحمر والبديرية ودار حامد والجوامعة. هؤلاء قبائل مستقرة تسكن القرى وتشتغل بالزراعة ولهم نظار وعمد وشيوخ في قراهم، وهم بالجملة أناس وديعون طيبون. لكل هذه القبائل – كما لغيرها- من القبائل المستقرة والرحل اهتمام شديد بالأنساب وبأفخاذ القبيلة. تهتم القبائل الكبيرة بديارها وحدود أراضيها، مما يلزم المسؤول السياسي/ الإداري بمعرفة ديار كل قبيلة بدقة وحقوق الرعي والزراعة واستخدام الآبار الموجودة لكل قبيلة.

تفرعت كل القبائل العربية في غرب السودان من الجيوش العربية التي تدفقت على مصر وشمال أفريقيا بقيادة عمرو بن العاص. توجهت بعض الجيوش جنوبا نحو فزان ونيجيريا وأفريقيا الاستوائية الفرنسية، ثم شرقا نحو السودان. أتى بعضها رأسا

للجنوب من طرابلس، وأتى بعضها عبر النيل، وفي الطرق تزاوجوا مع البربر والتوبو والنوبة. يزعم «بنو هلال» أنهم من ذلك النسل. يقال إن نصف قبائل السودان هم من نسل عبد الله الجهني، ولا يزال هنالك كثير من الجهينية في الحجاز. دخل هؤلاء لأفريقيا عبر ليبيا في حوالي ٦٤٧م، ثم غزوا السودان بعد قرنين من الزمان، وقضوا على ما تبقى من مملكة النوبة، واتجهوا غربا وعلى امتداد النيل في القرنين الثالث عشر والرابع عشر.

شملت أراضي مملكة النوبة جزءًا من مصر العليا وما يعرف الآن بالمديرية الشمالية في السودان، وهي الآن تشمل مراكز حلفا وبربر ودنقلا. مثل ذلك الغزو فرضا للعروبة على شعب النوبة، والذي كان خليطا من المصريين القدماء أصلهم من الشمال منذ عصور قديمة، وأيضا من الأقارقة الذين أتوا لمصر من الجنوب. بذا يمكن أن نعتبر سكان المديرية الشمالية (وعددهم نصف مليون نسمة) خليط من أعراق ثلاثة، وفي ذلك يشبهون أهل مصر العليا ، حيث النخيل والسواقي، والنيل الذي يتخلل الصحراء، مع شريط ضيق من الزراعة على ضفتيه.

تكثر في المديرية الشمالية التماثيل والمعابد المصرية القديمة، وبعض الكنائس المسيحية، وتفوق أعداد الأهرامات فيها ما هو موجود في مصر ذاتها. يتحدث الناس في هذه المديرية اللغة النوبية القديمة، بينما تعتبر اللغة العربية هي اللغة الرسمية السائدة (عدا في أوساط النساء).

من أهم القبائل العربية التي تسكن المنطقة قبيلتين عربيتين هما الجعليون والشايقية، ولون أفراد هاتين القبيلتين لون فاتح. يعد الجعليون أنفسهم (دون دليل) من نسل العباس عم الرسول، وهم في الواقع يتكونون من عدة قبائل (كما يدل على ذلك اسم قبيلتهم...**جعلناكم**) مثل الجوامعة والجموعية والجمع والجميعاب.

تعتبر قبيلة الشايقية من القبائل المحبة للجندية والمغامرة، وقد تجري في دمائهم دماء تركية وبوسنية وألبانية عن طريق الجنود المرتزقة الذين كانوا يعملون في جيش السلطان سليم الأول (١٥١٧م). أبدى الشايقية مقاومة عنيفة ضد الجيش التركي الغازي في ١٨٢١م، ثم انضموا لذات الجيش في حربه ضد الدراويش. يعمل (الآن) عدد كبير منهم بقوات دفاع السودان.

إذا وليت وجهك شرق كردفان فستجد نفسك في مديريتي النيل الأزرق وكسلا، واللتان تمتد حدودهما لإرتريا وأثيوبيا. يوجد هنالك أيضا «مثلث الجزيرة» بين النيلين الأبيض والأزرق، وهي منطقة تشتهر بزراعة القطن وتربية القليل من الإبل والبقر

والمعز والضأن، ويسكنها خليط من القبائل (مع إحساس ضعيف جدا بالقبلية فيها) يتميزون – على وجه العموم- بملامح وخصائص عربية، ويتحدثون العربية ويدينون بدين الإسلام. وفي الشرق تجد قبيلة الشكرية التي تنحدر من جهينة (رغم أنها تزعم أصلا قرشيا)، وهي قبيلة تشتهر برعي الإبل، وتحكمها عائلة «أبو سن» منذ أيام نايل أو عدلان في حوالي عام ١٦٢٠م. عرفت هذه القبيلة أيضا بتأييدها للحكم التركي ومقاومتها للدراويش. وتجد في شرق منطقة الشكرية قبائل سوداء، بعضها من بقايا قبائل أتت للمنطقة بعد عهد الدراويش من غرب السودان، وأخرى تنحدر من مملكة الفونج الإسلامية ١٥٠٠م – ١٨٠٠م – السلطنة السوداء- (تعرف في السودان بالسلطنة الزرقاء. المترجم). لقد أتت هذه المملكة الأفريقية من أعالي النيل أو أثيوبيا، رغم أن سلاطينهم يزعمون أن أصلهم من خلفاء بني أمية في دمشق. دخلت هذه المملكة الأفريقية (ومركزها في الأصل في سنار، وكتب عنها ميلتون) في تحالف مع العرب الذين دخلوا السودان بين القرنين التاسع والخامس عشر، وقضى ذلك التحالف على المملكة النوبية المسيحية الواهنة، ووطد لقيام شمال السودان كبلد عربي مسلم.

إن أمامنا كتابًا مهما وطريفًا يسمي «الطبقات» لمحمد ود ضيف الله، تم تأليفه في القرن الثامن عشر الميلادي يحكي عن حياة علماء المسلمين وفقهائهم في عصر دولة الفونج. أتي معظم هؤلاء من الحجاز ومصر والعراق، وأنشؤوا مدارس قرآنية (خلاوي. المترجم) كانت هي المدخل لدخول السكان للإسلام وتوطينه. لقد كان أفراد الفزارة والجهينة وربيعة وبقية القبائل الغازية بدويين بضاعتهم في الدين شحيحة، فألقي عبء إدخال مسيحي ووثني البلاد في الإسلام وتعليمهم أمور دينهم على اعتاق الشيوخ المحليين المتحمسين.

لقد كانت أحد أهم خصائص الإسلام السوداني (أو إسلام السودانيين)، وما يزال في بعض المناطق، هي العاطفية والشعوذة و«التقديس» (أو الإيمان) بالصالحين / الشيوخ/ الأسياد/ الفكي (في الأصل «الرجال المقدسين») لدرجة تصل بل تفوق ما يلقاه الأنبياء والرسل أنفسهم. أنشأ المجاذيب في الدامر مدرسة دينية خاصة بهم، وهنالك أيضا طائفة الميرغنية الواسعة الانتشار في السودان وأوفرها حكمة (وتمثلها الآن الشخصية البارزة السيد/ على الميرغني) وتلك طائفة أنشأها سيد من الحجاز كان قد ولد في ١٧٨٧م. إن هذه الطوائف (أو الطرق) هي روابط «أخوية» (مثل الدوميناكان والفرانسيسكان) دخلت السودان منذ عدة قرون مضت في عهد مملكة الفونج، بيد أنها لم تغدو طرقا منظمة إلا في العهد المصري- التركي. وتوجد بجانب

الميرغنية والمجاذيب، الإسماعيلية (في غرب السودان أساسا) والسمانية، والتجانية (التي نشأت في فاس بالمغرب وانتشرت في غرب أفريقيا)، والقادرية، والأحمدية، والأدارسة (في مصر العليا ودنقلا).

نجد أيضا المهديويين (والذين يسمون أنفسهم الأنصار) وهم أتباع الشيخ/ محمد أحمد، ذلك الدنقلاوي صانع القوارب والذي ادعى أنه هو المهدي (المنتظر) في ١٨٨١م، والذي نجح في طرد جيش وحكومة النظام المصري- التركي من السودان، ومات في ١٨٨٥م. عقب موته خلفه في الحكم عبد الله (التعايشي) والذي انتصر عليه كتشنر في ١٨٩٨م في معركة أم درمان، وقتله من بعد ذلك بقليل. تعد «المهدية» اعتقاد مهدوي لدي السنة المسلمين الملتزمين (الأصوليين) وليست «طريقة» كبقية الطرق الصوفية، بيد أن في الوقت الراهن فقد خلق أتباع ولد المهدي (والذي ولد بعد وفاة أبيه) الكثيرين طائفة/ رابطة «أخوانية» دينية في جزء منها، وسياسية في الجزء الآخر، وتهتم بصورة متزايدة بالأمور الوطنية، ولديها – حديثا- مشاعر مضادة لمصر.

ينبغي أن أذكر هنا قبيلة غير عربية ولا تنتمي للقبائل الأفريقية الحامية هي قبائل البجا. تسكن هذه القبائل في الربع الشمالي الشرقي للسودان، وربما يتجاوز عدد سكان هذه القبائل مائة وخمسين ألف نسمة. كتب فيهم كبلنج قصيدته المشهورة فيزي وزي، وهم بلا ريب أوسم رجال السودان. أتى هؤلاء البجا من الجزيرة العربية من قبل أكثر من أربعة آلاف سنة. يدين البجا بالإسلام ويتحدثون بلسانين من اللغات الحامية الخاصة بهم (الخاسا والبيداوي) بالإضافة للغة العربية. يرعى البجا الإبل والضأن والمعز، وهم يعيشون حياة وحشية وخشنة، تماما كجبالهم. يبدو أن لهم علاقة أثنية ما مع عناصر غير عربية أو عناصر وجدت في جنوب الجزيرة قبل ظهور العرب. ينحدر عثمان دقنة، أشهر رجل في هذه القبائل ومن زعماء الدراويش إلى قبيلة الهدندوة (وقد عملت على مدى أربعة سنوات سعيدة مفتشا لهؤلاء القوم). هنالك قبيلتان أخريان هما البشاريين والأمرار، ولهما وجود في مصر وساحل البحر الأحمر.

حاربت البجا قديما مملكة أكسوم في أثيوبيا في القرن الأول الميلادي، وحاربوا أيضا قوات الرومان في مصر بين القرنين الثاني والرابع الميلادي، وحازوا في هذه الحروب – على مضض- بإعجاب قيبون (مؤرخ وسياسي إنجليزي عاش بين ١٧٣٧م و١٧٩٤م. المترجم). اعتنق البجا المسيحية لمدة ٥٠٠ عام، بيد أنهم هزموا بواسطة العرب الذين غزوهم في حوالي عام ٨٥٠م، وفرضوا عليهم الإسلام، وبعض اللغة العربية في لغتهم. رصد المؤرخ يعقوبي ستة ممالك للبجا عند دخول

العرب للسودان.

كملخص لهذه المحاضرة أستطيع القول أن تاريخ شمال ووسط السودان كان تحالفًا متدرجًا بين العرب والسود والبرابرة النيليين شكل مجموعات بشرية مختلفة. إن ادعاءهم للعروبة قوي، خاصة عند رعاة الإبل الرحل في الشمال، وعند البقارة السود، وبعض المجموعات النيلية في الشمال. يقل هذا الإدعاء عند سكان القرى من غير الرحل. نتج هذا عن التزاوج بين القبائل (والتسري، كما يقول الراحل السير على التوم). بيد أننا ينبغي ألا نفهم كلمة «عربي» من ناحية بيولوجية فقط . هل يمكن أن نقدر نسبة الدم غير العربي (من الفرس والأتراك والصليبين وغيرهم) عند الفلسطيني مثلا؟ وهل نتساءل كم من سكان لندن من أصل أنجلو – ساكسوني قح؟ إن شمالي السودان بحكم اللغة والدين والتقاليد والضمير/ الوعي القومي يعدون أنفسهم عربا، وليس غير ذلك. لقد تعربوا بالدرجة التي ضاعت من ذاكرتهم تماما كل تاريخهم قبل دخول العرب...أيام أولاد أناك (كنعان إسرائيل). بيد أن مظاهر الدم «غير العربي» من عناصر حامية ونوبية وأفريقية لا تزال موجودة فيهم... في عروبتهم وفي إسلامهم وفي لهجاتهم العربية، ولا زالت في طقوس زواجهم وولادتهم وموتهم. نضرب على ذلك مثالا واحدا هو الختان الفرعوني.

سيظل السودان مدخلا للجزيرة العربية ولأقطار البحر الأبيض المتوسط، وشماله يدور في الفلك العربي الإسلامي في شمال أفريقيا. كيف سيتأثر السودانيون بجيرانهم، وما هو دورهم ومساهمتهم لبقية أقطار الشرق الأوسط بعد أن تضع الحرب أوزارها؟ من المبكر جدا معرفة كل ذلك.



في العلاقة بين المستعمر البريطاني و«الأفندي»

سطور من كتاب : «العيش مع الاستعمار» للباحثة الأميركية هيثر شاركلي

وفر التوظيف في حكومة المستعمر البريطاني فرصة لكسب العيش لمتعلمي السودان الشمالي إذ كانت الوظيفة الحكومية تقدم للموظف دخلا ثابتا وفرصا للترقي وزيادة الراتب. بل وكان خريج كلية غوردون العامل في خدمة حكومة السودان يؤمل أن يبتني له من دخل وظيفته دارا تؤويه (وحبذا لو كانت في وسط الخرطوم) ويربي عائلته في دعة معقولة وسعة مناسبة. الحياة كانت سهلة ميسورة... هكذا قال لي موظف جمارك سوداني عند حواري معه في ١٩٩٥م وهو يتفكر في ما يشبه الحسرة على مسيرة أكثر من خمسين عاما مضت.

كانت الوظيفة الحكومية آنذاك تسد الاحتياجات الأساسية للموظف، ورغم ذلك كان للمتعلمين السودانيين الشماليين أكثر من سبب للتذمر والشعور باليأس. فلقد كانوا شديدي الحساسية من صغر شأن وظائفهم واستبعادهم من مراكز صنع القرار وخضوعهم لرؤسائهم البريطانيين والذين قد يكون بعضهم أصغر سنا أو أقل خبرة من مرؤسيهم السودانيين. كانت الوظائف التي يعمل فيها السودانيون (وأغلبها وظائف روتينية صغيرة مملة مثل وظائف الكتبة والطباعين) لا تتضمن إلا قليلا من الترقيات والتي كانت سلحفائية الطابع، وفوق كل هذا وذاك كان السودانيون يشعرون بأنهم تحت السيطرة الكاملة لرؤسائهم البريطانيين، بل إن البريطانيين كانوا يسمون صغار الموظفين السودانيين الشماليين أولاد بينما يطلقون على الموظفين البريطانيين حديثي التخرج من الجامعة كلمة رجال.

كان البريطانيون – على وجه العموم- وعلى الأقل ظاهريا، يعاملون المتعلمين السودانيين الشماليين باحترام وينادونهم باللقب التركي أفندي (وجمعها أفندية) وتعادل كلمة مستر (السيد)، وتتضمن اعترافا بالقدر الذي نالوه من التعليم والخبرة المهنية كرجال عصريين يخدمون في سلك الوظائف الحكومية وكان الاستثناء لذلك هم الذين تلقوا تعليما دينيا ومنهم القضاة وهؤلاء يطلق عليهم كلمة «شيوخ» ويرتدون زيا مميزا يشمل الجلباب والعمامة وليس السترات (البذل) ورباطات العنق التي كانت تمثل المظهر الخارجي المميز للأفندية. كل هذا في ظاهر الأمر. أما تحت السطح فلقد

كانت كلمة أفندي عند البريطاني تشير إلى ما هو أسوأ. كانت الكلمة تشير إلى رجل فائق الطموح وكثير الشكوى ومشروع سياسي متهور. لقد كان احتقار الأفندي متأصلا عند البريطانيين في مختلف درجات السلم الاجتماعي.ولم يسلم من ذلك الإحساس حتى القساوسة والذين كانوا ينصحون الموظفين البريطانيين الجدد الذين يبدؤون في تعلم اللغة العربية بضرورة تحاشي لغة مكاتب الأفندية المتقعرة (العجيبة) وتعلم عربية رجل الشارع الحية الغنية المعبرة. ولما كانت كلمة أفندي تستبطن في أحشائها إيحاء كريها وتفيد بأن حامل ذلك اللقب إن هو إلا موظف صغير قليل الشأن، فلا عجب إذن إن أزيلت كلمة أفندي بعد الاستقلال وحلت محلها الكلمة المحايدة 'سيد'.

نبع احتقار البريطانيين للأفندية من عدم اطمئنانهم لوضعهم في البلاد التي استعمروها. فلقد كانوا بسبب عدم تمام ثقتهم في وضعهم يعتمدون على 'إظهار القوة' وليس ممارستها فعليا. وكان ذكر الأفندية (بمختلف صنوفهم في مصر والجزء الشمالي من السودان) تماما كما هو الحال مع البابو (Babu) في الهند (وهو لقب احترام يطلق في الهند على أحيانا على صغار الموظفين وأحيانا على رئيس العمل،وقد يطلق تحببا بمعنى أخ. المترجم) يثر أعصابهم لعدة أسباب. فلقد كانوا هؤلاء دوما يطالبون بتولي مزيد من المسؤوليات وفي النهاية يطالبون بتولي وظائف كان يحتلها البريطانيون أنفسهم، وكانوا يرتدون الملابس الأوربية (إذا استثنينا الطربوش) وبذا يفسدون على البريطانيين تميزهم وتفردهم في المظهر الخارجي، وأسوأ من كل هذا وذاك أنهم يتحدثون بلغة اللبرالية البريطانية إذ أن تعليمهم العصري قد أتاح لهم فرصة التعرف على الأفكار السياسية الأوربية من شاكلة الوطنية والاستقلال، وهي أفكار قد يستعملونها ضد الوجود الاستعماري ذاته. لقد كان البريطانيون يدركون ذلك جيدا بعد أن خبروه مع المصريين منذ استعمارهم لمصر في ١٨٨٢م حيث قام الأفندية بتطوير وصقل حججهم في الوطنية والحرية.

وكما توقع أحد رجال المخابرات البريطانية في عام ١٩١٠م فالأمر ليس إلا أمر وقت قبل أن «يبدأ الجيل الجديد من المتعلمين السودانيين الشماليين في تشرب تلك الآراء البشعة في المدارس» في إشارة إلى تأثير المدرسين المصريين المشبعين بما يسمونه 'الوطنية'.

كان الازدراء متبادلا. فلقد كان البريطانيون لا يثقون في الأفندية ويسخرون منهم لمحاولتهم التشبه بالغربيين ولطموحاتهم الاجتماعية الزائدة. وفي المقابل، فلقد كان الأفندية يأخذون على البريطانيين وقوفهم ضد طموحاتهم وآمالهم في التقدم واللحاق

بالعصر، وكان هنالك أيضا – وبصورة متكررة- تذمر مهني من جانب المتعلمين السودانيين الذين كانوا يدعون أن التعليم الذي كانوا يتلقونه لا يهيئهم إلا لأقل الوظائف خطرا ولا يقدم لهم تعليما هدفه تحصيل المعرفة، وأن وظائفهم تفتقر إلى إمكانية تقدم كافية وأن آمالهم في التخصص وتطوير مهارتهم ليس لها من مجال للتحقيق. كان السودانيون المتعلمون يوقنون أن البريطانيين أعطوهم تعليما محدودا ومنعوهم من التقدم للأمام. ردد أحدهم في أسف: « إن الوظيفة هي نهاية الرحلة».

وسع فقدان التواصل الاجتماعي غير الرسمي بين المسؤولين البريطانيين والموظفين السودانيين الشماليين من التباعد وعدم الثقة. كان البريطانيون في الخرطوم والمدن الكبيرة الأخرى يقضون أوقات فراغهم في التجمع في نواديهم ومناشطهم الرياضية وفي حفلات الشاي والعشاء مع بني جلدتهم المقاربين لهم في المكانة الاجتماعية. ففي النصف الأول من عمر الحكم البريطاني للسودان كانت العلاقة بين المفتش البريطاني والموظفين السودانيين لا تتعدي وقات الدوام الرسمي في المكاتب. ولكن في النصف الثاني من عمر ذلك الحكم، وفي مدينة بورتسودان مثلا بعد أن بدأ الموظفون البريطانيون يحضرون معهم زوجاتهم، صار بعض هؤلاء الموظفين يدعون بعضا من كبار الموظفين السودانيين الشماليين إلى منازلهم. بيد أن محاولة ردم أو تضييق الفجوة الثقافية لم تحظ بنجاح كبير، رغم أنها كانت أفضل قليلا من حفلات لعبة البيردج التي درج على إقامتها البريطانيون في الهند والتي أشار إليها فورستر (أديب بريطاني عاش بين ١٨٧٩ – ١٩٧٠م، وقضى حينا من الدهر في مصر والهند حيث كتب هنالك أشهر كتبه Passage to India.المترجم).

وصف الأديب السوداني جمال محمد أحمد صورا لزيارات السودانيين للبريطانيين في دورهم فقال: ' كانت دعوات تناول الوجبات نادرة جدا إذ أن تناول الطعام يقتضي بالضرورة عند أولئك القوم استعمال الشوك والسكاكين، وعند أغلب السودانيين فإن استعمال تلك الأدوات لا يحمل أي قدر من المتعة! بيد أن دعوات الشاي كانت مقبولة إذ لا يتطلب الأمر سوى شرب الشاي وربما قضم بعض الكيك. لقد كانت تلك الدعوات مثيرة للسأم والملل، إذ أن المضيف البريطاني كان يبالغ في محاولة الترحيب بالضيف السوداني وإسعاده... لا أذكر أن الضيوف أو المضيفين كانوا يخاطبون بعضهم بعضا بأسمائهم الأولى مجردة أبدا. كنت تسمع فقط يا سيد فلان أو مستر علان! بل كان هنالك من البريطانيين من يطلب من ضيوفه السودانيين الشماليين أن يحضروا وهم يرتدون البنطال القصير (الشورت/ الردا)، وفسر جمال محمد أحمد ذلك بقوله أننا كنا نعتقد أن البريطاني كان يقصد فقط أن 'يعطينا أوامر

وخلاص مما دعا أحد زوار الرجل البريطاني من السودانيين عن التعبير عن ضيقه وتحديه لذلك الأمر فأتي لزيارته وهو يرتدي بنطالا طويلا! بيد أن جمال يستدرك ويقول أنه لعل المضيف كان يقصد أن تكون الزيارة ودية وأن يكون المضيف على راحته!

وفي المناطق البعيدة حيث يكون عدد الموظفين البريطانيين والسودانيين قليلاً نسبيا كانت هنالك فرصا أكثر للقاء الاثنين على مستويات إنسانية واجتماعية. فلقد كان هؤلاء يلتقون للنقاش حول علم الفلك أو الأدب الإنجليزي أو آخر أخبار رويتر أو للعب التنس أو البولو. كانت تلك النشاطات تزيل من نفوسهم الملل والشعور بالوحدة. رغم كل ذلك التداخل (والذي أدي إلى زيادة الاحترام المتبادل وأحيانا إلى نشوء علاقات ود وصداقات دائمة) فلقد حرص الاثنان على حفظ المسافات والمقامات. لقد حفظ الموظفون البريطانيون عند قيامهم فيما بعد بكتابة مذكراتهم عن تلك الأيام البعيدة لزملائهم من الموظفين السودانيين الذين عملوا معهم في المحطات البعيدة أجمل الذكرى، وسجلوا محبتهم وإعجابهم بهم. لعل بعضا من مصدر ذلك الثناء هو الشعور بالعرفان والامتنان، فلقد اعترف كثير من الموظفين البريطانيين الجدد أنهم يعزون نجاحهم في الإدارة لتعليم وإرشاد الموظفين السودانيين لهم، والذين كثيرا من أنقذوهم من ورطات إدارية كانوا سيقعون فيها لا محالة. وكان ذلك الشعور متبادلا أيضا عند المتعلمين السودانيين الشماليين (أوردت الكاتبة في مراجعها شيئا عن ذلك مثل خطاب من هاشم الخليفة محمد مأمور وادمدني الذي كتب خطابا في ٢٦. ٨. ١٩٤٥م للبريطاني ر. بيلي يشكره ويدين له بالعرفان على ترشيحه له لبرنامج تدريب المآمير، وخطابا مماثلا في عام ١٩٥٦م من دواؤد الخليفة كتب على ورق الحكومة المروس. المترجم).

نخلص أنه وعلى المستوي الجمعي (العام) كان الازدراء والاحتقار هو الشعور المتبادل بين البريطانيين (والاستعمار عموما) والمتعلمين السودانيين الشماليين، بينما كان شعور الاحترام المتبادل هو الشعور السائد بينهما على الصعيد الشخصي. لذا فلقد عمل المتعلمون السودانيون الشماليون بقاعدة أن يعملوا على خدمة بلادهم بإخلاص مع الاحتفاظ بمسافة (مناسبة) من البريطانيين.



دور بريطانيا في قيام وتطور المجتمع المدني في السودان

بقلم: د. صفوت صبحي فانوس

تقديم: هذا المقال هو ترجمة لبعض ما جاء في مقال باللغة الإنجليزية عن دور بريطانيا في قيام وتطور المجتمع المدني في السودان، وبالمقال الأصلي جزء أول يتحدث عن دور بريطانيا في قيام وتطور الأحزاب السياسية في السودان، سنقوم بترجمة أجزاء مختارة منه في مقال تال إن شاء الله. تم نشر المقال الأصلي في كتاب صدر باللغة الإنجليزية من دار النَّشر بجامعة الخرطوم والمجلس البريطاني عام ٢٠٠٢م عن «العلاقات السودانية البريطانية»، حرره البروفسيران يوسف فضل وعوض السيد الكرسني.

نعرف المجتمع المدني في هذا المقال بأنه مجموعة المنظمات أو الهيئات أو الجمعيات الموجودة خارج نطاق الدولة (ويشمل ذلك الأحزاب السياسية) والسوق. يشمل المجتمع المدني نقابات العمال والجمعيات المهنية، وروابط واتحادات رجال الأعمال والجمعيات العرقية والدينية، والجمعيات الثقافية والدراسية والأدبية والأندية الرياضية واتحادات المرأة والطلاب. ينتظم الناس بمختلف طوائفهم وأجناسهم وأعراقهم طواعية ليكونوا مثل هذه المنظمات للعمل معا لتحقيق أهداف مشتركة.

إن الشرط الهام لقيام مجتمع مدني هو ظهور تفاضل بين طبقات المجتمع يأتي نتيجة للتطور الاقتصادي الرأسمالي، ووجود نظام ديمقراطي ليبرالي يوفر الإطار الدستوري العام لتطور منظمات المجتمع المدني. ولقد قامت بريطانيا بالفعل بإدخال تطور اقتصادي رأسمالي في السودان، وكان ذلك مع بداية التحول للحكم الذاتي بعيد نهاية الحرب العالمية الثانية.

كانت أولى منظمات المجتمع المدني التي ظهرت في السودان هي جمعيات محو الأمية والتي بدأت في التكوين في أخريات عشرينات وبداية ثلاثينات القرن الماضي في كثير من مدن السودان الكبيرة. كانت أشهر الجمعيات الأدبية التي قامت في تلك الفترة هما جمعيتي «أبروف» و«الفجر» في أمدرمان. وكانت عضوية تلك الجمعيات في الغالب هي من المتعلمين الذين كانوا يرغبون في النأي بأنفسهم عن القادة الدينين

التقليديين، ولم يكن بمقدورهم في ذات الوقت ممارسة نشاطات سياسية بسبب الحظر الذي كانت تفرضه الحكومة السودانية على النشاط السياسي عقب فشل ثورة ١٩٢٤م.

مثلت الجمعيات الأدبية النواة التي انبثق منها «مؤتمر الخريجين» والتنظيمات السياسية التي بدأت في التكوين عقب تخفيف الحظر على ممارسة العمل السياسي في عام ١٩٣٦م حين وقعت الاتفاقية بين مصر وبريطانيا. كان لتلك الاتفاقية عظيم الأثر في إحداث تغيير كبير في السياسة البريطانية في السودان، إذ فتحت تلك الاتفاقية السودان لسيل كبير من الموظفين والجنود المصريين. خشي البريطانيون من أن تؤدي زيادة الوجود المصري في السودان إلى تحالف بين السودانيين والحركات القومية / الوطنية المصرية يضر بمصالحهم في السودان، ولذا فقد مضت حكومة السودان في اتباع سياسة أكثر انفتاحا وتشجيعا لمنظمات المجتمع المدني.

شهدت بدايات أربعينيات القرن العشرين نموا سريعا في مجال المنظمات المدنية إذ تكونت نقابات للعمال والمزارعين والطلاب وكذلك تكون اتحادًا للمرأة. ولم يكن مستغربا إن كانت عطبرة (وهي مقر رئاسة هيئة السكة حديد) معقلا للحركة العمالية، ومصدر لنفوذها. كذلك تكون اتحاد للمزارعين في مشروع الجزيرة، واتحادات طلابية في كلية غوردون التذكارية والمدارس الثانوية. كان من الواضح أن تكوين وتطور منظمات المجتمع المدني كان بالقطع مسايرا للقطاع الرأسمالي الحديث من الاقتصاد، وتم كل ذلك بإطار قانوني وتفويض من حكومة السودان. ومن الأمثلة الدالة على ذلك هو موافقة مدير المعارف في عام ١٩٤١م على قيام اتحاد لطلاب كلية غوردون التذكارية، والذي غدا فيما بعد اتحادا لطلاب جامعة الخرطوم. وفي عام ١٩٤٧م تكونت لجنة لممثلي المزارعين كان بها ٤٠ مزارعا منتخبا. ومن قبل ذلك كانت حكومة السودان قد قررت في عام ١٩٤٦م أن تنشئ لجانا للعمال تتكون من ممثلين منتخبين لتجتمع مع مبعوثين من الإداريين بغرض مناقشة مشاكل العمال وشكاويهم ومطالبهم بغرض إيجاد الحلول المناسبة لها وذلك قبل أن تتفاقم. بيد أن تلك اللجان لم تكن مقبولة لدى جماهير العمال، وقرر عمال السكة حديد في عطبرة تكوين «رابطة شئون العمال» في يوليو من عام ١٩٤٦م. رفضت هيئة السكة حديد (مسنودة من حكومة السودان) الاعتراف بتلك الرابطة العمالية، الأمر الذي دعا عمال السكة حديد للدخول في إضراب عن العمل لإجبار السلطات للاعتراف برابطتهم. نجح ذلك الإضراب (والذي امتد لعشرة أيام) في إيقاف حركة القطارات بالكامل، واضطرت إدارة هيئة السكة حديد من بعد ذلك للإذعان لرغبة العمال في

الاعتراف القانوني برابطتهم.

انتزعت الحركة العمالية السودانية حقوقها عبر نضال العمال منذ بدايات القرن العشرين. وما أن حل منتصف عام ١٩٤٧م حتى شرعت حكومة السودان في إصدار القوانين المنظمة للعمل النقابي. كان من العوامل التي أدت للإسراع بهذا التطور اللافت هو وصول حزب العمال لسدة الحكم في بريطانيا. كانت معظم القوانين المنظمة للعمل النقابي التي شرعتها حكومة السودان مستمدة من قوانين العمل البريطانية. من هنا بدأ العمل النقابي في السودان تحت مظلة من الشرعية القانونية، وتسارعت وتيرة تكوين النقابات، فزادت من خمس نقابات في ١٩٤٩م إلى ١٢٣ في عام ١٩٥٤م، وبنهاية عام ١٩٥٦م كانت هنالك ١٣٥ نقابة يبلغ عدد أعضائها ما مجموعه ٨٧٣٥٥ عضوا.

تجمع في عام ١٩٤٧م عدد من النقابات لتكون ما عرف ب «اتحاد العمال»، والذي تغير اسمه في عام ١٩٥٠م إلى «اتحاد نقابات عمال السودان». بدأ ذلك الاتحاد مع مطلع عام ١٩٥٢م في بناء علاقات وثيقة مع حركة المزارعين، خاصة اتحاد المزارعين بمشروع الجزيرة، الأمر الذي أثمر تحالفا قويا بين الحركة العمالية والمزارعين، وكان للحزب الشيوعي السوداني دورٌ هام في قيام ذلك التحالف، وكان له تأثير كبير أيضا في كثير من اتحادات الطلاب والمتعلمات من النساء.

ارتبط قيام حركات للطلاب والنساء في السودان بقيام وتوسع التعليم العلماني الذي أسسته الإدارة الاستعمارية. كان الحكم الثنائي خلال الأربعة عقود الأولي من فترة حكمه يوفر قدرا ضئيلا من التعليم الأساسي لمقابلة احتياجات الحكومة لعدد محدود من صغار الموظفين السودانيين. بيد أنه حدث تغير في بداية الأربعينيات في السياسة التعليمية للحكومة، قامت على أثره بفتح عدد من المدارس الثانوية ومعاهد التعليم فوق الثانوي. وفي عام ١٩٤٠م تحصل طلاب كلية غوردون التذكارية على موافقة مدير المعارف على إنشاء اتحاد للطلاب شريطة أن يقتصر نشاط ذلك الاتحاد على الرياضة والثقافة فقط. لكن بعيد تكوين اتحاد الطلاب، بدأ إتحاد طلاب كلية غوردون التذكارية في ممارسة نشاط سياسي كبير، بل وشجع طلاب المدارس الأخرى على تكوين اتحادات خاصة بهم. ردت الحكومة على ذلك النشاط بحل اتحاد طلاب كلية غوردون التذكارية في عام ١٩٤٧م. لم يد ذلك الحل طويلا إذ سرعان ما أسفرت مواجهة بين الطلاب والشرطة عن إعادة ذلك الاتحاد. تم في ١٩٤٩م تكوين اتحاد لكافة طلاب السودان مكون من عدد من اتحادات الطلاب في المدارس السودانية

واتحاد طلاب كلية غوردون التذكارية.

لم تكن الإدارة البريطانية حريصة على البدء في تعليم البنات في السودان لعدم وجود حوجة اقتصادية لذلك التعليم. ولم تفتح مدرسة حكومية للبنات إلا في عام ١٩٤٩م وذلك في مدينة أم درمان. نتيجة لذلك بدأت حركة المرأة السودانية في التكوين (وذلك في بداية الخمسينيات) عندما انضم عدد من خريجات مدرسة أم درمان للبنات إلى بعض الخريجات القدامى اللواتي تخرجن من المدارس الثانوية الخاصة وكون الاتحاد النسائي السوداني.

الخلاصة:

من الواضح أن منظمات المجتمع المدني في السودان لم تكن لتقم لولا عملية التطور الاقتصادي الرأسمالي الذي أدخلته بريطانيا في السودان. لم تمارس الإدارة البريطانية سياسية بالغة التعسف تجاه منظمات المجتمع المدني، وفي بعض الأحايين كانت سياسة الحكومة معها تتسم بالتعاون، مقارنة مع معاملتها للقادة الدينيين والقبليين. تم التحول نحو الاستقلال بسلام ودون إراقة دماء. وعندما نال السودان استقلاله في ١٩٥٦م كانت البلاد تتمتع بمؤسسات متعددة لمنظمات مجتمع مدني تتميز بالديناميكية ولديها ميول سياسية واضحة.

تخلص هذه الورقة إلى أن التنوع «الثري» في المجتمع المدني السوداني، وتباين قومياته وأعراقه ودياناته وأقاليمه وثرواته وفقدان التوازن في تطوره الاقتصادي قد أفضى إلى آثار مدمرة على الاستقرار السياسي في البلاد. لم تنجح المنظمات المدنية (بما فيها الأحزاب السياسية) في تكوين أيديولوجية وسياسة مهيمنة تؤهلها لتولي مقاليد حكم البلاد. إضافة لذلك، فقد كانت الدولة السودانية التي أعقبت نيل الاستقلال ضعيفة مقارنة بالمجتمع المدني، ولذا كانت تفتقد الاستقلالية النسبية(من القوي المهيمنة في المجتمع المدني) الأمر الذي يعد ضروريا للغاية لأي دولة رأسمالية من أجل الحد من الانقسامات الحادثة بين مختلف القوى الاجتماعية المتصارعة.



قاضي «ما شافش حاجة»

تقديم: وردت الحكاية القصيرة التالية في كتاب للسير دونالد هاولي (١٩٢١ – ٢٠٠٨م) والذي عمل ضابطا ثم إداريا وقاضيا في خدمة حكومة السودان الإنجليزي المصري خلال العهد الثنائي في سنوات الثلاثينيات والأربعينيات، وعنوان الكتاب هو Sand tracks in the Sudan

ولقد صدر في عام ١٩٩٥م من دار نشر مايكيل رسيل. وورغم بساطة الحكاية بل سذاجتها، فإنها قد تفتح أبوابا للتفكير في أمور شتى منها نظرة المواطن العادي للمستعمر (السابق؟)، والشعور بالتفوق والعلو (بل الاستعلاء) عند الرجل الأبيض وهو يجول في مستعمراته السابقة.

في عام ١٩٦٢م كنت أعمل في السفارة البريطانية في القاهرة. وذات يوم كنت أقود سيارتي برفقة عدد من الأصدقاء في طريقي للإسكندرية. فجأة توقفت السيارة لنفاذ الوقود ونحن بالقرب من قاعدة مكس (Mex) البحرية. تقدم نحونا بحار مصري عارضا المساعدة وأخذنا لأقرب محطة وقود. وقفنا ننتظر الترام في المحطة، وبعد دقائق جاء الترام وصعدنا إليه جميعا. أقبل علينا الكمساري بطربوشه الأحمر المميز ونظارته السميكة ومنظره الكاريكتوري التقليدي، وقطع لنا التذاكر ثم غلبه الفضول فسأل مرافقنا البحار عن «حكايتنا»، فتطوع البحار بروايتها له في إسهاب شديد. رد الكمساري بالقول بأنه لن يسمح لنا عند العودة بحمل وقود سيارات في الترام لمخالفة ذلك للنظم واللوائح والقوانين. ولما كنت أتحدث العربية فلقد تدخلت في النقاش بالقول بأننا سنجرب حظنا على كل حال.

أثار حديثي بالعربية دهشة الكمساري فسألني : «أتتحدث العربية؟ من أي البلاد أنت؟». لم أشأ أن أرد عليه ردا مباشرا فطلبت منه التخمين... بدأ يعدد البلاد الأوربية التي يحسبني منها فذكر النرويج وفرنسا وإيطاليا وألمانيا و... حتى نفذ صبري فتدخلت لإنقاذه وأخبرته أنني إنجليزي. أثار تصريحي له بموطني شهيته فصافحني وهو يهز يدي هزا. سأني إن كنت أعمل في السفارة البريطانية، ولما اعترفت بذلك بادر بسؤالي عن المكان الذي تعلمت فيه العربية. أخبرته بأني عملت لسنوات في خدمة حكومة السودان كإداري أولا ثم كقاض. عند ذكري لكلمة قاضي زاد اهتمام الرجل

بما أقول فقرب وجهه نحوي وسألني إن كنت قد عملت قاضيا في الخرطوم في أواخر الأربعينات. ما أن جاء ردا بالإيجاب حتى قال في حماس بين : «لقد تذكرتك الآن يا سعادة القاضي. ألا تذكرني؟ لقد أرسلتني وراء القضبان لسنوات ثلاث... ألا تذكرني وتذكر قضيتي؟ لقد قضيت أنت بسجني ثلاث سنوات بسبب خطبة ألقيتها على الناس وإثارتي لشغب عظيم في احتفال شعبي حاشد أمه عبد الرحمن المهدي في أم درمان... ياله من شغب عظيم ذلك الذي أثرته تلك الليلة! أذكر أنه في ذلك اليوم الذي عرضت فيه على محكمتك كانت القضية الأولي ضد تاجر يمني متهم بالتزوير... ثم كانت قضيتي... ألا تذكر؟»

بالطبع لم أتذكر (أو أصدق) شيئا مما قال به الرجل ، بيد أنه كان من الممكن أن يكون ما قاله صحيحا سوي أنني وجدت عسرا شديدا في تصديق قصة الثلاث سنوات، وخمنت أنها لا بد مبالغة مصرية معتادة. أثارت ذكري الخرطوم في نفس الرجل قدرا من التساهل نحونا. وفي تلك اللحظة توقف الترام أمام محطة الوقود...تنحي الكمساري عن طريقي وانحني أمامي في احترام بالغ وهو يقول : « وداعا سيدي. لقد كان لقاؤك يا سيدي مصدرِ سعادة كبيرة لي.»



من تاريخ أغاريق السودان

أنجلو كاباتو: أغريقي في السودان

تأليف: ج. ب. ماكرس وأندري ستانسن

تقديم: نشرت هذه المقالة (والتي نعرض هنا لجزء يسير منها) في مجلة دراسات السودان والتي تصدر من بريطانيا (العدد ٢١، صفحات ١٠ – ١٨، إبريل ١٩٩٨م)، وتحكي عن قصة حياة إغريقي هاجر إلى السودان في عهد حكمه التركي، وتقلب في أنواع من المهن مختلفة. وقصته تحكي أيضا قصة الوجود الإغريقي في السودان. والقصة تثير شجونا كثيرة عند أمثالنا ممن تعاملوا مع أغاريق السودان (من أمثال الصيدلي «ميخالي» في سوق الخرطوم ثلاثة قرب ميدان عبد المنعم، و«هايج» بائع الأحذية والملابس في سوق الخرطوم الأفرنجي وطبيب أسنان أنسيت اسمه) كانت له عيادة في مكان فندق مريديان الحالي وكانت جدتنا النعمة تتعالج عنده وتسميه «الغريغي».!

وصل أنجلوس هليا كباتوس والمعروف بأنجلو كاباتو إلى السودان في عام ١٨٨٣م وفارق الحياة في في١٩٣٧م عن عمر ناهز ثلاث وثمانين سنة (أخطأ المؤلف هنا فهو يقول لاحقا أن الرجل مات في نهاية ستينات القرن الماضي. المترجم). تقلب خلال سنين حياته في المهن فعمل بحارا وعميلا وصاحب كنتين (متجر/ مطعم صغير) ومقاولا للمشاريع الحكومية ومستثمرا ومضاربا في الأراضي ومزارعا وتاجرا يتاجر في الصمغ عربي وعاج الفيل. وفوق هذا وذاك كان من ركائز الجالية الإغريقية بالسودان ومن مؤسسيها وداعميها الأول.

تبين سيرة حياة كاباتو بجلاء كيف أن تاجرا إغريقيا يفتقر إلى المال (بيد أنه يحظى بالجواز البريطاني) قد استطاع استغلال الفرص الاقتصادية المتاحة لبناء عمل اقتصادي ضخم خاص به، وكيف استطاع أن يغدوا أحد أعمدة المجتمع. تتيح لنا قصة حياة الرجل بالإضافة لذلك فرصة للتعرف على التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي حدثت في السودان خلال النصف الأول من الحكم الثنائي، وعن نشأة جالية أجنبية قوية فيه.

سوف نتناول حياة الرجل من منحيين متداخلين. المنحى الأول هو سيرة حياة الرجل في سياق الحملة الحربية الطويلة والتي أدت إلى قيام دولة الحكم المصري البريطاني، وما تلى ذلك من نشوء وتطور الاقتصاد السوداني. والمنحى الثاني هو دراسة حياة كاباتو المهنية في سياق إنشاء ونمو الجالية اليونانية (الإغريقية) في السودان، وهي الجالية الأوربية الوحيدة التي استوطنت السودان بأعداد كبيرة وأضحت قوة اقتصادية ضخمة.

سيتم توسيع هذا المقال ليصدر في شكل كتاب يستند على مصادر عديدة أهمها مذكرات كاباتو والتي تضمنت معلومات قيمة عن تاريخه العائلي وحياته العملية والشخصية. شملت المصادر أيضا وثائق محفوظة في «دور الوثائق» في الخرطوم وأثينا ولندن ودريهام (دارم) ومقابلات شخصية مع عدد من أفراد الجالية الأغريقية في السودان وخارجه.

كاباتو رجل الأعمال:

بدأ كاباتو حياته العملية في السودان في مدينة سواكن عام ١٨٨٣م حين حط رحاله فيها كوكيل لشركة جون روس وشركائه ومقرها الرئيس في الإسكندرية. كانت تلك سنين اشتد فيها العمل الحربي في البحر الأحمر بعد احتلال بريطانيا لمصر وقيام الثورة المهدية في السودان، وازداد معها نشاط كاباتو التجاري كمورد للتموينات للجيش البريطاني ووحداته البحرية. جرت بعد سقوط الخرطوم في ١٨٨٥م محاولات لعزل النظام الجديد في الخرطوم، واستتبع ذلك تواجدا شبه دائم للجيش البريطاني حول سواكن. استغل كاباتو ذلك التواجد خير استغلال بفتح سلسلة متاجر صغيرة (كناتين) يقوم عليها تجار أغاريق لتلبية طلبات النقاط العسكرية المبثوثة في المنطقة. كانت أرباح الرجل من تلك التجارة عظيمة بالفعل، ولا غرو، إذ أن العقود مع الحكومة البريطانية كانت تصل أحيانا إلى ما يفوق المائة ألف جنيه إسترليني.

وعندما بدأ الجيش زحفه على امتداد النيل جنوبا بقيادة كتشنر تبعه كاباتو، والذي تخصص في توفير الأطعمة والمستلزمات الحياتية الأخرى للضباط البريطانيين. كانت الأرباح من ذلك العمل ضخمة، بيد أن الأخطار كانت كبيرة أيضا. وضح ذلك لكاباتو جيدا عندما تم سحب غالبية الجنود الأجانب عقب معركة أم درمان (كرري)، ووجد كاباتو نفسه يحتفظ بكميات مهولة من المنتوجات الكمالية الغالية الثمن التي لا يستطيع الجنود المصريين والسودانيين شراءها.

وفرت هزيمة جيش الخليفة في عام ١٨٨٩م للرجال الطموحين فرصا ذهبية للثراء. وكان لكاباتو نصيب كبير في عقود جلب المستلزمات المستوردة، وبعد الفتح زاد على نشاطه التجاري هذا تجارة أخري هي جمع وبيع العاج من جنوب السودان والصمغ العربي من كردفان، وصادق له لورد كرومور شخصيا على احتكار تجارة العاج لعامين أو ثلاثة في المديرية الاستوائية. وواصل كاباتو أعماله في كردفان وأعالي النيل والاستوائية مستعينا بعدد كبير من الأغاريق، ولعل أشهر هؤلاء كان ابن أخيه (أو أخته) جراسموس كونتومخلوص (كونتومخليس) والذي غدا فيما أقبل من أيام أغني تاجر أجنبي في السودان.

كسب كاباتو من أنواع تجارته الممتدة مالا كثيرا، ولكن إلى حين. كان الرجل مغامرا يعشق ركوب المخاطر العالية، مما أدي إلى تكبده لخسائر فادحة لم يستطع الإفاقة منها عندما أدارت له الدنيا ظهرها. فلقد هبت عواصف شديدة بين الشلال ووادي حلفا أغرقت له عددا كبيرا من المراكب المتجهة شمالا والمحملة بالصمغ والمراكب المتجهة جنوبا والمحملة بالملح وبضائع أخرى. لم تكن بضائعه مؤمن عليها، وبذا خسر الرجل بضائع قيمتها ٤٧٠٠٠ جنيها إسترلينيا. ولم يكد يفق من تلك الخسارة حتى التهمت النيران في بورتسودان ما قيمته ٣٣٠٠٠ جنيه إسترليني من البضائع ، وأعقب ذلك حريق آخر في مخازنه بالخرطوم (قيل إنه كان عملا إجراميا متعمدا) قضي على ما قيمته ٥٥٨٠٠٠ جنيه إسترليني، واستمرت مسلسلات الحرائق فأتى حريق في غندوكورو على مخزن له به ما قيمته ٤٧٠٠٠ جنيه إسترليني. قدر كاباتو خسائره في عام ١٩٠٦م وحده بما لا يقل عن ١٧٠٠٠٠ جنيه إسترليني، إضافة إلى ديون تراكمت عليه بلغت جملتها ١٨٥٠٠٠ جنيه إسترليني.

زاد الطين بله أن أن إغريقيا كان يعمل معه استولي على ١٥٠٠٠ جنيها إسترلينيا وفر إلى إثيوبيا حيث بدأ هنالك تجارة رائجة. كان كاباتو يحس بأن هنالك جهات كثير تعاديه وتريد له الإفلاس والخروج من السوق. استشعر مدينو كاباتو الخطر فمارسوا عليه ضغوطا هائلة اضطرته لإعلان إفلاسه في عام ١٩١٢م. بيد أن قريبه كونتومخلوص ورجل إنجليزي منحاه في عام ١٩١٤م قروضا ساعدته على الوقوف على قدميه والعمل من جديد في السوق كتاجر صغير هذه المرة. تارة أخرى عانده الحظ فخسرت تجارته المتواضعة أيضا، مما أضطر ابن أخته (أخيه) كونتومخلوص لمنحه راتبا شهريا قدره ٥٥ جنيها إسترلينيا. كتب كاباتو يقول أنه وافق على تلك المنحة انتظارا «لأيام أسعد»، بيد أن تلك الأيام السعيدة لم تأت أبدا!

كانت لكاباتو صفات عديدة سخرها لخدمة تجارته في سواكن ثم الخرطوم. كانت أهم تلك الصفات هي المهارة في العمل وتحمل المشاق والصبر عليها. كانت له قدرة عجيبة على الإتيان بحلول عملية للمشاكل التي كانت تتطلب الحلول العاجلة. ساهمت رغبته وقدرته على ركوب المخاطر في تنمية ثروته (وفي فقدانها أيضا). لا ريب إنه كان ليصبح أحد أكبر تجار السودان لو لزم جانب الحذر وانتبه لمقدار السيولة التي في حوزته.

كاباتو والجالية الإغريقية :

إن معلوماتنا عن الجالية الإغريقية خلال فترتي حكم التركية والمهدية - للأسف- محدودة جدا، رغم أن هنالك اهتمامًا الآن للبحث في هذا الجانب في القليل من الوثائق التي خلفها بعض تجار الأغاريق في منتصف القرن التاسع عشر. أنشأت اليونان لها قنصلية في الخرطوم في عام ١٨٧١م. ورد في صحيفة تصدر بالإغريقية في بدايات الحكم الثنائي أنه كان في السودان قبل المهدية ما لا يقل عن أربعة وخمسين رجلا إغريقيا لم يبق منهم بعد سقوط الخرطوم في ١٨٨٥م سوى سبعة فقط. وما أن حل عام ١٩٠٢م حتى كان بالخرطوم – حسب الإحصاءات الرسمية- ١٥٠ رجلا، وصار العدد ١٤٥٥ في ١٩٢٩م وزاد إلى ١٦٨٧ في عام ١٩٣٦م. عمل جل هؤلاء في صنوف متنوعة من التجارة.

من المفيد دراسة كيف أن عددا قليلا من تجار الأغاريق استطاعوا صعود السلم الاجتماعي وكيف أفلحوا في تأسيس طبقة «عالية» كان لها أثر كبير على «الطبقة المتوسطة» في السودان.

لا شك أنه كانت هنالك «طبقات» متعددة في أوساط الجالية الإغريقية بالسودان. ونستعمل هنا كلمة «طبقة» ليس بالمعني الاقتصادي أو السياسي المتعارف عليه، بل بمفهوم ماكس فيبر للمنزلة وسط المجموعة «status groups» ، بيد أنه من المهم أن ندرك أن أغاريق السودان لم يروا أبدا أنفسهم «كصفوة صفوة المجتمع» (crème de la crème)ولم يبلغوا في الثراء والجاه الاجتماعي مبلغ بعض عائلات أغاريق مصر الكبيرة. لم يسكنوا في الخرطوم في فلل كبيرة أنيقة ولم يمتلكوا آلاف الأفدنة من أخصب الأراضي كما فعلت بعض العائلات في مصر. وعدا كونتو مخلوص، فلقد كان معظم أغاريق السودان من «الطبقة العليا» في المجتمع وكانوا تجارا على قدر من الثراء، ولكن ليس أكثر من ذلك.

كانت للأغاريق في السودان ميزتين عظيمتين: أولاهما أنهم كانوا يوردون للجيش

البريطاني المؤن، وثانيهما أنهم كانوا كأوربيين أكثر حظا من اللبنانيين والسوريين والمصريين في نيل حظوة الحكام بحكم معرفتهم باللغة والتقاليد والعادات البريطانية. كانوا - كأفراد أو مجموعات - يمثلون للبريطانيين «الخبراء المثاليين» لانعدام أي طموحات سياسية لديهم. وبما أن الحكومة اليونانية لم تبد اهتماما كبيرا بأحداث السودان، فإنه كان لزاما على أولئك «الخبراء» الأغاريق العمل وفق ما تمليه الحكومة البريطانية عند حدوث «تضارب مصالح» من أي نوع. وهذا هو الفرق المهم بين وضعهم في السودان ووضعهم في مصر، والتي كان بها سفارة يونانية وكنيسة إغريقية أرثوذكسية نافذة وقوية.

هل يمثل كاباتو حال معظم الإغريق في السودان؟ لا شك أنه كان للرجل كثير من صفات المهاجرين الأوائل الذين قصدوا السودان. كان من أولويات الإغريقي عند وصوله للسودان واستقراره بعض الشيء في عمله التجاري أو دكانه أن يسعي لاستقدام صغار الأغاريق (خاصة من عائلته) من اليونان أو مصر للعمل معه. وكان الباعث على هذا هو ضمان وجود أشخاص يتكلمون بلسانه يأمنهم في الوظائف الحساسة كأمين المخزن أو المحاسب. وما أن يقضي القادم الجديد بضع سنين يتعلم أثناءها اللغة العربية العامية ويتأقلم على الأجواء العامة ويمهر في صنعته حتي يبدأ في التفكير في تجربة حظه منفردا في دكان في مكان ما في البلاد. والطريف أن هذه الخطوة من قبل المهاجرين الجدد عادة ما تحظي بمباركة رؤسائهم السابقين إذ أنهم سيعملون كتجار جملة يوردون لهؤلاء الصغار ما يحتاجونه ويمنحونهم ما يبدؤون به تجارتهم كقروض.

ما أن تمدد نمو القطاع الحديث بعد العقدين الأولين للحكم الثنائي حتى قابل الإغريق ذلك بتمدد نشاطهم في مجالات أخري كالمقاهي والمطاعم والمكاتب والعيادات، وأنشؤوا مدرسة خاصة بهم وناديين اجتماعيين. حصل معظم الأغاريق الذين قدموا في العشرينات والثلاثينات على وظائف كتابية وإدارية في الشركات والأعمال الإغريقية في الخرطوم. أدي ذلك لتوسيع الشقة «الطبقية» بين قدامي المهاجرين من التجار وبقية الأغاريق. انتمي كاباتو للطبقة الأولي (العليا)، لكن كساد تجارته وإشهاره لإفلاسه لم يساعداه على القيام بدور رئيس في أوساط الجالية الإغريقية بالسودان، بيد أنه ظل يقوم بدور ما مستفيدا من قرابته للثري كونتومخلوص. كان الفرق بين الرجلين عظيما. فبينما كان كاباتو مغامرا نشطا يفضل العيش في أجواء الفوضى والترقب، كان كونتومخلوص قد أتى للسودان وهو رجل متعلم منضبط كبير الهمة ومنظم جدا في أعماله.

بدأ بالعمل مديرا مع عمه (خاله) كاباتو وما لبث أن أفتتح له شركة تجارية خاصة صارت لها في وقت وجيز فروعا عديدة في كثير من المدن السودانية وفي القاهرة ولندن أيضا، وتزوج من إحدى حسان أثرياء الأغاريق في مصر. كان لكونتومخلوص اهتمام عميق بمجريات الأحوال السياسية في البلاد فأحسن «الموازنة» بين علاقة حميمة بحكام البلاد (علي الأقل حتى عام ١٩٣٦م) وأيضا بالسياسيين الوطنيين الذين كانوا يعملون لتحقيق تطلعاتهم الوطنية. شغل (شأنه شأن قريبه كاباتو) منصب رئيس الجالية الإغريقية بالسودان لعدة دورات، وكان دوره (كما هو متوقع) أبلغ من دور كاباتو في هذا الجانب، فلقد كان ينشئ الكنائس والمدارس ويدفع بسخاء من أجل إنشاء مقار للجاليات الإغريقية في أرجاء السودان.

اختلف وضع الأغاريق الآن بالسودان جدا، إذ لم يتبق منهم إلا نحو مائتين كلهم على الأرجح يقطنون الخرطوم. بدأت أعداد الأغريق في السودان في التناقص عند نهاية الستينات وبداية السبعينات (وهي السنوات التي مات فيها كاباتو وكونتومخلوص).

كتب كاباتو مذكراته وأكملها في عام ١٩٣٠م، وبلغ عدد صفحاتها ١٣٤ صفحة مطبوعة على الآلة الكاتبة. قام سارسفيلد مدير مديرية الخرطوم بإحضار تلك المذكرات لبريطانيا في عام ١٩٣٦م ، وقامت ابنته بإهداء المخطوطة لأرشيف السودان في جامعة درام في عام ١٩٨٣م، حيث حفظت تحت الرقم ٦٨٢/ ١٤X/

العلاقة بين الأغاريق والبريطانيين في السودان:

كان من الواضح أن كاباتو كان شديد الفخر بعلاقته مع البريطانيين قبل وبعد إعادة احتلال السودان. حفلت مذكرات الرجل بذكر أسماء العديد من القادة البريطانيين الذين كان يتعامل معهم، ولم يأتي بذكر لسوداني واحد. ولعله من الطبيعي أنه – كرجل أعمال ترتبط مصالحه التجارية بالحكومة- أن ينمي علاقة وثيقة بأركان الحكم في البلاد. نذكر هنا أنه في عام ١٩٠٧م وأثناء ثورة مصطفي كامل ضد البريطانيين في مصر، أمر اللورد كرومر وينجت باشا بالعمل على تدريب أغاريق الخرطوم تدريبا عسكريا حتى يشتركوا في إخماد أي تمرد قد يقع في السودان. استجاب كاباتوا – وكان حينها رئيسا للجالية الإغريقية – لذلك الأمر بفتح «نادي الرماة الإغريقي » «Greek Rifle Club»كمقر «آمن» يمكن أن تجري فيه تدريبات عسكرية سرية. تبين هذه الحادثة كيف أن كاباتو (ولعل معظم الأغاريق في السودان كذلك) كانوا يعدون أنفسهم من أشد أنصار وحلفاء البريطانيين المخلصين .

«الأغاريق البزراميط» في السودان الحديث

بقلم الكساندروس تاسكوس

تقديم: هذا عرض مختصر لفصل في كتاب «ربط الشمال بالجنوب»: دراسات حول السودان من بيرجن بالنرويج صدر في هذا العام (٢٠٠٩م) عن مركزي«Unifob Global » و«دراسات الشرق الأوسط والإسلام» على شرف السيد/ محمود صالح عثمان صالح بمناسبة بلوغه السبعين. في بداية الكتاب قدم المحرران (هنريت هافساس وإلكساندروس تاسكوس) عرضا سريعا للمساهمات العديدة والمشهودة لمحمود صالح (المولود في أم درمان في الرابع من يونيو ١٩٣٩) للثقافة والأدب في السودان رغم أنه عاش أغلب حياته خارجه. تفرغ السيد/ محمود بعد تقاعده من العمل التجاري في ١٩٩٤م لخدمة الثقافة السودانية، إذ أنشأ في عام ١٩٩٨م مركز ومكتبة عبد الكريم ميرغني، وساهم في نشر منشورات عديدة تتعلق بتاريخ السودان، وأهله كل ذلك لنيل الدكتوراة الفخرية في الآداب من جامعة الخرطوم في عام ٢٠٠٤م. تعاون السيد/ محمود مع جامعة بريجن والتي أودع مركزها الشهير الذي يعني بالدراسات السودانية مجموعة من الكتب المتخصصة في الدراسات السودانية عام ٢٠٠٦م.

الشكر موصول لبروفسير إبراهيم الزين صغيرون لإعارتي – بشروط ميسرة- هذا السفر القيم.

في الفصل الذي نتناول بعض جوانبه يتناول إلكساندروس تاسكوس طرفا من تاريخ «الأغاريق» في السودان من خلال حكاية قصة الإغريقية (البزرميطية) «نيانيا- با».

استهل الكاتب مقاله بعرض تاريخي سريع عن التعايش (الودي) والتداخل بين السودانيين والأغاريق في الخرطوم على مدي سنين طوال. وأشار إلى الاقتراح الذي قدمه له عند زيارته للخرطوم في ٢٠٠٨م صديقه محمد همام بأن خير معين له في دراسته ل«ظاهرة الأغاريق» في السودان هو محمود صالح، والذي وصفه بالرجل المحسن. أهدى المؤلف فصله لذلك المحسن.

يحدد المؤلف فترة «ظاهرة الأغاريق» بالفترة بين استقلال السودان (١٩٦٥م) واستيلاء النميري على السلطة في البلاد (١٩٦٩/ ١٩٧١م) في انقلابه «الاشتراكي». كان «الأغاريق» هم القوة (الأجنبية) المساندة لتحويل المجتمع السوداني من حاله «القديم» إلى حال «جديد»، فلقد شغلوا مناصب قيادية في القطاع العام، وسيطروا على مراكز إنتاج مهمة مثل مشروع الجزيرة، وأثروا تأثيرا ايجابيا على الاقتصاد الحضري في البلاد. وبالضرورة اختلط هؤلاء بطبقات اجتماعية «عليا» من السودانيين. بالطبع لم يعد السودانيون هؤلاء الأغاريق من «طبقة المستعمرين» رغم أنهم كانوا يسيطرون على الاقتصاد والحياة الاجتماعية في الخرطوم، حيث تتخذ القرارات السياسية الهامة.

لا ينبغي فهم أن «ظاهرة الأغاريق» كانت محصورة في الفترة التي ذكرناها آنفا، إذ أن الأغاريق كانوا قد نشطوا في الحياة السودانية منذ القرن التاسع عشر، وبدأت الجاليات الإغريقية في البلاد في التكوين في بدايات القرن العشرين، ليس فقط في الخرطوم، بل في المدن الكبرى في البلاد مثل أتبرا وبورتسودان ومدني والقضارف والأبيض وواو وجوبا، حيث سيطر الأغاريق على غالب النشاط التجاري في هذه المدن. استغل جزء من الثروات المتراكمة من هذا النشاط التجاري في ترقية حياة المجتمعات الإغريقية في تلك المدن وشمل ذلك بناء الكنائس والمدارس والأندية والمراكز الثقافية ودور السينما والقهاوي والمطاعم.

أشار المؤلف أن الأغاريق كثيرا ما لعبوا دور «الوسيط» بين المواطنين السودانيين والمستعمر البريطاني، واستفادوا كثيرا من هذا الدور، ومن بعض ما جنوه من لعب هذا الدور استفادت المجتمعات المحلية أيضا. وأوضح ما يكون هذا الدور كان في جنوب السودان. ففي مدينة واو مثلا كانوا يمثلون غالبية التجار. لقد بدأ «الجلابة» التجارة هنالك، بيد أن الأغاريق هم من وسعوا وطوروا هذه التجارة. ولا تتوفر كثير من الدراسات والوثائق عن تجارة الأغاريق في الجنوب نسبة لضياعها بسبب الحرب الأهلية التي اشتعلت بين الشمال والجنوب في أغلب سنوات تلك الفترة.

عرض المؤلف لحياة امرأة إغريقية (غير تقليدية) من واو اسمها فوتيني بولو – مايسترلي، وللروايات التي أدلت بها للكاتب عن نشاطها وسط الجالية الإغريقية في واو والخرطوم.

أجرى المؤلف مقابلته مع تلك السيدة في إحدى ضواحي الخرطوم ببيت ابنتها أريني؛ وكان معها زوجها عوض الكريم أحمد وثلة من إخوانها وأقربائها.

ولدت فوتيني عام ١٩٢٣م في أويل (التي تبعد نحو ستة وخمسين كيلومتراً من واو) لأب تاجر إغريقي هو سايموس بولس وأم سودانية هي فاطمة محمد ترجمان (من قبيلة الكرش القاطنة في منطقة راجا)، قضت سنواتها الأولي في تنقل دائم مع أبويها بين أويل ومدينة سيرسيس يوبيو على الحدود مع جمهورية أفريقيا الوسطي. عادت فوتيني إلى الخرطوم عام ١٩٣٥م للالتحاق بالمدرسة الإغريقية وأقامت لعامين كاملين مع أحد أقربائها (والذي كانت وظلت تكن له كرها عميقا). طردت من المدرسة الإغريقية في ١٩٣٧م إذ أنها كانت في الرابعة عشر من عمرها وكانت ما تزال في الصف الثالث للمدرسة الابتدائية (والتي هي الآن صالة الاحتفالات للجالية الإغريقية). لا يصدق الكاتب ما ذكرته فوتيني عن سبب طرده من المدرسة، ويشك أنه قد يكون بسبب سوء السلوك. قضت فوتيني الأعوام ١٩٣٧ – ١٩٣٩م في سنجة في منزل عمها ديميتري، والذي جمعها بأمها هنالك.

انتقلت بعد ذلك إلى عالم مختلف تماما لم تألفه من قبل، إذ سافرت لموطن أهلها الأصلي في أثينا باليونان. لم تعد للسودان إلا في عام ١٩٤٧م حيث أقامت في الخرطوم مع عائلة كارتوسنس. بعد ذلك ركبت باخرة نقلتها إلى جوبا، والتي منها انتقلت إلى مدينة سرسيبو على الحدود مع جمهورية أفريقيا الوسطي، حيث قضّت سنوات طفولتها وصباها الباكر، وتعد فوتينو سرسيبو أجمل مدينة عاشت فيها طرا. كانت تلك المدينة هي المدينة التي قابلت فيها عام ١٩٥٠م زوج المستقبل بانيوتوس مايسترلي أحد تجار بحر الغزال والذي كان يكبرها بثلاثين عاما كاملة. ظلت فوتيني مع زوجها وأطفالهما في ترحال دائم في بحر الغزال حتى وفاة زوجها في ١٩٦٨م.

رغم أن فوتيني، تلك المرأة الثرية صاحبة الأملاك والأموال مولودة لأم من المنطقة، إلا أنها كانت أكثر ولاء لعرق والدها ولثقافتها الأثينية، فكانت بعيدة بعض الشيء عن الاختلاط بالسكان المحليين، رغم أن المواطنين المحليين كانوا يسمونها تحببا نيانيا-با (المرأة الثرثارة).

عند اشتداد أوار الحرب الأهلية في الجنوب (١٩٥٥ – ١٩٧٢م) انتقل كثير من الأغاريق من مختلف مناطق الجنوب إلى مدينة واو طلبا للحماية؛ فرحلت فوتيني وعائلتها إلى واو عام ١٩٦٧م، حيث ظلت هنالك لمدة ثلاثين عاما من بعد ذلك. عملت في واو كعاملة نظافة في الكنيسة حتى عام ١٩٧١م. وفي ١٩٨٨ استولى المتمردون على مدينة سرسيبو على الحدود مع جمهورية أفريقيا الوسطي، واستولوا على ممتلكاتها هنالك.

عبّرت فوتيني عن غضبها من أثرياء الجالية اليونانية في واو والخرطوم لتقاعسهم عن مد العون لها حين كانت في حاجة للعون والسند. ويبدو أن الدم «الجنوبي» الذي يجري في عروقها وعدم الاعتراف بها كإغريقية حقيقية هو سبب غضبها إذ لم تحظ بمعاملة عادلة ومتساوية مع الآخرين من العائلات الثرية مثل عائلة كونت ميخلوص. حاولت الجالية الإغريقية ترحيلها لأثينا لوضعها في ملجأ للمسنين، بيد أنها رفضت وآثرت البقاء مع بنتها في بيتها بالخرطوم حيث ماتت في عام ٢٠٠٦م.

اعتبر الكاتب قصة فوتيني تعبر تعبيرا صادقا عن الجالية الإغريقية وتمسكها بأصولها وجذورها الوطنية، وبالأخص عن أولئك الأغاريق الذين اختلطت دماؤهم بدماء سودانية، وهم من يعرفون بالبزرميط. فمن هم البزرميط؟

البزرميط:

ليس هنالك من مثال ساطع على العلاقة المثمرة والتعايش الودود بين الأغاريق والسكان المحليين أكبر من الأعداد الكبيرة من نسل هؤلاء الأغاريق المهاجرين الأوائل الذين تزوجوا من السودانيات. لقد أتوا زرافاتنا ووحدانا إلى السودان كتجار وعمال ومستثمرين ليعمروا الأرض الشاسعة البكر بعد أن ضاقت بهم بلادهم مع تكاثر أعدادهم. أتى معظم هؤلاء وهم عزاب، ليجدوا في أرض السودان (خاصة الجنوب) ليس فقط فرصا واسعة للنشاط الاقتصادي، بل أيضا للحب والزواج وتكوين اسر. نشأت على الأقل خمسة أجيال من أصلاب الذين اختلطت دماؤهم الإغريقية بالدم السوداني. آب معظم هؤلاء لديارهم الأصلية بعد ضاقت عليهم أرض السودان بما رحبت، بسبب الحروب والمجاعات وغيرها، وكانت «قوانين سبتمبر» الصادرة في عهد نميري عام ١٩٨٣م هي قاصمة الظهر لمن تبقى من هؤلاء الأغاريق، إذ أن معظم هؤلاء كانوا يشتغلون ببيع الخمور، ويجنون من ذلك الربح الوفير. يعتبر كثير من الأغاريق أعوام الثمانينات أعواما سوداء قطعت فيه أرزاقهم ودفعتهم دفعا لمغادرة البلاد. بيد أن هنالك استثناءات قليلة. فمثلا بقي أحدهم يحرس كنيسته في مدني حتى عام ٢٠٠٢م، وظل آخر بعائلته في القضارف، بينما بقي بعض الأفراد في واو ولهم كنيستهم الخاصة.

يختلف أغاريق اليوم كثيرا عن الرعيل الأول من المهاجرين، فلقد اختلطت بدمائهم دماء جديدة، بل واعتنق بعضهم دينا غير دين آبائه.

لا زال كثير من الأغاريق الذين رجعوا لليونان بعد قضاء سنوات طويلة في السودان يطالبون بتعويضهم عن خسارتهم جراء القوانين والممارسات التي حدثت في

البلاد. ويعارضهم في ذلك الذين قبضوا على الجمر وبقوا في البلاد تحت ظروف قاسية من شظف العيش، ومن هؤلاء فوتيني تلك «المرأة الثرثارة»، والتي بلغ من حبها للسودان أن رفضت – كما تقدم- عرضا بالسفر إلى اليونان والبقاء في بيت للمسنين هناك، وآثرت أن تبقي بالبلاد وتلقى مساعدة من أفراد الجالية اليونانية بالسودان لا تتعدي الخمسين دولار شهريا. وحتى هذه «المكرمة» لم تكن لتنالها إلا بفضل وجود «بزرميط» في لجنة الجالية التي تقرر في شأن هذه المنح. كان أمر تحديد من هو «الإغريقي» حقيقة أمرا ليس بالسهل، فهو أمر يرتبط بالأصول الإغريقية والديانة المسيحية الأرثوذكسية والدراسة في مدارس الأغاريق وغير ذلك. كانت تلك هي معضلة فوتيني الحقيقية في أثبات «إغريقيتها» وهي البزرميطية!

ختم المؤلف مقاله بالقول بأنه عاش وسط أغاريق الخرطوم لخمسة أعوام كاملة، حاول فيها إنشاء أول مركز ثقافي إغريقي، وتوصل إلى قناعة أكيدة مفادها استحالة تعايش الأغاريق الخلصاء والأغاريق البزرميط.

يبدو أن داء الخلاف (الأزلي) بين الشعوب والقبائل السودانية قد أصاب أيضا (بحكم المعاشرة الطويلة اللصيقة) الأغاريق الذين قطنوا السودان!



الإغريقي نيكولاس الذي أحب الخليفة

جراسيموس ماكرس

هذا عرض ومختصر لما كتبه جراسيموس ماكرس في مجلة «دراسات السودان» (٢٠٠٨م) التي تصدرها في بريطانيا جمعية الدراسات السودانية، عن أحد الإغريق (الأغاريق) أسمه نيكولاس ب جاء للسودان في بدايات الثورة المهدية وكان له -كما بدا من مخطوطة مذكراته التي عثر عليها مصادفة جراسيموس ماكرس- في المهدي وفي خليفته عبد الله التعايشي رأي مغاير ينحو - خلافا لما هو متوقع- نحو الحب والتعاطف. وفي هذا الجزء يصف الكاتب بعضا من صور الحياة في أمدرمان في تلك الأيام.

كنت – بدافع الجهل ليس إلا- أوقن بأن كل من شاء حظهم (العاثر) من البيضان الأوربيين أن يقعوا في أسر المهدي ومن بعده خليفته عبد الله التعايشي، كانوا للمهدية وحكمها من الكارهين... وزاد من هذه القناعة ما قرأناه في كتب هؤلاء القوم ومذكراتهم عن بؤس الحياة وسوء المعاملة وقسوة الأوضاع التي كانوا يكابدونها وهم قيد أسر أولئك « الوحوش البرابرة»، مثلما جاء في كتاب سلاطين باشا الأشهر «السيف والنار في السودان» وكتاب «سجناء المهدي» لمؤلفه بايرون فار ويل و«الدرويش» لفيليب وارنر و«أم درمان» لفيليب زيقيلر....وغيرها. بيد أنه تصادف أن وقع في يدي مقال في مجلة «دراسات السودان» صدر في عام ٢٠٠٨م عن جمعية الدراسات السودانية ببريطانيا سطره قلم جراسيموس ماكرس عن أحد الأغريق (الأغاريق) كان له في الخليفة عبد الله رأي مغاير ينحو – خلافا لما هو متوقع- نحو الحب والتعاطف... وكان أول ما خطر لي وأنا أقرأ عن تعاطف الرجل وحبه لآسره هو : أتري كان ذلك الجب والتعاطف هو ما يحس به بعض المخطوفين والأسرى تجاه خاطفيهم (ويسمونها في الغرب «متلازمة ستوكهولم»، ويفسرها علماء النفس بأنها تنشأ مع لحظة الميلاد الأولى وفيها يرتبط المولود عاطفيا بأقرب بشخص بالغ ليجد عنده الحماية والرعاية والأمان)... فلندع ذلك للمتخصصين...

ترك الإغريقي ب. نيكولاس لأحفاده في أثينا مخطوطة مذكراته التي فاق عدد صفحاتها ثلاثمائة صفحة عن حياته في أسر المهدي وخليفته من بعده عبد الله

التعايشي. وجدير بالذكر أن الكاتب ما كان له (وللعالم) أن يعلم عن هذه المذكرات إلا بعد صاهر عائلة ب. نيكولاس... فأنعم بها من مصادفة سعيدة ونسب معتبر!

قصة هذا الإغريقي تصلح – في نظري العليل- كشريط سينمائي تحشد له عمالقة الفن السابع من كل حدي وصوب ففيها كل عناصر الدراما والتشويق والإثارة وعبق التاريخ (وهو حمال أوجه)!

خلص الكاتب أن نيكولاس قد توخي الإنصاف للمهدية وقادتها (خلافا لما هو متوقع من إغريقي يعيش في كنف المستعمر البريطاني) فأتتْ مذكراته متزنة منصفة. كانت أعداد الإغريق في عهد الحكم البريطاني تتزايد باضطراد حتى بلغ عددهم نحو سبعة آلاف في الخمسينيات. وعمل معظهم بالتجارة وأثروا ثراء عظيما. بيد أنهم لم يكن ليخادعون أنفسهم بأن لهم في السودان نفس مكانة البريطانيين والأوربيين الآخرين، بل لقد لقبوا على سبيل التبخيس بالعرب البيض!

بدأ نيكولاس مذكراته بالحديث عن رحلته من جزيرة ساموس اليونانية إلى ميناء سواكن على البحر الأحمر، ورحلته في شهري مايو ويونيو ١٨٨١م إلى الخرطوم، ولم يكن عمره يتعدي آنذاك الحادية عشر ربيعا. كان أهله قد بعثوا به للسودان للتعافي من مرض كان قد ألم به، وكان من المأمول أن يؤوب لموطنه فور تماثله للشفاء، إلا أن قيام الثورة المهدية قضي على تلك الخطة العائلية... وقضى أمر الله أن يظل الرجل وأبناؤه وأحفاده في السودان لمائة عام أو تزيد.

بعد أن وصف نيكولاس رحلته من سواكن للخرطوم قام الرجل بتقديم وصف تفصيلي عن الإغريق المتواجدين في السودان في عام ١٨٨١م. بلغ عددهم ١٩٣ فردا منهم ١٣٢ في الخرطوم وحدها، وكانوا يمتلكون ويديرون المحلات الخمسة الكبرى في الخرطوم وغالب مخابزها وبقالاتها الصغيرة. وتخصصت محلاتهم في بيع التبغ والخمور والحلوى والأجبان والخبز. بالإضافة لذلك كانوا يديرون أربعة قهاوي. لا حظ نيكولاس أن الغالبية العظمي من الإغريق في السودان كانوا يعملون بالتجارة الحرة، ولم يلتحق منهم بخدمة الحكومة إلا النفر القليل. اتخذ كبار تجار الإغريق في الخرطوم وكلاء لهم من بني جلدتهم يديرون أعمالهم في الأقاليم.

أفاض نيكولاس في وصف ما أعقب معركة استيلاء جيش المهدية على الأبيض يوم الجمعة ١٩/ ١/ ١٨٨٣م، ووصف معاملة المهدي لمن أسرهم من الأجانب باللين والرفق. ذكر الكاتب أسماء خمسة من الإغريق (سماهم بأسمائهم كاملة) قال إنهم لعبوا «دورا بارزا» في تلك المعركة (دون الإفصاح عن ذلك الدور البارز). أمر المهدي

بجمع المسيحيين من السوريين والإغريق والايطاليين (وكانوا قساوسة وراهبات). وكان من بين السوريين تاجر اسمه جورج إستانبولي ومعه زوجه وأطفاله الخمسة استسلم مبكرا للمهدي فكافأه بعدم المساس بممتلكاته في المدينة، بينما صودرت ممتلكات الآخرين وضمت لبيت المال كغنائم حرب.

وصف نيكولاس في صفحات ثلاث صورا تكاد تنطق بالحياة للقاء المهدي بأسراه من الإغريق والسوريين وخطبته فيهم التي طالبهم فيها بالتخلي عن ديانتهم والدخول في الإسلام. رحب بهم في بداية اللقاء وأخبرهم أنه لا يلومهم ولا يحملهم أي مسئولية «عما حدث». وقال : إنه يعلم أنهم مسيحيون بيد أنهم جاهلون بالإسلام ولا يعلمون عن تعاليمه التي تبشر بظهور المهدي. لذا فهم معذورون في عدم تصديق ونصرة المهدي ساعة ظهوره. طلب منهم النطق بالشهادتين حتى يتسنى لهم الانضمام لركب المهدية والظفر بجنة الخلد برفقة المؤمنين. أكد لهم المهدي أن المهدية لا تهدف إلا لنشر الإسلام وإدخال اليهود والنصارى في دين الله، وبشرهم بأنهم هم السعداء لأنهم دخلوا الإسلام قبل جماعتهم الآخرين.

أمرهم في نهاية الخطبة بأن يرددوا خلفه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وأضاف أيضا: ومحمد أحمد المهدي خليفة رسول الله. ردد الأسري الشهادة فباركهم المهدي وتمنى لهم كل خير وأخذ منهم بيعة الولاء للمهدية، ثم أطلق كل واحد منهم اسما جديدا كان عليه استعماله منذ تلك اللحظة. وأمر بصرف قليل من المال لكل واحد منهم لشراء زي «مهدوي» وبيت في «الديم». لم يك سعر المنزل يتعدي ٥٠ أو ٦٠ قرشا إذ أن كل المنازل كانت مبنية من الخشب والسعف. أمر المهدي أيضا أمير بيت المال بصرف راتب شهري قدره ١٥ ريالاً لكل فرد من الأسري لمقابلة احتياجاته حتى يجد له عملا يرتزق منه.

لابد من الإشارة هنا إلى أن الأسرى لم يتم ختانهم إلا بعد مرور سنوات على ذلك اللقاء. فلقد أمر الخليفة عبد الله في عامي ١٨٩١م و١٨٩٢م بختان كل الأسرى، وعهد بتلك المهمة للحلاق حسن ناني. واستغرقت فترة البرء والنقاهة من تلك «العملية» ثمانية أيام عند الصغار وعشرة إلى اثنى عشر يوما عند الكبار.

في موضع آخر من مذكراته أشار نيكولاس إلى اللقاء الثاني للمهدي مع أسراه من الذكور. أخبرهم المهدي في ذلك اللقاء أولا أنه وبمقتضي الشرع الإسلامي فلا يجوز أن تظل الراهبات دون زواج، وثانيا أنه يفضل أن يتم زواجهن من النصارى الذين تحولوا للإسلام حديثا وليس من بقية المسلمين. عين المهدي الشيخ الهرم الفكي عبد

العزيز لمباشرة إجراءات تزويج الراهبات ولتعليم الأسري النصارى بعضا من تعاليم الإسلام مثل كيفية الوضوء وقراءة بعض قصبار السور القرآنية. عبر الأسرى عن عظيم امتنانهم وتقديرهم للمهدي وقبلوا عرضه شاكرين. كتب نيكولاس أن المهدي كان تحت ضغط قوي من رجاله الذين كانوا يرغبون في نكاح أولئك الرهط من الراهبات، لذا قال لهم إنه يفضل أن ينكحهن للنصارى الذين تحولوا للإسلام حديثا. لم يفسر نيكولاس في مذكراته موقف المهدي في هذا الأمر، بيد أن مرد موقفه هذا قد يكون عاطفة حقيقية نحو أولئك الأسرى، أو انتهازية سياسية لكسب ودهم، أو لدرء احتمال تعريض أمن جيشه ومعسكره للخطر عند تزويج أولئك النسوة لأمراء الجيش وقواده.

ما أن صرف المهدي الإغريق الأسرى ووجدوا أنفسهم بمنجى من أذن وعين الرقيب حتى خاطب عبد الله (ديميتريس سابقا) زملاءه قائلا :« إن هذه المخلوقات الضعيفة ... عرائس اللورد عيسي أمانة في أعناقنا يجب علينا حمايتها بكل ما لدينا من قوة حتى يمن الله علينا بالحرية». طالبهم بالتفكير مليا وعدم الإقبال على الزواج من أي واحدة منهن إلا إذا ضمن أنه سيسيطر على نفسه ولن يلامس الزوجة «الراهبة». اقترح الإغريق أن يتولي السوريون والقساوسة تلك المهمة (إذ إنهم كانوا على نفس الملة الكاثوليكية). قبل القساوسة تلك المهمة بيد أنهم أشاروا إلى أن هنالك عدد قليل من الراهبات سيبقى بعد أن يتم تزويجهن للمتطوعين. التفت عبد الله (ديميتريس سابقا) نحو السوريين والذين سارعوا بالقول أنهم يرحبون بالتطوع بيد أنهم لا يستطيعون ضمان السيطرة على أنفسهم عند إتمام زواجهم من الراهبات. عند ذلك تقدم أحمد ترمباس وآدم كوكوريمباس وإدريس بيلايتس للزواج من ثلاث راهبات، وبقيت ثلاث أخريات وجدن في نهاية المطاف من يقبل بالزواج منهن.

نقل خبر توزيع الراهبات على الإغريق إلى الفكي عبد العزيز فبارك الزواج الميمون، ونقل الخبر إلى المهدي والذي أعاد تذكير الفكي بضرورة معاملة أولئك «المؤلفة قلوبهم» بمزيد من العطف والحنان، وأكد له أنه لا يود سماع أي مظلمة أو شكوى من أحد منهم.

قسمت الراهبات كما يلي: كانت الأم سيوبيبور تريزا من نصيب عبد الله (ديميتريس سابقا) والذي تجب الإشارة إلى أنه لم يستطع «حماية» الراهبة طويلا! بينما تزوج أحمد ترمباس من كاترينا ونجح في السيطرة على نفسه و«حمايتها» إلى حين «استرداد» السودان وبذا استحق وسام إمبراطور النمسا فرانسيس – جوزيف. تزوج

إدريس بيلايتس من فرشيونا و«حماها» حتى توفي في أثناء حكم المهدية. وفشـل إيـدرو في «حماية» من زوجوه إياها وكان اسمها كونتستا، وماتا قبـل عـام الفـتح في ١٨٩٨م. تزوج جوزبي من بتينا ومارجريتا ولم يمسسهما حتى أطلق سراحهم جميعا في ١٨٩٣.

لم يتطرق نيكولاس في مذكراته لتفاصيل الحيـاة الخاصـة لمـن تزوجـوا غـير روايـة القصة التالية: أتي الخليفة عبد الله يوما لزيارة منازل العرسان الجـدد لتقـديم التهـاني والتبريكات. ولسوء حظ العرسان تصادف أن كان خدمهم مـن الرقيـق قـد أوشـكن على الانتهاء من صنع البيرة المحلية (المريسة). ما أن سمعن أصوات الرجال في موكب الخليفة وهو في طريقه للدور حتى أصابهن الفزع فدلقن المريسـة في حفـر المـراحيض. فاحت رائحة المريسة وملأت المكان فتصايح من كانوا مع الخليفة مطالبين بإنزال أشـد العقاب بالفاعلين. هنا وقف الخليفة مهدئا ثورة الغاضبين وقـال لهـم: هـل أتينـا هنـا لنهنئ العرسان الجدد أم لهداية من دخلوا في الإسلام حديثا أم لنبحث عن المريسة؟»

أشار نيكولاس إلى قصة أخري ذكر فيها أن المهدي طالب القساوسـة بالـدخول في الإسلام اسميا والحرص على إعلان ذلك أمام أتباعه وقال لهـم: «يمكـنكم الإيمـان في دواخل أنفسكم بما تشاؤون فلن نشق قلوبكم». يثبت هذا (في نظر المؤلف) أن النظام أثناء فترة المهدي كان متسامحا وعمليا فيما يتعلق بالأسرى المسيحيين.

لفت نظر نيكولاس أن المهدي لم يكـن لينظـر لكـل الأسـرى لديـه نظـرة واحـدة كمجموعة من الكفـار، بـل كـان يفـرق بـين الإغريـق والسـوريين مـن جهـة، وبـين القساوسة الإيطاليين من جهة أخرى. وكان يفرق أيضا بين الإغريق والسوريين. كـان المهـدي يـرى أن الإغريـق «مجـرد تجـار» لا يتحملـون أي مسـؤولية تجـاه التطـورات السياسية والاجتماعية التي حدثت، وكانـت تلـك دومـا هـي نظـرة السـودانيين تجـاه المستوطنين الإغريق. تعلق الإغريق بتلك الفكرة، بيد أنها لم تترجم أبـدا إلى واقـع ماثـل. تساءل نيكولاس عن السبب الذي به يظن المهدي أن الإغريق هم «مجرد تجار» بينما يعلم الجميع أنهم كانوا ضمن القوة المدافعة عن الأبيض إبـان هجـوم جـيش المهـدي عليهـا. تتعقد الصورة أكثر عندما تمر الأيام ويتضح أكثر دور التجار الإغريـق في حملـة «اسـترداد السودان» عام ١٨٩٨م، وعن علاقتهم مع السلطات الاستعمارية فيما يقبل من أيام.لقـد كانت أيدلوجية الحياد و«نظافة اليـد» عنصـرا مركزيـا في الصـورة الذهنيـة للمسـتوطنين الإغريق، رغم أنه من العسير موائمة ذلك مع التطورات السياسية.

علي وجه العموم يرسم نيكولاس بصورة إيجابية للمهدي وحركتـه، خاصـة عنـد مقارنته بالحكم التركي، والذي كرهه السـودانيون لطغيانـه واسـتبداده. ففـي صـفحة

١٧٨ من المذكرات يصف نيكولاس موقفا للخليفة عبد الله حدث بعد زمن قصير من قضاءه على تمرد الخليفة شريف. يقول نيكولاس أن الأنصار كانوا قد درجوا على إظهار عدم الاحترام للمصريين والأتراك والسوريين والأوربيين الذين أدخلوا/ دخلوا في الإسلام. فلقد كنوا ينادون حتى من يعرفون أسمه بألفاظ مسيئة من شاكلة «يا غنيمة» أو «يا ود الريف» أو «يا قاقراوي؟ »، بل ويرددون أمامهم أغنية فيها مزيدا من الإساءة والتحقير. كان الأجانب يكرهون على وجه الخصوص مناداتهم بأولاد الريف لأنها -كما فهموا- تنطوي على معنى مبطن يفيد الجبن والخنوع.

وقف الخليفة يوما بعد نهاية إحدى الصلوات في الناس خطيبا وقال للناس فيما معناه: أيها الأخوان: «منذ اليوم سيكون كل الأنصار أسودهم وأبيضهم أخوة متحابين. ليس لأحد من ميزة أو فضل على الآخر. أنني أمنع أي فرد فيكم نهائيا من التفوه بكلمات من أمثال «ود الريف» أو غيرها، ومن يعص أمري فسوف ينال العقاب الشديد. من لم يكن في عروقه دم من «الريف» فهو عبد.» برر نيكولاس مقولة الخليفة الأخيرة بأنه يظن أن الخليفة يقصد أن السودانيين أصولهم عربية (أي من «الريف»). منذ تلك الساعة توقفت الإساءات وصار الأنصار من غير السودانيين ينادون بكلمات مثل « الأخوة» أو بأسمائهم مجردة.

رغم أن نيكولاس كاتب المذكرات يورد ما قاله الخليفة دون أن يعلق عليه ودون تشكيك في مراميه، فإن جراسيموس ماكرس يري أن الخليفة لم يظهر هذا التسامح واللطف مع الأجانب بسبب طيبة قلبه، بل لأنه أراد تقليل فرص الاحتكاك والتوتر في عاصمته خاصة وأن الوضع العام فيها لم يكن مستقرا تماما. كان الكاتب يعتقد أن نيكولاس لم ير شيئا فيما قاله الخليفة يفهم منه غير ظاهر ما قال. كان نيكولاس على قناعة بأن الخليفة «يحب» أسراه من الأجانب. يعود نيكولاس لذات الموضوع بعد خمسة وعشرين صفحة من حديثه عن الخليفة، وفي هذا الجزء من المذكرات يذكر نيكولاس بعضا من جوانب العلاقة بين الخليفة وإدارة حكم المهدية من جهة وبين الأسرى من جهة أخري.

مرة أخري يكرر نيكولاس (فيما يشبه البرمجة المنظمة فيما يقول جراسيموس ماكرس) رأيه في أن الخليفة محب للأسري خاصة الإغريق والإسرائيليين (هل يقصد اليهود؟) والسوريين، ويكن حبا خاصا للإغريق، وهو يعامل أسراه من المصريين الأتراك بعطف خاص. أشار نيكولاس إلى أن الخليفة كان شديد الحرص على إظهار هذه المشاعر الطيبة لجموع الأنصار في مرات عديدة. قام الخليفة خطيبا بعد إحدى

الصلوات فقال ما يفيد بأن الأسري من المصريين والأتراك هم خير من بعض السودانيين، إذ أن أسوأ ما يمكن لهؤلاء الأسري أن يفعلوه هو محاولة الهروب من أمدرمان واللحاق بأهلهم في وطنهم الأم، بيد أنهم لا يفكرون البتة في إيذاء حكم المهدية. ولكن انظروا لأعداء المهدية من السودانيين... من تلك القبائل التي تحارب المهدية وليس لديها من هدف سوى القضاء المبرم على دولة المهدية». يقول نيكولاس كاتب المذكرات: أليس هذا هو أعظم تعبير عن الحب؟ أشار نيكولاس إلى شاهد آخر على حب الخليفة للأسري هو أن كل من يخاطب الخليفة من السودانيين كان يلزم بأن يطأطئ رأسه وألا ينظر للخليفة في عينيه وهو يخاطبه، بيد أن الأجانب من السوريين والإسرائيليين (؟) والإغريق لم يكن يلزموا بذلك الأمر.

يصف نيكولاس موقفا آخر للتدليل على حب الخليفة لأسراه وهو أنه وبعد صلاة العيد فلقد كان الخليفة يجلس قرب المحراب وهو محاط بالأسرى الأوربيين وسط العلماء والقضاة، وينتصب واقفا لحظة دخول الأسرى ويحيهم قبل أي قادم آخر، ويتبادل معهم التحايا والتبريكات المعتادة ثم يبدأ الحديث معهم مبتدئًا بأكبرهم سنا. في أحد المرات وفي حضرة مجلس الخليفة قام أحد الأسرى الإغريق (و اسمه جورج كو...كس؟) بالحديث مع جار له بلغته الأم، فانتهره أحد الأمراء وبعنف بائن. هنا تدخل الخليفة وطلب من الأمير أن يدع الأسرى يتحدثون بلغتهم إن شاءوا والتفت إلى الأسير الإغريقي وقال له ما معناه: «إنني واثق من صفاء قلبك وحبك الجم لي»، ثم التفت إلى الأمراء والقضاة والكبراء وقال لهم: «هؤلاء الناس تجار وأجانب وليسوا موظفين (في الحكم السابق) ولهذا فإنني أثق فيهم وأحبهم». كتب نيكولاس أن الخليفة كان يتوقع بالطبع أن يحذو جميع من كان في المجلس حذوه. ولزيادة التدليل على تسامح الخليفة مع أسراه ذكر نيكولاس أن أحد عواجيز الإغريق (واسمه اف أيسدور) كان لا يستطيع بسبب المرض القيام بحركات الركوع والسجود في الصلاة. طمأنه الخليفة بلطف أن بإمكانه الجلوس أثناء الصلاة تماما كما يفعل في داره.

يكتب صاحب المقال جراسيموس ماكرس أن هذه القصص التي رواها نيكولاس عن تعاطف الخليفة مع أسراه من الأجانب (خاصة الإغريق) ربما تكون «رسائل سياسية» موجهة لجماهير الأنصار. بيد أن الأمور أخذت بعدا آخر حين كان هؤلاء الأجانب يقفون أمام المحاكم في مواجهة السودانيين الأصليين عند حدوث منازعات بينهم في أمور التجارة وغيرها. كان القضاة يقفون مع الأجانب (حتى عندما يكونون مخطئين) وينصحون المتقاضيين السودانيين بالتنازل عن دعاويهم بذريعة أن هؤلاء أجانب وحديثي عهد بالإسلام ويجب التغاضي عن هفواتهم. ختم نيكولاس مقولته

بالقول أنه ما من أحد من الأجانب تمت إساءة معاملته أثناء حكم الخليفة عبد الله. لعل الخطأ الوحيد الذي اقترفه الخليفة هو عدم السماح لهؤلاء الأجانب بالأوبة لمواطنهم الأصلية.

بعد فترة قصيرة من إعدام الخليفة لإبراهيم محمد عدلان في ٢١ فبراير ١٨٩٠م، وبعد القضاء على حركة الخليفة محمد شريف كرار والأشراف في نوفمبر ١٨٩١م ظهر في أم درمان ثلاثة من الأوربيين محاطين بثلة من الأنصار المسلحين. كان أحد هؤلاء الأوربيين رجلا ممتلئ الجسم يضع على رأسه طربوشا أحمرا. لم يكن واضحا تماما للأسري الإغريق إن كان هؤلاء الأسرى الجدد هم مثل الإغريقيين من جزيرة كريت الذين تم أسرهما قبل شهور، أو أنهم مجرد رحالة. مثل الأسري الجدد أمام الخليفة وسط عدد كبير من الأنصار الذين كان يهتفون في وجوه الأوربيين: كفار كفار كفار. اتخذ الخليفة مجلسه على عنقريب ضخم أمام باحة بيته وأمر بإحضار مقاعد للأسري.

هرع ديمتري كوكابورس (وأسمه الجديد هو الأمير عبد الله ديمتري) وجورج كلامانتوس (واسمه الجديد جابر جرقي الأنصاري) إلى المسجد لرؤية الأسري الجدد قبل أن يقابلوا الخليفة وذلك لتقديم النصح لهم فيما يتعلق بكيفية الإجابة على أسئلة الخليفة. ليس من الواضح إن كانا قد استطاعا مقابلة الأسرى. عند مقابلتهم للخليفة سألهم إن كانوا يودون أن يطلق سراحهم وأن يؤوبوا لوطنهم فأجابوه في إصرار بأنهم ما أتوا إلا للانضمام له وخدمة الدعوة المهدية. فرح الخليفة بهذا الرد وقال لم حوله: «ألا ترون يا أحبابي. لقد هجرنا اثنين منهم ...والآن رزقنا الله بثلاثة». كان الخليفة يشير إلى هروب اثنين من الأسري الأوربيين هما جيسي وبول.

رغم إجابة الأسري الجدد فلقد أصر الخليفة على مواصلة الاستجواب فعرض عليهم أن يرسلهم لأوطانهم عن طريق مصوع وكانت تحت سيطرة الإيطاليين. أصر الأسرى على موقفهم وقدموا بيعتهم للخليفة فصرفت لهم جبب مرقعة وبعض المال. ذكر نيكولاس أن عرض الخليفة للأسري بإرسالهم لأوطانهم عبر مصوع كان حيلة بالغة الذكاء لمعرفة إن كان هؤلاء الرجال مجرمين هاربين من عدالة السلطات المصرية التركية. فإن كانوا كذلك فإن الخليفة كان سيقوم بمعاقبتهم بنفسه. ذكر نيكولاس (في ود شديد للخليفة) أن الخليفة لم يكن ليؤوي مجرمين هاربين، فحكمه كان «من أجل أناس يمتازون بالطيبة ويحترمون القانون». دعنا لا ننسى أن مذكرات نيكولاس كتبت بعد «استعادة» السودان في ١٨٩٨م.

تبين فيما بعد أن الإغريق الثلاثة أتوا من حلفا وأنهم رجال أشرار متبطلون قرروا في لحظة طيش أن يسافروا لأم درمان عندما قال لهم أحدهم (وأسمه ديمتيرو) أنه من معارف الخليفة عندما كان في بربر. ويبدو أن «الخلفاء» تشابهوا عليه فلقد خلط بين الخليفة عبد الله وبين تاجر في بربر يحمل نفس الاسم!

لم يكن الخليفة عبد الله يرغب في إطلاق سراح أسراه والسماح لهم بالعودة لأوطانهم لأسباب عديدة منها أن وجود أجانب (صاروا «مسلمين وأنصار») في أم درمان يؤكد الانطباع الذي تعطيه المهدية عن نفسها من أنها حركة عالمية لا تحصر نفسها في موضع جغرافي ضيق ولا تخص عرقا أو أعراقا بعينها، وأن وجود الأسرى الأجانب الذين يحسن الخليفة معاملتهم يظهر الخليفة بمظهر الرجل التقي الذي يشفق على رعاياه ويعطف عليهم ويخص بالمودة الأوربيين الأجانب من «المؤلفة قلوبهم» حسب مقتضيات الشريعة. كان الخليفة أيضا يعتقد أن وجود الأسرى الأجانب قد يكون له في المستقبل فائدة ما.

هل كان الخليفة «يحب» أسراه الأجانب كما ذكر نيكولاس غير مرة؟ أكان تصرفه حيالهم من باب التقوى الدينية أم الاعتزاز القبلي أم النخوة والشهامة أم هي نزعة عملية أم هي دهاء وحكمة سياسية أم أنها نظرة بعيدة ثاقبة؟ أكاد أجزم بأن كل تلك العوامل كانت تصطرع في عقل الخليفة عبد الله وهو يتعامل مع الأسرى. لقد كان الخليفة دوما يشك في إمكانية «نكوص» الأسرى وتعاونهم مع العدو. في أحد أيام ١٨٩٧م استدعى الخليفة عبد الله على عجل الأسرى الأجانب. أجلس الخليفة بالقرب منه قاضي الإسلام أحمد علي. كانت تلك دعوة غريبة ويزيد من غرابتها وجود القاضي. ملأ الرعب قلوب الأسري. قابل الخليفة الأجانب بالتحايا الطيبة وكان ودودا ولطيفا (أكثر من المعتاد). بعد ذلك دلف الخليفة إلى سبب الدعوة العاجلة. قال لهم بأنهم لا بد قد سمعوا بأن دنقلا قد سقطت في يد الأتراك، وهو ينصح الأسري بعدم محاولة الاتصال بالعدو أو حتى الاتصال مع أقربائهم.

عبر لهم عن ثقته في أنهم لم ولن يحاولوا الاتصال بحكومة الكفار،وأنه ينبههم على سبيل الحيطة والحذر أن لا يتورطوا في أمر يعرضهم للمسائلة. رد جابر كليمانتوس أنه أحدا منهم لم يحاول إرسال أي رسالة لأهله طوال فترة أسرهم. أسرع الخليفة بالقول: وماذا إن أريتك الآن خطاب سطره واحد منكم لأهله؟ هل لي أن أقطع عنقه؟ وجم الأسري خائفين، وران على المكان صمت عميق. أصر الخليفة على سماع ردهم. أخيرا نطق جابر كليمانتوس بهذه الكلمات:« إن كان الأمر كما قلتم،

فإن هذا الرجل رجل أحمق أو مجنون. وبما أن سيدنا قد جمعنا اليوم لتقديم النصح لنا فنرجو منه السماح وسنكون كلنا أكثر حذرا وحرصا فيما يقبل من أيام». سر الخليفة بمقالة جابر وقال له: «هذا ما قلته لنفسي أنا أيضا»، ومضى يحذر الأجانب من التوقيع على أي مكتوب باللغة العربية. انتهى اللقاء بشكر الأجانب للخليفة على تسامحه وعطفه، واتخذ نيكولاس هذا الموقف دليلا آخر على حب الخليفة لأسراه.

كان الخليفة يقول إنه يحب هؤلاء «المسلمين الجدد» وإلا لكان أمر بجز رقابهم منذ أن علم عدم التزامهم بالشريعة. بالطبع كان يعلم أن رجالا في أعمار الأربعين والخمسين والستين لم يكن ليبدلون دينهم ولكن كان هنالك أمل في أطفالهم. كان يعلم تماما أنهم كانوا يؤدون الصلوات دون وضوء وكانوا يتعاطون التبغ والمشروبات الكحولية، بل وكان بعضهم منغمسا في الخيانة الزوجية. لم يكن يهمه كل ذلك، بل كان مبلغ همه أن لا يقوم هؤلاء الأسرى بالاتصال مع أقربائهم خارج البلاد وألا يختلطوا مع الأهالي. كان يريد أن يراهم الناس وهم يرتادون المساجد ويشاهدهم أعداؤهم.

كان الخليفة يخشي من أن يكون سلاطين (والذي هرب في أخريات حكم الخليفة) قد اتفق مع بعضا من هؤلاء الأسري على تسريب أخبار الأنصار. كانت الشائعات تملأ الأجواء بأن الجيش الفرنسي سيغزو السودان من جهة الكنغو وأن السنوسي سيأتي من طرابلس وأن الزبير باشا سيأتي عن طريق دارفور، بيد أن الأسري كانوا يترقبون ويصلون من أجل نجاح الحملة القادمة من دنقلا.



المجاعات السابقة في شمال السودان

Earlier Famines in the Northern Sudan

براين كاركلايل

تقديم: نشرت هذه القطعة في عدد مايو ١٩٩١م في مجلة «دراسات السودان» (التي تصدر في بريطانيا) بقلم «براين كاركلايل»، وهو من قدامى الإداريين البريطانيين الذين عملوا في أربعينيات القرن الماضي في منطقة البجا. من المحزن أن مثل ما يتحدث عنه هذا الإداري البريطاني ما زال إلى يوم الناس هذا واقعا معاشا في تلك المنطقة ومناطق أخرى عديدة من السودان، رغم التوسع الكبير في المشاريع الزراعية، والخطط والبيانات و«الجعجعة السياسية» أيضا! وما زاد حكامنا إلا أن استبدلوا كلمة «مجاعة» بتعبير مخفف هو «فجوة غذائية»!

ليس هنالك عجب في أن المجاعات الفظيعة التي ضربت السودان في العقد الماضي (يقصد سنوات ثمانينات القرن الماضي. المترجم) قد وجدت كثيرا من الاهتمام والتعاطف من أناس كثيرين من مختلف أرجاء العالم. بيد أنه من المهم معرفة أن أمر المجاعات في هذه المنطقة ليست بالشيء الجديد فسكان السودان الشمالي يعيشون في منطقة ذات مناخ بالغ القسوة شحيح الأمطار.

عملت كمساعد لمفتش مركز البجا بين عامي ١٩٤٧ – ١٩٥١م، وكنت الإداري المسؤول عن تلك المنطقة في فترة الصيف عند ذهاب مفتش المركز في إجازته السنوية. لقد كان مركز البجا واسعا مترامي الأطراف، مما استوجب قيام مفتشي المركز برحلات عديدة متكررة في أرجائه لضمان إدارته بكفاءة وإنصاف. كنت أطوف بأرجاء المركز لأكثر من عشرين يوما كل شهر، إما على شاحنة «لوري» أو ظهر جمل (كان لي أربعة من الإبل لهذا الغرض). وعند وصولي لدار شيخ (الحلة) أو السوق أو مركز الشرطة كنت أبادر بالسؤال عن أحوال المواطنين العاديين، وعن وضع الزراعة والمحاصيل وعن المراعي. كان عام ١٩٤٧م عام جفاف وقحط، ولم تنعم المناطق الساحلية بالأمطار الشتوية المعتادة، لذا أتى صيف ١٩٤٨م، والوضع الغذائي بالمنطقة في أقصى حالات السوء.

كنت في طوافي في أرجاء المركز في حوالي شهر مايو من عام ١٩٤٨م، أتلقى تقارير

عاجلة من شيوخ المنطقة عن الصعوبات الجمة والمشقات العظيمة التي كانت تجابه المواطنين، وكان على فعل شيء ما لمجابهة ذلك الموقف. لقد نجحت إدارة الحكم الثنائي في إنشاء «نظام ملفات» عالي الكفاءة للاستعمال العام، يستخدمه الإداريون في جميع مكاتب الدولة، ويخدم – بصورة خاصة- صغار الإداريين قليلي الخبرة بتعريفهم بما حدث في حالات ومواقف مشابهة سابقة، وما هي طرق المعالجة التي استخدمت. لقد تعرضت منطقة البجا لمجاعات كثيرة خلال الأعوام السابقة، لذا فلقد عثرت على ملفات عن الطرق التي استخدمها الإداريون السابقون لعرض المشكلة على رئاسة المركز، والكيفية التي كان يتم بها توجيه الإغاثة والمساعدات. بدأت أعمال الإغاثة في مناطق الكوارث في ١٩٤٨م بتوزيع الحبوب، وبدأ أيضا ترتيب إقامة «عمل مجتمعي» طويل الأمد للمركز لمجابهة تلك الكوارث، وبدأ توظيف عمال الإغاثة، وتسجيل طلبات الحبوب من مخزن الحكومة المركزي في الخرطوم بحري. كانت أكثر مناطق البجا تأثرا هي «مسنار» (Musnar) (الصحيح بالطبع إن اسم المحطة هو «مسمار») وهي محطة سكة حديد معزولة تقع بين «هيا» و«عطبرة». في تلك المنطقة قمنا بحفر «حفائر» لحفظ الماء، وبناء سدود صغيرة لحفظ مياه الأمطار (عندما تهطل).

أكملنا في عام ١٩٤٨م ولم ننجز غير إنشاء إدارة للإغاثة، ولكن استمر الطقس جافا حتى عام ١٩٤٩م، وتضاعفت كذلك معاناة السكان في شمال مناطق البجا مما استدعى طلب مزيد من الحبوب من مخازن الحكومة بالخرطوم بحري وتوزيعها دون مقابل لأكثر الناس تضررا. تم توزيع تلك الكميات بواسطة رجال الإدارة الأهلية (وشيوخ القبائل) للتعرف على المحتاجين من السكان، ولم أسمع طوال فترة عملي في المنطقة أي شكوى ضد أولئك الشيوخ من استغلال للنفوذ. خلال صيف ذلك العام زارنا رجل مسؤول من «الهلال الأحمر» المصري، فقمت بمرافقته في زيارة المناطق المتأثرة بالمجاعة، وتعريفه بما قمنا به من إجراءات لمجابهة المشكلة. أبدى الرجل رضاءه التام عن طريقتنا والخطوات التي قمنا بها. مما لن أنساه من زيارة ذلك الرجل المصري لنا هو عجزنا عن إيجاد أي واحد من كبار الموظفين السودانيين ليرافقه للمسجد لأداء صلاة الجمعة. وبعد أربعين عاما من ذلك التاريخ نجد أن الإسلام قد عاد ليهلك / «ليعض» (bite) الطبقات المتعلمة (هكذا في الأصل).

لما تطاول انعدام الأمطار في المنطقة كان لابد لنا– عن طريق إدارة المركز– من تخصيص مساحات من الأرض الزراعية في مناطق القضارف المروية بالأمطار لمائتين من مزارعي البجا، وذلك على سبيل التجربة. ولكن عادت الأمطار في عام ١٩٥٠م

مبكرة وبغزارة أحالت صحراء تلك المنطقة القاحلة إلى واحة خضراء كنا نشبهها بريف مقاطعة « سسيكس» في إنجلترا. كان محصول ذلك العام ممتازا، والمراعي غنية، فصرفنا النظر عن فكرة تهجير البجا جنوبا إلى منطقة أكثر أمطارا. انتهت فترة تلك المجاعة التي أثرت على قرابة ١٠٠٠٠٠ من السكان، والذين كان من حظهم أن الحكومة كانت تحتفظ بمخزونات كافية من الحبوب لسد حاجاتهم خلال تلك الأيام العصيبة.



مكتب النشر: في ذكرى جمال محمد أحمد

روبن هودجكن

تقديم: في هذه الترجمة لمقال البريطاني المتقاعد روبن هودجكن نجد شذرات من تاريخ «مكتب النشر»، وعن من عملوا به من البريطانيين والسودانيين. ويخص الكاتب هنا المرحوم جمال محمد أحمد بالثناء على بعض ملامح شخصيته الفريدة. لا شك أن «مكتب النشر» وكذلك«بخت الرضا» جديران بالاهتمام والبحث والكتابة الموثقة من محبيهما، وأيضا من مبغضيهما ، الذين لا يرون فيهما (وفي غيرهما من مؤسسات الأربعينيات والخمسينيات) غير مؤسسات أنشأها المستعمر البريطاني خدمة لأهدافه الظاهرة والباطنة، وليس لخدمة السودان وأهله. نشرت هذه المقالة في العدد الثاني من مجلة «دراسات السودان» التي كانت تصدر في بريطانيا، بتاريخ يونيو ١٩٨٧م.

لا شك أن فكرة إنشاء «مكتب النشر» هي إحدى بنات أفكار جي. إل. قريفث، ولا شك أيضا أن من دعما تلك الفكرة الألمعية هما عبد الرحمن على طه وكثبرت أسكوت. كان من الطبيعي وبعد عملهم على كتاب للأطفال عامر بالحياة والخيال أسموه «كتاب الأطفال»، أن يسعوا إلى سد الحاجة الماسة لتكملة مشوار الكتابة والنشر الخاص بالأطفال.

تبلورت الفكرة في عام ١٩٤٦م، حيث انتدب عوض ساتي من مدرسة وادي سيدنا، وشجعت أنا على أن أترك المدرسة العليا (نواة الجامعة) للانضمام لمجموعة «بخت الرضا»، ذلك المعهد الرئيس لتدريس وتدريب المدرسين القريب من مدينة الدويم. عملنا معا كمجموعة سعيدة متجانسة من رؤساء الأقسام في «بخت الرضا»، وانضم إلينا في نهاية العام بشير محمد سعيد، حاملا معه خبرة صحفية قيمة. في أثناء وجودي في إنجلترا تعاقدت مع محرر فني ورسام اسمه الآن آشتون. اجتمع شملنا جميعا في ديسمبر في «بخت الرضا» للتخطيط لإصدار مجلة «الصبيان»، التي كان من المقرر أن تصدر كمجلة نصف شهرية مخصصة للأطفال السودانيين من هم في مراحل الدراسة. تلقينا العون من كثير من الناس في خارج دائرة عملنا...اخص بالذكر منهم هنا إليزابيث، زوجتي فيما بعد، ومكي عباس والطيب إدريس، والذين كانوا في قرية

«أم جر» المجاورة.

وقعت لنا بعد ذلك حادثة أليمة، إذ مات غرقا في حوض السباحة فناننا ألن آشتون، وظهرت الحاجة الملحة لشخص يقوم بعمل رسومات المجلة. من حسن الحظ أن كان الفنان جان بيريه جرين لو موجودا، فقام بتصميم غلاف أول عدد من مجلة «الصبيان» على نفس النمط الذي كانت تصمم عليه المجلة الإنجليزية الشهيرة «بنشPunch». كان هنالك أيضا فنانان من شباب السودان الرائعين (رغم قلة خبرتهما) هما إسماعيل محمد الأمين وسر الختم عبد الكريم. كانا طموحين ويسعيان دوما لتطوير مهاراتهما، وظلا لسنوات من أعمدة مكتب النشر.

قضينا نحوا من شهر كامل ونحن نسعى لإخراج العدد الأول من المجلة، وتبين لنا أن عملنا في مقرنا في «بخت الرضا» (التي تبعد مسافة لا تقل عن ٢٢٥ كيلومترًا عن الخرطوم) عسير وغير مجدي. بحثنا عن مقر جديد لدار النشر في الخرطوم، والتي فكرنا في أنها مركز ممتاز نستطيع منه التنقل بيسر لمناطق أخرى في السودان. بعد عام من ذلك التاريخ أتانا أول مصمم ورسام من ذوي الخبرة وهو هيثر كورلاس. كان الرجل يعمل في إحدى دور النشر البريطانية، وغدا في وقت قصير أحد أهم أركان المجلة.

في نهاية عام ١٩٤٦م سعدنا بانضمام جمال محمد أحمد لمجموعتنا الصغيرة، وكان قد عاد لتوه من عام دراسي كامل في جامعة إكستر (الصحيح أن جمالا قضي ثلاثة أعوام في إكستر من ١٩٤٣ م – ١٩٤٦م. المترجم). مثل وجوده بيننا قوة إضافية. كان تقدميا في نظرته للأمور، معروفا بين الناس كأديب مثقف، وصاحب روح طفولية خفيفة الظل. كان بتلك الروح المرحة يكمل روح عوض ساتي بنظرته العلمية الجادة للأمور، والتي كانت ضرورية لكسب الاحترام الواجب في العمل. زامل جمالا في ذلك العام الذي قضاه في إكستر سر الختم الخليفة، والذي عاد للعمل في «برامج تعليم الكبار» التي كانت تنشط بصورة غالبة في الجزيرة، ولحق بهما هنالك محمد عمر بشير.

عندما كنا نحضر لإصدار العدد الثالث من «الصبيان» كان مقرنا في متجر / مكتب صغير في عمارة أبو العلا (القديمة. المترجم) على بعد ياردات قليلة من مطبعة ماك كوركوديلز Mc Corquodales وهي المطبعة التي تولت أمر طباعة مجلتنا. كانت مهمتنا الأساسية هي تحضير مواد «الصبيان» وطباعتها وتنسيق عمل شبكة لتوزيعها على المدارس الأولية. عندما أصدرنا العدد الرابع من المجلة كنا نوزع أعدادا كبيرة،

فالنسخة الواحدة كانت تباع بقرشين فقط، وبلغت مبيعاتنا ١٥٠٠٠ (لم يذكر المؤلف فئة العملة، والراجح أنها ١٥٠٠٠ قرشا، أي ١٥٠ جنيها، وهو مبلغ كبير بمعايير تلك الأيام. المترجم)، وكان هذا الرقم يماثل ضعفي مبيعات أي مجلة أو صحيفة (سودانية) كانت تصدر آنذاك. كانت مجلتنا بالطبع مدعومة بشدة، ولا تحتوي على أي مادة إعلانية، وكنا نجابه في بعض الأوقات شحا في ورق الطباعة، وصعوبات متنوعة في التوزيع. رغم كل ذلك فقد كان حماس «الأطفال» (من عمر ٧ إلى ٧٠) لقراءة، بل لالتهام «الصبيان» في القرى والمدارس يفوق الوصف. كانت أكثر الصفحات شعبية بين القراء هي الصفحة الأخيرة، حيث يجد القارئ قصص الجدة التقليدية (الأحاجي) (لعل الكاتب قد قصد «عمك تنقو» وحرمه «العازة». المترجم).

لعله من المفيد أن نسرد طرفا من الأعمال الأخرى التي كنا نؤديها خلال تلك السنوات الباكرة، إذ أن «الصبيان» كانت تستأثر فقط بنحو نصف وقت عملنا. أصدرنا عددا من الكتيبات الممتازة لتعليم الكبار حررها سر الختم الخليفة، وقام «مكتب النشر» بإصدار خمسة من تلك الكتيبات. بيد أنه ومن خلال تلك الكتيبات ظهرت قصة فشل ذريع لأول مرة في أعمال «مكتب النشر»، ألا وهي مجلة مخصصة للكبار اسمها «النور» تم نشر ثلاثة أعداد فقط منها. كان مرد ذلك الفشل هو طموحنا الزائد عن الحد، إذ أنه لم يقم على تحرير ونشر وتوزيع تلك المجلة غير ثلاثة أشخاص فقط. قام «مكتب النشر» أيضا بطباعة ونشر فيض متدفق من كتب ونشرات «بخت الرضا». كنا نقوم أيضا بتقدير تكلفة إنتاج تلك الكتب، ونستشار أيضا في اختيارها والتحضير لنشرها وتوزيعها.

بدأنا في أواخر عام ١٩٤٧م في تحضير وتمحيص مواد لمحو الأمية، فأصدرنا كتابين هما «المستاح» و«الباب المعرفة» (لعل المقصود هو «مفتاح المعرفة» و«باب المعرفة». المترجم). أصاب هذان الكتابان المتازان نجاحا منقطع النظير. قام بتصميم الكتابين آدم عيسى، واستعان بمصلحة المساحة من أجل إصدارهما بالألوان. بيد أن طموحنا الزائد – فيما يبدو– كان قد قادنا للاستهانة ببعض المصاعب والعوائق التي لم تخطر لنا على بال فلم نحسب لها حسابا. بعد انصرام أربعة عقود على تلك الأيام فإني أشك كثيرا الآن في أن أي حملات لمحو الأمية لم تكن لتصيب النجاح لو لم يقف خلفها ويدعمها ويدفعها دافع أيديولوجي / ديني قوي، أو أن تستخدم طاقات مجموعات منظمة كالطلاب والجيش و«متطوعين» يقنعون برواتب ضئيلة. لعل هذا ما يفسر نجاح حملات محو الأمية في الدول ذات النظم الشمولية مقارنة بغيرها. لاريب أن القرن الماضي للإمبريالية كان مواتيا وملائما لأدب الأطفال الشعبي، بيد أنه لم يكن

كذلك – للأسف- عندما يتعلق الأمر بالحملات الحكومية لمحو الأمية (وتعليم الشعب على وجه العموم).

لعل أكثر ما ميز سنواتنا الباكرة تلك هي أنها كانت عامرة بالتجريب والتعلم المستمر لنا جميعا. منحتنا الحكومة فرصة أن نخوض التجارب، وأن نخاطر في بعض الأعمال، وقبلت عملنا سواء أن أصاب النجاح أو الفشل. كانت النتيجة الطبيعية لتلك الحرية هو أننا كلنا كنا نعمل بجد واجتهاد، ونستمتع نحن أنفسنا في ذات الوقت بما نعمل. في هذه النقطة بالذات ينبغي أن نذكر جمالا. كنا إذا نجحنا في عمل ما فإن جمالاً كان أكثرنا طربا لذلك، ويقيم لنا حفلا ضخما...بيد أنه إن حدث العكس، فإننا كنا نعد ذلك من باب «التجارب واكتساب الخبرات» ليس إلا، فيقيم لنا حفلا صغيرا!

كيف تأتى لجمال محمد أحمد أن ينجح ككاتب للأطفال لا يشق له غبار، ودبلوماسي ناجح، ومستشار حكيم لعدد من رجال الدولة من الإنجليز والسودانيين؟ لقد كان رجلا أنيسا ودودا لكل من صحبه، وراوي قصص عظيم الموهبة. كان يروي القصص الممتعة والحكايات المشوقة وهو يقلد من يحكي عنهم بحركات تمثيلية تكشف عن سخافاتهم وتهافتهم، وتثير عند مستمعيه ومشاهديه الضحك والسرور والتأمل أيضا. كان لجمال أيضا ميزة عظيمة أخرى ألا وهي قدرته الفائقة على الإحساس بالمتعة عندما يسعد الأطفال. ربما كانت تلك الصفات والمشاعر مخبوءة دوما في دواخل الرجل، بيد أني أزعم أن تلك الصفات والمشاعر نضجت تماما في سنواته في إنجلترا، خاصة وهو يدرس على يدي البروفيسور السيدة/ تبل في جامعة إكستر.

عندما نضيف لكل ما ذكرنا عن جمال محمد أحمد ذهنه الوقاد، وذكاءه الحاد، وقراءته الموسوعية، يسهل علينا فهم شخصيته المتميزة بالمرح، وبحب الناس واكتساب ودهم. كان الرجل يحظى بحب وثقة عدد لا حصر له من أصدقائه من السودانيين والبريطانيين. كان وده صادقا، ليس بسطحي ولا شكلي، وكان يرحب دوما بالمصاعب، بل ويستمتع بها وبمعالجة حلها مع الآخرين، وكان يتفق مع الآخرين على الاختلاف معه «بدون زعل»! فوق كل هذا وذاك، كان سفيرا ممتازا عند زياراته لأرض طفولته، وأيضا عند زياراته لبلاد أكثر بعدا.

ألا رحم الله جمالا مع الأمنيات الطيبة لعائلته وأصدقائه.



بروفسير بيتر هولت في ذاكرة أحد طلابه السودانيين

تقديم: بروفسير بيتر مالكوم هولت (١٩١٨-٢٠٠٦م) من أشهر المؤرخين البريطانيين الذين عملوا بالسودان وألفوا عن تاريخه كتبا مرجعية شملت «الدولة المهدية في السودان» في ١٩٥٨م، و«تاريخ السودان الحديث» في عام ١٩٦١م، و«السودان والأنهار الثلاثة» في عام ١٩٩٩م. التحق هولت بخدمة حكومة السودان في١٩٤١م وعمل مدرسا في مدرسة حنتوب الثانوية (حيث كان أحد طلابه جعفر نميري والذي يتذكره هولت لنشاطه الرياضي أكثر من مهاراته الأكاديمية). بقي هولت في السودان حتى ١٩٥٥م، وفي عام ١٩٥٤م هجر التدريس وفرغ لإنشاء دار الوثائق الحكومية، ويرجع إليه الفضل في جمع وتصنيف ودراسة وثائق المهدية.

السطور التالية هي ترجمة لبعض ما سجله بروفسير حسن أحمد إبراهيم أحد طلابه السابقين تخليدا لذكراه، وذلك في مجلة «دراسات السودان» (العدد ٣٦ عام ٢٠٠٧م).

لم أكن للأسف أحد المحظوظين الذين أتاحت لهم الظروف التلمذ في المدارس الثانوية على يد الأستاذ الهمام والمعلم المتميز بيتر مالكوم هولت، بيد أنه عند تخرجي في جامعة الخرطوم في منتصف الستينات ببكالوريوس الشرف وبماجستير الآداب في التاريخ قررت مخدمتي (جامعة الخرطوم) ابتعاثي للخارج لإكمال دراساتي العليا في مجال تخصصي البحثي في تاريخ وادي النيل. اختار لي عميد الكلية (وأول مؤرخ سوداني مهني) بروفسير مكي شبيكة ورئيس قسم التاريخ بروفسير ج. ن. ساندرسون مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية التابعة لجامعة لندن مكانا لدراستي للحصول على درجة الدكتوراه وذلك بمنحة كاملة تحت إشراف زميلهم السابق بروفسير هولت والذي كان قد التحق بتلك المدرسة الشهيرة عقب تقاعده من خدمة حكومة السودان في عام ١٩٥٥م. ومنذ أن بدأت دراستي تحت إشرافه فلقد داومت على الاتصال به من حين لآخر إلى حين رحيله في الثاني من نوفمبر من ١٩٩٦م.

لا أزال أذكر تفاصيل يوم اللقاء الأول مع المؤرخ الشهير. دلفت مترددا ودون سابق موعد لمكتب البروفيسور في الطابق الربع من المبني القديم لمدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية في عصر يوم من أيام أكتوبر ١٩٦٦م. طرقت بابه في تردد فجاءني صوت رقيق يقول: « تفضل بالدخول» ففعلت. لا بد أن البروفيسور قد تضايق من ذلك القادم الذي

اقتحم خلوته دون موعد سابق وانتهك خصوصيته وهي من أكثر ما يقدره البروفيسور كما تبين لي فيما أقبل من أيام. بدا لي من ترحيبه الحار وحفاوته بي ودعوتي للجلوس أنه خبير بطرائق السودانيين الاجتماعية التي لا تقيم كبير وزن لخصوصيات الآخرين. لم أنبس ببنت شفة لثوان عديدة ونسيت أن أقدم للرجل نفسي.

لا بد أن البروفيسور قد أحس باضطرابي وحرجي فمضى يسألني في رفق أسئلة شخصية وعامة عن موطني ومراحل تعليمي. أجبته متلعثما بأني من مدينة على النيل الأبيض اسمها الدويم وأني قد تلقيت تعليمي الأولي والابتدائي في معهد بخت الرضا القريب من الدويم. هنا انفرجت أسارير الرجل وطفق يحدثني عن معرفته العميقة بتلك المدينة والمنطقة عموما وعن تجربته الشخصية في ذلك المعهد الرائد والذي يكن له حبا عظيما. بل وذكر لي أسماء بعض من كانوا يعملون في المعهد ومنهم بعض أقربائي مثل جعفر الخليفة الحسن وأخوه سر الختم والذي تولي رئاسة مجلس الوزراء في ١٩٦٤م في فترة حرجة من تاريخ السودان. تملكتني الدهشة بل الزهو عندما ذكر البروفيسور اسم والدي الذي كان يدير مطعم (كنتين) المعهد. أشاد الرجل بقريبي ومثلي الأعلى سر الختم الخليفة وقد عاودا الاتصال ببعضهما وتوثقت علاقتهما أكثر عندما صار سر الختم سفيرا للسودان في المملكة المتحدة في عام ١٩٦٧م.

ومع إحساسي بهذا الود والتعاطف، فلقد افترضت أن مسيرتي الأكاديمية مع هذا البروفيسور ستكون «نزهة لطيفة»، ولكن سرعان ما تبين لي خطأ هذا الافتراض الشنيع عندما لاحظت إصرار البروفيسور الشديد على المحافظة على أعلي المعايير الأكاديمية. أشهد أن بروفيسور هولت لم يكن ليجامل أحدا في الأمور الأكاديمية مهما بلغت درجة معرفته أو علاقته به.

كان قد تم تسجيلي في بداية أمري في جامعة لندن لدرجة الماجستير في الفلسفة (M. Phil) وبعد زمن قصير من بدء بحثي طلبت من بروفسير هولت متعجلا رفع درجة تسجيلي لدرجة دكتوراه الفلسفة (Ph. D.). ظل البروفيسور يحدق في وجهي لنحو عشر ثوان ثم زجرني في حده قائلا: « هذا ليس من شأنك. سيتم ذلك الأمر ولكن ليس قبل أن تنجز وتنجز جيدا». علمت حينها أن هذا البروفيسور يعني ما يقول وأنه رجل لا يقبل بالعبث في الأمور الأكاديمية أبدا، وأن علي أن أعمل بجد واجتهاد أكثر حتى أستحق ترفيع درجتي إلى مستوى الدكتوراه. لا بد من التأكيد على أن صرامة الرجل وخشونته أحيانا كانت مقبولة عندي بسبب إدراكي لصدقه وإخلاصه وإنسانيته وأيضا بسبب روح الدعابة والفكاهة التي كانت تغلف كل ما

ذكرت. وصفت في المخطوطة الأولي لأطروحتي سنوات وزارة إسماعيل صدقي (١٩٣٠ – ١٩٣٣م) بأنها «سنوات صدقي السوداء». علق البروفيسور ساخرا من هذه العبارة بقوله : «بالتأكيد أنت لست محمد حسنين هيكل»!. كانت تلك الجملة كافية لتعليمي أن لغة الصحافة وأسلوبها لا مكان لهما في ساحة النقاش الأكاديمي.

بعد هذا الاستطراد الطويل والمهم أعود لتفاصيل يومي الأول مع أستاذي البروفيسور هولت. لما لم أتطرق للحديث عن أي شيء يتعلق بموضوع دراستي (إذ لم تكن لدي أي فكرة عما أود دراسته) نجح البروفيسور في جرى للحديث عن الموضوع بقوله أنه عليم بأطروحتي للماجستير عن عهد محمد على باشا في السودان والتي وصفها بأنها «مثيرة للاهتمام»، وأعتقد أنه كان قد سمع بها عن طريق ممتحني الخارجي ريتشارد هيل. قال لي بروفيسور هولت أنني محظوظ بحضوري للدراسة في إنجلترا في ذلك الوقت بالذات إذ أن الحكومة البريطانية كانت قد أصدرت قرارا بتخفيض سنوات الكشف عن وثائقها من خمسين إلى ثلاثين عاما.

لاحظ البروفيسور أن ذلك النبأ لم يحدث عندي أثرا فمضي بالقول أن ذلك التعديل سوف يتيح للباحثين النظر في الوثائق البريطانية حتي عام ١٩٣٦م، واقترح على وبصورة عابرة أن أتخذ من معاهدة ١٩٣٦م بين بريطانيا ومصر موضوعا لدراستي. كانت ردة فعلي الأول سلبية إذ أن معلوماتي عن التاريخ المصري كانت محدودة جدا، وكنت لجهلي أفترض أن عاما واحدا لن يكون كافيا لنيل درجة الدكتوراه. لما لمس بروفيسور هولت ترددي قال لي مطمئنا أن ذلك مجرد اقتراح ليس إلا ونصحني بقضاء بعض الوقت في المكتب العام للوثائق (وكان يقع في شارع شانسري) قبل أن أحسم أمري. وأخيرا فتح مدونته ومضى يكتب موعد لقائنا القادم وهو يحدق في وجهي بنظرة ذات معني. فهمت الرسالة وأنه يجب على المرء أن يفعل في روما ما يفعله الرومان وألا يأتي بيوت الناس أو أماكن عملهم دون موعد سابق كما نفعل دوما في السودان.

قضيت ثلاثة أسابيع من البحث المكثف المتواصل في المكتب العام للوثائق. تبينت بعدها أن البروفيسور كان مصيبا كل الصواب وأنني كنت مخطأ كل الخطأ، إذ أن معاهدة عام ١٩٣٦م بين مصر وبريطانيا لم تكن فقط موضوعا مناسبا للدراسة لنيل الدكتوراه، بل كانت موضوعا بكرا لم يمسسه بشر ببحث أو تحقيق. لقد كنت أول باحث تتاح له فرصة البحث والتنقيب في وثائقها البريطانية الكثيرة في المكتب العام للوثائق، ودار الوثائق في جامعة دارام (درهام) ومكتبات الصحف والمعاهد والمراكز البريطانية الأخرى، وصرمت في رحلة البحث والتنقيب تلك عاما ونيف. لم يستغرق البحث أسبوعين فقط كما كنت – لجهلي –

أتصور في بداية مشواري البحثي. قابلت أستاذي بروفسير هولت في موعد لقائي به المضروب سلفا لأنقل له في فخر ما «اكتشفته» في بحثي. رد على الأستاذ في صرامة أن ما حصلت عليه إنما هو وجه واحد للعملة من وجهة النظر البريطانية فقط، وأنه بقي على استكمال الصورة باستكشاف دور اللاعبين الآخرين وهما أهل مصر وأهل السودان. لذا فلقد شددت الرحال لشهور ست قضيتها في البحث والتنقيب في دار الوثائق المصرية (السيئة التنظيم) في القلعة والمكتب المركزي للوثائق في الخرطوم، وهو جيد التنظيم بفضل إتقان وتفان مؤسسه بروفسير هولت نفسه بين عامي ١٩٥٤ و١٩٥٥م ومن بعده طالبه النجيب بروفسير محمد إبراهيم أبو سليم.

أثمر بحثي الذي استغرق ثلاثة أعوام ونصف وتحت إشراف بروفسير هولت عن أطروحة قامت بنشرها في عام ١٩٧٦م دار النشر بجامعة الخرطوم بعنوان «معاهدة ١٩٣٦ بين مصر وبريطانيا: دراسة تاريخية »

كتب بروفسير هولت في تقريره عن الأطروحة أن بحثي تميز بثلاثة مزايا أبرزها أنه «رغم أن موضوع البحث موضوع حساس جدا، فلقد نجح الطالب في كتابته بطريقة أكاديمية متجردة محايدة» . إنني جد مسرور لأسجل هنا أنني تعلمت ذلك التجرد والحيادية من ذلك الرجل.

لم يقتصر دور بروفسير هولت على تدريبي على عمل دراستي لدرجة الدكتوراه، بل كان له دور فاعل في توجيهي نحو ما أعده أهم برنامج بحثي أقوم به بعد نيلي لتلك الدرجة ألا وهو المهدية في القرن العشرين (وهو ما أصطلح على تسميته بـ«المهدية الجديدة») ومؤسسها الأمام عبد الرحمن المهدي.

بعد نيلي لدرجة الدكتوراه مباشرة دعاني بروفسير هولت – وللمرة الأولي– للقاء اجتماعي للغداء في القاعة الأفخم في مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية. وخلال الأنس حول مائدة الغداء طرح بروفسير هولت على الطاولة موضوع دراسة «المهدية الجديدة». ولما كنت ختميا بحكم المولد، و«شيوعيا» بحكم الموضة والتقليد وليس القناعة الفكرية (مثلي مثل كثير ممن هم من جيلي) فلقد كنت على اقتناع – دون دليل- بإدانة حركة «المهدية الجديدة» وزعيمها بصفتها حركة خائنة للوطن وعميلة للاستعمار وموالية لبريطانيا! بينما كنت أنقب في الوثائق البريطانية خلال دراستي للدكتوراه تبين لي ما قاله بعض المسؤولين البريطانيين من توجس البريطانيين من السيد عبد الرحمن، وشكهم فيه بل وعدائهم له. كانت تلك المقولات وتنبيه بروفسير هولت المستمر لي بالحيدة والتجرد والأمانة السبب الدافع لي لبحث أمر «الخيانة» المزعومة.

نصحني بروفيسور هولت بتبادل الأفكار والآراء مع اثنين من طلابه السابقين حول مفهوم «المهدية الجديدة»، وهما بروفيسور جبرييل واربيرج وبروفيسور ر. مارتن دالي، وهما من الذين كتبوا بغزارة في تاريخ السودان في القرن العشرين. كانت كتب بروفيسور واربيج الأخيرة خير عون لي في بحثي، خاصة كتابه الموسوم «الإسلام والطائفية والسياسة في السودان منذ المهدية» والذي صدر في لندن عام ٢٠٠٣م. بعد نحو عام من ذلك التاريخ نشرت دار بيرل كتابي المعنون «سيد عبد الرحمن المهدي: دراسة في المهدية الجديدة في السودان ١٨٩٩ – ١٩٥٦م» والذي يذهب إلى أن الإمام رجل وطني من الطراز الأول. كتب لي جابي (بروفيسور جبرييل واربيرج) في ٢٥/ ١٠/ ٢٠٠٤م : « أهنئك بمناسبة صدور كتابك والذي وصلني اليوم. إنني فرح لكلينا إذ أننا (نحن طلاب بروفسير هولت السابقين) قد نشرنا التاريخ الحق لعصر ما بعد ألفية المهدية. سيكون (هولت) رجلا مسنا سعيدا». أجبت الرجل في نفس اليوم بقولي « كتبت لبروفيسور هولت بيد أني لم أتلق جوابا...إنه رجل عظيم وأكاديمي متميز». للأسف لم يتمكن أستاذنا من مراجعة الكتابين بسبب تدهور صحته ورحيله المحزن في الثاني من نوفمبر ٢٠٠٦م.

احتفظ بروفيسور هولت بحكم طبعه النافر من السياسة لنفسه بمسافة معقولة منها، وكان شديد العزوف عن الإدلاء بأي آراء حول التطورات الجارية في السودان. حاولت ذات يوم في يونيو ١٩٦٩م أن أحمله للحديث عما يشاع عن «غباوة» مفترضة عند جعفر محمد نميري والذي شاءت الأقدار أن يحكم السودان لسنوات عجاف (١٩٦٩ – ١٩٨٥م)،وكان أحد طلابه في حنتوب الثانوية. أجاب البروفيسور متحاشيا السؤال « لقد كان لاعبا مجيدا لكرة القدم»، وأسرع بتحويل دفة الحديث لموضوع آخر. بيد أن البروفيسور لم يحتمل أن يظل صامتا ومتحفظا بعد ما حدث من تطورات في السودان بعد ١٩٨٩م هددت كيان وهوية البلاد التي قضي جزءا كبيرا من حياته فيها وأحبها بصدق. وردا على رسالة بعثت إليه بها من غربتي في كوالا لامبور بماليزيا، كتب إلى خطابا عاطفيا مؤثرا بتاريخ ٢٥/ ٣/ ١٩٩٥م جاء في بعض سطوره ما يلي: لك الشكر أجزله على رسالتك. إنني سعيد بتلقي رسالة أخري منك رغم حزني من أنها قد كتبت وأنت في المنفي. لا بد لكل من عمل في السودان أن يحزن على ما آل إليه حاله الآن. يبدو السودان وكأنه في دوامة سلسلة من المآسي المتوالية. دفع ذلك الحال بكثير من خيرة أبناء البلاد للهجرة خارجها. أتمنى أن تنقشع سريعا هذه الفترة الكئيبة وأن تنتصر في نهاية المطاف روح التسامح المعروفة عن السودانيين وطيبة قلوبهم. يجب ألا أنسى أن أهنئك بوظيفتك الجديدة في ماليزيا، وأتمنى أن تجد تلك البلاد وأهلها على ما يلائم مزاجك، وأن لا يتأثر عملك (البحثي) بهذا الانتقال. يبدو إن مشروعك البحثي مثير للاهتمام.»

ساتي ماجد: أول المهاجرين السودانيين لأمريكا (١٩٠٤ – ١٩٢٩م)

شذرات من كتاب للدكتورة: رقية مصطفي شرف

تقديم: السطور التالية هي محاولة تعريف بمن سبق بالهجرة للأراضي الجديدة من أهل السودان وهي مأخوذة في غالبها من كتاب للدكتورة رقية مصطفى أبو شرف بعنوان: « Wanderings- Sudanese Migrants and Exiles in North America » صدر قبل نحو ست سنوات من دار نشر جامعة كورنيل الأميركية في أيكا. اعتمدت المؤلفة على مراجع كثيرة منها أعمال محمد عبد الحميد أحمد، والذي أصدر عملين عن ساتي ماجد أول مهاجر سوداني لأمريكا في ١٩٧٨م و١٩٩٥م. وعثرت مؤخرا على كتاب لمؤلف أمريكي اسمه مايكل جوميز ألف كتابا بعنوان: «الهلال الأسود: تجربة وأثر الأفارقة السود في الأمريكتين Black Crescent: The Experience and Legacy of African Muslims in the Americas وهو يذكر ساتي ماجد وما قام به في مجال التبشير الإسلامي المبكر في العالم الجديد، وكتاب آخر عنوانه Muslims in the West: From Sojourners to Citizens »المسلمون في الغرب: من مقيمين مؤقتين إلى مواطنين« من تأليف أي. أي. حداد يدندن حول وضع المسلمين في الغرب (خاصة في بريطانيا) ويذكر ساتي ماجد أيضا.

رست في أحد أيام ١٩٠٤م سفينة فرنسية قادمة من انجلترا على شاطئ مدينة نيواولينز في ولاية لويزيانا الأميركية، وكان من بين ركابها ساتي ماجد (القاضي سوار الذهب)... رجل يميزه عن رفقاء رحلته الأوربيين طوله الفارع الذي تخطي ستة أقدام وكذلك شلوخ خديه الرأسية التي تثبت أصله الدنقلاوي. وفي الصورة الباهتة الغبشاء التي أخذت له في الميناء – ويبدو أنها الصورة الفوتوغرافية الوحيدة المتوفرة له – بدا من نظرات عينيه أنه كان يحدق في آلة التصوير بتصميم وثقة رجل يقوم برحلة غير اعتيادية. أوليس هو أول سوداني تطأ قدماه أرض أمريكا؟!

ولد ساتي ماجد في قرية «الغدار» من أعمال دنقلا العجوز عام ١٨٨٤م، وهو سليل أسرة كريمة عمل كثير من أفرادها في القضاء والإفتاء. حفظ القرآن في صباه في خلوة ود ديدي بقرية رومي المجاورة، وكان قارئا نهما ذكيا لا يشبع من العلم والتعلم.

وعن أيام رومي تلك يقول ساتي أنه لم يكن يعرف شيئا في تلك الأيام غير الرمال الساخنة و«بليلتي وعلومي».

بدأ موسم هجرة ساتي ماجد حين أبحر شمالا على قارب صغير إلى مصر في عام ١٨٩٥م بقصد الالتحاق بالأزهر أحد أقدم المعاهد الدينية في العالم. ورغم أنه لم يكمل تعليمه الرسمي هنالك، إلا أنه اكتسب معرفة واسعة بالفلسفة الإسلامية والأخلاق وأشتاتا من علوم الدين والدنيا. وفي نهاية التسعينيات من القرن التاسع عشر أقدم على خطوة أجرأ، إذ ركب البحر مصوبا وجهته نحو بريطانيا. ويقال: إن ما دفعه لترك مصر والسفر شمالا هو ما سمعه من أخبار مزعجة عن حملة يقودها مبشر طلياني (لم يحدد اسمه) ضد المسلمين في نيويورك حيث تواترت الأخبار أنه شبه الإسلام بالتمساح المتوحش، وبأنه دين آكلي لحوم البشر. حركت مثل هذه الأقوال – كما قيل- مشاعر ساتي ماجد وعواطفه الدينية الجياشة وحمسته للهجرة إلى نيويورك لصد هجمات ذلكم المبشر الطلياني.

وقيل :إن سبب هجرته لأمريكا هو رغبته في العمل في مجالات الدعوة والتبشير الإسلامي منذ نشأته الأولي، وبما أنه لم يكن يتحدث الإنجليزية فلقد ارتأى أن يذهب لإنجلترا أولا لتعلم اللغة الإنجليزية من منبعها الأصلي حتى يمكنه تجويد عمله كداعية وإمام ديني للناطقين بغير العربية. يبدو عند التحقيق أن السبب الأخير هو السبب الأكثر ترجيحا لهجرة ساتي لأمريكا. عند وصوله لإنجلترا نزل في ضيافة رجل دنقلاوي وآخر يمني، وشكل ثلاثتهم «فريق عمل» طاف على أرجاء الجزيرة البريطانية لتقديم المحاضرات والندوات الدينية. كان ساتي أكثرهم تأثيرا على الحضور بصوته الجهير المؤثر ومقدراته الخطابية العالية، وكان يخطب بالعربية مدعما حديثه بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، بينما يقوم صاحباه بترجمة حديثه إلى الإنجليزية. قضى الرجل أربعة أعوام في بريطانيا صقل خلالها مقدرته الخطابية والدعوية، وأجاد خلالها اللغة الإنجليزية. كانت سنوات بريطانيا الأربع أشبه بالبروفة لما سيقبل من إقامة طويلة في أمريكا.

سافر الرجل على سفينة تعود ملكيتها – كما توضح بطاقة سفره- إلى شركة ملاحة فرنسية تسمى Capagnie Francise de Navigation of the Fabre Line . شد ساتي من نيواوليانز رحاله متجها نحو نيويورك، تلك المدينة التي صرم فيها من عمره ربع قرن كامل وعمل فيها كداعية إسلامي وأسس جمعية الوحدة الإسلامية Muslim Union Society ولم يغادرها إلا في عام ١٩٢٩م. ليس من

المبالغة القول أن مجيء ذلك السوداني المتوقد الحماس في بدايات القرن العشرين قد خلف أثرا غير من مجرى تاريخ قارتين، وأحدث آثارا بقيت إلى اليوم. لقد عمل الرجل ليجعل من الدعوة لدينه عملا قانونيا ومقبولا ومؤسسيا.

من علم ذلك الدنقلاوي القروي أن هنالك قطرا كبيرا بعيدا اسمه أمريكا يمكن أن يسافر إليه ويعمل كداعية فيه؟ وكيف تأتي له القيام بتلك الرحلة الطويلة، وما هو هدفه من ورائها؟ كان انتقال قروي من قرية «الغدار» الصغيرة لأمريكا يعد بمثابة حلم خرافي عصي التحقيق. كانت رحلة ساتي ماجد الخرافية تلك – رغم أنها قد تعد كغيرها رحلة سوداني (آخر) يهاجر لبلاد بعيدة- إلا أنها عند التمحيص تعد رحلة استثنائية خارج مألوف هجرة السودانيين السابقة واللاحقة. لقد عرف عن النوبيين – الذين ينتمي إليهم ساتي ماجد- شغفهم الجارف بالهجرة والترحال، وهم في ذلك يمتازون ويتمايزون عن غيرهم من بقية سكان السودان. لقد عرف النوبيون بإجادتهم لحرف الصيد وصنع القوارب والسباحة وساهم قربهم من النيل في تنقلهم عبر النيل إلى مصر وغيرها.

يمكن تتبع قصة ساتي ماجد من مصادر متنوعة في الخرطوم وبروكلين، فللرجل وثائق محفوظة لدي دار الوثائق المركزية بالخرطوم منها ما خطه الرجل بقلمه من مذكرات في الجريدة المصرية «البلاغ» في ثلاثينيات القرن الماضي ورسائله لعديد الأشخاص. وتفصح تلك الرسائل عن شخصيته ودوافعه واختلاطه وتفاعله المركب مع مختلف المجتمعات الأميركية والمصرية والسودانية التي عاش وسطها. تلقي تلك المصادر الضوء على عمل ساتي ماجد كداعية وفقيه وعلي الإسلام – عموما- والصعوبات التي واجهته في بداية القرن العشرين في أمريكا وتبرز أيضا الدور التاريخي الذي لعبه الرجل في أسلمة عدد كبير من الناس خاصة الأمريكيين من أصل أفريقي.

تقول د/ رقية أبو شرف أنها علمت الكثير عن حياة ساتي ماجد من من ما ذكره لها أحد أعضاء مؤتمر الخريجين والذي كان قد حظي بسماع سلسلة محاضرات للرجل ألقاها في أخريات الثلاثينات، وكذلك من بعض من بقي من البحارة النوبيين بأمريكا ومن الأمريكيين الأفارقة واليمنيين في بروكلين.

وطأت قدما ساتي الأراضي الجديدة وهو يحمل حقيبة صغيرة وآمالا كبيرة. عند وصوله لنيويورك قابله خمس رجال من السفارة التركية قاموا بمساعدته على الاستقرار في بروكلين وسط جماعة من المهاجرين اليمنيين وصار لهم إماما. ركز ساتي جهوده على أسلمة الأمريكيين من أصل أفريقي وكان يداوم – في ذكاء- على ربط شرحه

للإسلام لهم بالمشاكل الاجتماعية والسياسية التي كانت تجابههم .كان الحديث عن الدار الآخرة وعن نعيمها المقيم الذي يعوض عن حياة الفقر والاضطهاد يقع موقعا حسنا عند الأمريكيين من أصل أفريقي. ومع مرور السنين كون ساتي له أتباعا وتلاميذ مخلصين انتشروا في الأراضي الأميركية ظلوا يكاتبونه حتى بعد أن آب إلى مصر ثم السودان.

أخذ ساتي ماجد على عاتقه - إضافة إلى كونه إماما وداعية- أن يقوم بأعمال «مدنية / غير دينية» كممثل لجموع المسلمين في كل مكان. فلقد ظل يخاطب ساتي جهات عديدة مثل إدارة الهجرة وجهات حكومية أخري والقنصلية البريطانية في نيويورك والتي أرسل إليها خطابا في ٤ / ٨/ ١٩٢١ إنابة عن البحارة اليمنيين الذين كانوا يعملون لسنين عددا على السفن البريطانية وفقدوا وظائفهم في نيويورك وظلوا فيها قانعين بحياة فقر ومسغبة، كتب للقنصلية البريطانية راجيا إياها مد يد العون لهؤلاء البحارة باعتبارهم من رعايا المملكة المتحدة والتي خدموها – كما قال- «بكل إخلاص وتفان»، وذكر في خطابه أيضا أنه طلب إلى السيد/ جون رويكفيلر (أحد أقطاب الصناعة الأثرياء) إعانة أولئك البحارة العاطلين عن العمل بيد أن الرجل اعتذر بعدم وجود وظائف شاغرة لديه. أجابته القنصلية البريطانية ببرود معربة عن أسفها لحال أولئك اليمنين وعلي العمل – إن حانت الفرصة- لمساعدة هؤلاء الناس في المستقبل. زادت حماسة ساتي ماجد لمساعدة المحتاجين من السود والأجانب من التفاف العديد من المستضعفين حوله وأطلقوا عليه ألقابا متعددة منها «الأمام» و«المرشد الأعلى» و«الأب» و«شيخ الإسلام». تعدي نطاق عمله مدينة نيويورك فطفق يؤسلم وينشئ العديد من المنظمات الخيرية والجمعيات الاجتماعية ودور العبادة في مختلف المدن.

صادف وجود ساتي في تلك السنوات بأمريكا ظهور رجل يقال له درو على (المولود بكارولينا الشمالية في ١٨٨٦). كان الرجل قد أنشأ منظمة دينية في عام ١٩١٣ في نيوأراك الغرض منها إعادة اكتشاف هوية المجتمعات الأفريقية في أمريكا عن طريق التحول للإسلام. ولم يكن للرجل غير بضاعة قليلة مزجاة من التعليم الديني، بل إن الرجل ادعي أنه عثر على « النسخة الأصلية المفقودة من القرآن» وأنه آخر الأنبياء (لمزيد من المعلومات عن درو على أنظر:

http://en.wikipedia.org/wiki/Noble_Drew_Ali

كان ساتي يري في الرجل – رغم أن له أتباعا كثرا من الأمريكيين من أصل

أفريقي- مجرد دعي محتال كاذب، وكان يرى فيه منافسا خطرا على جهوده الدعوية ، وقام بنصحه بأن يهجر ما يدعو إليه وأن يلحق بركبه. رفض درو على تلك الدعوة مما دعا ساتي للسفر إلى مصر كي يتحصل على فتوى (رسمية) من الأزهر تكفر درو علي وتكذب ما كان يروج له من أن كتابه المقدس الجديد ودعواه الجديدة تحظي بموافقة علماء الحجاز والأزهر والمغرب.

ساند بعض رجالات الأزهر ساتي في سعيه لتكذيب دعاوي درو علي، بيد أن كبيرهم مصطفي المراغي رفض الخوض في الأمر بحسبان ساتي ماجد ليس من العلماء الأكفياء الذين يمكن أن يقوموا بالعمل الدعوي في بلاد كبيرة عظيمة كأمريكا. يعزو محمد عبد الحميد أحمد موقف شيخ الأزهر إلى التنافس والحسد المهني (المعتاد)، إذ لم يك للأزهر من مبعوثين أو دعاة في أمريكا أصلا في ذلك الوقت. لم يمنع ذلك الموقف ساتي من الاستمرار في محاولة الحصول على فتوى ببطلان نبوءة درو على ولكنه قرر أخيرا أن يعود أدراجه لأمريكا بيد أنه فشل في ذلك وطالت إقامته بمصر، ولم تنجح محاولات أنصاره من المسلمين في نيويورك في إعادته لهم لعدم حصوله على تأشيرة الدخول المطلوبة. ويقول البعض أن يد الأزهر قد تكون من بين الأيادي التي ساهمت في منع رجوع ساتي لأمريكا. أجبر ساتي أخيرا للعودة للسودان بعد أن ضاق به الحال في مصر . قدم ساتي عند أوبته لبلاده العديد من المحاضرات في نادي الخريجين في أم درمان . عاود الرجل أعماله الخيرية في السودان فقام بمساعدة عدد من الدناقلة المهاجرين (داخليا!) في الخرطوم وكون لهم رابطة تجمعهم، بل وأنشأ حي الدناقلة في الخرطوم بحري بعد أن كتب العديد من الخطابات للسلطات البريطانية المختصة في السودان مطالبا بمنحهم الأرض التي أقاموا عليها لاحقا ذلك الحي.

توفي ساتي في قريته في الغدار في عام ١٩٦٣ بعد أن سجل اسمه واسم السودان في تلك «الأراضي الجديدة البعيدة»............



«أشقاء» وادي النيل: شماليو السودان في مصر... هل هم لاجئين؟

انيتا فابوس

تقديم: هذا المقال القصير هو تلخيص لمحاضرة قدمتها أنيتا فابوس عام ٢٠٠٨م في جمعية الدراسات السودانية ببريطانيا في اجتماع جمعيتها العمومية، ولكتاب حديث صدر لها بعنوان: («أشقاء» أم غرباء؟ السودانيين المسلمين العرب، ٢٠٠٨م). أخذت الكاتبة كل الأمثلة الاثنية في هذا المقال من بحث أجرته في القاهرة بين عامي ١٩٩٤ – ١٩٩٧م، وقامت بتغيير أسماء الأشخاص الذين أوردت قصصهم هنا، باستثناء أسماء الشخصيات السياسية والتاريخية المعروفة مثل التجاني الطيب.

الآراء المذكورة في المقال المترجم تخص – بالطبع– الكاتبة، وقد لا تتفق بالضرورة مع بعض آراء ورؤى المترجم أو حتى السودانيين المهاجرين واللاجئين الشماليين والجنوبيين على حد سواء.

بدأت بحثي عن العرب السودانيين المسلمين في مصر بأمر محير حفز فضولي يتلخص في أمر العلاقة بين السياسة الاجتماعية و«اللاجئين» وكيف يرى الناس قضية «الانتماء». عينت في عام ١٩٩١م كباحثة رئيسة في مشروع صغير يبحث في أمر المصادر والفرص الدراسية والتدريبية المتاحة للاجئين في القاهرة. كان الغرض الرئيس من المشروع هو الاستعراف على هذه الفرص والمصادر المتاحة لغير المصريين، إذ إن أغلب الفرص والمصادر المتاحة مخصصة فقط للمواطنين المصريين. كان معظم اللاجئين الذين وفدوا على مصر في أوائل التسعينيات هم من السودانيين، خاصة الجنوبيين الذين تم إبعادهم من المعسكرات التي كانت مقامة حول العاصمة الخرطوم، والشماليين الذين هربوا من قبضة الحكم العسكري الذي جاء للسلطة بانقلاب في ١٩٨٩م. وخلافا لما كان يتعرض له اللاجئون من أرتريا وإثيوبيا والصومال، فلقد سمح المصريون للاجئين السودانيين بالمشاركة في البرامج التعليمية المصرية، بل تبين من إجابات المصريين المشاركين في البحث أنهم كانوا يشجعون اللاجئين السودانيين على المشاركة في هذه البرامج.

لكني كنت قد لاحظت أيضا أنه رغم أن الجنوبيين السودانيين كانوا يتكدسون في

مراكز المساعدات الكنسية أملا في التقدم لبرامج إعادة التوطين التي تنظمها السفارات الغربية، فلقد كان السودانيون الشماليون يصرون على أنهم ليسوا بلاجئين، ولن يقدموا لمثل تلك البرامج. إضافة إلى ذلك، فلقد كان المصريون يعدون السودانيين الجنوبيين «لاجئين» في مصر، بينما يقولون :إن الشماليين السودانيين «هم مثلنا نحن». كان كثير من زملائي المصريين يقولون لي :إن الشماليين السودانيين هم أخوة مسلمون وعرب و«أشقاء» من وادي النيل.

إلى وقت قريب كانت سياسة الحكومة المصرية تفرق تفريقا واضحا لا لبس فيه بين «المواطنين» و«الأجانب» فيما يتعلق بأمور الدخول والإقامة والحصول على الخدمات الحكومية والامتيازات، بل وحتى الدخول للأماكن السياحية. بيد أن المواطنين السودانيين كانوا يستثنون من هذه القوانين. يدفع معظم المهاجرين في مصر (حتى الذين عاشوا فيها لأجيال وأجيال) مصاريف باهظة لإدخال أبنائهم في المدارس الأجنبية واستئجار الشقق السكنية الغالية، ويدفعون أموالا كثيرة من أجل الرعاية الطبية الخاصة. كانت هنالك أمام المهاجرين الكثير من العوائق القانونية وغيرها لامتلاك العقارات، ولم يكن هنالك أمامهم من سبيل للتجنس بالجنسية المصرية إلا عن طريق الزواج من رجل مصري، أو عند صدور قرار رئاسي (في حالات نادرة جدا) بتجنيس مهاجر أو أكثر. وبصورة عامة لم تكن السياسة المصرية تشجع الاستيطان والتكامل بين المهاجرين، بل لقد وضعت مصر تحفظات متشددة على قوانين الدولة الصادرة في عام ١٩٥١م التي تحد من حرية العمل والتعليم والرعاية الصحية للاجئين.

رغم كل ذلك فلقد ظل السودانيون يتمتعون – ومنذ زمن طويل- بما يتمتع به المصريون في بلادهم، وكأنهم بذلك نالوا ما يشبه الجنسية المصرية. وتم تقنين ذلك في عام ١٩٨٢م بصدور قوانين التكامل بين مصر والسودان. إن هنالك الآلاف من السودانيين الشماليين الذين هاجروا لمصر قبل استقلال السودان واستقروا في القاهرة، حيث تلقوا التعليم المجاني في المدارس المصرية، وحظوا بفرص العمل أيضا. على النقيض من ذلك، فإن كثيرا من المهنيين السودانيين من شمال السودان كانوا ينظرون إلى فترة هجرتهم في السنوات القليلة الماضية في مصر وكأنها سنوات «منفى». لم تجد خبراتهم المهنية سوقا لها في مصر، كما كانت أماكن سكناهم المفضلة بين أحياء الطبقة الوسطى غالية الثمن بالنسبة لهم، لذا فلقد بقت السياسة المصرية الخاصة بمعاملة السودانيين بالمثل سياسة نظرية، إذ أن السودانيين الشماليين وجدوا أنفسهم مجبرين على دفع أثمان غالية نظير الخدمات الأساسية التي تقدم لهم. وما أن حلت أعوام

منتصف التسعينات حتى بدأ الكيل يطفح بالسودانيين الشماليين وبدأوا يحسون بأنهم صاروا فئة «مهمشة». وزاد الطين بلة أن الحكومة المصرية ووكالة اللاجئين التابعة للأمم المتحدة (التي عهد بها تحدد وضع هؤلاء المهاجرين) لم تصنف إلا عددا لم يتجاوز عدد أصابع اليدين ك«لاجئين» حقيقيين. لم تشأ الحكومة المصرية رسميا أن تعد «الأشقاء» في جنوب وادي النيل كلاجئين، إذ أنهم «كأخوة عرب ومسلمين ومحاربين ضد الاستعمار» لم يأتوا لمصر طلبا للحماية، بل هم «بين أهلهم وذويهم».

لقد وضعت تلك السياسة «المحتارة/ المحتاسة؟» أمامي سؤالين عويصين. أولهما: كيف يتعامل صانعو السياسة في الدولة المضيفة عندما يكون طالبو اللجوء أناسا ينتمون لمجموعة قومية تشاركهم في الدين والثقافة والهوية التاريخية. وثاني الأسئلة هو: كيف لنا أن نفهم الهوية القومية/ الوطنية في ظل غياب كامل لحدود قومية واضحة وجلية؟ وهذا هو موضوع بحثي الذي أجريته في القاهرة.

هويات «فوق- قومية/وطنية» في عالم يقوم على نموذج دولة الأمة:

كنت قد كتبت كتابي المعنون «أشقاء أم غرباء؟» كرواية من الروايات البوليسية التي قمت فيها بسوق القارئ عبر طرقي الخاصة المتشعبة التي تستكشف أحوال السودانيين الشماليين في مصر، وعن التحدي الذي يواجه الهوية السودانية حيال مسألة التفسيرات المعاصرة لكيفية خلق الناس للانتماء وكون المرء «من الآخرين». ومقالي هذا هو ملخص ملاحظات مفتاحية عن «سياسة اللاجئين» كشأن داخلي.

يجب في البدء أن نعي أن هنالك بالإضافة إلى«الهويات القومية/ الوطنية» التي يعتقد كثير منا في ضرورتها، فإن هنالك أيضا «هويات شاملة» (وهي ترجمة غير حرفية لهويات مظلية umbrella) تشمل أعضاء القوميات أو حتى مجموعات من القوميات. استعمل هنا لفظة «هويات فوق القومية/ الوطنية» حتى أبين التعقيد التاريخي المعاصر لهوية السوداني العربي المسلم في مصر. إذ أن السودانيين ليسوا فقط «أقلية» في مصر لهم علاقات هوية مع غيرهم من المهاجرين السودانيين، بل هم أشقاء مسلمون وعرب ومستعمرون سابقون من قبل البريطانيين في وادي النيل.

تشارك شماليو السودان مع المصريين في عدة صفات متعلقة بالهوية «فوق القومية/ الوطنية». أول تلك الصفات هو الامتداد الجغرافي لوداي نهر النيل، ثم الأصول المشتركة (المدعاة) للحضارة الفرعونية على جانبي الحدود المعاصرة. يشير تعبير (أشقاء وادي النيل) المحبب لدى المصريين إلى الأصول المشتركة من الدم والقرابة والمجتمع عند سكان وادي النيل. أما ثاني تلك الصفات، فعلى الرغم من أن الوجود

التاريخي لهويات متنافسة (مثل الوطنية المصرية التي تمجد مصر قبل دخول العرب إليها) إلا أن المصريين والسودانيين يشتركون في تراث وثقافة وأصل عربي واحد. كان لدور جمال عبد الناصر في إنشاء جامعة الدول العربية (هذا ليس صحيحا بالطبع. المترجم) ولتأييد المصريين والسودانيين للقومية العربية دورا كبيرا في تغذية هوية عربية «فوق- قومية» مشتركة بين الشعبين.

ارتبط الشعبان السوداني الشمالي والمصري أيضا بهوية دينية مشتركة، منذ قيام دولة قبطية على شاطئ النيل في الفترة البيزنطية، وانتشار الإسلام عن طريق التجارة والبعثات الدراسية وتكوين الروابط الدينية المشتركة. والإسلام – كدين عالمي- يدعوا للترابط بين المسلمين خلال إطار «فوق-وطني/ قومي»، إذ أن «دار الإسلام» لا تحدها حدود رغم ممارسات وتاريخ المسلمين عبر العصور في هذه البسيطة. وهنالك رابط معاصر يربط الشعب المصري بالسوداني وهو كفاح الوطنيين في البلدين ضد من استعمرهما معا: بريطانيا العظمي. لقد مثل «حزب الوفد» المصري (الداعي لوحدة وادي النيل) المقاومة المصرية للحكم الاستعماري مثلما مثلها في السودان «الحزب الاتحادي الديمقراطي»، وهما يناديان معا بالقومية العربية ويساندان حركات التحرر في أنحاء العالم المختلفة. تنافست هذه القوميات الوليدة على تأييد شعبي وادي النيل، مع بقاء الدولتين مستقلتين ومشاركتين كعضوين في جامعة الدول العربية، وتخطت بذلك حلم دولة موحدة لمصر والسودان.

إضافة إلى لذلك فإن في السودان شعبا آخر له هوية ودين غير الهوية العربية الإسلامية. كان هذا سببا لبذر بذور الشقاق السياسي في البلاد الذي يعد إرثا خلفه الاستعمار. رغم ذلك فإن المصريين كانوا يرون أن بين السودان ومصر من الوشائج والعلائق «فوق-القومية/ الوطنية» ما يكفي لطمس متطلبات المواطنة في البلدين واستقلالية كل بلد بمفرده. لقد عضدت مئات السنوات من الهجرة والتصاهر والتجاور والتقارب والتعليم والأخوة الدينية من الهوية المشتركة. ولعل أفضل مثال على تأكيد مصر على دعوى «هوية وادي النيل» هو أن أصول حاكم مصر الأول (محمد نجيب) والثالث (أنور السادات) كانت خليطا من شمال السودان ومصر. وفي عام ١٩٨١م وقع الرئيس السوداني جعفر نميري والرئيس المصري أنور السادات اتفاقية التكامل بين البلدين، وهي الاتفاقية التي تناولت جوانب تتعلق بالتعليم والاقتصاد والتنقل بين القطرين، مع احتفاظ كل قطر باستقلاليته. تم كذلك إنشاء برلمان مشترك سمي «برلمان وادي النيل» لتعميق مفاهيم التكامل، وأعطي المصري في السودان، والسوداني في مصر حقوقا تشبه حقوق المواطن في بلده.

كان للسوداني الشمالي عدة أسباب ليستقر في مصر. أتى كثير من العمال السودانيين للعيش في مصر والارتباط بالمؤسسات المصرية. قابلت في مدينة أسوان المصرية «ميساء»، وهي امرأة تفيض بالحياة في السبعينات من عمرها. ولدت «ميساء» في مصر لوالدين كانا قد هاجرا لأسوان من «مروي» في شمال السودان في عشرينات القرن الماضي خلال فترة الاستعمار البريطاني المصري. كان الجيش البريطاني يجند السودانيين للعمل في صفوفه في كل المهن والرتب والتخصصات. فمثلا كان سلاح الهجانة الذي يحرس الحدود السودانية المصرية يتكون كله من السودانيين. تزوجت «مياسة» من ابن عمها السوداني الذي تخرج من الكلية الحربية وعمل ضابطا في الجيش المصري البريطاني. أثمر زواجهما عن أربعة أولاد عاشوا في أسوان ونال اثنان منهم الجنسية المصرية رغم أن «ميساء» وزوجها بقيا في مصر بعد استقلال السودان في ١٩٥٦م واحتفظا بجنسيتهما السودانية. وظلت «ميساء» تنال معاش زوجها كضابط في الجيش المصري حتى بعد وافته في السبعينيات.

لعبت مصر بعد استقلال السودان دورا هاما في احتضان السياسيين السودانيين المعارضين والمنفيين. من أهم هذه الشخصيات التجاني الطيب، أحد قادة الحزب الشيوعي والذي هرب إلى مصر في التسعينات. كان لأستاذ التجاني صلات شخصية وسياسية وثيقة بمصر عندما كان طالبا في الجامعة المصرية في الأربعينات، وكان عضوا في الحركة الشيوعية المصرية. في عام ١٩٤٨م سجنت السلطات المصرية التجاني الطيب لمدة عام كامل بحجة أنه كان يمثل «خطورة» على الأمن المصري، وتم ترحيله للسودان حيث أسس مع غيره الحزب الشيوعي السوداني. ظل التجاني نشطا في ذلك الحزب لعقود طويلة، ومع توالي الأحداث لجأ التجاني إلى القاهرة. وفي الواقع أن مصر وفرت في سنوات التسعينات مناخا مناسبا للمعارضة السياسية حيث كانت مقرا دائما لكثير من قادة الأحزاب السودانية.

التغيير الاجتماعي والالتزام بمعايير سلوكية وأخلاق عالية

لا يعني ما ذكرناه آنفاً أن المصريين والسودانيين لم يكونا يدركان مدى الفروقات بينهما، ولكني أزعم أن الشعبين ظلا يقاومان التفسير الذي يقول إن تلك الفروقات تأخذ شكل «الهوية العرقية». وظهر مثل هذا الفهم عندما بدأت في إشراك بعض الزملاء البحاثة السودانيين والمصريين في اهتماماتي البحثية. سجلت بعض الملاحظات التي وردت من بعض المصريين على موضوعي البحثي حول هوية السودانيين في مصر. فلقد قال بعضهم: «انظر للأرمينيين في مصر. هم جماعة عرقية لأنهم يتحدثون

لغة مختلفة ويدينون بديانة مختلفة وهكذا. سيكون من الخطأ الحديث عن السودانيين في مصر كجماعة عرقية مستقلة إذ أنهم لا يختلفون عن المصريين!»

بينما قال أحد السودانيين: «إن المشاكل موجودة فقط بين الحكومتين، وليس ثمة خلافات بين الأشقاء في وادي النيل. ستزول حتماً هذه السحابة العابرة».

رغم كل ذلك بدأ التوتر الناشئ بين الحكومتين المصرية والسودانية يظهر أثره السيئ على السودانيين في مصر، حيث أضيفت على كاهلهم أعباء إضافية في أمور عديدة مثل إدخال أبنائهم للمدارس وتجديد الإقامات والالتحاق بدورات تدريبية والعثور على وظائف. وما أن شارف عقد التسعينات من العقد الماضي، حتى كان السودانيون في القاهرة قد آمنوا تماماً أن ثمة خطأ ما في الشعار الذي ينادي بوحدة الأشقاء في وادي النيل. وعمت موجة من الغضب العارم والغبن الشديد المواطن السوداني في مصر نتيجة لضغوط معاناته اليومية، والمعانات التي كان يتجرعها، ولفقدانه لحقوق قانونية مساوية لـ«شقيقه» المصري، وكذلك لتجاهل الحكومة المصرية لمطالبه واحتياجاته وغمطها لحقوقه.

أجمع دارسو علم الأجناس البشرية (الأنثربولوجيا) من زمن بعيد على أن المجموعات البشرية التي تتعرض لموجة تغيير وتجابه أزمة ما (وتحس بخطر محدق على رفاهيتها، أو حتى على وجودها) عادة ما يجدون ضالتهم في هوية جديدة، وقد يتضاعف شعورهم بالانتماء لهذه الهوية الجديدة لدرجة الإفراط. وهذا بالفعل ما حدث أثناء صراعات معلومة ومشهودة كان مصدرها «العرق» أو «القومية»، حيث تجد المجموعات البشرية التي كانت تصف نفسها بأنها كانت تعيش (أو تتعايش) مع جيرانها في أمن وأمان وأخوة نفسها فجأة في حالة صراع وحرب مع هؤلاء الجيران، فتتخذ من الأسباب والذرائع ما يبرر هذا الصراع والحرب. ويحضرنا هنا مثال حرب الهند والباكستان، ومثال دولة يوغسلافيا التي انقسمت لدويلات عرقية/ قومية مختلفة. وفي هذا الصدد نجد أن عالم «الأجناس البشرية» تون برنقا قام عقب حرب البلقان بتصوير شريط وثائقي عن العملية التي تفرق فيها «الكروات» و«المسلمون» في قرى كانوا يسكنونها معاً، حيث ذهب كل فريق منهم لقرى فيها جماعته، وانقلبوا من بعد ذلك إلى أعداء الداء بصورة عنيفة لم يتصورها أحد عند بداية الصراع. نجد في هذا الشريط الوثائقي بعض الأصدقاء من «الكروات» و«المسلمين» الذين كانوا يتناولون قهوة الصبح سوياً على مدى أربعة عقود طوال، يحاربون ويقتلون بعضهم بعضا. كل ذلك دليل أكيد على مدى قوة تأثير «الكرامة» و«العزة» و«الخوف» الذي يصاحب

مشاعر الانتماء لهوية أو قومية ما.

كذلك وجد السودانيون في مصر مشاعر إيجابية نحو المجتمع المصري مختلطة بمشاعر نتجت عن شعورهم بالإقصاء والعزل. قضى بعض السودانيين (مثل السيدة/ «ليلى») أغلب سنوات حياتها بعد بلوغ سن الرشد في مصر، وتعد العديد من المصريين كخير أصحابها المقربين. أتت «ليلى» إلى مصر للدراسة الجامعية في جامعة القاهرة في الثمانينات، وعادت لبلادها بعد حصولها على درجتها الجامعية. بيد أنها آبت لمصر مجددا، ومع كامل أفراد أسرتها هذه المرة، بعد أن هاجر والدها الموظف الحكومي الكبير من السودان فراراً بآرائه السياسية المعارضة للحكومة، واستقر بهم المقام جميعاً في مصر. حصلت «ليلى» على وظيفة ممتازة مع منظمة «غير حكومية»، وكانت تسكن مع عائلتها في شقة مريحة، وتتمتع بصداقات متنوعة مع مصريين وسودانيين كثر. بيد أنها بدأت تحس بما يعانيه السودانيون – بصورة عامة – في مصر بعد عام ١٩٩٥م، وأحست بأنه ما عاد ممكناً لها أن «تتوافق» مع المصريين. كانت تشتكي من أن الجيران صاروا أكثر وقاحة مع عائلتها، وبدأت تقتنع بأن المصريين «تغيروا»! وبعد وفاة والدتها هاجرت «ليلى» مع بعض أفراد أسرتها للعيش في كندا.

هنالك أيضاً قصة «حمدي»... التي توضح بجلاء أكثر قصة تحول «الوطن» إلى «قومية أجنبية». مثله مثل «ليلى» درس «حمدي» في جامعة القاهرة، وتزوَّج من فتاة مصرية نوبية. عاد «حمدي» مع زوجته النوبية للوطن، حيث حصل على وظيفة ممتازة في إحدى الوزارات. تم فصله من وظيفته في عام ١٩٩٤م لأسباب سياسية، فلم يملك إلا أن عاد هو وزوجه إلى مصر مرة أخرى حيث حفيت قدماه وهو يبحث عن عمل يعيش من دخله، إذ أن المخدمين المصريين لم يكونوا على استعداد لتعيين سودانيين، إذ أن النظرة لهم الآن قد تغيرت، وصاروا «أجانب»، ولا يحق لهم منافسة المواطنين المصريين في فرص العمل المحدودة. فشل «حمدي» في حمل أصدقائه القدامى من المصريين على تسهيل أمر حصوله على الأوراق اللازمة لاستخراج «تصريح عمل» له. كذلك لم يجد «حمدي» في نفسه رغبة في العمل في «وظائف هامشية» لا تتناسب مع وضعه السابق كموظف حكومي كبير! واضطرت زوجته لإعالته والنفقة على نفسها وطفلها بالعمل كحنانة، وكانت تذهب من بيت لبيت تجر طفلها الصغير أينما ذهبت، بينما كان زوجها يقضي سحابة نهاره في المقاهي يتحدث في أمور السياسة ويقرأ الصحف اليومية، ويمضي ليله في بيوت الأثرياء من السودانيين حيث يغرق أحزانه المتراكمة، ويعود مع تباشير الفجر لزوجته الغاضبة الحانقة. فشل «حمدي» في الحصول

على صفة «لاجئ» فلم يجد أمامه سوى اتخاذ الخطوة الجريئة والخطرة بالعودة للوطن.

لعل تجارب «ليلى» وحمدي في مصر وضيقهما بـ«الأخوة» المصرية ليست وقفاً عليهما، بل هي صفة ملازمة لكثير ممن قمت بالحصول على إفادتهم في بحثي، وتحمل كثير من المنظمات الثقافية والعرقية وغيرها ذات المشاعر، إذ أن هذه المنظمات ما أنشئت إلا استجابة لشعور السودانيين بالغبن والعزلة. رغم كل ما قيل فإن السودانيين – رغم مشاعر الإحباط والغضب مما يحدث لهم – وتعجبهم من مواصلة المصريين الحديث عن شعارات «الأشقاء» و«وحدة أبناء وادي النيل» رغم ما يفعلونه بهم، فإنهم لم يقوموا باتخاذ أي موقف عدائي واضح ضد مصر أو المصريين. لاحظت أن كثيراً من السودانيين الذين كانوا يساعدونني في بحثي كانوا لا يزيدون عن انتقاد سوء تعامل المصريين معهم، ووقاحة صبيتهم واستخفاف رجالهم بهم والمعاملة «الخشنة» التي كانوا يجدونها من نسائهم. بالطبع تندرج كل تلك التعليقات على مشاعر ذاتية تجاه «إخوتهم السابقين» ويصعب التحقق منها موضوعيا. تشمل تلك المشاعر الذاتية أشياء مثل عدم رد السلام بطريقة لائقة مع الجيران، وأن المصريين يتبادلون الشتائم على الملأ وهكذا. وردد بعض من سألتهم من السودانيين جملا مثل: «والله المصريين ديل ما مؤدبين»! وبدا لي هذا القول وكأنهم يبنون جداراً عازلاً حول هويتهم..

إن اختيار بعض السودانيين لبناء هذا النوع من الجدار العازل لهويتهم تمييزاً لهم عن المصريين (على اعتبار أنهم أوفر أدبا) أمر يدعو المرء للتأمل. لقد استدعت الجماعات العرقية المهاجرة المختلفة ما تعتقد أنه يميزها عن غيرها في جانب «التفوق الأخلاقي». معلوم أن المصريين والسودانيين (العرب المسلمين) يتشاركون في ذات القيم الأخلاقية، ويؤمنان بأن السلوك القويم للنساء والرجال يستمدان مصدرهما من قيم أصلية تستند إلى تعاليم الدين الإسلامي والعروبة التي تحض على فضائل التواضع والكرم والضيافة والكرامة والمساواة الاجتماعية. تلك هي ذات القيم التي يؤمن بها العرب والمسلمون في مصر والبلدان الأخرى. إذن لم استعمل (بعض) السودانيين في مصر «الأدب» كعلامة فارقة تميزهم عن المصريين؟ إن نتائج بحثي تشير إلى أن التزام السودانيين بمعايير سلوكية وأخلاق عالية propriety كعلامة هوية مميزة تتيح لهم إمكانية تحوير و«إعادة تفسير» قواعد السلوك بطريقة مرنة تبعد أو تقرب المصريين منهم حسب ما تمليه الظروف.

****

هوية ملتبسة Ambiguous ethnicity:

يمكننا أن نستخلص مما سبق أن السودانيين الشماليين في مصر في عقد التسعينات سلكوا -باختيارهم- مدخلا مرنا وملتبسا لتثبيت هوية جماعتهم. ولهذه الغاية يستدعون كل خصائص السلوك العربي الإسلامي، والتي يتشاركون فيها مع المصريين. وبهذا فإنهم يجدون طرقاً دقيقة وغير ملحوظة لتمييز أنفسهم عن المصريين، مع المحافظة في ذات الوقت على مظهر خارجي يؤكد التضامن والتوحد معهم. لقد تعرضت في كتابي للطرق والوسائل التي سلكها رجال ونساء السودانيين المهاجرين في مصر لتثبيت دعائم «تفردهم» بطرق محددة، معتمدين على خاصية «الأدب»، مع الأخذ في الاعتبار سطوة الدولة المصرية.

يبقي السؤال قائما: هل يعد السودانيون في مصر مهاجرين أم لا؟ الإجابة كما هو متوقع هي نعم ولا. إن كثيراً من السودانيين الذين يسافرون ويعودون من مصر بصورة متكررة بغرض العلاج أو التعليم أو السياحة أو العمل لا يعدون أنفسهم «مهاجرين»، بيد أن كثير من الساسة السودانيين المعارضين سعوا للحصول على وضع مختلف. في نهاية أعوام التسعينيات نجحت منظمة اللاجئين التابعة للأمم المتحدة مصر والمجتمع الدولي بالموافقة على منح السودانيين الشماليين الحماية وصفة «لاجئين سياسيين» للذين تنطبق عليه الشروط المعلومة. رفضت مصر العودة الكاملة للوضع القديم الذي يعد السوداني «شبه مواطن». عرض على كثير من هؤلاء المهاجرين إعادة التوطين في دولة ثالثة مثل الولايات المتحدة وكندا وأستراليا.

عاد أمر «التكامل» بين الشعبين في عام ٢٠٠٥م إلى الواجهة عقب فض الشرطة المصرية المسلحة لاعتصام سلمي استمر لثلاثة أشهر قام به بعض المهاجرين السودانيين في ميدان عام أمام مكاتب منظمة اللاجئين في وسط القاهرة، وحامت شكوك قوية حول إمكانية تنفيذ اتفاق «الحريات الأربعة» والتي وقعها الرئيسان حسني مبارك وعمر البشير، خاصة عند أولئك الذين لا يشعرون بأن المصريين يرغبون في إقامة علاقة «أخوية» معهم. كان هؤلاء يشعرون بأن اتفاق الحريات الأربعة (التنقل والعمل والإقامة والتملك) للمصريين في السودان وللسودانيين في مصر لا تخصهم في كثير أو قليل، وأنهم سيظلون «معزولين» في مصر، ويخسرون كذلك فرصة إعادة التوطين في بلد ثالث.

ما أن خرج «جني» اللجوء من قمقمه، حتى تزايد زهد قطاع كبير من السودانيين في مصر في التكامل الرسمي بين القطرين «الشقيقين».

الموت على النيل

كريستوفر لافي

تقديم: نشرت وقائع هذه الرحلة – مع بعض الصور- في المجلة الطبية البريطانية (BMJ) في ديسمبر من عام ١٩٨٨م، وكان الكاتب الإنجليزي حينها قد تخرج لتوه طبيبا. تخصص الكاتب فيما بعد كجراح عظام وعمل في بريطانيا وملاوي. رغم محاولات الكاتب لجعل القطعة تبدو كمذكرات ساخرة فكهة،إلا إنها تبعث أيضا على الحزن والأسى والتفكير في «الضل الوقف ما زاد» وفي «عبء الرجل الأبيض» الذي مازال يراوح مكانه رغم تطاول السنين.

لحسن الحظ لم يكن الموت من نصيبي أو من نصيب صديقي ومرافقي نك. بيد أنه كان من الممكن أن تصدق هذا إذا رأيتنا منبطحين على ظهورنا على سطح الباخرة المتجهة من أسوان إلى وادي حلفا ونحن نمسك ببطوننا ونتأوه من المغص الممض الذي يسمونه «خطوات رقصة القاهرة السريعة».

لقد قطعنا نحو ثلث الطريق في رحلتنا مع النيل من البحر الأبيض المتوسط إلى بحيرة فيكتوريا، وكنا دائمي التفكير في باقي رحلتنا الطويلة، والتي كان من المؤمل أن تستغرقنا بالباخرة نحو ثلاثة أيام. أقصد بكلمة «الباخرة» هنا، مركبًا قديمًا ربطت على جانبيه ثلاث مراكب صغيرة بحبال مهترءة لا تبعث أبدا على الثقة. كنا نؤمل أن نستأجر بالجنيهات المصرية الثمانية التي تبقت لدينا قمرة (كابينة) في تلك الباخرة، بيد أننا آثرنا الاقتصاد في النفقة، وبذا وجدنا نفسينا نقف في صف الانتظار مع جمهرة كبيرة من ركاب السطح للظفر بدخول المرحاض القديم والوحيد، والذي كان ينظف لمرة يتيمة عند السادسة صباحا...ويا لسعادة من يجد نفسه في مقدمة الصف عند الساعة الخامسة والدقيقة التاسعة والخمسين!

وصلنا أخيرا لمحطة وادي حلفا، وكانت مخيبة لآمالنا. يقول الدليل السياحي إن المدينة الأصلية من أشد مدن الأرض حرارة، وهي المدينة التي بدأ منها كتشنر قطاره الصحراوي. لقد غرقت تلكم المدينة ببحيرة ناصر الاصطناعية وراء السد العالي في عام ١٩٦٩م، وتم إعادة توطين الأهالي، ولم يتبق من المدينة إلا اسمها الشهير ومحطة قطار السكة حديد وبضعة بيوت متهالكة.

قضينا يوما سعيدا في حلفا في انتظار القطار الذي سيقلنا لمدينة الخرطوم. كنا سعداء فقط لمجرد كوننا ما زلنا على قيد الحياة، وعلى اليابسة. وفوق كل هذا وذاك كنا سعداء لتمكننا من احتساء أكواب بعد أكواب من الشاي الساخن المفرط الحلاوة.

ليس للقطارات من وادي حلفا جدول زمني معلوم، وما على المسافر سوى الانتظار، وسيصل القطار في نهاية المطاف! وصل قطارنا ونحن نحتسي أكوابًا متتالية من الشاي، فأسرعنا بالعدو على الرمال لنصل إلى القطار، والذي ما أن وصلناه حتى وجدنا على كل مقعد ثلاثة أشخاص! لعلها عادة بريطانية غريبة أن تذرع وسط القطار المزدحم بالركاب مشيا، وكأنك – ولسبب غير مفهوم- ستجد مقعدا شاغرا نسيه الآخرون! لم يسفر بحثنا بالطبع عن مقعد شاغر، بل وجدنا جموعا من السودانيين بجلابيبهم البيضاء، مع أرتال أحمالهم ولفائفهم وصناديقهم التي لا تحصى...كانت كل الأبواب والطرقات مغلقة بمقتنيات الركاب، ولم يكن لنا من تسلق أحد النوافذ من بد للدخول لإحدى القمرات!

لقد كانت أفريقيا – ولعلها ما زالت- أرضا للعجائب والغرائب. لم نكن نتوقع أبدا عندما دخلنا القطار قفزا من إحدى النوافذ أن نجد بجانبنا في المقعد المقابل شيخا كبيرا وحوله بحيرة من القيء، وهو في حالة ضيق تنفسي شديد. فكرت – رغم أنني ما كنت إلا طبيبا عموميا حديث التخرج يتدرب كي يغدو جراحا للعظام- في أن المريض قد يجد بعض الراحة إن أبقيناه على جانبه تفاديا لدخول قيئه في مجرى التنفس. أفلحنا وبلغة إنجليزية سقيمة في أن ندبر العون من جيرانه لتحريكه كي يرقد على جنبه، وما أن نجحنا في ذلك حتى تنهد الشيخ المحتضر في ارتياح لوضعه الجديد. كنا نعلم علم اليقين أننا كنا إنما «نؤخر» موته لبضع دقائق فقط. بعد هذه الحادثة وجدنا أنفسنا وكأننا أساتذة طب جامعيين زائرين. أعتقدت من رائحة القيء المميزة التي علقت بهواء القمرة الساخن، ومن شكل القيء الذي يشبه «ماء الأرز» أن الرجل كان مصابا بداء الكوليرا. بعد دقائق أسلم الشيخ الكبير الروح، فقام أحد مرافقيه بربط إصبعي رجليه الكبيرين في احترام، ولفه في ثوب أبيض، وأنزل الجثمان من القطار وسط عاصفة حزينة من البكاء والعويل والصياح. قام أحد الركاب بمسح مقعد الشيخ المرحوم على عجل، وعرض علينا الجلوس عليه. ترددنا قليلا، إلا أننا، وخوفا من خرق قواعد اللياقة والكرم المحليين، قبلنا بالعرض. ورغما عن الرائحة العالقة، فلقد حمدنا الله كثيرا على نعمة الجلوس، إذ أن عشرين ساعة تنتظرنا في ذلك القطار قبل الوصول للخرطوم.

معلوم أن الأخبار تنتقل بسرعة البرق في المجتمعات الضيقة، إلا أن خبر أن هنالك طبيبا بالقطار لابد أنه سرى بين الناس في دقائق معدودة. لن أشتكي أبدا من كثرة المترددين على عيادة العظام في مدينتي «باث» بعد تلك الساعات العشرين التي تلت جلوسنا على مقعد ذلك الشيخ الراحل. تراص العشرات من المرضى في صبر جميل أملا في سماع رأينا الطبي في حالاتهم التي شملت أمراضا مثل التراكوما والسل، مرورا بالدراق ومجموعة من الأمراض الجنسية. حاولت دون جدوى أن أشرح لهؤلاء المرضى أنني أكملت منذ ثلاثة شهور فقط عاما واحدا في التدريب بعد التخرج، وأنه لم تتح لي أبدا فرصة التعامل مع مثل هذه الأمراض التي يعانون منها. بيد أنهم ظلوا في إلحاح وصبر عجيبين يصرون على أن أقوم بفحصهم. تأثرت كثيرا بالآمال العراض التي كانوا يعلقونها على فحصي لهم، وعجبت أكثر لقطار واحد يحمل من الحالات المرضية ما قد يكفي لملء كتاب مدرسي ضخم. لكن كان أكثر ما ساءني وترك أثرا لا ينسى على هو ذلك الإيمان البسيط لدى هؤلاء الناس بقدرتي على مداواتهم وشفائهم. لن أنس منظر ذلك الشاب الذي أتى يسوق أباه الضرير منذ ولادته، وإطلالة الأسى في عينيه عندما صارحته بأن ما من شيء أستطيع فعله لرد بصر أبيه.

كانت تلك بحق «عيادة العمر»: انقضت ٢٠ ساعة – خلا وقت قصير للنوم والأكل- ليس لأن سيل المرضى قد توقف، بل لأننا وصلنا الخرطوم. عندما نزلت منهكا في محطتها كنت شخصا آخر أكثر حكمة وعلما. وتحت مروحة مقصف المحطة نبهت رفيقي «نك» ألا يذكر كلمة «طبيب» مرة أخرى في قطار!



فخور بكوني من النوبة: وجوه وأصوات

Proud to be a Nuba: Faces and Voices

لمؤلفه: ناني أو بتندي Nanne op't Ende

عرض: شيري ليو ناردي (Sudan Studies,36, 2007, 56 -58)

هذا كتاب بديع الإخراج يذخر بصور أخاذة محدثة وتليدة. إنه كتاب جدير بمكان بارز على طاولة القهوة في أي منزل. بيد أن الكتاب ليس من نوع تلك الكتب المصورة التي عادة ما توضع على طاولة القهوة للزينة والفرجة العابرة لما تحويه من تصاوير الأفارقة بألوانهم الزاهية. يعلن المؤلف بصريح العبارة عن أنه يمج كتب التصوير الاثنية التي يطلب فيها المصور من الجمهور الاستعداد للتصوير، مثلما هو الحال مع معظم الكتب المصورة عن سكان جبال النوبة. انتقد المؤلف الأعمال السابقة للمصورة ليني رايفنشتال لتزييفه للواقع وعبر عن استهجانه لتصوير بعض المشاهد التي لا تحترم الكرامة الإنسانية مثل تلك الصور لشيخ كبير وهو عريان رغم أنه شمل هذه الصور في كتابه!

إن كتاب «فخور بكوني من النوبة: وجوه وأصوات» كتاب سياسي أكثر منه كتاب في علم الأنثربولوجيا (علم الإنسان/ الأجناس). فهي يبحث في «هوية» النوبة من الناحية السياسية أكثر من الناحية الثقافية. ولقد أضاف الكاتب بعضا من يومياته وذكرياته الحميمة (والمرعبة أحيانا) في مناطق جبال النوبة منذ عام ١٩٩٧م. وفي منتصف الكتاب سطر الكاتب طرفا من تاريخ النوبة في نحو ما يربو على عشر من الصفحات. وفيما عدا ذلك فإن كل محتويات الكتاب تقريبا قد خصصت لتسجيل «أصوات نوبية» مباشرة هي عبارة عن مقابلات. ولا بد هنا من أن نخص بالذكر مقابلة مميزة مع يوسف كوة مكي، ومقابلات مع قادة نوبة كثر في المجالات العسكرية والسياسة بينهم نساء بارزات. ولم يكن معظم ما صرح به من قابلهم الكاتب مفاجئا أو غريبا لمن خبر الإقليم، بيد أن فحوي تلك المقابلات يعطي المرء شعورا قويا بأحاسيس ومشاعر وتجارب أولئك النفر بأوقع مما يمكن أن تفعله السير الأثنوغرافية المعتادة. وتشكل هذه المقابلات المختلفة وبنهج تدريجي صورة للوضع المعقد للهويات السياسية والثقافية في جبال النوبة وخاصة علاقتها بالحركة الشعبية

لتحرير السودان وبجنوب السودان. يسود قلق وحزن وهم ثقيل من أن الجنوب والحركة، خاصة بعد موت جون قرنق قد (أو سوف) يتجاهل سكان جبال النوبة، رغم كل ما قدموه من تضحيات في العمل العسكري خلال أيام الحرب. كما تعرض المؤلف لإفادات مثيرة عن حركة طلاب النوبة (كومولو Komolo) التي تكونت في السبعينيات من القرن الماضي وعن الخلافات التي ظهرت بين القادة العسكريين إبان حرب الجنوب ونتج عنها اعتقال تلفون كوكو. وشملت المقابلات في الكتاب مقابلتين مع امرأتين من المسيرية مما يعد مثالا طيبا على روح التسامح والقبول الذي يسود أحيانا بين القبائل المتخاصمة.

من عيوب استعمال مثل هذا النوع من المقابلات أنها تعكس فقط آراء معينة لأفراد بعينهم من القادة السياسيين والحركات المسلحة في المنطقة، وبخاصة مع من تحالفوا مع الحركة الشعبية دون غيرها. وفيما عدا ما ورد في صفحات قليلة في الجزء الذي تطرق فيه المؤلف إلى تاريخ النوبة، فإن المؤلف لم يتطرق إلى تلك الأسئلة المحيرة عن أولئك النوبة الذين وقفوا إلى جانب «الحكومة»، وعما يدل عليه هذا التحالف في أمر هوية النوبة وعن رأيهم في وضعيتهم ومكانتهم في السودان. كذلك لم يحاول المؤلف أن يستفيض في أمر اندماج النوبة في الثقافة والممارسات الثقافية والدينية التي ترتبت على عمليات التعريب والأسلمة في جبال النوبة. ولا يكاد مؤلف هذا الكتاب يأتي على الإسلام بأي ذكر. كذلك خلت الصور التي ضمنها المؤلف كتابه من أي تعليقات أو شرح. وختاما فإن الصور والنصوص التي أوردها المؤلف من الوثائق السودانية القديمة كان ينبغي أن تصحب بتفاسير وشروح وذلك لمصلحة أي شخص ليست له دراية باللغة المسيئة التي تحط من قيمة النوبة والشائعة الاستعمال عند إداريي الحقبة الاستعمارية.

اعتبر هذا الكتاب تقديما مقدرا لشعب جبال النوبة، أفلح فيه المؤلف في تقديم صورة حية متعاطفة وحميمة لهذا الشعب وحياته وآرائه السياسية وتجاربه ... كل ذلك عبر مقابلات مع أفراد مختارين من هذا الشعب. وسيكون هذا الكتاب عند من يقرؤه من أبناء وبنات النوبة محل ترحيب، إذ سيكون مفيدا لهم في عرض قضيتهم ونشرها على الملأ، وسيكون سجلا خالدا لأجيال قادمة من هذا الشعب. ولا يقلل كثيرا من قيمة الكتاب (في جوانب النقاش والصراع الفكري الدائر حول موقع النوبة في السودان الكبير) أنه عرض وجهة نظر واحدة في قضايا الهوية والسياسة والثقافة. فعلي الأقل ينبه الكتاب إلى طبيعة النوبة الثقافية المتميزة والتي تم تجاهلها في أحيان كثيرة. وفوق كل هذا وذاك نحمد للمؤلف إصداره لهذا الكتاب المصور والذي هدف لعرض «أشخاص/ أفراد» وليس «شعب».

كتاب أحزان دارفور: تاريخ الدمار والتصفية العرقية

لمؤلفه : مارتن دالي. دار نشر جامعة كمبردج. نيويورك ٢٠٠٧م

عرض : جاك ديفيز

تقديم: نشر جاك ديفيز عرضا مختصرا لكتاب صدر حديثا عن دارفور وذلك في المجلة البريطانية «دراسات سودانية» في العدد السادس والثلاثين الصادر في عام ٢٠٠٧م، ص ٥٤ -٥٥. ويعجب المرء من السيل المنهمر من الكتب الإنجليزية عن دارفور تاريخها ومحنتها والتي صدرت في السنوات القليلة الماضية، وغالب أبنائها من الكتاب المتخصصين المثقفين «في شغل فاكهون»!

غطى مارتن دالي في كتابه تاريخ دارفور من القرن الثامن عشر إلى عام ٢٠٠٦م، وأوضح بجلاء الوضع الفريد لهذا الجزء من السودان بحدوده الحالية خلال تلك الفترة. أشار المؤلف إلى أن دارفور ظلت دوما في حالة صراع ونزاع مع المناطق الواقعة في وادي النيل. ففي القرن الثامن عشر احتدم التنافس والصراع بين سلطنة دارفور وسنار، وكانت كردفان هي ساحة ذلك الصراع. شرح دالي كيف أن ذلك الصراع – منذ الاستقلال- قد غدا عاملا هاما في تصاعد الأحداث فيها حتى انتهى الأمر إلى حالة «الدمار والتصفية العرقية» في القرن الحادي والعشرين.

ظلت دارفور خلال القرنين التاسع عشر والعشرين إقليميا هامشيا (مهمشا؟) خلال عهدي الحكم التركي والثنائي. لم تضم دارفور للسودان الإنجليزي المصري إلا في عام ١٩١٦م عندما اتهمت السلطات البريطانية في الخرطوم السلطان على دينار بالتعاطف مع تركيا. وفي واقع الأمر فإن دار مساليت لم تنضم فعليا للسودان حتى مطلع عشرينات القرن الماضي. كان وضع دارفور في أفريقيا وضعا شاذا إذ إنها كانت تقع بين المستعمرات الفرنسية إلى الغرب والمصالح البريطانية إلى الشرق. كانت القوى الاستعمارية في حيرة من أمرها حيال ما تفعله بدارفور. لذا فلقد بقيت دارفور إقليما طرفيا سودانيا «مهمشا» عدته سلطات الحكم الثنائي بمثابة الإقليم المستقل، وأولت جل اهتمامها لمناطق وادي النيل. تفصل رمال صحراء واسعة دارفور عن مناطق وادي النيل، ولا يربطها به إلا طريق وعر بين الفاشر والأبيض. وعندما نال السودان

استقلاله، وبناء على معطيات كثيرة، وضح أن دارفور كانت تحظى بخدمات عامة أقل من مثيلاتها في جنوب البلاد. لم يتم ربط دارفور بخط للسكة الحديد من الأبيض إلا بعد عام ١٩٥٩م، بينما كان المواصلات إلى الجنوب تنتظم عن طريق البواخر وطرق برية لا بأس بحالتها.

شرح دالي في كتابه كيف أن دارفور ظلت منذ الاستقلال منطقة مقفولة ومضمونة سياسيا لحزب الأمة، لذا فإن اهتمام الأحزاب السياسية الأخرى بها ظل محدودا جدا. وبينما قامت مشاريع تنموية عديدة في منطقة وادي النيل وإلى الشرق أيضا فإن دارفور لم تحظ بكثير اهتمام لتطوير إمكاناتها. خلف هذا الوضع قدرا كبيرا من المرارة في نفوس أهل دارفور تفجر أخيرا في ما يشهده الإقليم من أحداث.

وبالإضافة لذلك فإن أهل دارفور يدينون بالإسلام ولكنهم عرقيا يعدون 'أفارقة' وليسوا 'عربا'، وفي وادي النيل يعد الناس أهل مناطق تلك البلاد الغربية أقرب للجنوبيين، مع كل ما سببه ذلك الشعور من أحداث منذ نيل البلاد لاستقلالها.

أبدي المؤلف معرفة وثيقة بالأحداث التي توالت في الإقليم والتي أدت لوضع 'الدمار' الحالي. وضع المؤلف قائمة (كتالوج) بما قامت به الحكومة وأرخ لنشأة الحركات المسلحة وتسليح القبائل ومساعدتها لما عرف بـ«الجنجويد». وصف المؤلف باستفاضة انهيار السلطة المركزية في الإقليم وكيف أن تدخل الحكومة في شئون الدول المجاورة، وتدخلات تشاد وليبيا في شؤون الإقليم قد تضافرت كلها لزعزعة الأمن والاستقرار. قام المؤلف بسرد كل التطورات السياسية التي صاحبت مشكلة دارفور في الأمم المتحدة وغيرها مثل أبوجا وعن محاولات الحكومة والحركات المسلحة التخلي عن الالتزامات التي قطعوها على أنفسهم في تلك المفاوضات.

يأتي هذا الكتاب في وقته تماما، وهو كتاب رصين موثق قام فيه المؤلف فيه ببحث دقيق ومفصل. أبدى المؤلف قدرة فائقة على كتابة نصوص متناسقة سهلة القراءة والاستيعاب اعتمد فيها على كم هائل من المواد والوثائق غير المنشورة والمحفوظة في بريطانيا ومصر والسودان. سيغدو هذا الكتاب هو المرجع الأساسي لتاريخ دارفور خلال القرون الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين، ولأحداث كثيرة وقعت في السودان في تلك الحقبة.



عرض كتاب: « هياج عظيم في السودان: حسن الترابي والدولة الإسلامية. ١٩٨٩ – ٢٠٠٣م»

Sudan in Turmoil: Hassan al-Turabi and the Islamic State

بيتر وود وارد

تقديم: قام بروفيسور بيتر وود وارد (بروفيسور العلوم السياسية بجامعة ريدنق، والمتخصص في الشؤون السودانية، والذي عمل في السودان بين عامي١٩٦٦ – ١٩٦٧م كمدرس للغة الإنجليزية بمدرسة كوستي الثانوية، ثم محاضرا بجامعة الخرطوم حتى عام ١٩٧١م) بعرض لكتاب « هياج عظيم في السودان: حسن الترابي والدولة الإسلامية. ١٩٨٩ – ٢٠٠٣م» لمؤلفيه ج ميلارد بيير وروبرت او كولنز، والذي نشرته هذا العام (٢٠١٠م) دار ماركوس فينير بوبس في بيرستون بالولايات المتحدة الأميركية. نشر هذا العرض (والذي نترجمه بتصرف) في العدد الثاني والأربعين من المجلة البريطانية «دراسات السودان» والتي صدرت في يوليو ٢٠١٠م.

عندما حان أوان تقاعد رويرت (بوب) كولنز رسميا من عمله كبروفيسور في جامعة سانت بار برا بكالفورينا، حكى لي أنه «لا ينتوي أن يقضي وقته في جز العشب». وبالفعل، لم يقم بوب بقطع العشب في ما أقبل من سنوات، ولم يدع العشب ينمو تحت قدميه، بل مضى يبحث ويكتب ويدرس حتى أيامه الأخيرة. شاركه في تأليف هذا الكتاب مساعده الوفي ج ميلارد بير، والذي اشترك معه من قبل في عدد من المهام البحثية، وعمل في عدد من مشاريع الإغاثة في السودان. يعتبر هذا الكتاب متابعة لكتاب ضخم سابق للمؤلفين عن الترابي، هو كتاب «السودان الثوري» والذي صدر في عام ٢٠٠٣م عن دار بيرل بهولندا. والكتاب الحالي نسخة مصغرة ذات غلاف ورقي من ذلك الكتاب الضخم، مما يجعله في متناول عدد أكبر من القراء، وبه – بالإضافة لذلك – فصل جديد يتناول اتفاق السلام الشامل والذي تم التوقيع عليه في عام ٢٠٠٥م.

دأب الترابي ومنذ بداية ١٩٨٩م لتتويج سعيه القديم الذي بدأه بإنشاء حزب «الإخوان المسلمين» و«الجبهة الإسلامية القومية». لم تكن للجبهة الإسلامية القومية شعبية واسعة، إذ لم تحرز نصرا سياسيا كبيراً في آخر انتخابات في عهد الديمقراطية عام

١٩٨٦م، قبل الانقلاب الإسلاموي في ١٩٨٩م. كان نجاح خطته الإستراتيجية في تولي أمر الدولة بانقلاب ناجح هو مصدر عجب كبير. وبنظرة إلى ما جرى في السنوات السابقة، نجد أن تخطيط الجبهة لذلك الانقلاب كان قد بدأ مع بداية عملية المصالحة الوطنية في عام ١٩٧٧م، بيد أن ذلك التخطيط العريض والمحكم مر دون ملاحظة أو مراقبة. لقد خلق ذلك التخطيط دولة سرية داخل الدولة خلال سنوات الثمانينيات، وبلغ من السرية قدرا عظيما نجح معه في خداع حتى الحكومة المصرية، والتي سارعت بالاعتراف مبكرا بالنظام الجديد، ثم عادت فندمت على فعلتها بعد أن استبانت لها حقيقة ذلك النظام. يجب أن أسجل هنا أن هنالك من المسؤولين المصريين ممن لم يخدعوا بطبيعة النظام الجديد في السودان. اتصل بي وزير مصري سابق صباح يوم الانقلاب محذرا. ظللت ممنوعا من الدخول للسودان طوال سنوات حكم الترابي باعتباري «خطرا على النظام الإسلامي».

ظل التاريخ الذي يرويه بوب دوما منصبا على البحث التاريخي الرصين المكتوب بقوة وجزالة تجعل نصوصه وحوادثه تمر أمام أنظار القراء حية تسعى، ولم يكن من النوع الذي يركز على الأفكار السياسية والأيدلوجية. لم يشذ بوب عن هذه القاعدة في كتابه الجديد.

يستعرض الكتاب في فصليه الأول والثاني ما قام به النظام من محاولات (ناجحة) لتثبيت أقدامه في الداخل والخارج. شملت الإجراءات الداخلية الأمن، وقمع أكبر عدد ممكن من المعارضين المحتملين، وبناء قوة للدفاع الشعبي. تلك كانت هي بداية عهد من القمع السياسي لم تشهد البلاد مثيلا له منذ استقلالها. خارجيا بدأ النظام في إقامة علاقات مع أنظمة مريبة وجماعات مشبوهة وشخصيات مطلوبة أمنيا (على الأقل من وجهة النظر الغربية) من نوع أسامة بن لادن وكارلوس الثعلب.

بدأت ملامح المشروع الإسلامي في الظهور تحت تأثير الترابي القوي في سنوات التسعينات. ولقد خصص الكتاب معظم صفحاته لرصد دور الترابي في صنع أحداث تلك الفترة. على المستوى الداخلي كان إصدار دستور إسلامي جديد، والمحاولة المفرطة الطموح لإعادة تشكيل فكر الناس وأسلمة الحياة في كل المناحي هو أحد ركائز وإنجازات ذلك العهد. كانت عملية «أسلمة الاقتصاد» بوجه خاص، ومحاولة سحق الحركة الشعبية في الجنوب من أهم معالم تلك الفترة. على المستوى العالمي برز الترابي كسفير متجول للحركة الإسلامية العالمية، يخطب أمام مجلس العموم بلندن والكونجرس بواشنطن معلنا عن نهاية«الدولة القطرية». وسعى الرجل في جعل الخرطوم عاصمة للعالم الإسلامي الراديكالي المتطرف، وعين كأمين عام للمؤتمر

الإسلامي العربي. كان المصدر الأساس لكل ما ذكرنا الثقة المفرطة للرجل في نفسه، وإيمانه بأن نظرته الكلية للإسلام ومستقبله تبرر كل وسيلة.

نلمح في ما يلي من فصول الكتاب بداية النهاية. يزعم كثير من الناس أن نهاية عهد الرجل بدأت مع محاولة اغتيال الرئيس حسني مبارك في أديس أبابا في عام ١٩٩٥م. انتقل السودان من بعد تلك الحادثة من حالة كونه معزولا إلى حالة كونه مهددا لجيرانه الذين يرون (ومن خلفهم الولايات المتحدة) في توجهاته الإسلامية «المتطرفة» خطرا عليهم، فزادوا من دعمهم للحركة الشعبية. في ذات الوقت ظهر عنصر إغراء جديد لكثير من رجال النظام هو المال، فلقد زادت الثروة بعد موافقة الصين في الدخول في عمليات استخراج البترول (بعد إبعاد الشركات الغربية عنها). بدأ البترول السوداني في التدفق في عام ١٩٩٩م، وفي ذات العام بدأ الترابي في تحدي البشير من موقعه الجديد كرئيس للبرلمان، وما لبث بعدها أن وجد نفسه معزولا ثم سجينا من بعد ذلك (ظل الترابي في حالة دائمة من الدخول والخروج من السجن لعقود، وقال لي ذات مرة إنه لا يجد فرصة للقراءة إلا حين يجد نفسه سجينا!).

يعتقد المؤلفان أن هذه هي نهاية الترابي بالفعل. بيد أني أرى أن هذه ليست نتيجة محسومة بعد. عندما يخرج الترابي من السجن سرعان ما ينغمس في السياسة، بل إنه قاد حزبه (المؤتمر الشعبي) في انتخابات عام ٢٠١٠م.

تشير كل الدلائل إلى أن الجنوبيين سيصوتون لصالح الانفصال في يناير ٢٠١١م، ولاشك أن كثيرا من المؤرخين سيشيرون في المستقبل للترابي كأحد الذين ساهموا في تقسيم السودان بحدوده المعروفة منذ ١٩٥٦م (بل قبل ذلك. المترجم). سيفتح ذلك أيضا الباب لما يعرف اليوم بالسودان الشمالي، ويؤكد عقيدة المؤتمر الشعبي الإيديلوجية القائمة على الطبيعة الإسلامية للبلاد. إن حدث هذا فسيصبح الترابي بلا منافس في الحركة الإسلامية، وقد يعود أقوى مما كان عليه في عام ١٩٩٠م. بيد أن كل ذلك سيكون على النطاق المحلي، ولن يتعداه للعالم الخارجي كما كان عليه الحال في تسعينات القرن الماضي.

يختم الكتاب بكلمة رثاء في ذكرى بوب كولنز بقلم واحد من طلابه العددين هو د/ أحمد سكينجا، والذي غدا أكاديميا مستقلا نابها. لا ريب أن هنالك عددا كبيرا من الطلاب ممن نهلوا من علم ودراسات وفكر بوب. سيذكره الكثيرون ممن عرفوه جيدا، وسيذكره كذلك كل من استفادوا من كتبه دون أن يحظوا بتلك المعرفة.



مظاهرة (دموية) في سنار

بول آدمز

تقديم: هذا مقال صغير آخر لأستاذ إنجليزي كان يعمل مدرسا للغة الإنجليزية في مدرسة سنار للبنين في عام ١٩٨٧م. نشر المقال في المجلة البريطانية «دراسات سودانية» في العدد العاشر الصادر في عام ١٩٩١م. كما في مقال سابق سجل فيه الأستاذ شيئا عن زيارة والده له في سنار، ها هو يكتب مرة أخرى بعين«أجنبي» يحاول أن يسمع ويحلل ويفهم ما يجري حوله من أحداث جرت ذات يوم في عام ١٩٨٧م، وطواها النسيان فيما يبدو، فذاكرتنا يميزها – على وجه العموم- قصر شديد وانتقائية مفرطة.

لعل بعضا من طلاب تلك المدرسة في ذلك الزمن (البعيد) يكتب في المستقبل عن ذلك اليوم المشهود، ويزيل جانبا من الغموض الذي اكتنفه.

بدأ ذلك اليوم بدايته المعتادة التي لم تتغير أبدا على مر الأيام. كان الجو شديد الحرارة، والكهرباء مقطوعة، وطفيل «الجارديا» يعيث فسادا في أمعائي. لكن عند دخولي لباب المدرسة (مدرسة سنار الثانوية) تبينت أنه ما من شيء عادي في ذلك اليوم. كان أول ما شد انتباهي هو وجود أعداد من الطلاب خارج أسوار المدرسة يقفون متلاصقين. الشيء الثاني الذي لاحظته هو زخات من الحجارة والطوب المكسر والحصى تتطاير فوق رأسي مصوبة نحو مبنى المدرسة ترجمها رجما . سرعان ما استحال عجبي وتعجبي مما يحدث إلى قلق، فأسرعت الخطا نحو مكتب مدرسي قسم اللغة الإنجليزية.

بعد أن فرغنا من طقس التحيات المعتادة، سألت الأستاذ عثمان رئيس القسم عما يجري. أجابني بأنه لا يدري، وأن علينا أن ننتظر لنرى ماذا سيحدث. توجه الطلاب المتظاهرون بعيدا من المدرسة نحو وسط السوق، بينما ذهب أحد أساتذتنا لتناول كوب من الشاي. بدا لي أن الطلاب قد دخلوا في إضراب عن الدراسة، وسمعت أن شكواهم الرئيسة كانت من رداءة نوع الخبز الذي كان يقدم لهم في داخلية المدرسة. دخل علينا نائب ناظر (مدير) المدرسة وهو يحمل في كفه رغيفا من ذلك الخبز الذي احتج عليه الطلاب ليرينا سبب المشكلة. قال وهو يقلب قطعة الخبز تلك: «في

الظاهر أن الأمر يتعلق بالرغيف، بيد أن هناك السياسة هي حقيقة سب سياسي يقف وراء مظاهرة الطلاب». كان الجميع يوقن بأن الحق هو ما نطق به ذلك الرجل؛ حيث كان الرغيف الذي يحتج عليه الطلاب هو ذات الرغيف الذي يأكله يوميا كل مدرسي المدرسة وكل فرد آخر من سكان سنار.

بالطبع تم إلغاء الدراسة في ذلك اليوم، فقررت أن أذهب للسوق لشراء بعض المستلزمات اليومية في رفقة مدرسَ الفنون. شاهدنا من على البعد، ونحن نقترب من منطقة وسط السوق، سحبا من الدخان الكثيف تنطلق نحو السماء. كان ذلك إنذارا كافيا لنا للتنبؤ بما يمكن أن يحدث هنالك، بيد أننا لم نقدر حجم ما كان يحدث بالضبط. مع اقترابنا من السوق تيقنا من أن هنالك شغبا عارما يلف كامل المنطقة. كانت ألسنة اللهب تلتهم المباني، والسيارات تشتعل، والدخان يتصاعد من كل مكان. كما كان هنالك عدد من الطلاب في حالة هياج عظيم يحملون هراوات ضخمة يحطمون بها كل ما يجدونه أمامهم، ويقذفون بما تقع عليه أيديهم في كل اتجاه. نهبت المتاجر والأكشاك، وتم اكتشاف أن علب صلصة الطماطم يمكن أن تكون مقذوفات شديدة الفعالية والدقة. مر من أمامنا أطفال صغار وهم يحملون فوق رؤوسهم، أو في «عبهم» ما تيسر لهم من بضائع منهوبة . وجاء من وسط السوق واحد من طلاب مدرستنا يجري، وأخبرنا وهو يلهث أن قوات الجيش تصدت بعنف لمسيرتهم قبل وصولها للسوق، وأطلقت نيرانها عليهم فأصابت أحد الطلاب في مقتل. عندها تبين لنا أن من الحكمة أن نغير وجهتنا وأن نقفل راجعين لبيوتنا.

لم أستطع أن أعرف على وجه الدقة ماذا حدث بالضبط أو لماذا حدث؟ لقد تأكد مقتل عدد من الناس في ذلك اليوم. فمن المؤكد أن أحد الطلاب قد قتل برصاص القوات النظامية، بينما لقي أحد أفراد الشرطة حتفه ضربا وركلا بأيدي وأرجل المحتجين، وقتل تاجر بطلق ناري أحد الذين حاولوا نهب محله التجاري. قامت الصحافة المحلية بتغطية تلك الأحداث، وزارني في داري مساء ذلك اليوم طالب من مدرستنا ليريني دماء أحد زملائه، والتي سالت على حذائه. ولكن ما حقيقة تلك المظاهرة؟ بالتأكيد شارك الطلاب في تلك المظاهرة، بيد أنهم لم يشاركوا فيها بسبب رداءة الخبز. بدا واضحا أن الإضراب في مدرسة سنار أصبح مناسبة (أو طقسا) سنويا،يقوم فيها الطلاب بإجبار ناظر (مدير) المدرسة على قفل المدرسة وإعلان عطلة. تبينت من حديثي مع كثير من الطلاب أنهم يكرهون طول فترة الفصل الدراسي (والذي يتطاول لاثنى عشر أسبوعا)، ويؤلمهم بعدهم عن أهلهم وذويهم، وبقاؤهم محشورين في تلك الداخلية الضيقة. قلة قليلة فقط من أولئك الطلاب كانت

تأبه لما قد يترتب عليه قفل المدرسة وتعطيل الدراسة من آثار.

كان هنالك في المدينة من يرى أن الأمر كله تدبير «خارجي»، ويلقي باللوم على بعض العقائديين من «الحزب الشيوعي» و/ أو «الإخوان المسلمين». ذكرت صحيفة محلية تصدر باللغة الإنجليزية أن من أسباب الاضطرابات والمظاهرات الرئيسة هي النقص في المواد (التموينية)، وتصاعد معدلات التضخم، والتردي الاقتصادي العام في البلاد. وضحت تلك الصحيفة دور التجار في «إشعال» نار أسعار السلع الأساسية، وخلقهم لسوق سوداء، وشح مفتعل، وتجاهل تام للأسعار التي تحددها الحكومة. قد يكون (أو لا يكون) للغضب والحنق بسبب ارتفاع الأسعار دور في اضطرام نار المظاهرات. المؤكد أن بعض الناس، عندما تتيح لهم المظاهرات والاضطرابات فرصة لاستغلال الوضع ونهب المحلات ، لن يتوانوا عن اهتبال تلك الفرصة وسرقة ما يتيسر لهم. ماذا كان دور الجيش والشرطة في ما جرى؟ يؤكد البعض أن تلك القوات هي التي استفزت الجماهير الغاضبة بتباطئها– المتعمد – عن القيام بدورها. لن نعرف دور تلك القوات على وجه اليقين أبدا. من ما سمعته من حديثي مع كثير من الناس أن الجيش كانت له مصلحة في غض الطرف عن ما يحدث من اضطراب وفوضى حتى يثبت للناس أن الحكم الديمقراطي عاجز عن نشر الأمن والنظام، وأن الجيش وحده ، والجيش وحده، هو القادر على ذلك.

ظلت (وربما ستظل) الحقائق والدوافع والأسباب لمظاهرة ذلك اليوم في سنار غير واضحة الأسباب . قد يكون لكل ما سمعته من السكان من أحاديث متفرقة (ومتناقضة) نصيب من الحقيقة. لكن الحقيقة الوحيدة المؤكدة، وهي أن الطلاب حصلوا على ما يبتغون...و«قفلت المدرسة لحين إشعار آخر».



النميري في مذكرات «المحارب» أريل شارون

تقديم: نشر رئيس وزراء إسرائيل الأسبق أريل شارون (بالاشتراك مع الكاتب ديفيد شانوف) مذكراته في كتاب بعنوان «المحارب» صدر في عام ١٩٨٩م عن دار توطش أستون الأميركية.

في هذا الجزء من المذكرات يكتب أريل شارون عن حضوره – مع آخرين – لجنازة الرئيس المصري السابق أنور السادات ووجوده – بالصدفة- بجانب الرئيس الأسبق جعفر النميري

ثم عن لقائه به في كينيا.

كما هو الحال مع كل المذكرات التي يسطرها السياسيون، فإنه يصعب التحقق والتأكد من صحة المعلومات الواردة في هذا الجزء من مذكرات شارون لأنها لم تعضد أو تنفى من قبل النميري، رغم أن كل الدلائل تشير إلى أنه يمكن للنميري أن «يفعلها» أو «يديرها» كما يقول الليبيون! كما أنه ينبغي تذكر أن ذات الواقعة يمكن أن تروى بأكثر من طريق وبدوافع متباينة وأهداف مختلفة. وبما أن الشيء بالشيء يذكر لا بد من الإشارة إلى أنه من المؤلم أن لا نقرأ لسياسينا (إلا ما ندر) مذكرات تصف وقائع حياتهم وتاريخهم السياسي وآراءهم في مجريات أحداث عصرهم، وحتى تلك المذكرات القليلة المنشورة فهي – في الغالب- تفتقر للذكاء والصراحة والتشويق، وغالبا ما تروى على طريقة: قام ...سافر... تاه!

ذكر لي أكاديمي مرموق وسياسي مشهور بأنه يفكر جديا في هجر وظيفته و«امتهان» حرفة «كاتب مذكرات» لواحد أو أكثر من السياسيين القدامى أصحاب البصمة والتأثير في تاريخ السودان. وهذا – إن حدث- سوف يشرع بابا واسعا للسياسيين الذين يرغبون في تسجيل مذكراتهم بيد أن الكتابة (وربما القراءة) لم تك يوما من نقاط قوتهم!

نتمنى أن يأتي يوم – قبل أن نحمل على «آلة حدباء» أو «عربة موتي سوداء كبيرة»- أن نرى مذكرات الرئيس الأسبق النميري (ومعاونيه) تنشر حتى يمكن لمن سيرد ذكرهم في تلك المذكرات المفترضة الرد عليها، وأن تؤكد أو تنفي ما ذكره

شارون في مذكراته.

كان من اهتماماتي السياسية توثيق علاقات إسرائيل التقليدية «الجانبية» في أفريقيا. تتطلب ذلك تدبير للقاء سري مع الرئيس السوداني النميري في يوم ١٣ مايو ١٩٨٢م لمناقشة أمور إستراتيجية بالغة الأهمية. قام صديقي القديم وضابط الاستخبارات المتقاعد ورجل الأعمال العالمي ياكوف نمرودي بتنظيم ذلك الاجتماع. كان نميري يحلم بجعل التعاون الاقتصادي العالمي مدخلا للسلام والتعاون بين إسرائيل والعالم العربي. رأيت النميري أول مرة في سبتمبر بعد مصرع الرئيس السادات على أيدي المتطرفين الإسلاميين (يجب ملاحظة أن السادات كان قد اغتيل في السادس من أكتوبر ١٩٨١!؟ المترجم). تقاطر على القاهرة عدد من رؤساء وحكام الدول للاشتراك في جنازة ذلك الرجل الاستثنائي وكونت إسرائيل وفدا كبيرا ترأسه رئيس الوزراء مناحم بيجن للمشاركة في تلك الجنازة.

كانت مسيرة جثمان السادات طويلة وحزينة... حزينة حتى بالمعايير الإسرائيلية. وحتى لا نخالف تعاليم «يوم السبت» اليهودية، فلقد توجب علينا المشي لميلين أو ثلاثة من مقر سكننا إلى حيث موكب الجنازة حيث انضممنا إلى بقية الوفود الأجنبية التي كانت تسير خلف جثمان الرئيس الراحل إلى مرقده الأخير. ومع تحرك الموكب ومع اختلاف سرعة المشاة خلف الجثمان اختلطت الوفود بصورة لم تكن لتحدث في الظروف العادية. التفت للحظة لأري من بجانبي فإذا بي أسير بجنب النميري.رأيت وجه ذلك الرجل السوداني الصارم ورأيت «فصداته» القبلية الصغيرة على صدغيه والتي كانت تعطيه مظهرا يطفح بالقسوة.

وأنا الآن أطير للقاء النميري في أفريقيا أسائل نفسي: أي نوع من الرجال سألتقي؟ وماذا يخفي ذلك القناع القاسي على وجه الرجل؟

توقفت أولا على أرض كينيا حيث قابلت الرئيس الكيني دانيال أروب موي. وكانت كينيا (مثلها مثل غالب الدول الإفريقية) قد قطعت علاقاته السياسية مع إسرائيل في عام ١٩٧٣م، بيد أن كينيا حافظت على صلاتها بإسرائيل رغم ذلك. وبعد أن أنهيت محادثاتي مع الرئيس موي والتي شملت مصالحنا المشتركة ذهبت إلى مقر المباحثات المقررة مع الرئيس السوداني النميري. وجدت مع النميري الرجلين الذين قاما بترتيب لقائي معه، وهما ياكوف نمرودي ورجل الأعمال السعودي عدنان الخاشوقجي. كان أول انطباع لي عن النميري هو أنه رجل خفيض الصوت بالغ التهذيب، وكان ذلك مصدر استغرابي البالغ. ومع مرور الوقت تبين لي سعة معارف

ومعلومات الرجل ومعرفته الوثيقة بما يجري في هذا الجزء من العالم.

خلال المناقشات التي تشعبت في كل الاتجاهات، خاصة في مجال السياسة الأفريقية تحدث النميري عن الأحوال الراهنة في بلاده وعن الدول المجاورة لها. خص أثيوبيا بالحديث وهي الدولة التي تجاور بلاده شرقا وقد تبنت حكومتها الماركسية وتخوض حربا ضروسا متطاولة ضد ثوار إرتريا وتعتمد تماما على الاتحاد السوفيتي. تحدث كذلك عن تشاد جارته الغربية وعن مصاعبها الجمة وصراع رئيسها حسين هبري ضد العقيد معمر القذافي والذي يمده السوفيت بالسلاح والعتاد.

كان النميري (مثلي تماما) يؤمن بأن جهود ليبيا لزعزعة حكومة تشاد والاستيلاء على أراضيها هو جزء من مخطط سوفيتي لفرض السيطرة على وسط أفريقيا، من ليبيا إلى تشاد إلى جمهورية أفريقيا الوسطي (و التي نجح الليبيون في تثبيت أقدامهم فيها قبل شهور قليلة من لقائي مع النميري) إلى الكنغو برازافيل حيث يسيطر السوفيت على الأوضاع هناك.

كان النميري، والذي تجاور بلاده ليبيا وتشاد وأثيوبيا وأفريقيا الوسطي شديد الانزعاج من الأوضاع السائدة وعن مسيرة الأحداث في المنطقة، وقد عبر لي عن استعداد الجيش السوداني للتعامل مع مختلف الصعوبات والمشاكل التي قد تحدث.

كنا في الجانب الإسرائيلي نهتم بالنشاط الليبي في المنطقة، ولا غرو فإن ليبيا هي أشد الدول العربية عداء لإسرائيل. كان القذافي (وهو الذي يملك أموال البترول الضخمة، ويقيم علاقات قوية مع الاتحاد السوفيتي الذي يزوده بإمدادات كبيرة من السلاح) يمثل مصدر تهديد خطير (لنا) لمناصرته لقوى إرهابية عالمية ومحلية عديدة كان يقوم بتدريبها ومدها بالسلاح ووسائل النقل والحركة.

كان القذافي هو العدو المشترك الذي جمعني مع النميري في المقام الأول.

ناقشت مع النميري أمرا هاما وضعه مضيفنا عدنان الخاشوقي على أجندة اجتماعنا يتعلق بإيران. كان للخاشوقي علاقة وثيقة بابن شاه إيران والذي كان يقيم منفيا في المغرب ويخطط مع ثلة من الجنرالات الإيرانيين المتقاعدين للإطاحة بالنظام الحالي وتحرير بلاده. كانت الخطة - والتي كانت في بداياتها- تتضمن تجنيد قوات إيرانية حرة تقود ثورة داخل إيران ضد آية الله الخميني. كان الخاشوقي يطلب من النميري تدريب هذه القوات الإيرانية على الأراضي السودانية إذ إن السودان بعيد جغرافيا عن إيران ويمكن بسهولة إقامة قواعد للتدريب على أرضه دون أن يثير ذلك شكوك حكام

إيران. كانت الخطة تتطلب أيضا تمويلا (عربيا) وتسليحا إسرائيليا. استمعنا لشرح مفصل من الخاشوقي عن هذه الخطة وعن تفاصيلها الدقيقة، ثم اتفقنا جميعا على مواصلة الحوار حول الخطة في مدينة الإسكندرية في يوليو القادم، بيد أن ذلك الاجتماع المزمع لم يتم أبدا إذ أن إسرائيل انغمست في ذلك الوقت في حربها في لبنان.

ناقشت مع النميري في ذلك النهار أمرا على جانب هام من الأهمية لبلدينا إسرائيل والسودان. كانت حكومتنا تتابع وبألم شديد وعلى مدى أربعة أعوام ذلك الأمر والذي كان يحتل بالنسبة لي موضع الصدارة من حيث الأهمية مقارنة بكل ما جاء على أجندة اجتماعنا. كما هو معلوم تدفقت موجات كبيرة من مئات الآلاف من اللاجئين الإثيوبيين على شرق السودان كان من بينهم عدد من اليهود الإثيوبيين (الفلاشا). كان هؤلاء اليهود – حتى وسط أولئك اللاجئين البؤساء الجوعى- يعانون من الاضطهاد والعزلة بيد أنهم لم ينقطعوا عن الحلم بوطن آخر والأمل في حياة من نوع مختلف خارج أسوار معسكرات اللاجئين السودانية البائسة. كنا قد بدأنا منذ عام ١٩٧٧م في إخراجهم في تكتم وهدوء وبأعداد صغيرة إلى إسرائيل، وكان ذلك أمرا حساسا بالغ الصعوبة وعالي الخطورة في آن معا بالنظر إلى مشاعر العداء الحادة التي يكنها النظام الإثيوبي لإسرائيل وتحالفه مع السودان العربي المسلم. (ذكر شارون في موضع آخر من الكتاب أنه في الفترة من ١٩٨٧م إلى ١٩٨٤م تم بنجاح ترحيل أكثر من ثمانية ألف من الفلاشا إلى إسرائيل. المترجم).

تحدثت مع النميري حول موضوع الفلاشا وعن ضرورة تسهيل أمر ترحيلهم لإسرائيل وضمان أمنهم وعدم الإضرار بهم. سألته سؤالا مباشرا إن كان يسمح بترحيلهم بالطائرات من الخرطوم. كانت تلك هي المرة الأولى التي توجه فيها إسرائيل مثل ذلك الطلب المباشر وعلى ذلك المستوى. لم أكن أعرف ما سيجيب به النميري على طلبي المباشر، وزاد من تعقيد الموقف أنه في ذات اللحظات التي كنت أطلب فيها من النميري السماح لنا بترحيل الفلاشا من الخرطوم كانت تجري على الأرض فعليا عملية سرية لنقل أعداد كبيرة من الفلاشا لإسرائيل من السودان، ولم تفلح كل التحوطات المتقنة والتخطيط الدقيق في تغيير مواعيد تلك العملية السرية أو موعدي مع النميري. كان موقفي مع النميري سيكون بالغ التعقيد ومحرجا جدا إن حدث ما لم نكن نود له أن يحدث في تلك العملية السرية.

